الرواية الفائزة بجائزة الكتاب الكبير عام 2013

رواية

يفغيني فودولازكين

لاوروس

23.2.2019



ترجمة: د. تحسين رزاق عزيز

يفغيني فودولازكين

لاوروس

ترجمة : د. تحسين رزاق عزيز



لاوروس



Author: **Yevgeny Vodolazkin**

اسم المؤلف: يفغيني فودولازكين

Title: **Laurus**

عنوان الكتاب: لاوروس

Translated by: **Dr. Tahseen Razzaq Aziz**

ترجمة: د. تحسين رزاق عزيز

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al–Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2018**

الطبعة الأولى: 2018

The publication of the book was negotiated through Banke, Goumen & Smirnova Literary Agency (www.bgs-agency.com).

Translation of this publication and the creation of its layout were carried out with the financial support of the Federal Agency for Press and Mass Communication under the federal target program «Culture of Russia (2012 – 2018).»





للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

إلى تاتيانا

تمهيد

في أوقاتٍ مختلفة كان لديه أربعة أسماء. وتكمن في هذا فضيلة مميَّزة، لأنَّ حياة البشر غير متجانسة. ويحدث أحياناً أن تشترك أجزاء هذه الحياة بشيء مشترك ضئيل. ضئيل للغاية، بحيث قد يبدو، وكأنَّ هذه الحيوات قد عاشها أشخاصٌ مختلفون. لا يسع المرء في مثل هذه الحالات، إلا أن يندهش من كون كل هؤلاء الناس يحملون الاسم نفسه.

كان لديه أيضاً لقبان. أحدهما الروكيني – نسبة إلى بلدة روكينا، محل ولادته. لكن هذا الرجل كان معروفاً لأكثر الناس بلقب الطبيب، لأنه بالنسبة للمعاصرين له كان طبيباً في المقام الأول. إنه في الواقع، أكثر من مجرد طبيب، لأن ما فعله كان خارج حدود الإمكانيات الطبّية.

معروفٌ أنَّ كلمة حكيم استُعمِلَت وما تزال تُستعمل مرادفاً للمفردة طبيب، ولكلمة حكيم قرابة بالفعل حكى... مثل هذه القرابة تعني أن الكلمة أدَّت دوراً مهماً في عملية المعالجة. الكلمة – كما هي، وبمعانيها كلّها، وبسبب قلة الأدوية ومحدوديتها - كان لها دورٌ في العصور الوسطى أكثر أهمية مما هو عليه الآن. وكان ينبغي التحدث آنذاك كثيراً.

كان الأطباء يحكون. فمع معرفتهم لبعض العقاقير التي تعالج العِلَل، لكنهم لم يفوّتوا فرصة اللجوء إلى مخاطبة المرض مباشرة. وجعلوا يتحدَّثون مع المرض، قائلين عبارات إيقاعية لا معنى لها على ما يبدو، يحاولون بها إقناع المرض بمغادرة جسم المريض المُعالَج. كان الخط الفاصل بين الطبيب والمشعوذ في ذلك الوقت نسبياً.

والمرضى يحكون. فبسبب نقص معدّات التشخيص، كان عليهم أن يصفوا بالتفصيل كل ما حدث في أجسادهم العليلة. وحتى في بعض الأحيان بدا لهم أنه مع الكلمات المغـــمورة بالألم التي تخرج من أفواههم، يخرج منهم المرض شيئاً فشيئاً. إذ لم يُتح لهم أن يحكوا بالتفصيل عن أمراضهم إلا للأطباء، فجعل هذا الفعل يساعدهم على تحسن حالتهم الصحية.

وأقارب المرضى يحكون. فقد كانوا يؤكدون أقوال أقاربهم أو حتى يقومون بتعديل بعض الأشياء فيها، لأن ليس جميع الأمراض تسمح للمصابين بها أن يقدّموا تقريراً موثوقاً عن معاناتهم، إذ يمكن للأقارب أن يعبِّروا صراحةً عن خوفهم من أنَّ المرض غير قابل للشفاء، وأنْ يشكُوا (العصور الوسطى لم تكن زمناً عاطفياً) من صعوبة التعامل مع شخصٍ مريض. هذا جعلهم يشعرون بتحسُّن، أيضاً.

تكمن خصوصية صاحبنا المعني في أنّه كان يتحدَّث قليلاً جداً. لقد تذكَّر كلمات أرسيني العظيم: عدة مرات ندمت على الكلمات التي تلفَّظَتْ بها شفتاي، لكني لم أندم مرّةً على الصمت. في معظم الأحيان كان ينظر إلى المريض بصمت. فقد اقتصر كلامه على قول: سيظل جسدك يخدمك، أو: أصبح جسدك عديم الفائدة، استعدّ لتركه، اعلَمْ أنَّ هذه القشرة ناقصة.

صيتُه كان كبيراً. فقد شاع وملأت أصداؤه العالَمَ المسكون بالكامل. وأينما حلَّ يجتمع عليه حشدٌ كبيرٌ من الناس. كان يحيط الحاضرين بنظرة انتباه منه، فينتقل صمته إلى المتجمِّعين. ويتجمَّد الحشد في المكان. وبدلاً عن الكلمات، ما كانت تخرج من مئات من الأفواه الفاغرة سوى سحابة من البخار. فيشاهدها كيف تذوب في الهواء المصقِع. وكان يُسمَعُ تحت قدميه صوت قرقعة ثلوج يناير (كانون الثاني). أو خشخشة أوراق الشجر في سبتمبر (أيلول). الجميع كانوا ينتظرون المعجزة، وعرق الانتظار يسيل على وجوه الحاضرين. والقطرات المالحة تسقط

على الأرض برنين. فينشَقُّ الحشد ويفسح له المجال ليصل إلى الذي جاء من أجله.

كان يضع يده على جبهة المريض. أو يلمس بها الجرح. اعتقد الكثيرون أن لمسة يده تشفي. ولقبُه الروكيني، الذي ناله من نسبته إلى محلّ ولادته، اكتسب بهذا الشكل أساساً إضافياً[1]. ومع مرور الوقت تحسَّن فنُّه الطبِّي من سنة إلى أخرى، وفي منتصف العمر بلغ من السمو والرفعة حدّاً، على ما يبدو، لم يبلغه بشر.

قيل إنه يملك إكسير الخلود. وحتى من حين لآخر يقال عنه أنّ مَن وهَبَ الشفاء لا يمكن أنْ يموت، وغيرها من الأقاويل. ويستند هذا الرأي علي حقيقة مفادها أنّ جسده بعد الموت لم يتعفَّن ولم تظهر عليه آثار التحلُّل. فقد ظلَّت جثَّته تحتفظ بمظهرها السابق لعدة أيام وهي مطروحة في العراء. ثم اختفت كما لو كان صاحبها قد تعب من النوم. فنهض وغادر. ومع ذلك، فإنَّ مَنْ يظنُّون ذلك ينسون أنَّ شخصين فقط، منذ الخليقة، غادرا الأرض بجسديهما. إذ أخذ الرب إدريس لكي يفضح المسيح الدجال، وصعد إلياس إلى السماء في عربة النار. ولا تذكر الأساطير الطبيب الروسي.

استناداً إلى أحاديثه القليلة، فإنَّه لم ينوِ البقاء في جسدٍ إلى الأبد – وإنْ شغَلَه طوال حياته. وحتى أنَّ إكسير الخلود، أغلب الظن، لم يكن لديه. فمثل هذه الأشياء لا تتوافق، بطريقة ما، مع ما نعرفه عنه. وبعبارة أخرى، يمكننا أن نجزم بكل ثقة أنه ليس معَنا في الوقت الحاضر. ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه هو نفسه لم يفهم دائماً أي وقت ينبغي عدَّه وقتاً حاضراً.

1- اسم بلدة روكينا مشتق من كلمة روكا التي تعني باللغة الروسية يد، فيكون المعنى المجازي للقبه – صاحب اليد الشافية.

كتـــاب المعـرفـة

-أ-

ولد في بلدة روكينا، بالقرب من دير القدّيس كيريل. حدث هذا في 8 مايو (آيار)، عام 6948 من خلق العالم، 1440 من ميلاد سيدنا المسيح المخلِّص، في يوم ذكرى أرسيني العظيم. وبعد سبعة أيام، عُمِّد باسم أرسيني. وخلال هذه الأيام السبعة لم تأكل والدته اللحم لكي تُعِدَّ المولود الجديد لطقس تناول القربان المقدس. وحتى اليوم الأربعين بعد الولادة، لم تذهب إلى الكنيسة وكانت تنتظر تطهير جسدها. عندما طَهُرَ جسدها، ذهبت إلى قُدَّاس صلاة البكور. وبعد أنْ قبَّلت الأرض في مدخل الكنيسة وخَرَّتْ ساجدة، بقيت منطرحة لعدة ساعات وطلبت لطفلها شيئاً واحداً: الحياة. كان أرسيني طفلَها الثالث. أولئك الذين ولدتهم قبله ماتوا قبل أنْ يكملوا سنتهم الأولى.

نجا أرسيني من الموت. وفي 8 مايو 1441 احتفلت الأسرة في دير كيريل وبيلوزيرسكي بصلاة الشكر. وبعد أنْ لَثَموا الأيقونة بعد الصلاة إلى رفاة القدّيس كيريل، توجَّه أرسيني ووالداه إلى البيت، وبقي كريستوفر، جدّه، في الدير. فقد أكمل في اليوم التالي عقدَه السابع، وقرّر أنْ يسأل الشيخ العجوز نيكاندر كيف يكون حاله فيما بعد.

من حيث المبدأ، أجابه الشيخ، ليس لدي ما أقوله لك. ما عليك: عِشْ، يا صاحبي، وكنْ أقرب إلى المقبرة. أنت طويل وأخرق، سيكون من الصعب حملك إلى هناك. وعلى كل حال: عِشْ لوحدك.

هكذا قال له الشيخ نيكاندر.

-ب-

وانتقل كريستوفر إلى إحدى المقابر القريبة. فقد عثر على مسافة من بلدة روكينا، وبالقرب من سور المقبرة، على كوخ فارغ. لم ينجُ أصحابه من وباء الطاعون الأخير. كانت تلك سنوات فيها عدد البيوت أكثر من الناس. إذ لم يجرؤ أحدٌ على الانتقال إلى كوخ متين وفسيح، لكن ليس له وريث، ويعيش فيه، ولا سيما بالقرب من المقبرة المليئة بالأموات بسبب الطاعون. لكن كريستوفر قرَّر أنْ يسكن فيه.

قيل إنه حتى في ذلك الوقت كان يتخيَّل بوضوح مصير هذا المكان في المستقبل. وقيل إنه في ذلك الوقت كان يعلم عن بناء كنيسة مقبرة على مكان كوخه في عام 1495. وشُيِّدَت الكنيسة شكراً على الخروج السعيد لعام 1492، سبعة آلاف من الخليقة. وعلى الرغم من أنّ نهاية العالم المتوقعة لم تحدث في ذلك العام، إلّا أنَّ سَمِيَّ كريستوفر ذاته، قد اكتشف أمريكا بشكلٍ غير متوقَّع لنفسه ولغيره (آنذاك لم يلتفت أحدٌ إلى هذا الأمر).

في عام 1609 دمر البولنديون الكنيسة. وأُهمِلَت المقبرة وأصابها الخراب، ونمت في مكانها غابة من أشجار الصنوبر. وصارت الأشباح من حين إلى آخر تتحدَّث مع جامعي الفطر. وفي عام 1817، تملَّك التاجر كوزلوف الغابة من أجل تصنيع الألواح. وبعد ذلك بعامين، بُنِيَ مستشفى للفقراء في المكان الذي جرى قطع الأشجار فيه. وبعد مضي مائة عام بالضبط، انتقل فرع لجنة أمن الدولة في القضاء للسكن في

مبنى المستشفى. وقد أقام الفرع، وفقاً للغرض الأصلي لهذه القطعة من الأرض، مقبرةً جماعية عليها. وفي عام 1942، ضرب الطيار الألماني هاينريش فون أينزيلد المبنى بضربة قوية وأزاله من على وجه الأرض. وفي عام 1947، جرى تحويل الموقع إلى ميدان رمي عسكري وانتقلت ملكيته إلى لواء كليمنت يفيموفيتش فوروشيلوف للدبَّابات السابع في الجيش الأحمر. ومنذ عام 1991 صارت الأرض تتبع إلى مصلحة البستنة «الليالي البيضاء». حيث يجمع أعضاء مصلحة البستنة، إلى جانب البطاطا، عدداً كبيراً من العظام والقذائف، لكنهم لا يسارعون إلى تقديم شكوى إلى البلدية الريفية. فهم يعرفون أنهم لن يُعطَوا أيَّ أرضٍ أخرى على أي حال.

فيقولون إنَّ على هذه الأرض ينبغي علينا أنْ نعيش.

أشارت هذه الرؤية المفصَّلة لكريستوفر، أنه في وقته ستبقى الأرض سليمة، والبيت الذي اختاره سيبقى سليماً لمدة أربعة وخمسين عاماً. وقد أدرك كريستوفر أنه بالنسبة لدولةٍ ذاتِ تاريخٍ مضطرب، أربع وخمسون سنة – ليست بالقليل.

إنه منزل ذو خمسة جدران: بالإضافة إلى الجدران الخارجية الأربعة في الهيكل، ثمة جدار داخلي خامس. الهيكل مفصول، يتألف من غرفتين – دافئة (ذات موقد) وباردة.

بعد أن دخل كريستوفر المنزل، تفحَّصه لمعرفة ما إذا كانت هناك أيُّ شقوق بين الجذوع، ومن جديد سدَّ فتحات النوافذ بمثانة ثور. وأخذ حبوب الزيتون وتوت العرعر مختلطة مع رقائق العرعر والبخور. وأضاف إليها أوراق البلوط وأوراق السَّذّاب، وهرسها هرساً ناعماً ووضعها على الجمر، وتركها طوال اليوم تدخّن لتبخير المكان.

عرف كريستوفر أنَّ عدوى الطاعون بمرور الوقت تخرج من الأكواخ لحالها، لكن هذا التدبير الاحترازي لا يعتبره زائداً عن الحاجة. فقد كان يخشى على ذويه الذين، ربما، يزورونه. ويخشى على جميع الذين

عالجهم، لأنهم كانوا يزورونه باستمرار. كان كريستوفر عشّاباً، فيجيء إليه أشخاص مختلفون.

كان يأتيه الناس الذين يعانون من السعال. فيعطيهم القمح المسحوق بدقيق الشعير، بعد أن يخلطه مع العسل. وفي بعض الأحيان يخلطه بالحنطة القاسية (العَلَس) المغلية، لأن الحنطة القاسية تسحب الرطوبة من الرئتين. واعتماداً على نوع السعال، يمكن أن يعطي حساء الحمّص أو ماء اللفت المسلوق. يميز كريستوفر نوع السعال حسب الصوت. فإذا كان السعال غير واضح ولم يستطع تحديد نوعه، يضغط كريستوفر بأذنه على صدر المريض ويستمع طويلاً إلى تنفّسه.

ويأتونه لاستئصال الثآليل. وللقضاء عليها كان كريستوفر يأمرهم أن يلصقوا على الثآليل البصل المسحوق مع الملح. أو دهنها بذرق العصافير، وفركها باللعاب. ومع ذلك، يبدو أن أفضل علاج لها بذور زهور القنطريون العنبري المسحوقة، التي ينبغي رشّها على الثآليل. فبذور زهرة القنطريون تسحب من الثآليل الجذور، ولن تعود تنمو في ذلك المكان.

ساعد كريستوفر في قضايا الفراش أيضاً. وكان على الفور يحدد القادمين من أجل هذا الأمر – من خلال طريقة دخولهم وتردُّدهم عند عتبة الباب. وكانت نظرتهم المأساوية المشوبة بالذنب تُضحِك كريستوفر، لكنه لم يُبدِ ذلك لهم. فمن دون مقدمات طويلة كان العشَّاب يدعوا الضيوف ليخلعوا سروالهم، فيذعن الضيوف لأمره بصمت. وفي بعض الأحيان يرسلهم ليغتسلوا في الغرفة المجاورة، ويطلب منهم أن يولوا اهتماماً خاصاً بنظافة القلفة. فقد كان مقتنعاً أنَّ قواعد النظافة الشخصية ينبغي اتباعها حتى في العصور الوسطى. وكان يستمع بانفعال إلى الماء كيف ينسكب بين حين وآخر من المغرفة في البرميل الخشبي.

وهكذا كتب بضجر عن هذا عبارةً على قطعة من لحاء شجر البتولا: كيف تسمح النساء لمثل هؤلاء بملامستهنَّ؟ إنه لكابوس حقاً.

إذا لم يكن في العضو الذكري ضرر واضح، يسأل كريستوفر عن المشكلة بالتفصيل. ولم يخشَ المراجعون من إخباره، لأنهم كانوا يعلمون أنه ليس ثرثاراً ولن يكشف سرَّهم. وفي حالة عدم وجود الانتصاب، يقترح كريستوفر أن يضيفوا للطعام اليانسون واللوز باهظَي الثمن أو شراب النعناع الرخيص، التي تضاعف المني وتحرك أفكار الفراش. ويُنسَبُ مثل هذا الفعل إلى عشبة ذات اسم غير عادي هو **شحمة الغراب**، وكذلك إلى القمح العادي. أخيراً، ثمة عشبة اللّاس ذات الجذرَين - الأبيض والأسود. من الجذر الأبيض يحدث الانتصاب، ومن الجذر الأسود يهبط. ويكمن عيب هذا العقار في أن الجذر الأبيض يجب أن يبقى في الفم في لحظة النشوة. ولم يكن الجميع على استعداد للقيام بذلك.

وإذا لم يعمل هذا كله على زيادة المني ولم يحرِّك أفكار الفراش، ينتقل العشّاب من عالَم النبات إلى عالَم الحيوان. فيوصي الفاقد للقدرة الجنسية بأنَّ يأكل بطَّة أو كلاوي الديك. وفي الحالات الحرجة، يأمر كريستوفر بالحصول على خُصى الثعلب، وهرسها في هاون وشربها مع النبيذ. أولئك الذين لا يستطيعون القيام بهذا العمل، كان ينصحهم بتناول بيض الدجاج وأن يقضموا معه البصل واللفت.

لم يكن كريستوفر يؤمن بالأعشاب، بل كان يعتقد أنه من خلال أيّ عشبة، تأتي مساعدة الله في قضية معينة. مثلما تجري هذه المساعدة من خلال الناس. فالأعشاب والناس كلاهما مجرّد أدوات. لم يفكر بالسبب الذي يجعل كل عشبة من الأعشاب المألوفة ترتبط بصفات معينة بدقّة، معتبراً أنَّ هذا سؤال عقيم لا فائدة ترجى منه. وكريستوفر يُدرِكُ حقيقة مَن أقام هذه الرابطة، وكان يكفيه أن يعرفها فحسب.

لم تقتصر مساعدة كريستوفر لذويه على الطب. فقد كان مقتنعاً بأن التأثير الخفي للأعشاب يمتد إلى جميع مجالات الحياة البشرية. وكان كريستوفر يعلم أن عشبة التفاف الجاسئ (الحوى) ذات الجذر الفاتح

اللون، مثل الشمع، تجلب الحظ السعيد. وكان يعطيها للتجار لكي يُستَقبَلوا، حيثما ذهبوا، باحترام ويكتسبوا شهرة عظيمة.

وحذَّرهم كريستوفر أنْ لا يفخروا أكثر من اللازم. فما الفخر إلا أصل كل خطيئة.

ولم يعطِ عشبة الحوى (التفاف الجاسئ) إلا لأولئك الذين كان متأكِّداً منهم تماماً.

أكثر عشبة كان كريستوفر يحبّها عشبة حمراء بطول الإبرة تسمَّى مُقلتَي الملك. احتفظ بها دائماً في المنزل. فقد عرف أنه عندما يبدأ أي عمل، يُستَحسَن له أن تكون في عبِّه. على سبيل المثال يأخذها معه إلى المحكمة حتى لا يُدان. أو لو أحضرها معه إلى وليمة، لن يخشى من الهرطقي الذي يتحيَّن كل ملتمس للاسترخاء.

لم يحب كريستوفر الهراطقة. وكان يميزهم من خلال عشبة رأس آدم. وعندما جمع هذه العشبة من المستنقعات، كان يظلّل نفسه بعلامة الصليب التي تحمل الكلمات: ارحمني يا رب. ومن ثم، بعد أن يبارك كريستوفر العشبة، يطلب من الكاهن أن يضعها في المذبح ويبقيها هناك لمدة أربعين يوماً. وعندما يأخذها معه بعد انقضاء أربعين يوماً، يستطيع حتى في حشد من الناس، أن يميز الهرطقي أو الشيطان بشكل لا لبس فيه.

والزوجان الغيوران كان كريستوفر يوصيهما بطحلب اللمنة – ليس ذلك الطحلب البطيء الذي يطفو على المستنقعات، بل تلك العشبة الزرقاء التي تنتشر على الأرض. إذ ينبغي وضعها في جهة الرؤوس عند الزوجة: وبعد أن تنام، ستخبِر كل شيء عن نفسها. الجيد والسيئ. وكانت ثمة طريقة أخرى تستحثّها على الحديث – هي قلب البومة. توضع على قلب الزوجة وهي نائمة. لكن هذه الخطوة، لم يخطُها إلا عدد قليل من الناس: كان الأمر مخيفاً.

لم يكن كريستوفر بحاجة إلى هذه الوسائل، لأن زوجته ماتت

منذ ثلاثين عاماً. فقد واجها عاصفة رعدية، عندما كانا ذاهبان لجمع الأعشاب، وعند أطراف الغابة قتلتها صاعقة. وقف كريستوفر غير مصدِّق أنَّ زوجته قد ماتت، لأنها كانت حيّةً للتَّو. هزَّها من كتفيها، وشعرها الرطب ينسدل على ذراعيه. وجعل يفرك خديها. فتحركت شفتاها بصمت تحت أصابعه. وعيناها المفتوحتان بشكل كامل تنظران إلى أطراف أشجار الصنوبر. فأخذ يقنع زوجته أنْ تنهض وتعود معه إلى المنزل. لكنّها ظلت صامتة. ولا شيء يمكن أن يجعلها تتحدث.

في يوم الانتقال إلى الموقع الجديد، أخذ كريستوفر قطعة متوسطة من لحاء البتولا وكتب عليها: «بعد كل شيء، هم الآن بالفعل بالغون». وفي النهاية، بلغ طفلهما سنة من عمره. «أعتقد أنهم بدوني سيكونون أفضل». وبعد التفكير، أضاف كريستوفر: «الأهمّ من ذلك كله، أنّ نصيحة الشيخ لي كانت هكذا».

-ت-

عندما بلغ أرسيني من العمر سنتين، جَعَلا يُحضرانه إلى كريستوفر. في بعض الأحيان، يغادران مع الطفل بعد الغداء. ولكن في كثير من الأحيان كانا يتركان أرسيني لعدة أيام. كان يحبّ زيارة جدّه. وهذه الزيارات هي أولى ذكريات أرسيني. وكانت آخر شيء تعيَّن عليه أن ينساه.

أحبَّ أرسيني في كوخ الجدِّ الرائحةَ. كانت الرائحة تتألف من عبق مجموعة متنوعة من الأعشاب، المجفَّفة تحت السقف، ولم تكن مثل هذه الرائحة في أي مكان آخر. وأحبَّ أيضاً ريش الطاووس، الذي جلبه لكريستوفر أحد الحُجّاج، وعلَّقه على الحائط في شكل مروحة. كانت زخارف ريش الطاووس تشبه العيون بشكل مدهش. فكان الصبي، أثناء وجوده عند كريستوفر، يشعر أنَّه تحت المراقبة بشكل ما.

إضافة إلى ذلك أحبَّ أيقونة القدّيس الشهيد كريستوفر، المعلَّقة تحت صورة المُخَلِّص. وقد بدت هذه الأيقونة، بين الأيقونات الروسيّة الصّارمة، غير اعتيادية: كان القدّيس كريستوفر برأس كلب. ويظلّ الطفل ينظر إلى الأيقونة لساعات طويلة، ومن خلال الوجه الحزين المؤثِّر لرأس الكلب تظهر ملامح جدّه تدريجياً. الحاجبان الأشعثان. والطيّات النازلة من الأنف. واللّحية النامية من العيون. ولأنّ الجدّ يقضي معظم الوقت في الغابة، ويتوارى في الطبيعة برغبة كبيرة. صار يشبه الكلاب والدببة، والعشب والجذوع. ويتحدث بصوت صرير خشبي.

أحياناً كريستوفر ينزل الأيقونة من الحائط ويعطيها إلى أرسيني لكي

يقبِّلها. فكان الطفل يقبِّل القدّيس كريستوفر في رأسه الكثّ الموبِر ويلمس الألوان الباهتة بأصابعه. شاهد الجد كريستوفر التيارات الغامضة من الأيقونة تتدفق إلى أيدي أرسيني. وذات مرة سجَّل ما يلي: الطفل لديه بعض التركيز الخاص. مستقبله يبدو لي رائعاً، لكنني أراه بصعوبة.

من سن الرابعة بدأ كريستوفر تعليم الصبي أمور الأعشاب. فكانا من الصباح حتى المساء يجولان في الغابات ويجمعان الأعشاب المختلفة. ففي شقوق الوديان كانا يبحثان عن عشبة عين الجمل (الأدونيس الربيعي). ويري كريستوفر أرسيني أوراقَها الصغيرة الحادّة. تساعد عشبة عين الجمل في معالجة الفتق والحرارة. تعطى هذه العشبة، لمعالجة الحرارة، مع القرنفل، فيبدأ العرق يتصبَّب من المريض كالجداول. وإذا كان العرق كثيفاً ويطرح رائحة ثقيلة، كان من الضروري (بعد أن ينظر كريستوفر إلى أرسيني، ويتلعثم) الاستعداد للموت. صار كريستوفر لا يرتاح لنظرة الصبي غير الطفولية.

ما هو الموت، سأل أرسيني.

الموت هو عندما لا يتحرك المرء ويظل صامتاً.

أهكذا؟ انبطح أرسيني على الطحلب ونظر إلى كريستوفر من دون أن يرمش عينيه.

وبعد أنْ رفع الصبي، قال كريستوفر في نفسه: إن زوجتي، جدّته، كانت مستلقية هكذا أيضاً، ولهذا خفتُ الآن للغاية.

لا داعي للخوف، صاح الصبي، لأنني على قيد الحياة مرة أخرى.

وفي إحدى الجولات، سأل أرسيني كريستوفر، أين توجد جَدَّته الآن.

في السماء، أجاب كريستوفر.

في ذلك اليوم، قرر أرسيني أن يطير إلى السماء. فقد لفتت السماء انتباهه منذ مدة طويلة وجذبته، وخَبَرُ وجود جَدَّته هناك جعلَ جاذبيتها

لا تقاوَم. ولا يمكن أنْ يساعده في هذا سوى ريش الطاووس – فهي بلا شك من طيور الجنة.

وعند عودته إلى المنزل، أخذ أرسيني حبلاً في المدخل، وأنزل ريش الطاووس من الحائط وصعد السلم إلى السطح. وبعد أنْ قسّم الريش إلى قسمين متساويين، شدَّهما بقوة إلى يديه. في بداية الأمر لم يكن أرسيني ينوي البقاء في السماء لمدة طويلة. أراد فحسب أنْ يستنشقَ هواءه اللاّزَوَرديّ، وإذا أمكنه، أنْ يرى جدَّتَه أخيراً، وفي الوقت نفسه، ربما، أنْ ينقل إليها تحيات من كريستوفر. وفقاً لأفكار أرسيني، يمكنه العودة قبل العشاء الذي أعدَّه كريستوفر. اقترب أرسيني من الحافة، ولوَّح بجناحيه وتقدَّم خطوة إلى الأمام.

كانت رحلته سريعة، ولكن ليست طويلة. أحسَّ أرسيني في قدمه اليمنى، التي لامست الأرض أولاً، بألم حاد. لم يستطع النهوض، فاضطجع وهو صامت ومدَّ رجليه تحت الجناحين. رأى كريستوفر ريش الطاووس المتكسر والمرمي على الأرض، عندما خرج لينادي الصبي لتناول العشاء. جسَّ كريستوفر قدمه وأدرك أنها مكسورة. ولكي يجبر العظم الكسير بسرعة، وضع لصقة من الحمّص المهروس على المنطقة المتضررة. ولكي يحافظ على الساق من الحركة، ربط عليها لوحاً صغيراً. ولكي يقوّي ليس جسد أرسيني فحسب، بل حتى روحه أيضاً، أخذه إلى الدِّير.

أعلم أنك عزمت على أن تطير إلى السماء، قال الشيخ العجوز نيكاندر من عتبة صومعته. لكن طريقة تصرُّفكَ، اعذرْني، غريبة. في الوقت المناسب سوف أخبرك كيف يتم ذلك.

حالما تمكَّن أرسيني من السير على قدميه، قاما مرة أخرى بجمع الأعشاب. في البداية سارا في الغابة القريبة فقط، لكنهما مع كل يوم، يحاولان اختبار قوة أرسيني، فيذهبان أبعد. وقد جمعا على طول الأنهار والجداول زنبقة الماء – وهي أزهار حمراء مائلة للصفرة ذات

أوراق بيضاء - تُستعمَل ضد حالات التسمُّم. وهناك في المكان نفسه، بالقرب من الأنهار، عثرا على عشبة الغاق. فعلَّمه كريستوفر أنْ يعرفها من خلال أوراقها الصفراء المستديرة وعروقها البيضاء. وقد عالجا بهذه العشبة الخيول والأبقار. وفي حافات الغابة والأحراش جمعا عشبة زنبقة الشيطان التي تنمو في فصل الربيع فقط. ويحين أوان قطفها في التاسع من نيسان والثاني والعشرين والثالث والعشرين منه. وعندما شيَّدوا الكوخ، وضعوا عشبة زنبقة الشيطان تحت الجذع الأول. وذهبا أيضاً للبحث عن عشبة البوم. هنا أبدى كريستوفر حذراً، لأن الاحتكاك بها ينذر بتشويش في العقل. ولكن (جلس أمام الصبي القرفصاء) إذا وِضِعَت هذه العشبة على أثر لص، ستعود المسروقات. وضع العشبة في سلة وغطى السلة بأوراق نبتة راعي الحمام (الأرقطيون). وفي طريق العودة إلى البيت، في كل مرة كانا يجمعان قرون عشبة البطنج التي تطرد الثعابين بعيداً.

ضع بذرتها في الفم سينشقّ الماء - قال كريستوفر ذات مرة.

ينشقّ؟ - سأل أرسيني بجديةٍ.

مع الصلاة سينشقّ - وأحسَّ كريستوفر بالحرج. الشغل كلّه في الصلاة.

إذن لماذا هذه البذرة؟ - رفع الصبي رأسه إلى أعلى ورأى أن كريستوفر يبتسم.

هكذا هي الأسطورة. شُغلي أنْ أخبرك.

وهما يجمعان الأعشاب، رأيا ذات مرة ذئباً. وقف الذئب بضع خطوات منهما ونظر في عيونهما. تدلى لسانه من بوزه وارتجف من اللهاث. كان الذئب يشعر بالحرارة.

لن نتحرك - قال كريستوفر - وسوف يولّي. ساعدنا أيها القدّيس غيورغي الشهيد العظيم.

قال أرسيني: إنه لن يبتعد عنّا. فقد جاء ليكون معنا.

وتقدم الصبي إلى الذئب وأخذه من عنقه. فجلس الذئب. وقد تدلى طرف ذيله من تحت رجليه الخلفيتين. استند كريستوفر إلى شجرة صنوبر وجعل ينظر باهتمام إلى أرسيني. وعندما انطلقا نحو المنزل، تبعهما الذئب. وكان لسانه لا يزال متدلّياً كالرّاية الحمراء. وعند حدود القرية توقَّفَ الذئب.

منذ ذلك الحين، صارا غالباً ما يلتقيان بالذئب في الغابة. عندما يتناولان الغداء، يجلس الذئب بجانبه. ويقوم كريستوفر بإلقاء قطع من الخبز إليه، والذئب، يكشر عن أسنانه، ويمسك بها على الطاير. وينبطح على العشب وينظر بتأمُّل إلى أمامه. وعندما يعود الجد والحفيد، يشيِّعُهما الذئب حتى يصلا إلى المنزل. وفي بعض الأحيان يقضي الليل في فناء الدار، وفي الصباح يتوجَّه الثلاثة للبحث عن الأعشاب.

عندما كان أرسيني يتعب، يضعه كريستوفر في كيس من القماش على ظهره. وبعد لحظة، يشعر بخده على رقبته ويدرك أن الصبي قد نام. فيسير كريستوفر بهدوء على الطحلب الصيفي الدافئ. ويضبط حزام الكتف على متْنه بيده الأخرى التي لا تُمسك بالسلة ويهشّ الذُّباب بعيداً عن الصبي النائم.

في المنزل، يستلُّ كريستوفر شوك القرطب من شعر أرسيني الطويل، ويغسل رأسه في بعض الأحيان بالشيولَك وهو محلول غسول قلوي. يقوم بتحضيره من ورق أشجار القيقب وعشبة إدريس البيضاء، التي جمعاها معاً على التلال. وبفضل هذا الغسول أصبح الشعر الذهبي لأرسيني ناعماً مثل الحرير، يلمع في أشعة الشمس، وقد ضفر كريستوفر فيه أوراق حشيشة الملاك ليجعل الناس يحبُّونه. ومع هذا لاحظ أنَّ الناس يحبّون أرسيني هكذا حتى من دونها.

كان ظهور الصبي يرفع المعنويات ويحسِّن المزاج. هذا ما شعر به جميع سكان بلدة روكينا. وعندما يأخذون أرسيني من يده، لم يرغبوا

بتركها. وعندما يقبِّلونه في شعره، يشعرون وكأنَّهم قد ارتموا في أجواء الربيع. كان ثمَّة شيءٌ في أرسيني يسهّل حياتهم الصعبة. ولهذا هم مُمتنّون له.

وفي الليل يقصّ كريستوفر على الصبي حكاية عن سليمان والقنطور. وقد عرف كلاهما هذه القصة عن ظهر قلب ودائماً ما يستوعبانها وكأنها تُحكى للمرة الأولى.

فعندما قُيِّدَ القنطور إلى سليمان، رأى رجلاً يشتري لنفسه جزمةً. أراد الرجل معرفة ما إذا كانت هذه الجزمة تدوم عنده لمدة سبع سنوات، فضحك القنطور. وبعد أن سار في طريقه، رأى القنطور عرساً وانفجر في البكاء. فسأل سليمان القنطور لماذا ضحك.

نظرت إلى الرجل وضحكتُ - قال القنطور - لأنه لن يعيش حتى سبعة أيام.

فسأل سليمان القنطور لماذا بكى.

تحسَّرتُ - قال القنطور - لأنَّ العريس لن يعيش لمدة ثلاثين يوماً.

وذات مرة قال الصبي:

- أنا لا أفهم لماذا ضحك القنطور. لأنه علم أن هذا الشخص سيُبعثُ حياً مرة أخرى؟

- لا أعرف. لستُ متأكداً.

لقد رأى كريستوفر نفسه أنه من الأفضل لو أنّ القنطور لم يضحك.

ولكي ينام أرسيني بسهولة، وضع كريستوفر تحت الوسادة عشبة سيرافيم الباكي. ولهذا السبب ينام أرسيني بسهولة. وكانت أحلامه هادئة.

-ث-

في بداية الأسبوع الثاني من عمر أرسيني، أحضره والـده إلى كريستوفر.

القرية هائجة، قال الأب، والناس يتوقّعون وباء الطاعون. دع الصبي يبقى هنا بعيداً عن الجميع.

ابقَ أنت وزوجتك أيضاً، اقترح كريستوفر.

هناك، يا أبي، نزرع القمح، فإذا بقينا هنا، إلى من سنتوجه لطلب الطعام في الشتاء؟ قال وهزَّ كتفيه.

قام كريستوفر بدقّ كبريت ساخنٍ وأعطاه إياه لكي يأخذوه مع صفار البيض ويضيفوه إلى عصير العلّيق البرّي. وأمرهم أنْ لا يفتحوا النوافذ، وأنْ يوقِدوا في فناء الدار في الصباح والمساء ناراً من حطب البلّوط. وعندما يبدأ الجمر يتوهج ويحترق من دون دخان، يرمون عليه الشِّيح والعَرْعَر والسَّذاب. هذا كل شيء. هذا كل ما يمكن فعله. وتنهَّد كريستوفر وأطلقَ زفيراً، وقال: يا لهفي عليك وحسرتي، يا بني.

وعندما شاهد أرسيني والده يذهب إلى العربة، أجهش بالبكاء. ولأنه قصير، صار سيره يشبه القفز. وبعد أنْ جلس في العربة، مدَّد قدميه على القش الموجود فيها. وأخذ الزِّمام بيده وصفَعَ الفرسَ. صهل الفرس وهزَّ رأسه، وتحرَّك بسلاسة. وضربت حوافره الأرض فصدح منها صوت خافت. وجعل الأب يترنَّح قليلاً. وبعد أن استدار، لوَّح بيده. وصار حجمه يتقلَّص وانْمَجَّ مع العربة. وتحوَّل إلى نقطة. ثم اختفى.

- ما الأمر، ما لك تبكي، سأل كريستوفر الصبيَّ.

- أنظرُ إليه فأرى علامات الموت عليه، أجاب الصبي.

ظلَّ يبكي لمدة سبعة أيام وسبعِ ليال. لم يقل كريستوفر شيئاً، لأنه يعلم أن أرسيني على حقّ. فهو أيضاً رأى علامة. وعرف أيضاً أنّ أعشابه وكلماته عاجزة هنا ولا مفعول بها.

عند الظُّهر من اليوم الثامن، أخذ كريستوفر الصبي بيده، واتَّجها إلى بلدة روكينا. كان يوماً صافياً. سارا من دون أن يدوسا العشب ولا أن يثيرا الغبار. كأنما يسيران على رؤوس الأصابع. وكأنهما يدخلان غرفةً فيها مُتوفًى. وفي الطريق إلى بلدة روكينا، أخرج كريستوفر من جيبه عِرْق عشبة الملاك المنقع في خلّ النبيذ وكسره إلى قسمين. أخذ نصفاً لنفسه، وقدَّم النصف الآخر إلى أرسيني.

هاكَ، احتفظ به في فمك. قُوَّة الله معنا.

استقبلَتْهم البلدة بعواء الكلاب وخوار الأبقار. عرف كريستوفر هذه الأصوات جيّداً، إذ لا يمكن الخلط بينها وبين أيّ شيء آخر. إنها موسيقى الطاعون. سار الجدّ وحفيدُه ببطءٍ على طول الشارع، ولكن الكلاب فقط هرعت من السلاسل لملاقاتهم. لم يكن ثمَّة بشر. وعندما اقتربا من منزل أرسيني، قال كريستوفر:

لا تتقدم خطوة أخرى. الهواء هنا فيه الموت.

أومأ الصبي لأنه رأى جناحيه. كانا يحومان فوق المنزل. ويرفرفان في الهواء الدافئ فوق حافة السقف.

رسم كريستوفر إشارة الصليب ودخل الفناء. وجد عند السياج حزمتين من القمح غير المطحون. كان باب الكوخ مفتوحاً. تحت شمس أغسطس (آب)، بدا هذا المستطيل التافه ينذر بالسوء. ومن بين جميع ألوان النهار، اختار لنفسه السواد فقط. اختار السواد المحتمل كله والبرودة كلها. كيف تدخل إلى هناك، ويمكنك البقاء على قيد الحياة؟ بعد تردُّد، اتخذ كريستوفر خطوةً نحو الباب.

- قفْ، جاءه صوت من الظلام.

هذا الصوت يشبه صوت ابنه. ولكن يشبهه فحسب. كما لو أنه شخص ما، وليس ابنه، استعمل هذا الصوت. لم يصدّقه كريستوفر واتّخذ خطوةً أخرى نحو الباب.

- قف، وإلا سأقتلك.

في الظلام دوّى صوت هدير، وكأن شيئاً سقط من يد أحدهم، وضربت مطرقة إطار الباب.

- دعني أتفحصك، جأَرَ كريستوفر.

تيبَّس حلقه واحتبس صوته.

لقد لقينا حتفنا بالفعل، قال الصوت. ولا علاقة لنا بالأحياء. لا تدخل حتى يبقى أرسيني على قيد الحياة.

توقف كريستوفر. وجعل يسمع كيف ينبض الوريد في صدْغه، وأدرك أنَّ ابنه يقول الحقيقة.

- أريد ماءً، سُمِع صوت الأمّ تتأوَّه في الظلام.

- أمي، صرخ أرسيني وهرع إلى الكوخ.

غَرف غَرفة ماء من الحوض وناولها لأمّه التي سقطت من الدكّة. قَّبلَهَا في وجهها الهُلاميّ الشّكل، لكنها بدتْ نائمة ولم تتمكن من فتح عينيها. حاول رفعها من على الأرض فأحسَّ بحرارة ملتهبة في طيّات تحت إبطيها.

يا بنيّ، ليس بمقدوري أن أستيقظ.

أمسك الأب بيد أرسيني ودفعه إلى العتبة. ومن العتبة جرَّه كريستوفر على الفور. فصرخ أرسيني بصوت عالٍ جداً، لكن لم يسمعه أحد في البلدة. وعندما ساد السكون، رأى جثَّة والدِه على عتبة الباب.

-ج-

منذ ذلك الحين، انتقل أرسيني للسكن مع كريستوفر.

وكتب كريستوفر ذات مرّة أنَّ الصبي موهوب بلا شك. إنه يدرك كل شيء بسهولة وعلى الفور. علّمتُه شغلة الأعشاب، وسوف تطعمُه في الحياة. وسأقدِّم له العديد من المعارف الأخرى لتوسيع آفاقه. سيعرف كيف خُلِقَ العالَم.

وفي إحدى ليالي أكتوبر (تشرين الأول) الرائعة الصافية، قاد كريستوفر الصبي إلى مرجٍ وأراه انطباقَ قُبَّة السماء والأرض:

في البدء، خلق الله السماوات والأرض. وفعل بذلك من أجل ألّا يتوهَّم البشرُ أنَّ السماء والأرض جوهرٌ من دون بداية. وفصل الله بين النّور والظّلمة. ودعا الله النّور نهاراً، والظّلمةَ دعاها ليلاً.

داست أقدامهما العشب بلطف، وحلقت النيازك فوق رأسيهما في سماء المنطقة. وشعر أرسيني بدفءِ يد كريستوفر في قفاه.

- وخلق الله الشمس لتنير النهار، والقمر والنجوم لتنير اللَّيل.

- وهل كانت الأنوار كبيرة، سأله الصبي.

نعم، بشكل عام... قطَّبَ كريستوفر جبينَه. محيط القمر هو مسيرة مائة وعشرين ألف يوم، ومحيط الشمس هو، بالطبع، مسيرة ثلاثة ملايين يوم. وقد تبدو هذه المسافة صغيرة، لكن من الصعب تخيُّل حجمها الحقيقي. اصعدْ على الجبلِ العالي وألْقِ نظرة على الحقل. سترى من هناك قطيع الأغنام وكأنه نملٌ في حجمه. هكذا تبدو لنا الأجرام المنيرة.

تحدَّثا لبضعة أيام بعد ذلك، عن النجوم والمعرفة المسبقة. أخبر كريستوفر الصبي عنِ الشمس المزدوجة، التي رآها في حياته أكثر من مرة: إن ظهورها في الشرق أو في الغرب يتميّز بهطول أمطارٍ ورياح عظيمة. في بعض الأحيان تبدو الشمس للناس دمويّة، ولكن هذا يأتي من أبخرة ضبابية وتشير إلى رطوبة عالية. في بعض الأحيان تكون أشعة الشمس مثل الشَّعْر (يُمسِّد كريستوفر على شَعر أرسيني)، ويبدو السحاب كأنه يحترق، وهذا يشير إلى الريح والبرد. إذا كانت الأشعة تنحني نحو الشمس، والسحب تسوَدُّ عند غروب الشمس فهذا يشير إلى طقس ماطر وجوٍّ مُلبَّد بالغيوم. وعندما تكون الشمس صافية عند الغروب تشير إلى طقس هادئ وصافٍ. ويشير إلى الجوِّ الصافي القمرُ بعمر ثلاثة أيام أيضاً، إذا كان ساطعاً ورقيقاً. وإذا كان رقيقاً، ولكنه ناريٌّ نوعاً ما، فإنّه يُنذِر بريحٍ قويَّة، وعندما يكون قرنا القمرِ متساويان والقرنُ الشماليُّ صافٍ، فهذا يشير إلى هدوء الرياح الغربية. في حالة عتمة البدر، انتظرْ الأمطار، وفي حالة ترقّقه من الجانبين توقَّعْ الرِّيح. والهالةُ حول القمر علامةٌ على سوء الأحوال الجوية، وعتمةُ الهالة عاصفة شديدة.

طالما أنَّ الصبيَّ مهتمٌّ بشكل واضح لماذا لا أحدِّثُه عن ذلك، سأل كريستوفر نفسه.

وذات مرة جاءا إلى شاطئ البحيرة، فقال كريستوفر:

– أمرَ الربُّ بأنْ تنفض المياه أسماكاً تسبح في الأعماق وطيوراً تحلِّق في جلد السماء. وهذه وتلك خلقها الله لكي تسبَح في العناصر الخاصة بها. كما أمرَ الربّ بأنْ تُخرِجَ الأرضُ ذواتَ نفس حيّة، رباعيَّة الأرجل. وقبل الوقوع بالخطيئة، كانت الوحوش مستسلمةً لآدمَ ولحوَّاء. يمكنك القول إنّها كانت تحبّ الناس. أما الآن تحبُّه في حالات نادرة فقط، فقد حدث خطأ ما بشكل ما.

ربَّتَ كريستوفر على غارِبِ الذِّئب الذي يسير ببطء خلفهما.

وإذا أمعنّا النظر نرى أنَّ الطيور والأسماك والحيوانات في كثيرٍ من

النواحي مشابهة للإنسان. وهنا، كما ترى، يكمُن اتِّحادنا الكوني. نحن نُعَلِّم بعضنا البعض. يولد شبل الأسد، يا أرسيني، دائماً لدى اللبوة ميتاً، ولكن في اليوم الثالث يأتي الأسد وينفخ الحياة فيه. هذا يذكِّرنا بأنَّ الطفلَ البشريّ، قبل مَعموديَّتِه، ميْتٌ بالنسبة للأبدية، ولكن مع التعميد ينتعش وتدبُّ فيه الحياة. وهناك أيضاً سمكة كثيرة الزعانف الشبيهة بالأرجل الصغيرة. إنها تسبح باتجاه حجرٍ ذي لونٍ معيَّن، فتصطبغ نفسها بذلك اللّون؛ لو سبحت باتجاه حجر أبيض تصبح بيضاء، ولو باتّجاه الأخضر خضراء. هكذا الأطفال مع الناس؛ مع المسيحيِّين مسيحيين، ومع الكفَّار كفَّار. هناك أيضاً طائرُ العَنقاء، الذي ليس لديه لا زوْجٌ ولا أولاد. لا يأكلُ شيئاً، ولكنه يرفرف طائراً بين أشجار الأرز اللُّبناني ويملأ جناحيه برائحتها. وعندما يشيخ، يطير إلى الأعلى فيتَّقِدُ من النار السماوية. وعندما يهبط إلى الأسفل، يشعل النار في العشّ ويحرق نفسه، وفي رماد عشِّه ينبعث حيّاً على شكل دودة، والتي في نهاية المطاف تكبر وتصبح طائر عنقاء. وهكذا، يا أرسيني، الذين يقبلون العذاب من أجل المسيح، يُبعثون من جديد في كل مجدٍ إلى ملكوت السماء. هناك، أخيراً، طائر الغامايون، إنه طائر ناصع البياض. وإذا مرض أحد البشر، يعرف هذا الطائر ما إذا كان سيعيش أم يموت. وإذا قُدِّر له أن يموت، سيدير الغامايون وجهه عنه، وإذا قُدِّرَ له العيش، فسيبتهج طائر الغامايون ويطير في الهواء باتّجاه الشمس، ويعرف الجميع أنَّ طائر الغامايون قد أخذ الوباء من المريض وبدَّدَهُ في الهواء. وهكذا هو ربُّنا يسوع المسيح عندما صعد على الصَّليب أعطانا دمَه الطَّاهر للتَّكفير عن الخَطِيَّة.

- أين يمكن أن نحصل على هذا الطائر، سأل الصبي.

- كُنْ نفسك هذا الطائر يا أرسيني. فأنت تستطيع أنْ تطير قليلاً.

أومأ الصبي برأسه متفكراً، ومن جرّاء جديَّتِه شعرَ كريستوفر بالإحراج.

طوَّحت الريح بالأوراق الأخيرة من جهة الشاطئ نحو المياه السوداء

للبحيرة. توالتْ الأوراق تتدحرج على طول العشب البُنِّيِّ، ثم ارتعدتْ على موجات البحيرة. وأبحرتْ بعيداً أكثر وأكثر. وبالقرب من الماء على الأرض بانت آثار عميقة لأحذية الصيّادين. كانت آثار الأحذية مليئةً بالماء وبدت كأنها أبدية. فقد بقيت ثابتة إلى الأبد. وفيها أيضاً تطفو الأوراق. تمايل قارب الصيادين بالقرب من الشاطئ. سحب الصيادون الشِباك بأيديهم المحمَّرة من البرد. وكانت جباههم ولحاهم مبلَّلة بالعرق. وأصبحت أكمام ثيابهم ثقيلة من الماء. خفقت في الشبكة سمكة متوسطة الحجم. خفقت وهي تلمع في شمس الخريف الخافتة، وأثارت الرذاذ حول القارب. فرح الصيادون بالصيد وصاحوا بصوت عالٍ لبعضهم البعض. لمْ يفهم أرسيني كلماتهم. لم يستطعْ تكرار كلمة واحدة من الصيادين، على الرغم من أنه سمعها بوضوح. وبعد أنْ تجاهل الغلاف الدَّلالي، تحوَّلت الكلمات على مهلٍ إلى أصوات وذابت في الفضاء. كانت السماء عديمة اللون، لأنها أعطت الصيف جميع الألوان. وفاحت رائحة دخان موقد.

شعر أرسيني بالفرح حين تصوَّر أنَّهم عندما يعودون إلى المنزل، سوف يوقدون الموقد ويستمتعون باسترخاءٍ خريفيٍّ خاص. لقد أوقدوا الموقد، مثل جميع مَن حولهم، بطريقة سوداء (أي من دون أنبوب لخروج الدخان، بل يترشح الدخان بين الجدران لزيادة التدفئة). فبعد الإيقاد، تظلُّ الجدران دافئة. إذ تعطي جذوع الأشجار السميكة الحرارة لمدة طويلة. ويحتفظُ بالحرارة مدةً أطول الفرنُ الطِّينِيّ. وكانت الأحجار المرصوفة على جدار الفرن البعيدة تتوهّج حتى تحمرّ. ويرتفع الدخان تحت السقف العالي ويخرج بعناية من خلال فتحة الدخان الممتدة فوق الباب. بدا الدخان لأرسيني كائناً حيّاً. وكانت حركة الدخان البطيئة تُهدِّئ من رَوْعِه. يمكث الدخان في القسم العلوي من الكوخ الذي أصبح أسودَ من السّخام. أمّا القسم السفلي فمُرتَّب. وتفصل بين القسم العلوي والقسم السفلي من الكوخ عوارض – وهي عبارة عن ألواح

عريضة يتراكم عليها السّخام من الأعلى. وفي حالة الإيقاد الصحيح للفرن أسفل العوارض لا ينفذ الدخان.

كان من مهام أرسيني أنْ يوقِد الفرن. إذْ يجلب من عنبر الخشب قرم البتولا ويرصفها في الفرن على شكل كوخ. ويحشر بين قرم الأخشاب حطباً قُشَاشاً من الأغصان اليابسة. ويوقد النار بمساعدة الجمر المحترق ببطء، الذي يحصل عليه من الكُوّات، وهي تجاويف ذات شكل معيَّن في الفرن، حيث تُحفَظ جمرات الإشعال تحت طبقة من الرماد. كان يدفن الجمر في الأوراق الجافة وينفخ بكل قوَّته، فتُغيِّر الأوراق لونها ببطء. وعندما تحترق من الداخل، تأخذ أشكال تَيبُّسٍ لا على التعيين، ولكن في كل لحظة يصعب الأمر عليها أكثر: إذ تنشب النار فيها فجأة وعلى الفور من جميع الجهات. ومن الأوراق تنتقل النار إلى الحطب القُشَاش ومن الحطب القُشَاش إلى قِرَم الأخشاب. فتبدأ قرم الأشجار تحترق من الجوانب. وإذا كانت رطبة، فإنها تنفلع وتطلق حُزَماً من الشرر. وفي أتون النار كان الطفل يرى طائر العنقاء، ويشير عليه إلى الذئب الجالس بجانبه. فيُضَيِّق الذئب عينيه من وقت لآخر، ولكن لم يكن من الواضح ما إذا كان في حقيقة الأمر قد رأى الطائر. وبعد أن ينظر أرسيني إلى الذئب بريبة، كان يقول لكريستوفر:

– إنه يجلس بشكل غير طبيعي، بل الحقيقة، بشكل متوتّر. أعتقد أنه يخشى على جِلده.

الصبيُّ كان على حقّ. فقد أثارت حزم الشرر التي طارت من الفرن بعض القلق عند الذئب. ولكن بعد أن بدأت النار تشتعل بشكل سلس ونهائي، امتدَّ الذئبُ على الأرض ووضع رأسه مثل الكلب على مخالبه.

قال كريستوفر وهو يمسد للذئب: نحن مسؤولون عن الوحوش التي نروِّضها.

وعندما حدَّقَ أرسيني في الموقد، وجعل يرى وجهه في بعض الأحيان هناك. كان محاطاً بشعر رمادي شائب، مجموعٍ في خصلة على

قفاه. ووجهه مغطًّى بالتجاعيد. على الرغم من هذا التفاوت، أدرك الولد أنّ هذا هو انعكاس لصورته. ولكن بعد سنوات عديدة. وفي ظروف أخرى. وإنَّ هذه الصورة للجالس في النار، ترى وجه الصبي الأشقر الشعر ولا تريد للوافد أن يزعجه.

سحق الوافد الجديد بقدميه على عتبة الباب، وبعد أن وضع إصبعه على شفاهه، همس لشخص ما خلفه أن طبيب روسيا كلّها مشغولٌ الآن. يراقب لهب النار.

- أريدُ أنْ أعيش، أيها الطبيب. ساعدني.

- ألا تريد الموت؟

- يوجد ثَمَّ مَن يريد الموت، قال ميليتي موضِّحاً.

- لدي ابن. أشفقْ عليه.

مثل هذا؟ أشار الشيخ إلى فتحة الموقد، حيث يمكن تخمين صورة الصبي في محيط الشعلة.

إنكِ عبثاً، أيتها الأميرة، تجثين على ركبَتَيك (قال ميليتي باضطراب وقضمَ أظافرَه)، إنه لا يحبّ ذلك.

رفع الشيخ نظره عن اللهب. واقترب من الأميرة الجاثية على ركبتيها وجلس بجوارها على ركبتيه. نكص ميليتي على عقبيه وخرج. فمسك الشيخ الأميرة من حنكها، ونظر في عينيها. وجعل يمسح دموعها بظهر كفه.

- عندكِ، أيتها المرأة، تورّم في الرأس. لهذا السبب يتدهور بصركِ. ويُصّمُّ سمعُكِ.

احتضن رأسَها وضغطه على صدره. فسمعت الأميرة نبضات قلبه وصوت نَفَسِه العجائزيَّ المتعَب. ومن خلال قميصه شعرت ببرودة الصليب الذي يحمله تحت ملابسه. وأحسَّت بصلابة أضلاعه. وقد

اندهشتْ شخصيّاً من كونها لاحظت هذا كلّه. وكان ميليتي في هذا الوقت خلف الأبواب المغلقة يقطع الخشب (للحصول على عيدان إشعال) ووجهُه خالٍ من كل تعبيرٍ.

آمِني بالرَّب وأمِّه العذراء الطّاهرة واسأليهما العون. مسَّ الشيخ بشفاهه اليابسة جبينَها. وسوف يتضاءلُ ورمُكِ. اذهبي في سلام ولا تحزني وقرّي عيناً.

- لماذا تبكي، يا أرسيني؟

- إني أبكي من الفرح.

التفت أرسيني نحو الذئب من دون أنْ ينبس بكلمة. وكان الذئب يلعق دموعه.

-ح-

الإنسان مخلوقٌ من التراب. وسوف يتحول إلى تراب. لكنَّ الجسدَ الممنوح له مدى الحياة جميل. فيجب أنْ تعرفَه بأفضل ما تستطيع، يا أرسيني.

هكذا قال كريستوفر، وهو يحنِّط أندرون من نوفغورود قبل إرسال المُتوفَّى إلى وطنه. في أحد حمَّامات بلدة روكينا دلَّكَ كريستوفر جلد أندرون براتنج الصنوبر المخلوط بالعسل والملح. وبسبب لمسة كريستوفر ارتجف أندرون بجسده كلّه وبدا حيّاً. وعزَّزَ هذا الانطباعَ العضو الكبير للمُتوفَّى، الذي بدا أنه لا يتلاءم مع أندرون القصير القامة، على الرغم من بنيته القويّة. بدا لأرسيني أنَّ أندرون الآن سينهض ويشكر كريستوفر على اهتمامه به ويخرج إلى الهواء الطلق. لكن أندرون لمْ يستيقظ. فبعد عراك الليل، استلقى بجمجمة مكسورة ولطخات أوّلية في البدن في منطقة الظهر. كان أندرون الوافد مهتمّاً بصبايا البلدة (حتى يوم أمس). وهذا هو سبب العراك. واليوم، استعد أندرون لطريقه الأخير نحو مدينة نوفغورود.

تنعكس حكمة الله، التي لا حدَّ لمَداها، في جسم الإنسان الصغير (قال كريستوفر) كما تنعكس الشمس في قطرة الماء. فكلُّ عضو فيه مقصود ومدروس بالتفصيل الدقيق. القلب، على سبيل المثال، يغذِّي الجسمَ كله بالدم، ويقال إن حواسنا تتركَّز فيه، وهذا هو السبب في أنه محمي بأمان بواسطة الأضلاع. والأسنان تمضغ الطعام، ولهذا فهي

من عظام صلبة. واللسان يتعرَّف على المذاق، ولهذا هو ليِّن ومَسامِيّ، كالإسفنج. والأذن مخلوقة في شكل قوقعة لكي تلتقط الأصوات الطائرة. وبالمناسبة، الآذان البارزة (مرَّرَ كريستوفر إصبَعَه على أذن أندرون) علامة على الكلام الفارغ. ولكن ثمَّة أيضاً أذن داخلية لا يمكن رؤيتها. إنها تنقل الأصوات من الأذن الخارجية إلى الدماغ، ويحوِّل الدماغُ الأصوات إلى كلام. وتؤدي إلى الدماغ أوردة من العين كذلك، ومرَّة أخرى يحوِّل الدماغ الحروف إلى كلمات. إنه مَلِكُ الجسد كلّه وهو في القِمَّة، لأنَّ الإنسان وحده من بين مخلوقات الأرض كلِّها، العاقلُ والقادرُ على المشي بقامةٍ مستقيمة. إنَّ فكره الروحي غير الجسدي، عندما يكمن في الجسد، يسمو إلى السماء ويدرِك كمالَ هذا العالَم. والعقلُ هو عيونُ الرُّوح. فعندما تتضرَّر هذه العيون، تصبح الرُّوح عمياء.

– ما هي الروح؟ سألَ أرسيني.

إنها ما ينفخُه الرّبُّ في الجسم، إنها ما يميِّزنا عن الحجارة والنباتات. الرُّوح تجعلنا أحياءً، يا أرسيني. سأشبّهها باللّهب المنبعث من الشّمعة، لكن ليس لها طبيعة دنيوية، وتسعى إلى الارتقاء لتلائم العناصر الطبيعيّة.

إذا كانت الروح تجعل الشيء حيّاً، فهل، يعني هذا، أنها موجودة أيضاً عند الحيوانات؟ وأشار أرسيني إلى الذئب الذي كان واقفاً بجانبه.

نعم، الحيوانات لديها روح، ولكنها ذات طبيعة ملائمة لجسمها وموجود في دمائها. لاحظ: قبل الطوفان، لم يكن الناس يأكلون الحيوانات، رأفةً بأرواحها، لأنَّ روحَ الحيوان تموت مع الجسد. لكن روح البشر غريبةٌ على الجسد ومن طبيعةٍ مغايرة ولا تموتُ مع الجَّسد، إذْ ليس في روح البشر من الأشياء الأخرى، بل من روح الخالق نفسه، أنعمَ بها عليه.

– ما الذي يقاضَى عليه جسدُ الإنسان؟

سيُطمَر جسدنا في التراب. لكنَّ الربَّ، الذي خلق الجسد من التراب، سيسمح له بالقيام. إننا، في الحقيقة، نتصوَّر أنَّ الجسد يتحلَّل من دون أنْ

يترك أثراً، وأنَّه يمتزج مع العناصر الأخرى، ليصبح أرضاً ونهراً وعشباً. إنَّ جسدَنا، يا أرسيني، يشبه الزئبق المنسكب، الذي يكمن على الأرض، بعد أن ينقسم إلى كريَّات صغيرة، لكنَّه لا يمتزج مع الأرض. إنَّه يكمن في ذاته حتى يأتي حِرَفيٌّ حاذق ويعيده إلى الوعاء. وكذلك سيجمع الله سبحانه وتعالى أجسامَنا المتحلِّلة من أجل القيامة العامَّة للأموات.

أُوقِفَ بجهود كريستوفر تحلُّل جثَّة أندرون. وتلألأتْ جثَّتُه بالعتمة وأخذتْ تفوح منها رائحة الصنوبر. كانت بيضاء بشكل لا مثيل له. باستثناء الوجه واليدين إلى المرفق، التي احتفظت بآثار سفْع الشمس الأخير. وبعد الانتهاء من الفرك بمرهم التحنيط، بدأ كريستوفر يلفُّ أندرون بشرائط من القماش. قام بتمزيقها، بصرير عالٍ، من قطعة القماش التي جُلِبَت له، ثم غمسها في المرهم وشدَّها بقوة على جسد المتوفى. لم تبدُ من أندرون أية مقاومة. وقد أضفت عليه جفونه المطبَقَة من غير إحكام شكلاً ساخراً بل حتى لا مبالياً. بدا أنَّ أندرون يسخر من جهود كريستوفر المتعرِّق. وقد أوحى بمظهره كلّه، أنَّه سيصل إلى مدينة نوفغورود في أي ظرف من الظروف.

لم ينظر كريستوفر إلى وجه أندرون. لفَّ جسدَه بشريط فوق شريط، وربطَ الأطراف بإحكام.

وبما أنَّ الحديث جرى عن الجسد، قال كريستوفر، سأخبرك كيف يُنجَبُ الأبناء. فعلى كل حال، أنت لمْ تعدْ طفلاً، وينبغي لك أنْ تعرف أنَّه منذ سقوط آدم وحوَّاء في الخطيئة، لم يعد الربُّ يخلق الناس، بل هم أنفسهم يلدون أبناءهم. بعد ذلك يموتون، لأنهم مع هبة الميلاد قد تلقّوا هبة الموت. يُنجَب الطفل من نطفة الرجل ودم المرأة. نطفة الذكر تعطي صلابة للعظام والأوردة، ودم المرأة يعطي ليونة البدن. فالدم، كما تعرف، أحمر ويتدفق من خلال الأوعية، ونطفة الرجل توجد هنا (بعد أن أشار كريستوفر إلى خصيتَي أندرون الكبيرتين، وقد ربطهما إلى فخذه)، وهي بيضاء اللون.

عرَف أرسيني لون النطفة، لكنه لم يقلْ لكريستوفر ذلك. تحدَّث عن هذا في اعتراف للشيخ نيكاندر.

- ضعْ يديك على الغطاء، نصحَه الشيخ نيكاندر.

- قال أرسيني إنَّ هذا لم يكن في المنزل بل في المقبرة.

- يا للعجب، وأطلق الشيخ صفيراً بصوت منخفض، وأيضاً في المقبرة. فهناك ينام أناس أحياء.

- رأيت الموتى فقط.

- بالنسبة لله جميعهم أحياء.

- تحوَّل أرسيني بعيداً: بدأتُ أخشى الموت.

أدار الرجل العجوز يده على شعر أرسيني، وقال:

- كلّ واحد منا يكرّر طريق آدم وعندما يفقد البراءة يدرك أنه فانٍ. ينبغي لك، يا أرسيني، أنْ تبكي وتصلِّي. ولا تخفْ مِن الموت، لأنَّ الموت ليس مجرَّد فُراقٍ مرير. إنه كذلك فرحةُ التحرِّر والعِتْقِ.

-خ-

تعلَّمَ أرسيني القراءة في وقت مبكر. فالحروف التي أراها له كريستوفر، حفظها في غضون أيامٍ قليلة وسرعان ما وضعها في كلمات. في البداية كانت تعوقه حقيقة أنَّ الكلمات في معظم الكتب لم تكن منفصلة عن بعضها البعض، بل تسير في تسلسل مستمر. وذات مرَّة سأل أرسيني لماذا لا تُكتَبُ الكلمات بشكل منفصل.

وهل تُنطَق الكلمات بشكل منفصل، سأله كريستوفر بدوره. سأخبرك أكثر. في بعض الأحيان لا يهمّ كيف قيلت الكلمة ومَن قالها. ما يهمّ هو أنّها قيلتْ. وفي أسوأ الأحوال، أنّه جرى التفكير بها.

إنَّ أول ما قرأه وأحبَّه أرسيني هو كتابات كريستوفر على لحاء شجر البتولا. وهذا مرتبط بعدة أسباب. فرسائل اللّحاء كانت مكتوبة بخط واضح وكبير. ولم تكن كبيرة في حجمها. وهي أكثر شيء متاح له للقراءة، لأنها موجودة في زوايا الكوخ كلها. وأخيراً، رأى أرسيني كيف أُعدَّت.

كان كريستوفر ينشغل في فصل الربيع، أوانَ تدفقُ عصارةُ الأشجار، بإعدادِ صفائح اللّحاء. إذ يسلخها من الجذوع على شكل قطع عريضة ومرتَّبة ثمّ يغليها لساعات عديدة في محلول ملحيّ. فيصبح اللّحاء ناعماً ولم يعد هشاً. وبعد المعالجة يقطِّع كريستوفر اللّحاء إلى صفائح متساوية. وبهذا تكون صالحة للاستعمال، وبديلاً عن الورق الغالي الثمن.

لم يكن لدى كريستوفر وقتٌ معيَّنٌ للكتابة. فقد يكتب في الصباح أو

في الظهر أو بعد غروب الشمس. وأحياناً، إذا ما جالت في رأسه فكرة ينهض في الليل ويكتبها. كان كريستوفر يسجِّل ما قرأه في الكتب: كان عند الملك سليمان سبعمائة زوجة وثلاثمائة محظيَّة وثمانمائة ألف كتاب. ويسجل ملاحظاته الشخصيّة: في اليوم العاشر من شهر أيلول (سبتمبر) سقط سنٌّ أرسيني. ويسجِّل تعاويذ للاستشفاء، وتركيبات الأدويـة، ووصفات الأعشاب، ومعلومات عن انحرافات الطبيعة وشذوذها، وعلامات الطقس، ومواعظ إرشادية قصيرة: هدِّئ الرجل الغاضب بصمتك، وهاجم الكلب المسعور. وكان يخدش الحروف بقلم من العظم على الجانب الداخلي للّحاء.

كان كريستوفر يكتب، ليس لأنه يخشى أن ينسى شيئاً ما. فحتى بعد أن بلغ من العمر عِتِيّاً لم ينسَ أيّ شيء. لكنه كان يرى أنَّ الكلمة المكتوبة ترتِّب العالم وتنظِّمه. وتوقف عدم استقراره. ولا تسمح للمفاهيم أن تنطمس. لهذا كان نطاق اهتمامات كريستوفر واسعاً جداً. ووفقاً لرأي الكاتب، يجب أن يتوافق هذا النطاق مع اتساع العالم.

يترك كريستوفر عادةً كتاباته في المكان الذي نفَّذها فيه - على المقعد، وعلى الموقد، وعلى عرمة الحطب. ولا يرفعها عندما تسقط على الأرض، متنبِّئاً بشكل غامض أنَّ الطبقة المثقَّفة ستكتشفها لاحقاً. عرف كريستوفر أنَّ الكلمة المكتوبة ستبقى إلى الأبد. فمهما حدث بعد ذلك، تبقى هذه الكلمة لأنَّها مكتوبة.

ولمّا سار أرسيني على خطى كريستوفر فقد عرف بالفعل أين يبحث عن كتاباته. وفي بعض الأحيان يجد في محلّ الرسالة المكتشَفة في اليوم نفسه رسالةً أخرى وربما أكثر من رسالة. وأحياناً يبدو الجدّ لأرسيني دجاجةً تبيض بيضاً من الذَّهب، لا ينبغي عليه سوى جمعُه. ووفقاً لتعبيرات وجه كريستوفر، تعلَّم الصبي أنْ يخمِّن حتى طبيعة ما يكتب عنه. فالحواجب المنحرفة تساعده على أنْ يفترض أنَّ في هذه الرسالة يتحدَّث عن فضح الهراطقة. وتعابير الانشراح والسعادة الهادئة ترافق

في الغالب الأقوال الإرشادية والمواعظ. وعند الإشارة إلى الارتفاعات والأحجام والمسافات، يقوم كريستوفر، وفقاً لملاحظات أرسيني، بهرش أنفه وهو مستغرقٌ في التفكير.

قرأ الطفل الكتابات المدوَّنة على اللحاء بصوت عالٍ. ففي القرون الوسطى بشكل عام، يقرأ الناس في الغالب بصوت عالٍ، وفي أسوأ الأحوال إنهم يحركون شفاههم فحسب. وقد جمع أرسيني السجلات، التي أثارت إعجابه أكثر من غيرها، ووضعها في سلة خاصة. أما الأمور التي يصعب عليه فهمها فكان يطلب المساعدة في فهمها من القدّيس فاسيلي. يقول فاسيلي العظيم إن آدم بقي في الجنة أربعين يوماً. وكان خلالها لم يتودَّد إلى امرأته ولم يتدفَّأ بالنار. وقد أدهشَ تنوُّع المعلومات خيالَ الطفل.

لكن نطاق قراءته لم يقتصر على سجلّات اللحاء. إذ توجد فوق واحدة من الأيقونات في الزاوية الحمراء الإسكندرية، وهي قصّة قديمة عن الإسكندر المقدوني. وفي وقت ما ألَّف فيدوسي، جدٌّ كريستوفر، هذا الكتاب: إني، الآثم المقترف الخطيئة فيدوسي، كتبتُ هذا الكتاب تذكاراً للناس الشجعان، حتى لا تذهب أعمالهم طيَّ النسيان. هكذا توجَّه فيدوسي في الصفحة الأولى بالخطاب إلى ذرِّيَّته. ووجد في شخص أرسيني قارئه الأكثر امتناناً.

دفع أرسيني الأيقونة برفق جانباً وتناول بيديه الاثنتين الكتاب من الحامل. نفض الغبار عن الغلاف ومرَّر يده على جلده المسود. لم يكن ثمة غبار على الغلاف، لكن أرسيني رأى أن كريستوفر يفعل ذلك. ثم تناول الصبي المشابك ونقر عليها بصوت نحاسيٍّ هادئ. إنّي، فيدوسي... تحت الكتابة وُضِعَت صورة الإسكندر التي رسمها الجدُّ الأكبر. يجلس البطل في وضعية غير مريحة وتاجُ المُلك على رأسه.

قرأ أرسيني الإسكندرية باستمرار. قرأها جالساً على الدكّة، ومنبطحاً فوق الموقد، وحاشراً يديه بين ركبتيه، ومسنِداً رأسه على كفّه، قرأها

في الصباح وفي المساء، وفي بعض الأحيان في الليل على ضوء أعواد الخشب المشتعلة. لم يمانع كريستوفر: كان يحبّ أنْ يقرأ الصبي الكثير. وعند أوّل كلمات من الإسكندرية، يأتي الذئب بالقرب من أرسيني. يستلقي على قدميه ويستمع إلى السرد غير العادي. ويتابع جنباً إلى جنب مع أرسيني عن كثب أحداث حياة الملك المقدوني.

فمثلاً، اتضح أنه عندما وصل الإسكندر إلى الشرق، وجد هناك أناساً متوحِّشين. يبلغ طول الرجل فيهم قامَتين، ورؤوسهم (وضع أرسيني يده على رأس الذئب) شعثاء. وبعد أن سار ستة أيام في أعماق الصحراء، التقى جيش الإسكندر بأناس مذهلين، كل واحد منهم يمتلك ستة أذرع وستة أرجل. قتل الإسكندر العديد منهم، وأمسك بالكثيرين منهم أحياء. أراد أن يحضرهم إلى العالم المسكون، لكن لا أحد يعرف ماذا يأكل هؤلاء الناس، وقد ماتوا جميعاً. وكان النمل في تلك الأرض كبيراً لدرجة أنّ أحدها لو أمسك بحصان يجره إلى حفرته. وقد أمر الإسكندر بإحضار القشّ وأوقد النار فيه، فاحترق النمل. ثم بعد ستة أيام أخرى، رأى الإسكندر جبلاً رُبِطَ إليه رجلٌ بسلاسل حديدية. كان هذا الرجل طوله ألف قامة وعرضه مئتي قامة. وعندما شاهده الإسكندر اندهش، لكن لم يجرؤ على الاقتراب منه. فبكى هذا الرجل وسمع صوته من مسيرة أربعة أيام. ومن هناك وصل الإسكندر إلى منطقة فيها غابات ورأى أشخاصاً غريبين آخرين: من فوق الحزام بشرٌ، ومن تحت الحزام خيولٌ. وعندما حاول جلبهم إلى العالم المسكون، هبَّت ريحٌ باردةٌ عليهم، وماتوا جميعاً. وسار الإسكندر من ذلك المكان لمائة يوم، واقترب من حدود الكون، فشعر بالحزن.

أغلق أرسيني الكتاب الذي قرأه في المقبرة على ضوء شمس الأصيل. ولم يحلّ البرد بعد. فالصخور التي سَخُنَتْ أثناء النهار كانت تشعُّ الدفء. ولأن الصبي منبطح على بلاطة قبر فقد أحسّ به دافئاً جداً. لم يكن على بلاطة شاهد القبر اسم.

- لماذا ليس على القبور أسماء، تساءل أرسيني ذات مرة.

- لأنهم هكذا يعرفهم الرب على كل حال، أجابه كريستوفر. والذرية لا تحتاج الأسماء. فبعد مئة عام لا يعرف الناس لمن يعود القبر. ويحدث أحياناً حتى بعد خمسين سنة. بل حتى بعد ثلاثين سنة.

- هكذا هي الذكرى في العالم كلّه، أم في بلدة روكينا فقط؟

- ربما، في العالم كله. لكن على وجه الخصوص في بلدة روكينا. إننا لا نبني أضرحة من المرمر ولا ننقش الأسماء، لأن مقابرنا يمكن أن تتحول إلى غابات وحقول. وهذا من دواعي السرور.

- إذن، ناسنا ذكراهم قصيرة؟

- يمكن أن نقول، هكذا. لكن الذكرى لا ينبغي أن تكون طويلة جداً. فهذا، في الواقع، لا يفيد بشيء كذلك. إذ يحتاج الناس نسيان بعض الأشياء. فأنا أتذكّر (أشار كريستوفر إلى بلاطة من الحجر الرمادي اللون)، أنَّ هنا مدفونٌ شخصٌ يدعى يليزار فيترودوي. كان شخصاً ميسور الحال، وقادراً على أن يقتني مثل هذه البلاطة. لكني أتذكَّره من دونها. كان هذا الرجل يعرج قليلاً ويتكلم بصوت بلعوميٍّ حاد. ويتحدّث بشكل متقطِّع، ويصمت من وقت لآخر، لذلك يبدو كلامه أعرجَ أيضاً. كان يعاني من الغازات والانتفاخ. ويضرط بصوت عال، أعطيته منقوع البابونج. وأعطيته ماء الشَّبَتْ ووسائل أخرى لطرد الريح. ونَهيْتُه عن شرب الحليب الطازج ليلاً. ولأن يليزار يمتلك بقرة، فقد أحبَّ الحليبَ أكثر من الحدّ المعتاد واستمتع بشرابه في ساعات المساء. الأمر الذي سبب له ريحاً في البطن. وأحبَّ يليزار كذلك النقش على الخشب. ولم ينقش على الخشب أيٌّ شخص في بلدة روكينا أفضل منه، خاصة عندما يتعلّق الأمر بإطارات النوافذ. وكان عندما يشتغل يصدر أزيزاً. وينطق بشيء ما بصوت منخفض، كما لو كان يتحدّث مع نفسه. ويمرّر يده على شفتيه كأنه يوقف الكلام. كما لو كان خائفاً مما قيل. على الرغم من أنه لم يقل أي شيء خطير، إذا تفحصّنا كلامَه. فمثلاً،

يتحدث عن خصائص الشجرة - الحقيقة التي يعرفها كل شخص في القرية من دونه - فالجميع يعرفون أنَّ البلّوط صلب، وأنَّ الصنوبر ناعم. وهل تصدق، يا أرسيني، أنَّ الإطارات التي صنعها لا تزال معلقة، بينما لمْ يعدْ أحدٌ يتذكر يليزار. فلو تسأل شاباً: مَن يليزار هذا؟ لا يعطي إجابة. وحتى كبار السن يتذكّرونه بإبهام، لأنهم يتذكّرون من دون مبالاة، من دون حُبّ. لكن الرب يتذكره بحب، وفي ذاكرته لن يترك أي تفصيل صغير، ولا يحتاج إلى اسمه.

أرسيني مستلقٍ على بلاطة دافئة. إنَّه مستلقٍ على بطنه، وبجانبه كتاب الإسكندرية مغلقاً. تلامسُ وجهَه الأطرافُ الصفراء لزهور الحوذان (وردة الحُبّ). فيشعر بالدغدغة ويبتسم. الذئب بالكاد يهزّ ذيله بشكل ملحوظ.

- يا يليزار اضرطْ، طلبَ الصبيُّ بهدوء، مرّةً واحدة على الأقل. دعْها تكونُ الإشارة الخاصة بك من هناك.

- يليزار يصمت مستاءً.

-د-

قُتِل الشيخ نيكتاري في أيام يوليو (تموز) الخانقة. عاش الشيخ في صومعة في الغابة بالقرب من الدير. في أوقات الصباح تجلس على كتفيه الطيور، فيطعمها الخبز الذي يحصل عليه من الدير. قبل وفاة العجوز نيكتاري تعرض للتعذيب بحثاً عن المال، لكنه لم يكن لديه مالٌ. لم يكن هناك سوى عدد قليل من الكتب. أخذ اللصوص الكتب معهم، وتركوا الجسد المعذَّب للرجل العجوز في جراب بالقرب من الصومعة. في اليوم التالي عثر الرهبان المبتدئون على الجثة، واعتقدوا أنه كان ميتاً. لكن، في جسده، مع ذلك، كانت الروح ما زالت مستيقظة، لكنها بقيت من أجل كلمة واحدة فقط: صَفَحْتُ. استمرَّ الأشرارُ، الذين قبعوا بانتظار يوم القيامة، يتسكَّعون في المنطقة. فقد هاجموا المسافرين الوحيدين والمنازل الريفية المنعزلة النائية، ولم يعرف أحد كيف كان شكلهم، لأنهم لم يتركوا أحداً يغادرهم حياً.

ولكن في أحد الأيام قتلوا رجلاً يمشي مع كلبه. خلعوا عنه ملابسه وتركوا الجثة ملقاة على الطريق، وبقي الكلب لحراسة سيده. وعثرَ على الجثَّة رجلٌ رحيم، يمتلك حانة على جانب الطريق. تَلا صلاةً من أجل راحة عبد الله، الذي يعلم الله ما اسمه، وواری الجسدَ العاري الثَّرى. فتبعه الكلب، بعدما رأى الرحمة الظاهرة، وبقي عنده في الحانة.

وفي أحد الأيام حاول أحد السكارى دخول الحانة، فنبح الكلب

بيأس، ومنعه من الدخول. وعندما تكرر ذلك عدة مرات، تذكروا حكاية هذا الكلب وشكّوا في أنَّ ثمَّة شيء ما غير صحيح.

فقد ضُبِط الرجل وأُخضِع للتعذيب بالماء. وبعد أنْ أُلقي في البحيرة، صار يغرق، فاعتقد الجميع أنّ الموضوع كما ادَّعى، وأنه بريء، ولكن بعد لحظة طفا فوق تموجات البحيرة وأخذ يسبح وكأن شيئاً لم يحدث. وصرخ قائلاً إنَّ الكحول يسنده على السطح، الذي هو أخف من الماء، لكن الجميع فهموا أنَّ الذي أسنده روحٌ شريرة.

وعندما بان ذنْبُه للجميع أُخضِع للتعذيب بحديدة ساخنة، وهذا ما لم يستطع تحمله كذلك، فقد أوضحت طبيعة الحروق، أنه يكذب. وعندما تعرَّض للكَيِّ الشديد الذي يستحقُّه، قال إنّ الأشرار الآخرين وعددهم ثلاثة ينبغي البحث عنهم في قرية مهجورة على بعد خمسة فيرستات من هنا. فركض الناس الخمسة فيرستات كلها كأنها فيرست[1] واحد. وطوَّقوا القرية كي لا يغادرَها أحد. في الكوخ الأول وجدوا اثنين، وبحوزتهم الكتب التي أخذوها من الشيخ. وبمجرَّد أنْ قيَّدوهم، قتلوهم بحيث لم يلاحظوا كيف جرى ذلك. وما إن عادوا إلى المكان حتّى وجدوا أنَّ الذي قُبِض عليه أولاً قد فارق الحياة من جرّاء التعذيب. ولمّا كانوا من المحبِّين للبشر تنفَّسوا الصعداء، لأن الموتى أُعطوا الأملِ ليوم القيامة - إنْ لم يجدوا العذر (على قتلهم للقدّيس)، فسيستحقون العطف، ولأنَّهم تعرَّضوا للتَّعذيب في هذه الدنيا، فسيكون من شأنهم أنْ يُقلِّل من عذابهم هناك.

لكن الشرِّير الرابع لمْ يُضبَط. وقد حاولوا أنْ يمسكوا به، ولكن هذا كان أمراً صعباً، لأنه لم يكن معروفاً شكلُه، ولا مَن هو بشكلٍ عام.

- من هو، سأل أرسيني في حزن.

- إنه رجلٌ روسيّ، ومَن غيره إذن، أجاب كريستوفر. إذ لا يوجد غيرهم هنا، كما يبدو.

1- الفيرست - مقياس روسي قديم للطول يعادل 1060 متراً - المترجم.

وفي أحد الأيام، عند حلول الغسق، لاحظا حركةً في المقبرة. بل الأدقّ، أنّهما أحسّا بالحركة. إذ أوحَتْ مقبرة القرية الصامتة بالقلق والاضطراب. ومَضَ ظِلٌّ فتراءى لأرسيني أنّه ظِلٌّ لأحد الموتى، ولكن كريستوفر دعاه لأن يهدّئ من روعه وأنْ يتماسك. إذْ إنَّ العجوز يعرف أنَّ مَن ينبغي الخوف منهم هم الأحياء. لأنَّ جميع المشاكل التي وقعت له قد حدثت بسببهم ومنهم. ومن دون أن يشرح لأرسيني، أمَرَه أن يترك المنزل من دون أن يلاحظه أحد وأن يذهب إلى البلدة وينادي الناس.

– لنذهب معاً، يا جدي لا حاجة للبقاء هنا.

– كلّا، قال كريستوفر، وهو يشعل خشبة إضاءة. أنا بحاجة للبقاء هنا، حتى لا نثير شكوكه. اذهبْ يا أرسيني.

خرج أرسيني.

وبعد دقيقة واحدة ظهر مرة أخرى في الباب. ودخل بسرعة، وكأنَّ قوة غريبة حملته. هذه القوة بدت على الفور لكريستوفر كذلك. فقد وقف خلف أرسيني شخصٌ، وسرعان ما عرفه العجوز. إنّه الموت. لقد فاحت منه رائحة جسمٍ قذِر، وثِقلٍ غير بشريّ، يثير الرّعب في الروح. إنه النوع الذي تشعر به جميع الكائنات الحية. وبسببه تحوم الطيور خلف النافذة، فوق الأشجار وتسقط قبل الأوان. انسلَّ الذئب تحت المقعد وذيله بين ساقيه.

أراد الطائر أن يطير بعيداً، لكنه لم يبتعد كثيراً.

قال ذلك بصوت خشن أجش. وهو يحكّ لحيته المتساقط شعرها. وبعد تردّد، أزلق الترباس في الباب. واقترب من كريستوفر، حتى أحسَّ الرّجلُ بنَفَسِه الكريه.

– ما يخيفك، يا ابن بلدتي؟

– هل تؤمن بالمسيح، سأله كريستوفر بحزم.

– إننا جهلة، وكما يقول المثل نعيش في الغابة، ثور الله في برسيمه.

هذا هو إيماننا. ومع ذلك، يا ابن بلدتي، نحن بحاجة إلى المال. ابحث لنا، عساكَ تجد شيئاً.

- من أين لكَ أنّي ابن بلدتك؟

غمز الرجل الداخل بعينه. إنك ابن بلدتي لأنك تنتمي بالفعل إلى الأرض. (وأخرجَ سكيناً من ساقِ الحذاء). سأرسلك إلى هناك.

- سأعطيك المال، واذهبْ في حفظ الله. لن نخبر أحداً عنك.

- إنكم بكل الأحوال لنْ تخبروا أحداً. (ابتسم من دون أسنان، واستدار وضرب أرسيني بمقبض السكين فسقط أرسيني). استعجلْ، يا ابن البلدة: وإلّا سأضرب بالشَّفْرة.

لوَّح بيده بشكل مبالغٍ فيه.

فقفز الذئب.

قفز الذئب وتعلَّق بالرَّجُل القادم من ذراعه. تعلَّق به بعد أن تشبَّث به فوق المرفق واستند ببراثنه على جانبه. كانت تلك يده الخالية من السكين. انغمست اليد التي فيها السكين عدة مرات في فروة الذئب، ولكن الذئب استمر في التعلُّق. وضغط فكَّيه بكل قوَّة وإلى الأبد. عند ذاك سقط السكِّين. وامتدَّت اليد اليمنى بحركة آليّة لا روح فيها لمساعدة اليد اليسرى. وأمسكت الذئب من عنقه وبدأت تجره عن الجسد المتألِّم. امتدَّ بوز الذئب مثل القناع المسحوب. وتحوَّلت عيناه إلى كرتَين بيضاوَين. وصارتا تنظران إلى مكان ما في السقف وتعكسان نار عود الإشعال.

التقط كريستوفر السكّين، ولكنّ الشخص الذي جاء لم يفكّر في السكين. وجعل يقتلع الذئب من نفسه وأخيراً استطاع أن يقتلعه. ماذا بقي للذئب في فمه - قطعة من قميص؟ قطعة من اللحم؟ من العظام؟ حتى الذئب نفسه لم يكن يعرف هذا. استلقى على الأرض وجعل يزمجر، من دون أن يفتح فكَّيه ويكشف عن أسنانه. لكن ذلك لم يكن اليد، لأن الزائر

غادر، على ما يبدو، ولديه يد. كان شيءٌ ما معلقاً على كتفه، لكن ما هو بالضبط - لم يعد من الممكن إدراك كُنْهِه. إنَّ ذلك الشيء معلَّقٌ مثل سوط طويل بشكل ضعيف ومسلوب الإرادة. وحتى أنَّ أرسيني اعتقد أنه قد يسقط في أي لحظة. كافح الزائر عند الباب ولم يتمكَّن بعد من الخروج. فأمسكَ به كريستوفر من يده وفتح الترباس. خرج، وضرب رأسه عند عتبة الباب. واصطدم في الممر مرّة أخرى. وخشخشَ بخطوات صغيرة على أوراق الخريف. هدأ. واختفى. ثم تلاشى.

- المجد لك، يا ربّ، في عُلاك، لأنك لمْ تتركنا.

جثا كريستوفر على ركبتيه وظلَّل على نفسه رايَة الصليب. وانحنى على أرسيني. كان الصبي لا يزال ملقى على الأرض، وقد لطَّخَ الدمُ خدَّه وشعرَه. بدا الدم على شعر أرسيني الأشقر ساطعاً للغاية - حتى بوجود ضوء عود الإشعال.

- ثمَّة شَجٌّ على الحاجب فقط، لا بأس. ساعدَ كريستوفر أرسيني في النهوض. سنُلصِقُه الآن بغِراءٍ من عشبة لسان الجمل.

- انتظرْ، أوقَفُه أرسيني. انظرْ ماذا حلَّ بالذئب.

كان الذئب مستلقياً في بركة من الدم. ولمْ تبدرْ منه حركة. فتح كريستوف فمَه وأخرج شيئاً فظيعاً. ومن دون أنْ يريَه لأرسيني، أخرجه من الكوخ. وعندما عاد كريستوفر، حرَّكَ الذئب ذيله.

- إنه ما زال على قيد الحياة، ابتهج أرسيني.

- أهو حيّ؟ تفحَّص كريستوفر الذئبَ، وهو يلهث. لا أرى حياة دائمة فيه. ليس فيه سوى علامات قصر الأجل.

ارتجف الذئب قليلاً، ورأسه ممدود على قائمتيه.

- أنقذْه، يا جَدّ.

أخذ كريستوفر سكِّيناً وقصَّ الشعر حول جروحه. وبعد أن سخَّن مزيجاً من الزيوت الطبية، ووضعها بعناية على نسيج اللحم المشجوج.

تحرك الذئب، لكنه لم يرفع رأسه. ورشَّ كريستوفر الأجزاء المحلوقة من جسم الذئب بأوراق مسحوقة من شجرة البلوط، وقام بتغطيتها بقطع من لحم الخنزير المقدَّد المسخَّن بعد التجميد وبدأ يلفُّها بقماش من الكتان. وكان أرسيني يرفع الذئب، ويقوم كريستوفر بتمرير القماش تحته. لم يُبدِ الذئب أيَّ مقاومة. ولم يكن جسدُه رخواً، كما هو الآن، أبداً. وعضلاته لمْ تعد لديها مرونة. كانت عيناه مفتوحتين، لكن لم ينعكس أيُّ شيء فيها، باستثناء الألم.

أوقدَ أرسيني الموقد، وأحضر كريستوفر القشَّ من السقيفة. وقاما بوضع القشّ قرب الموقد وحملا الذئب إليه. جعل الذئب ينظر إلى النار من دون أن تطرف له عين. فالنار لم تعد تثير اضطرابه.

شعر أرسيني أنه لم يعد لديه قوة. فجلس على الدكّة وأسند يديه إليها. آخر شيء تذكَّره هو لمسة كريستوفر المهدِّئة، الذي وضع وسادة تحت رأسه.

وعندما استيقظا في الصباح، لم يكن الذئب في الكوخ. وامتدَّ مسار الدم من الفرن إلى الباب، ومن هناك إلى الفناء. ثم ضاع في أوراق الشجر المتعفِّنة الزلقة على الطريق.

- لا يمكن أن يذهب بعيداً، وسوف نعثر عليه. نظر أرسيني في كريستوفر. لماذا أنت صامت؟

- وقال كريستوفر: إنه ذهب لكي يموت. ذلك من سمات الحيوانات.

وبإصرار مِن أرسيني ذهبا للبحث عن الذئب. لم يعرفا أين يبحثان عنه، فتوجَّها إلى المكان الذي التقيا به ذات مرّة. لكن الذئب لم يكن موجوداً هناك. كما ذهبا إلى أماكن أخرى مألوفة للذئب، لكن لم يجداه. انحدر النهار الخريفي القصير نحو غروب الشمس.

وفي عتمة الغسق رأيا الرجل الذي وفد عليهما في الغداة. ابتسم لهم بفَكِّه المتهاوي واستقبلهم فاتحاً حضنه لهم. لم تكن في هذا الحضن

بساطة. ففي هاتين اليدين المُشَرَّعَتين تسمَّرَت بقايا ألم سكرة الموت. وسعيٌ يائسٌ للنهوض. حاول أرسيني ألّا ينظر إلى الفوضى الرهيبة في مكان يده اليسرى، ولكن بصره رجع بعناد ليقع بالضبط هناك، حيث برز بياض العظم تحت الكتف. فاليد التي جرحها الذئب قد أُكِلَت بالفعل. لم يكن ثمَّة شكّ في أنَّ ظهورهما قد قطع عشاءَ كائنٍ ما. عندما اقترب كريستوفر جداً من المُتوفّى، تقيَّأ أرسيني.

- سيكون الأمر أسهل الآن، قال كريستوفر.

لم يتحدثا تقريباً حتى وصلا إلى المنزل. وعندما اقتربا من المقبرة، قال أرسيني:

- لا أعرف كيف ذهب الذئب في ذلك القماش. فالأمر صعب جدّاً.

- صعب، أكَّد كريستوفر.

دفن أرسيني وجهه في صدر كريستوفر وأجهش بالبكاء. وخرجت كلماته مع النشيج. انطلقت على شكل دفعات، متقطِّعة وبصوتٍ عال. كاسرة بذلك صمت المقبرة.

- لماذا ذهب ليموت؟ لماذا لم يمتْ بيننا، نحن الذين أحببناه؟

مسح كريستوفر دموع أرسيني بلمسات حنان. وقبَّلَه على جبينه.

- هكذا حذَّرَنَا مِن أنَّه في اللحظة الأخيرة سيبقى الجميعُ وحدَهم مع الله.

-ذ-

في عيد شفاعة السيدة العذراء قرر كريستوفر أن يتناول القربان المقدَّس في دير القدّيس كيريل. اتفق على الرحلة مع أبناء البلدة الذين زاروه. وفي الليلة التي سبقت العيد وصلت عربة لتنقل كريستوفر وأرسيني. وكان يجلس فيها أربعةُ أشخاصٍ آخرين، متوجِّهين لقضاء العيد في الدَّير. تبادلوا التحيّات، وكانت تخرجُ من أفواههم أربعُ تيَّارات من البُخار. وبعد ذلك، طوال الطريق كلّه، لم ينطقوا بحرف واحد، محتفظين بالكلمات للاعتراف القادم. وردّاً على صمتهم رنَّت حوافر الخيل على الأرض المتجمِّدة. وتحت إطارات العجلات قرقعتْ قشرةُ الثّلج المتجمِّدة. فقد ضرب الصقيعُ في اليومِ السابق، وتجمَّد الطين على شكل أخاديد وركام، جاعلاً الطريق محزَّزاً كأنه لوح غسيل الملابس. سمع أرسيني طقطقة أسنانه. ولكي لا يعضّ لسانه، حاول أن يضغط فكَّه بإحكام. ولم يلاحظ كيف استولى عليه النعاس ونام.

استيقظ لأن العربة توقفت. وكانت حواف غائرة من السحاب مضاءة بالقمر. وبانت الصلبان عبر السحاب الذي قطَّعته إلى أجزاء. وعندما نظر أرسيني إلى القِباب الكبيرة المعتمة، اعتقد أنه لم يرَ مثل هذه المباني المرتفعة في أيِّ مكانٍ آخر. وفي عتمة الليل بدت أكثر أهمية وغموضاً مما هي عليه في النهار. إنَّ هذا هو بيت الله. وقد شعَّ من الداخل بضوء مئاتٍ من الشموع.

إنَّ أوَّل ما فعله القادمون أنْ ركعوا للقدّيس كيريل الذي مضى على

وفاته ثمانيةٌ وعشرين عاماً. ثماني سنوات على يوم تمجيده. وبعد أنْ وضع كريستوفر وأرسيني الشموع على ضريح الراهب، تراجع كريستوفر إلى الإضاءة الخافتة. ومن هناك استمعا إلى نهاية قدّاس مساء عشيّة العيد. ومن هناك، شاهدا كيف ظهر في وسط الهيكل الشيخ نيكاندر وبدأ يهيِّئ القادِمين للاعتراف.

وبعد أنْ تلا الشيخ الصَّلوات أخرج من ردائه الكهنوتي كتاباً صغيراً - بحجم الثُّمن - بعنوان **الخطايا المتوسِّطة الوطأة، الخاصَّة بعامَّة المؤمنين وبالرُّوحانيِّين**. الخطايا الصغرى لم ترد في الكتاب، لأنها لم تكن تعتبر جديرة بأن تُذكَر بصوت عال. (توبوا عنها مع أنفسكم، هكذا علَّم رعيته، ولا تصدِّعوا بها رأسي. فبمثل هذه السفائف، لا يمكنكم أن تصلوا إلى الشيء المهم!) والخطايا الكبيرة لم يكتبها العجوز خوفاً من استمرارها. وطلب أنْ تُقال له في أذنه وفي هذه الأذن دفنها إلى الأبد.

كان من بين الخطايا المتوسطة الخطورة: الوصول متأخِّراً للقدَّاس في الكنيسة، أو، على العكس، الخروج المبكر من القدّاس. والحديث خلال القدّاس. والتجوال في الكنيسة. والتأمُّل بأشياء جانبية. وعدم مراعاة الصوم حسب ما ينبغي. والاستغراق بالضحك حتى خروج الدموع. والسباب، واللغو، والغمز، والرقص مع المهرِّجين. وتطفيف المكيال والميزان والغبن في القياس للمشتري. وسرقة القش، والبصق في الوجه، والضرب بالسكين. والقيل والقال، وغيبة الراهب، والشراهة، والسُّكْر، واستراق النظر للَّذين يسْبَحُون. شعر أرسيني أنَّ النعاس يستولي عليه مرَّة أخرى، وقائمة العجوز نيكاندر ما تزال في البداية فقط.

وقرب حلول الصباح، بعدما تحوَّلوا إلى الاعتراف الشخصيّ، لم يكن لدى أرسيني وكريستوفور أيُّ شيء ليضيفوه. وكانت حالات الحياة، التي لم يذكرها الشيخ نيكاندر، كما تبيَّن، قليلةٌ بشكل مفاجئ. وبعد الاعتراف، توقَّف كريستوفر ونظر في عينيّ العجوز.

- ماذا تريد أنْ تقرأ في عينَيَّ، سألَ الشيخ.

- أنتَ نفسك، يا أبتِ، تعْلَم.

- سأخبرك فقط أنَّ الحساب لا يجري بالسنوات، ولا حتى بالأشهر. خذْ هذه المعلومات بهدوء، وبعزم، كما يليق بمسيحيٍّ حقيقيّ.

أومأ كريستوفر برأسه. ورأى في الجانب الآخر من الكنيسة كيف يجلس أرسيني المتعَب القرفصاء قرب العمود. ولأنَّ الأبواب مُشرَّعة، هبَّت ريحٌ، وتدحرج الشمعدان الذي فوق رأسه. فرفرفت شعلة الشموع، وامتدَّتْ، لكنها لم تخفت. ومن خلال رطوبة الرياح، عرف كريستوفر أنَّ الجو عند نهاية الليل أصبح أكثر دفئاً. وسمع صراخ دِيكَة بعيدة، ولكن خلف جدران الهيكل كالسابق يتبدَّد الظلام، الذي تشطرُه إلى مربَّعات مرتَّبة مشبكاتُ النوافذ.

-ر-

بعد عودته من الدَّير، تفحَّص كريستوفر المنزلَ بعناية. وبعد يومين جُلِبَتْ من البلدة جذوع وألواح حسب طلبه. وقام كريستوفر وأرسيني بتدعيم هيكل السقف بعوارض خشبية رباعية الجوانب، وبدَّلا الإطارات العلوية، التي تفسَّخت بسبب المطر والأبخرة الدافئة. وفحص كريستوفر وصلات المفاصل بين جذوع هيكل الكوخ وفي الكثير من الأماكن سدَّ من جديد الشقوق بالكتان وبأعشاب الطحلب الحزازية. ثم استبدل ألواح الأرضيات بأخرى جديدة. فانتشر إلى جانب رائحة الأعشاب في الكوخ، عطر خشب الأشجار المقطوعة حديثاً. أحسَّ أرسيني في عمل كريستوفر عجلةً، ولكنه ساعد جدَّه، ولم يسأله أي شيء.

وعندما حلَّ الغسق امتحن كريستوفر أرسيني بمادة معرفة الأعشاب. في الحالات الضرورية، صحَّح إجاباته أو أضاف إليها، ولكن تلك الحالات كانت قليلة. وتبيَّن أنَّ كلّ ما قاله يتذكَّرُه أرسيني تماماً.

وفي بعض الأمسيات، تفقَّدَ كريستوفر الكتب والرسائل التي كانت لديه. بعض الأشياء قلَّبها بسرعة، وتوقف عند بعض الصفحات وقرأها، كما لو كان يتأمَّل فيها. وكان يحرك شفتيه. وأحياناً يرفع بصره عن الورقة وينظر في المشعل لمدة طويلة. وقد أثار هذا دهشة أرسيني، لأنَّ العادة جرت في المنزل أن تتم قراءة كل شيء بصوت عال.

- ماذا تقرأ، يا كريستوفر؟

- صحائف إبراهيم، إنَّها ليست من الكتاب المقدس.

- اقرأْ بصوتٍ، وسأستمع إليك.

قرأ كريستوفر، بعد أن وضع المخطوطة بعيداً عن عينيه على طريقة كبار السن. قرأَ عن كيفية إرسال الربّ إلى إبراهيم كبيرَ الملائكة ميكائيل.

قال الرب:

قل لإبراهيم، حان الوقت لأن يغادر هذه الحياة.

ذهب رئيس الملائكة ميكائيل لإبراهيم وعاد مرة أخرى.

وقال إنه ليس من السهل إبلاغ إبراهيم، خليل الله، بوفاته.

وعند ذاك كشف كلّ شيء في حلم إسحق بن إبراهيم. ففي منتصف الليل قام إسحق، وبدأ يطرق غرفة أبيه، قائلاً:

افتح لي يا أبي، لأنّي أريد أنْ أرى أنك ما زلت هنا.

عندما فتح إبراهيم الباب، اندفع إسحق إلى عنقه، وأخذ يبكي ويُقبِّله. ورأى رئيس الملائكة ميكائيل، الذي باتَ في منزل إبراهيم، أنهم يبكون فجعل يبكي معهم، وكانت دموعه كالحجارة.

بكى كريستوفر كذلك. وبكى أرسيني، وهو يشاهد كيف سطع الحبر في قطرات دموع كريستوفر على الورقة.

وأمر الرّب رئيس الملائكة ميكائيل أنْ يزيِّن الموت، الذي يذهب إلى إبراهيم، بجمال عظيم. فشاهد إِبْرَاهِيمُ كيف يتقدَّم إِلَيْهِ الْمَوْتُ فخاف كثيراً وَقَالَ لِلْمَوْتِ:

أتوسَّلُ إليك أن تُخبرني، مَن أنت؟ وأرجوك، ابتعد عني، لأنني عندما رأيتك، انتاب روحي الاضطراب. لا أستطيع أن أتحمل مجدك وأرى أن جمالك ليس من هذا العالم.

في الليل، عندما ينام الصبي، كان كريستوفر يكتب على لحاء أشجار البتولا عن خصائص الأعشاب، التي لم يكتشفها حفيده بعد بصورة كاملة بسبب صغر سنه. كتب عن الأعشاب التي تسبب النسيان، وعن الأعشاب التي تهيِّج أفكار الفراش. وعن الشَّبَتْ الذي يعالج البواسير،

وعن عشبة تشيرنوبيل ضدّ السحر، وعن البصل المسحوق لعلاج عضّة القطّ. وعن عشبة الببغاء التي تنمو في الأراضي المنخفضة (احملْها معك عندما تريد الذهاب لطلب المال أو الطعام؛ وإذا كنت تنوي الطلب من ذكر ضعها على الجانب الأيمن من العبّ، وإذا تنوي الطلب من أنثى، على الجانب الأيسر. وإذا لعب المهرجون، ارمِ هذه العشبة تحت أقدامهم، وسوف ينجذبون). ولطرد الغواية والأحلام الضالة اشربْ مغليَّ الخُزامى. لاختبار العذرية - الماء الذي يوضع فيه العقيق لمدة ثلاثة أيام؛ بعد شرب ماء العقيق، فإنَّ المرأة الفاقدة للبكارة لا تحتفظ بذلك الماء في داخلها. والفيروز، إذا حملتَه معك، يحميك من القَتْل، لأنَّه لمْ يُرَ هذا الحجر أبداً على شخص مقتول. والحجر من معدةِ الدِّيك يعيد ما يأخذُه عدوُّ الدَّولة. ومن يحمل المغناطيس، ستحبُّه النساء. الفرك بالذهب وتناوله يشفي أولئك الذين يتحدثون إلى أنفسهم، ويسألون أنفسهم، وهم أنفسهم يجيبون، ويسقطون في اليأس. رئة الخنزير البري تجفَّفُ وتُطحَن وتُذاب في الماء. من يشرب هذه المياه لنْ يسْكَر في الولائم. هذا كل شيء.

وفي أحد صباحات شهر ديسمبر (كانون الأول) من عام 1455، لم يغادر كريستوفر سريره، خلافاً للمعتاد. نهض وجلس عليه، لكن لم تكن لديه القوة الكافية لكي يتحرك أبعد. قال كريستوفر للوافدين إليه لحاجة ما:

لا تقولوا إننا مرتبطون بالحياة، لا بد أن نفارق الأحياء. ومهما استرخينا واستمتعنا، كل شيء سيفقد قيمته، وسيحل بنا عاجلاً أم آجلاً الموت وسيأتي يوم القيامة والحياة الآخرة.

غادر الوافدون عليه.

وقبيل الظهر، ساعد أرسيني كريستوفر على الخروج لقضاء الحاجة. عندها فقط أدرك أنّ العجوز غير قادر على المشي تقريباً. بعد أن ألقى أرسيني يد كريستوفر على كتفه، جرّه عبر الفناء. وكانت رِجْلا كريستوفر تَخُطَّان على الأرض من غير حولٍ ولا قوة. وحسب عادته القديمة في

المشي كانتا لا تزالان تتحركان على التوالي. وقد جرفتا الثلجَ الطّازج النازل للتوّ. وعند العودة إلى الكوخ سألَه أرسيني:

- ماذا أعطيك يا جدي؟

- دعني ألتقط أنفاسي، يا بُنَيّ (جلس كريستوفر محدودب الظهر على حافة السرير. والعرق ينضح على جبينه) دعني أجذب أنفاسي.

- استلقِ، يا جدي.

- إذا استلقيت سأموت على الفور.

- لا تمتْ، يا جَدّ، لأنني سأظلُّ وحيداً في هذا العالم.

- أرجوك، يا بُنَيَّ، لا تخشَ موتي. إنَّ قلبي يتمزق من الأسى، ومن الصعب عليَّ أن أتركك، لكّنني أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ، كما يقولُ الأنبياء، وسأعتمد عليه. من الآن فصاعداً سوف يكون هو جدّك. وإنْ تركتُ هذا العالم، يا أرسيني، عالِجْ الناسَ بالأعشاب، وبذلك سوف تُطعم نفسك. والأفضل أنْ تذهب إلى الدير، كُنْ هناك واقتبس من نور الرب. ستسمع ما أقوله وتنفِّذه؟

- لا تمُتْ، يا جَدّ، لا تُمتْ... تنهَّد أرسيني واختنق.

- فماذا عليَّ أنْ أفعل، صاح كريستوفر بكلّ ما تبقّى لديه من قوة، إنْ كنتُ سأموت، بمجرّد أنْ أستلقي؟

- سأسندك، يا جد.

بقي كريستوفر جالساً على السرير لمدة ثلاثة أيام وليلتين، بعد أن أنزل ساقه إلى الأرض ومدّد الثانية على طول المقعد. وقد ساعده أرسني في الحفاظ على وضعيَّته في الجلوس. فقد أسند بظهره ظهرَ جدِّه، ونظّم ضربات قلبِ جدِّه من خلال التصاقه بقلبه. واستعاد تنفُّسَه المتسارع. لمْ يبتعد الصبيُّ عنه سوى عِدَّة مرَّات ولمدَّة قصيرة - لشرب رشفة من الماء وللذَّهاب لقضاء الحاجة. وفي اليوم الثالث، جاء الشيخ نيكاندر من الدَّير وأمرَ أرسيني بمغادرة الكوخ. ومكثَ هو مع كريستوفر لمدَّة طويلة. وعندما غادر، شاهدَ كيف يسند أرسيني كريستوفر. فقال:

- اتركْه، يا أرسيني. فهو بسببك لا يجرؤ على المغادرة.
لكنَّ أرسيني أسند ظهره على ظهر جدِّه بشكل أقوى.
- ابقَ مستيقظاً معه حتى منتصف الليل، قال له الشيخ، ثم اتركْه.
وفي منتصف الليل تقريباً اعتقد أرسيني أنّ كريستوفر شعر بتحسُّن. وأنه لا يتنفّس بصعوبة. رأى أرسيني ابتسامة جَدِّه، وتفاجأ أنه يستطيع أن يرى الابتسامة بظهره. وتابع بارتياح كيف سار جدّه في الغرفة ولمس عشبة الأرنب (الزهرة الخالدة) المعلَّقة في الزاوية. فاهتزَّت من ذلك جميع الأعشاب المعلَّقة تحت السقف. واهتزَّ السقف نفسه أيضاً. وبعد أن مسَّد على خدّ الصبيّ النائم، قال كريستوفر للربّ:
- أُسلِّمك روحي بيديك، ارحمْني، يا ربّ، وأعطِني حياةَ الخلود. آمين.
ورسم إشارة الصليب، واضطجع بجانب حفيده وأغمض عينيه.
استيقظ أرسيني في الصباح الباكر. نظر إلى كريستوفر مستلقياً بجانبه. استنشق الهواء كله الموجود في الكوخ وصرخ. وبعدما سمع الشيخ نيكاندر الصرخة في الدير، قال لأرسيني:
- لا تصرخ بصوت عالٍ هكذا، فموتُه كان هادئاً.
وبعدما سمع الناس الصرخة في البلدة، أرجَؤوا مشاغلَهم المعيشيَّة وتوجَّهوا نحو منزل كريستوفر. إنَّ ذكرى أعمال كريستوفر الجيّدة أنقذتْ أجسادَهم التي تعافتْ من المرض.
بدأ اليومُ الأوّل من دون كريستوفر، وقد بكى أرسيني طوال النصف الأول من هذا اليوم. وكان ينظر إلى أهالي البلدة القادمين، لكن الدموع أعاقته عن تمييز وجوههم. وقد نام أرسيني، الذي هدَّت المصيبةُ قواه، في النصف الثاني من اليوم.
عندما استيقظ، كان اللّيل قد حلَّ بالفعل. وتذكَّر أنَّ كريستوفر لم يعد في الوجود، فبكى من جديد. كان كريستوفر مستلقٍ على الدكّة، وعند

رأسه وُضِعَت شمعة. وشمعة أخرى أضاءت الكتاب الخالد، الموضوع سابقاً على الرّف. الشمعة يمسك بها الشيخ نيكاندر. وقف وظهره لكريستوفر وأرسيني، وبصوت مهموس يقرأ الكتاب للأيقونات.

- هاكَ، اقرأْ، قال الشيخ من دون أن يلتفت، أمّا أنا سأنام قليلاً. وأرجوك، كفَّ عن النحيب، من فضلك.

أخذ أرسيني الشمعة من يدي الشيخ ووقف أمام الكتاب. ورأى من زاوية عينه كيف دفع العجوزُ كريستوفرَ، وجلس هو نفسه إلى جانبه على الدكّة. خطوط المزامير لا تزال طافية أمام عينيه، لكن صوته لم يُسمَع. تنحنح أرسيني وبدأ يقرأ. تطأ الأفعى وملكَ الحيات؛ وتسحق الأسد والتنين. قرأ أرسيني وفكر في أنَّ هذه الأفعال قد تكون مخصَّصة لأنْ يقومَ كريستوفر بها. واستدار أرسيني نحو العجوز نيكاندر.

- مَنْ هو ملك الحيّات هذا؟

لكن الشيخ كان نائماً. وضع كتفه إلى جانب كتف كريستوفر، وكانت أيديهما كليهما مثنيَّة على الصدر، وأنفاهما يلمعان بخفوتٍ على ضوء الشمعة. كان كلاهما ساكناً من غير حركة على حدّ سواء، ويبدو أنّ كلاهما ميْت. لكنّ أرسيني كان يعلم أنَّ كريستوفر هو الوحيد الذي مات. كان الموت المؤقَّت لنيكاندر مظهراً من مظاهر التضامن. ولدعم كريستوفر، قرَّر أنْ يخطو معه الخطوات الأولى نحو الموت. لأن الخطوات الأولى هي الأصعب.

-ز-

جنازة كريستوفر جرت في اليوم التالي. وعندما أُهيل التراب على القبر، قال الشيخ نيكاندر:

- عاش أيام حياته في منزل بالقرب من المقبرة، وأيام وفاته سوف يقضيها في مقبرة بالقرب من المنزل. أنا واثق بأنّ مثل هذا التناظر ليس بوسع المرحوم إلا أن يرحب به.

كانت المقبرة هادئة. فمنذ الوباء الأخير نادراً ما يزورها أحد، لأن أولئك الذين جاؤوا إلى هنا من قبل، الآن يعيشون في أماكن أخرى. ومع انتقال كريستوفر إلى المقبرة، أصبح هدوؤها شاملاً.

بعد الجنازة، دعا أهالي البلدة الخيِّرون أرسيني إلى الانتقالِ إليهم، لكنَّ أرسيني رفض.

وقال إنَّ ذكرى كريستوفر يجب أنْ تبقى محفوظة في مكان إقامته الأخيرة، الذي رتَّبه قدْرَ استطاعته. فهنا، كل جدار، قال، يصون دفء نظرته ونعومة لمسته. وتساءل: كيف يمكنني أن أغادر هذا المكان؟

لم يتمكّنوا من إقناعه. وكان معلوماً للجميع، أنَّ الأفضل له أن يبقى مقيماً في منزل كريستوفر. وبالتالي يظلّ محفوظاً محلُّ التداوي المعروف والمعتاد عليه. ولأن أرسيني استمرَّ يعطي الأدوية اللّازمة من منزل كريستوفر فقد غدا نفسه في أعين الناس كريستوفر من دون أنْ يشعروا. وحتى الطريق الذي يسلكه أهالي البلدة للحصول على العلاج أوحى لهم في وعيهم بشكل راسخ أنّ كل شيء بقي على حاله.

هذا الوعي يُبَسِّط على الفور العلاقة بين الطبيب ومرضاه. فالرجال والنساء على حد سواء كانوا يتجردون من ملابسهم أمام أرسيني بالسهولة نفسها التي كانوا يشعرون بها عندما يخلعون ملابسهم أمام كريستوفر. وفي بعض الأحيان يبدو لأرسيني أنّ النساء يفعلن ذلك حتى أسهل من الرجال، وعند ذاك يشعر بالحرج. في بداية الأمر كان يلمس أجسادهم بأطراف أصابعه، ولكن - لأنّ الكلام يدور عن جسد مريض - سرعان ما صار يضع يده كلَّها عليه من دون حرج، وإذا لزم الأمر، ضغط عليه وقلَّصه.

إنَّ إجادة وضع اليد، وتسكين الألم بوضع اليد حدَّدت إلى درجة ما أوَّل لقبٍ لأرسيني - الروكيني (صاحب اليد المباركة، والمنحدر من بلدة روكِينا). كان هذا اللقب، في الحقيقة، معهوداً في تلك الضواحي. فهكذا الغرباء كانوا يدعون أهالي بلدة روكينا. والوافدون من بعيد كانوا يدعون كريستوفر كذلك بهذا اللقب.

بالنسبة لسكان البلدة، لم يكن هذا اللقب منطقياً، لأنهم جميعاً كانوا روكينيِّين. لكن الأمر مختلف مع أرسيني. فحتى داخل البلدة نفسها، يدعونه الروكيني. وكان يُنظر إلى هذا على أنه نوع من التشريف بالمواطنة الفخرية، كما فعل المقدونيّون عندما لقَّبوا إسكندر المحبوب لهم - الإسكندر المقدونيّ. وعندما وصلت شهرة أيدي أرسيني المذهلة إلى الأقاليم التي لم تسمع يوماً ببلدة روكينا (وتلك الأقاليم كثيرة)، فقدَ اللّقبُ مرّةً أخرى معناه. وآنذاك صار أرسيني يُسمَّى الطّبيب.

اكتسبت الكفوف الطفولية المكتنزةُ للمراهق أرسيني ملامحَ نبيلة. فقد انبسطت أصابعه، حتى كادت تتجاوز المفاصل، وتحت الجلد توترت عروقٌ لم تُعهَد من قبل. مما جعل حركة اليدين سلسة، والإيماءات معبِّرة. إنهما يدا موسيقيّ، حصل على أكثر الآلات إثارةً للدهشة - جسم الإنسان، كهديّة.

وعندما تلامسُ يدا أرسيني جسدَ المريض، كانتا تفقدان خاصيَّتهما

الماديَّة، وكأنهما تسيلان. فيهما ثمَّة شيء مهدِّئ ومن سمات الينابيع. كان يصعب على الوافدين إلى أرسيني في سنواته الأولى القول ما اذا كانت لمسته فيها الشفاء، ولكنهم كانوا مقتنعين بالفعل أن هذه اللمسات لطيفة. ولأنَّ هؤلاء الناس اعتادوا على حقيقة أن العلاج عادة ما يكون مصحوباً بألم، ربما، انتابتهم، في أعماقهم، الشكوك بجدوى تأثير العلاج اللطيف. ومع ذلك، لم يمنعهم هذا. أوّلاً: لأن أرسيني يعالج بالوسائل نفسها، التي كان كريستوفر قد عالج بها سابقاً، ولم تظهر في استعماله إيّاها أيُّ إخفاقات. ثانياً: (وربما كان هذا هو السبب الرئيس) لم يكن لدى أهالي البلدة ببساطة أي خيار آخر. وفي ظل هذه الظروف، كان من الممكن تفضيل العلاج اللطيف على العلاج غير اللطيف بضمير مرتاح.

بالنسبة لأرسيني، كانت اللقاءات مع الناس مهمَّة له. فبالإضافة إلى النَّزْر القليل من المال يجلبُ المرضى له الخبز والعسل والحليب والجبن والحمص واللُّحوم المجفَّفة، وغيرها كثير، مما جعله لا يشغل باله فيما يتعلَّق بالغذاء. لكنَّ الأمَر لمْ يقتصر على ما يقدِّمونَه لأرسيني من الطعام، بقدر ما كان يتعلق في المقام الأول بالحوار، الذي أصبح أسهل بالنسبة له.

فبعد تلقي المساعدة اللازمة، لم يغادر المرضى. بل كانوا يُحدّثون أرسيني عن حفلات الزفاف، والجنازات، وأعمال البناء، والحرائق، والضرائب، ومشاهد الحصاد. وعن الوافدين إلى البلدة وعن رحلات أهالي البلدة. وعن موسكو ونوفغورود. وعن أمراء بيلوزيرسك. وعن الحرير الصيني. ولاحظوا أنَّهم لا يريدون قطع الحوار مع أرسيني.

مع وفاة كريستوفر، اتضح فجأةً أنَّ أرسيني لم يكن لديه، في الحقيقة، أيُّ تواصل آخر. فقد كان كريستوفر هو قريبُه الوحيد ومحاورُه وصديقُه. ولسنوات عديدة، شغل كريستوفر حياتَه كلها. حوَّلتْ وفاةُ كريستوفر حياة أرسيني إلى العدم. بدت الحياة وكأنها باقية، لكن لم يعد لديها المزيد. فقد أصبحت الحياة جوفاء لأنها فقدت من وزنها ما أنَّ أرسيني

لن يندهش لو هبَّت عاصفة من الرياح ورفعته إلى السحاب، ربما، بذلك يكون أقرب إلى كريستوفر. اعتقد أرسيني في بعض الأحيان أن هذا هو بالضبط ما يريد.

الحلقة الوحيدة التي تربط أرسيني بالحياة هم الناس الذين يفدون عليه. إذ يبتهج أرسيني، بلا شك، لمجيئهم. ولكن الذي أبهجه ليس الزيارات نفسها ولا حتى التحدث. بل عرف أرسيني أن المرضى ما زالوا يرون فيه كريستوفر، لذلك كان مجيئهم دائماً امتداداً لحياة جدِّه. ولأنَّ أرسيني يسدُّ الفراغ، بدأ نفسه تدريجياً يشعر أنه كريستوفر، وقد عزَّز الوافدون هذا التطابق بينهما بصمت.

وعلى الرغم من حقيقة أنَّ أرسيني كان يقدّر هذا التواصل، إلا أنه كان قليل الحديث مع زائريه. وهذا، ربما، لأنَّ كلامه كله انصرف للحديث مع كريستوفر. وقد شغلت هذه المحادثات القسم الأكبر من اليوم وجرت بطرق مختلفة.

بعد أن نهض أرسيني في الصباح من السرير، ذهب في أول الأمر إلى المقبرة. ومن الواضح أن كلمة ذهبَ تحمل في طياتها مبالغة: فللوصول إلى المقبرة، ما عليه إلا أن يخرج خارج سياج المنزل. كان هذا سياجاً مشتركاً للمنزل والمقبرة، حيث كانت فيه باب خشبية منذ زمن بعيد. وقد دُفِن كريستوفر إلى جانب الباب. ولأنه لم يرغب بعد وفاته بالابتعاد عن المنزل، حدَّد مكاناً لمرقده الأبدي خلال حياته - والآن لم يندم على ذلك. إذ لم تقتصر معرفته على كل ما كان يحدث في المنزل فحسب، بل كان تقريباً فيه - نقول تقريباً لأنه، عندما تذكَّرَ كريستوفر نسبية الموت للأحياء والأموات، أدرك أيضاً أن من المفترض أن يكون الوجود منفصلاً.

على تلة من ركام الأرض المتجمِّد، ركَّب أحد نجاري البلدة دكَّة. وكان أرسيني يجلس كل صباح على الدكَّة ويتحدَّث مع كريستوفر الراقد تحت التلة. يخبره عن الزوّار وعن أمراضهم. وعن الكلمات التي قيلت له، وعن الأعشاب التي نقَّعها، وعن الجذور التي سحقها، وعن حركة

الغيوم، واتجاه الرياح - باختصار، عن كل شيء، لا يمكن لكريستوفر أن يعرفه الآن لوحده.

أصعب وقت بالنسبة لأرسيني كان المساء وبداية الليل. إذ لم يتمكن بعد من الاعتياد على عدم وجود كريستوفر بالقرب من الموقد. فقد بدا الالتماع الضئيل للنار على وجهه المغضَّن ذي الحاجبين الكثيفين شيئاً بدائياً، قديماً، قِدَم النار نفسها. وهذا الوميض أحدُ خصائص النار، وهو جزءٌ لا يتجزَّأ من الموقد، ولا يحقُّ له، في الواقع، أنْ يزول.

ما حدث لكريستوفر لم يكن غياب شخص ذاهب إلى المجهول. إنه غياب شخص يرقد في مكان قريب. ففي أيام الصقيع، كان أرسيني يطرح جلد نعجة على التلة. إنه يدرك بالتأكيد أنَّ كريستوفر في حالته الراهنة، لا يشعر بالبرد، ولكن عندما تراوده فكرة رقود جده في مكان غير دافئ، يجعل الحياة في المنزل المُدَفَّأ لا تطاق. الشيء الوحيد الذي ساعده على تجاوز الليالي الموحشة هو قراءة رسائل كريستوفر.

قال سليمان: السكنى في الصحراء خير من امرأة مخاصمة وبيت مشترك، نفس الشرير تشتهي الشر. قال فيلون: إن الإنسان العادل ليس من لا يسيء، بل من يمكن أن يسيء، لكنه لا يريد. رأى سقراط صديقه مسرعاً إلى الرسامين لكي يطرقوا صورته على الحجر، فقال له: إنك تسرع لتجعل الحجر يشبهك، الأَولى أن تهتم بأن لا تكون شبيهاً بالحجر. عيَّن الملك فيليب قاضٍ مع القضاة ليحكم بين الناس، وعندما علم أنه يصبغ شعره ولحيته، عزله عن القضاء، قائلاً: إن كنت لا تَصْدق في لون شعرك، فيكف تكون صادقاً في حكمك على الناس. قال سليمان: ثلاثة عجيبة فوقي وأربعة لا أعرفها: طريق نسر في السماوات وطريق حيّة على صخر وطريق سفينة في قلب البحر وطريق رجل في شبابه. هذا ما لم يفهمه سليمان. وهذا ما لم يفهمه كريستوفر. وكما أظهرت الحياة، لم يفهم هذا أرسيني أيضاً.

-س-

في نهاية شباط (فبراير)، فاحتْ رائحةُ الربيع. لم يكن الثلج قد ذاب بعد، لكن قُرْبَ قدوم الربيع الشمالي كان واضحاً. إذ صارت زقزقة الطيور مدويّة كحالها في الربيع، وكان الهواء مفعماً بهدوء فردوسيّ. وأشرق نور لم تشهده هذه الأصقاع منذ أواخر الخريف.

عندما كنتَ تحتضر، قال أرسيني لكريستوفر، كانت الطبيعة ما تزال معتمة. والآن شعَّ الضوء مرة أخرى، وأنا أبكي لأنك لا تراه. والمهم في هذا كله، أنَّ السماء ارتفعت وأصبحت زرقاء. وجرت بعض التغييرات التي سأخبرك عنها أثناء تطورها. في الحقيقة، يمكنني الآن وصف بعض الأمور.

أراد أرسيني أنْ يستمرّ، لكن شيئاً ما أوقَفَه. لقد كانت نظرةٌ شعرَ بها، قبل أنْ يراها. لم تكن النظرة ثقيلة، بل جائعة - وإلى حدٍّ كبير غير سعيدة. أومضت بسبب شواهد القبور البعيدة. وبعد أن تابع أرسيني اتّجاهها، رأى شالاً وجديلةً شقراء.

- من أنتِ، سألها أرسيني.

أنا أوستينا. نهضتْ من جلستها القرفصاء، وتطلَّعَت بوجه أرسيني بصمت لمدَّة دقيقة.

- أريد أن آكل.

يبدو على أوستينا سوء الحظ. كانت ملابسها موخلة.

- ادخلي. أشار أرسيني إلى المنزل.

- لا أستطيع، أجابت أوستينا. أنا من الأماكن التي فيها وباء الطاعون. أحضرْ لي شيئاً لآكله واتركْه. وبعد أنْ تبتعد سألتقطُه.

- ادخلي، قال أرسيني. وإلا سوف تتجمَّدين.

انحدرت عدة قطرات من الدموع الكبيرة على خدَّي أوستينا. كانت الدموع تُرى من بعيد، فاندهش أرسيني من كِبَرها.

- بالأمس لم يُسمح لي بالدخول إلى البلدة. قالوا إنني أحمل معي الوباء. ألا تخاف من الوباء؟

هزَّ أرسيني كتفيه. لقد توفّي جدّي، لم أعدْ أخشى الآن الكثير من الأمور. فكلُّ شيء خاضع لمشيئة الله.

دخلتْ أوستينا، من دون أن ترفع بصرها. وعندما خلعت عنها معطف جلد الغنم الممزَّق، أصبح من الواضح أنها تفعل ذلك لأول مرّة منذ أيام عِدَّة. انتشرت في الكوخ رائحة جسدها الوسخ. رائحة جسدها الأنثوي الشبابي الغضّ. لكنَّ نتانة الرائحة ما فعلت سوى أنْ عزَّزت عنفوان شبابها وأنوثتها، وضمَّت في طيّاتها أقصى تحشيد وتركيز لكلٍّ منهما. فشعر أرسيني بالتهيُّج والاضطراب.

كانت على وجه أوستينا ويديها سحجاتٌ وخدوش. وعرف أرسيني أنَّ بسبب عدم تبديلها للملابس التي ترتديها توجدُ على جسمها قروحٌ أيضاً. وجسمها يحتاج إلى تنظيف. فوضع قدراً فخارياً كبيراً مملوءاً بالماء في الفُرن. في ذلك الوقت، لم يكن الناس يضعون القدور عند الطهي فوق النار: بل يضعونها إلى جانب النار. لذلك صُمِّمت المواقد والأفران.

جلست أوستينا في الزاوية، واضعةً يديها على ركبتيها. نظرت إلى الأرضية التي يغطِّيها القشّ المكسوُّ بالسّخام. بدتْ لها ملابسُها استمراراً لهذا القشّ - سوداءَ وتالفة. بل حتى أنها لم تكن ملابسَ بالمعنى الحقيقيّ وإنما شيءٌ ما غير مخصص للبشر.

عندما بدأت الفقاعات الصغيرة تتجمَّع على سطح الماء، أخذ أرسيني

أكبر مقبض وسحب القِدر بعناية (وطرف لسانه على شِفَّته) من النار. وبعد أنْ وضع في وسط الغرفة برميلاً صغيراً، سكب فيه ماءً بارداً. ثم أضاف عليه ماءً حارّاً من القِدر، ونثرَ فيه قليلاً من عشبة إدريس مخلوطاً بأوراق القيقب. ووضع إلى جانبه إبريقاً من الماء البارد للشطف.

- اغتسلي، لو سمحت.

وذهب إلى الغرفة الباردة المجاورة وأغلق الباب خلفه. خشخشت أوستينا بأسمالها. وسمع أرسيني كيف وطئت بحذر في البرميل ولمست جدرانه بالمغرفة. وسمع صخب صوت الماء. والصخب الذي في رأسه هو. استند بظهره على الجدار الذي تغطى بالنَّدى المتجمِّد وشَعَرَ بالارتياح. وبعد أن زفر زفرة طويلة، جعل يراقب كيف يذوب البخار ببطء في الهواء.

- ماذا أرتدي، سألتْه أوستينا من وراء باب.

أخذَ أرسيني يفكِّر بذلك. ففي منزله مع كريستوفر لم يكن ثمة لباس نسوي. إذْ إنَّ ملابس زوجة كريستوفر المتوفّية ارتدتها أمّ أرسيني، ولكن بعد الطاعون أُحرِقَت كلّها. أشاح أرسيني بوجهه عن أوستينا، ودخل الغرفة وفتح الصندوق. وضعَ بعض الأشياء التي في الأعلى على الغطاء المطروح. وجد ما يبحث عنه. وكان في هذه الأثناء محافظاً على عدم النظر إلى أوستينا. ناولَها قميصَه الأحمر. واحمرَّ هو نفسه. إنه يحمَرّ ببساطة كسائر الناس ذوي الشعر الفاتح اللّون.

أدخلتْ أوستينا يدَيها في الأكمام، ووضعت القماش برفق على كتفَيها. فالثوب الذي كان أرسيني يرتديه من قبل الآن، يحتضن مثل هذا الجسد غير المشابه. وقد كمنت في هذا رابطة غريبةٌ بينهما. لم يعرفْ أرسيني ما إذا كان الثّوب يحسُّ بهما كليهما بالإحساس نفسه.

ظهر أنَّ القميص طويل بالنسبة لأوستينا، فشمَّرت عن أكمامها. ورأت في الصندوق المفتوح قطعة من قماش الكتان.

- هل أستطيع أن آخذها؟
- بالطبع.
لفَّتْ القماشَ فوقَ القميص حول خصرها والوركَين، فبدت كالوزَّرة. وشدَّته بحبْلٍ وجدَتْه في الصندوق. نظرت إلى أرسيني. أومأ برأسه وشعر بحنانٍ متدفِّقٍ ينعكس في نظرتِه. فغضَّ بصرَه وأحمرَّ مرّةً أخرى. وبسبب التعاطف مع الصبيَّة الشقراء النحيفة، التي ترتدي قميصَه شعرَ أرسيني بتشنُّجات في حنجرته. واعتقد أنه لن يتعاطف مع أيّ شخص بمثل هذا الحماس.

- آه، لقد نسيت إذا كان لديكِ تقرُّحاتٌ على جسدكِ، أرِني.

سحبت أوستينا ياقَة القميص وأظهرت له قرحةً على الرقبة. وبعد أنْ تردَّدت، فكَّت زرّ القميص وأظهرت قرحةً أخرى في الإبط. استنشق أرسيني رائحة بشرتها. كانت الندوب صغيرة ولكنها رطبة. عرف أرسيني أنّه يجب أنْ تُجفَّف. وبعد أنْ تقدَّم نحو رفٍّ فيه الكثير من الأواني المربوطة بالخِرَق، فكَّر للحظة. وعثرَ على وعاء من لحاء الصَّفصاف المحمَّص. سكب قليلاً منه على خرقة نظيفة وبلَّله بالخلّ. ووضعَها بالتناوب على التقرُّحات. عضَّت أوستينا على شَفَتها.

- اصبري، مِن فضلك. هل لديك تقرُّحات؟
- لديّ، ولكن لا أستطيع أنْ أُظهِرها.

ناولها أرسيني الخرقة.

- هاكِ، ادهني بنفسك، لن أنظر. وأشاح بوجهه نحو الموقد.

تكوَّمتْ بالقرب من الموقد أسمالُ أوستينا، وقد ساعد قربُها من النار بحلّ المسألة، إذ ألقى بها أرسيني في الفرن من دون أن ينبس بكلمة. كانت تلك حركة طبيعية، ففعلها. ولكن في هذا أيضاً ثمَّة علامة على عدم التراجع. كما في بعض الحكايات التي سمعها من كريستوفر. وعندما رأى أرسيني كيف تلتهمُ النارُ الملابسَ العتيقة، أيقنَ أنَّ أوستينا الآن ستبقى ترتدي قميصه على الدوام. واعتقدَ أيضاً أنها، في الواقع، بعُمره.

أعطى أوستينا رغيفاً من الخبز وشيئاً من الكفاس (شراب من نقيع الخبز الأسود) وشَعَرَ بلمسة شفتَيها على يده.

- لا يوجد الآن سوى هذا، قال أرسيني هذا، وسحب يده بعيداً.

أراد إضافة شيء آخر، لكنه شعر أنَّ صوتَه لمْ يُسمَع.

لم يكن ثمَّة طعامٌ ساخن في المنزل، لأنَّ أرسيني لم يطبخ أيَّ شيء. في وقت من الأوقات، علَّمَه كريستوفر كيفيَّة طهي أطباق بسيطة ولكن مع رحيل جَدِّه - هكذا بدا لأرسيني - ليس ثمَّة أيُّ فائدة من هذا بعد. حاولت أوستينا أنْ تأكل من دون أنْ تُسرع، لكنَّها لمْ تُفلِح. جعلت تُثلِّم قطعاً صغيرة من الحواف وتضعها ببطء في فمها. وابتلعتها تقريباً من دون مضغ. راقب أرسيني أوستينا وأحسَّ بقبْلتِها على ذراعه.

هالَ من كيسٍ حبوباً غير مطحونة من الشوفان، لكنها مجروشة من القشور. سكب عليها الماء ووضعها في الفرن. فقد قرَّر أنْ يُضَيِّفَ أوستينا عصيدةً على العشاء.

- ماتَ جميع الناس في قريتنا، قالت أوستينا، بقيتُ أنا فقط. وأخشى من ساعة الموت. وأنت هل تخشاها؟

لم يرد أرسيني عليها.

وفجأة غنَّت أوستينا بشكل مدهش بصوتٍ قويّ وعالٍ:

ستقول الروح للجسد الأبيض وداعاً،

سامحني، يا جسدي الأبيض (وأخذت شهيقاً)،

سيأتيكَ جسدي إلى الأرض الرطبة،

سيصبح حكاية للأرض الرطبة (انتفخت أوداجها)،

وطعاماً للدِّيدان النهمة.

وبعد أنْ صمتتْ أوستينا، نظرَتْ إليه بهدوء. كما لو أنَّها لمْ تُغَنِّ. لم ترفعْ عنه بصرَها. وقد شعَّ شعرُها الذي بدأ يجفّ، ولم يُضفَر بعد في جديلة، ناعماً منفوشاً حول رأسها - «شَعْرُكِ كَقَطِيعِ الْمَعْزِ الرَّابِضِ فِي

جِلْعَادَ». في تلك الأزمان السالفة المنسيَّة، كان الشعر يثير الناس أكثر منه الآن، لأنه كان مخفياً عادةً. حتى عُدَّ من التفاصيل الغرامية تقريباً.

عندما كان أرسيني ينظر إلى أوستينا، لم يرفع بصره. وقد أدهشه أنهما لم يصعب عليهما تحمُّل نظرات بعضهما البعض. وإنَّ الخيط الممتد بينهما هو فوق الإحساس بالإحراج. وكان يتمتع بالوهج الأحمر. وبالكيفية التي يصعد وينزل فيها خيط الكتان الذي يربط الصليب على عظم الترقوة في إيقاع تنفُّسها. وهذا هو الشيء الوحيد الذي بقي على أوستينا من أشيائها.

وفي المساء أكلا العصيدة، التي تبَّلها أرسيني بزيت بذور الكتان. وقد جلسا قرب الموقد وهما يمسكان الطاسات الفخّارية على رُكَبِهما. آخر مرّة جلس بهذا الشكل - مع كريستوفر. جعل أرسيني يراقب خلسةً لعبة الضوء على شعرها، واللَّهبَ الطبيعيّ. الآن شعرُها مضفورٌ في جديلة وبدا مختلفاً تماماً. دسَّ الملعقة الخشبيَّة (التي نحتها كريستوفر) في فمها، فمدَّت أوستينا شفتَيها بشكلٍ مضحك. كان ذلك مثل القُبلة. قبلة لكريستوفر. وتذكَّر أرسيني كيف نُحِتَت هذه الملاعق: أيضاً في فصل الشتاء، وأيضاً بالقرب من الموقد. وعندما تطلَّع أرسيني بأوستينا مرَّة أخرى، لاحظ أنها نامتْ.

أخذ الملعقة بلطفٍ من يديها. لم تستيقظ أوستينا. وواصلت الجلوس بانتظام وقلق، وكأنها في الحلم تجتاز طريقاً صعباً، لا يراه أحد سواها. وضع أرسيني فراشاً لأوستينا على الدكة. ولأنه حاول ألّا يوقظها، رفعها بهدوء من الكرسي واندهش من خفة وزنها. مال رأسُها على يد أرسيني. ولكي يسند رأسَها، مدَّ ذراعه. ومن خلال جلد أوستينا الشفاف، رأى الأوردة على صدغَيها. وأحسَّ برائحة شفتَيها - «شَفَتَاكِ كَسِلْكَةٍ مِنَ الْقِرْمِزِ، وَفَمُكِ حُلْوٌ...». وضغط بخدِّه على جبينِها. ووضعَهَا بهدوء على الدكّة ودثَّرها بمعطفٍ من فرو الغنم.

جلس أرسيني عند موضع المخدّة وجعلَ ينظر إلى أوستينا. في

البداية، جلس ويداه على صدره، ثم أسند ذقنه بكفِّ يده. وكانت في بعض الأحيان تحدث تشنُّجات خفيفة على وجه أوستينا. وأحياناً كانت تصرخ. مرَّر أرسيني كفَّه على وجهها، فهدأت.

- نامي، نامي، يا أوستينا، همس أرسيني.

وهكذا نامت أوستينا. طُويت ثنيةُ القماش تحتها. فلامس خدُّها خشبَ الدكّة. رفع أرسيني رأسها برفق ليُسَوّي الطيّات. أخذتْ أوستينا يدَ أرسيني، من دون أنْ تستيقظ، ووضعتها تحت خدّها. فصار عليه أنْ ينحني وأن يسند يده اليمنى بيده اليسرى. بعد بضع دقائق شعر أرسيني بألم في ظهره وفي يديه، لكنه كان مرتاحاً له. وبدا له أنه بألمه الخفيف هذا يزيل جزءً من حِمْل أوستينا. ولم يلاحظ نفسه كيف استولى عليه النوم وغفا.

استيقظ من حركة دغدغة الرُّموش على كفِّه. كانت أوستينا مستلقيةً وعيناها مفتوحتان. وقد أومضت فيهما صورة نار الموقد. كانت يد أرسيني رطبة من دموعها. لامس بشفتيه جفنَي أوستينا وشعر بملوحتهما الخفيفة. تحركت أوستينا، كما لو أنها تفسح له مكاناً:

- شعرتُ بالخوف في الظلمة.

جلس إلى جانبها على حافة الدكّة، فوضعت رأسها على ركبتَيه.

وشعر من خلال الملابس بأنفاسها الحارّة الخارجة مع الكلمات.

- سأبقى إلى جانبكِ حتى تنامي.

- ليس لديّ أحدٌ غيرُك. أريد أنْ أعانقك بشدَّة ولا أتركَك.

- وأنا كذلك أريد أنْ أعانقُكِ، لأني أشعر بالوحشة لوحدي.

- إذَنْ، استلقِ إلى جانبي.

فاستلقى هو إلى جانبها. وتحاضنا وبقيا مستلقيان هكذا لمدّة طويلة. إذْ فقدَ هو حساب الوقت. وارتجف رجفةً صغيرة، على الرغم من أنَّه كان يتصبَّب عرقاً. واختلط عرقه مع عرقها. ثم دخل جسده في جسدها. وفي صباح اليوم التالي شاهدا أنَّ القماش تحتَهُما صار لونُه أحمرَ قرمزيّاً.

-ش-

بدأ أرسيني حياةً أخرى - مليئة بالحبّ والخوف. الحبّ لأوستينا والخوف من أنها قد تختفي فجأة كما جاءت فجأة. لم يكن يعرف بالضبط ما الذي كان يخاف منه - إعصار، أم برق، أم نار، أم نظرة حسد شريرة. ربما كل ذلك معاً. لم تنفصل أوستينا عن حبه لها. كانت أوستينا الحب، والحب أوستينا. كان يحملها مثل شمعة في غابة مظلمة. كان خائفاً من أنَّ الآلاف من المخلوقات الليلية النهمة سوف تطير إلى هذه الشعلة وتطفئها بأجنحتها.

وسِعَهُ أنْ يتمتَّع بالنظر إلى أوستينا لساعات. كان يأخذ يدها، ويرفع الكمّ ببطء، ويتحسس بشفتيه الزغب الذهبي الذي كان بالكاد يُلاحَظ. ويضع رأسه في حضنها ويتحسس بأطراف أصابعه على طول الخط الشبحي الشفاف بين عنقها وذقنها. وتذوَّق رموشها بلسانه. وأزاح بحذر المنديل عن رأسها ونشر شعرها. وضَفَرُه في جديلة. ثم حلَّه من جديد ومرَّر المشط فيه ببطء. وتخيَّل أنَّ الشَّعر كان بحيرة، والمشط زورقاً. وبعد أن انزلق على طول البحيرة الذهبية، رأى نفسه في هذا المشط. وشعر أنه يغرق، وأكثر ما كان يخشاه - أنْ يُنقذَه أحدُهم.

لم يُبدِ أرسيني أوستينا لأيِّ أحد. وعندما يسمع دقّاً على الباب، كان يلقي على أوستينا معطف كريستوفر ويُدخلها إلى الغرفة المجاورة. ويلقي نظرة على الدكّة باحثاً عن الأشياء التي يمكن أنْ تدلّ على أوستينا. لكن مثل تلك الأشياء لم تكن موجودة. إذ لم تكن في منزل كريستوفر

وأرسيني ثمة أشياء نسوية على الإطلاق. وبعد أنْ يتأكّد من أنّ الباب خلف أوستينا مغلقٌ بإحكام، يفتح باب المدخل.

تجلس أوستينا بصمت في الغرفة المجاورة، ويفحص أرسيني المرضى. صار استقباله للمرضى أكثر اختصاراً، وقد لاحظ الزائرون ذلك. ولم يعدْ أرسيني يدعم الأحاديث. إذ كان يقوم بفحص المرضى ويجسَّ أجسادهم من دون أن ينطق بكلمات زائـدة. ويستمع إلى شكاواهم بانتباه وتركيز ويعطي التوجيهات. ويتلقَّى الأجور المجزية. وعندما ينتهي من قول الكلمات الطبّية كلها، ينظر إلى الضيف بترقّبٍ للانصراف. ولأن المرضى ربطوا ذلك بزيادة مشاغل الطبيب، فإنهم نظروا إليه باحترام أكبر.

لم يعرف أحدٌ بأمر أوستينا. إذ لم تظهر في الفناء تقريباً، أما من الخارج فلم يبدُ أي شيء للعيان من خلال النوافذ الصغيرة المشدودة بمثانة الثور. ويمكن القول إنه لا يمكن أنْ يُرى أيُّ شيء من خلالها حتى من الداخل. لذلك حتى لو قرَّر أحدهم النظر في نافذة أرسيني، فإنه لن يعرف شيئاً. ولكن مع هذا لم ينظرْ أيُّ أحد.

وذات مرَّة، خلال استقبال رجلٍ يعاني من العجز، عطست أوستينا خلفَ الجدار. بصوت خافت، لكنها مع ذلك عطست، لأن الغرفة كانت باردة. نظر المريض مستفسراً في أرسيني وسأل عن ماهية هذا الضجيج. أجاب أرسيني بنظرة غير العارف. وطلب من الزائر ألّا ينصرف عن مشكلته، وإلا فإنه لنْ يتغلَّب عليها أبداً.

أبداً - أكد أرسيني ونصحه بتناول المزيد من الجزر.

أثناء تشييع الضيف، خطا المُضيف متعمِّداً بصوتٍ عالٍ، لمْ تعطس أوستينا بعد ذلك. وعندما جاءت أخيراً، طلب منها أرسيني أنْ تعطس داخل المعطف، لأنَّ الفراء يكتم.

- عادة ما أفعل هكذا، قالت أوستينا. لكن في هذه المرة حدث كل شيء بغتة، ولم يكن لدي متَّسعٌ من الوقت لأنْ أتغطى بالمعطف.

أثناء حوار أرسيني مع الزائرين ظهر لديه بعض شرود الذهن. أصبح واضحاً بشكل أكثر أن أرسيني كان بأفكاره في أماكن أخرى. ولو عرف زوّاره بشأن أوستينا، لأرسوا أمر هذه الأفكار إلى الغرفة المجاورة. وسيكونون على حقّ تماماً.

لم يفكر أرسيني فحسب في أوستينا. بل تدريجياً انغمس في عالم خاص مكتمل، يقتصر عليه وعلى أوستينا. في هذا العالم كان هو والد أوستينا وابنها. كان صديقها، وشقيقها، ولكن الأهم من ذلك كله – زوجها. إنَّ يُتْمَ أوستينا ترك هذه المهام كلها شاغرةً. فشغلها هو. ويُتْمه هو استوجب مثل هذه الالتزامات بالنسبة إلى أوستينا. كانت الدائرة مغلقة: أصبحَ بعضُهما لبَعضٍ كلَّ شيء. وإنَّ كمال هذه الدائرة جعل من المستحيل على أرسيني أنْ يقبل أيَّ حضور آخر. لقد كانا جسدَين بروحٍ واحدة، وبدتْ أيُّ إضافة بالنسبة لأرسيني ليست فقط زائدة – وإنما غيرَ مقبولة. حتى وإنْ كانت للَحظة وغير ملزمة له بشيء.

رأى أرسيني كمال الاتحاد في حقيقة أنَّ عزلتهم لمْ تضايق أوستينا. وبدا له، أنها رأت السبب والمعنى لمثل هذا المسار من الحياة بالثبات نفسه الذي يراه هو. وحتى لو لم تَرَ ذلك، فإنها ببساطة متعبة بشكلٍ لا نهائي من التجوال، واعتبرت وجوده الدائم سعادة أكبر مما تستحقُّه.

كانا في المساء، يقرآن. ولكي لا ينهضا من حين لآخر لتغيير المشاعل، جعلا يستعملان مصباحاً زيتياً، يشتعل بشكل خافت، ولكنْ منتظم. كان أرسيني يقرأ، لأنَّ أوستينا لمْ تعرف القراءة والكتابة.

بفضل أرسيني، سمعتْ أوستينا لأوَّل مرة عن نبوءة أنتيفون للإسكندر. إنَّ مالك العالم كله، قال أنتيفون، سيموت على أرض حديدية تحت سماء من العظام. ولمَّا وصل الإسكندر إلى أرض النحاس، استولى عليه الخوف. وقد أومض هذا الخوف من العتمة في عيني أوستينا. وأمر الإسكندر جنوده أن يدرسوا مكونات الأرض. وبعد أن درسوا مكونات الأرض، وجدوا فيها نحاساً فقط بلا حديد. أمر الإسكندر، وهو الذي

يملك روحاً أقوى من الحديد، أن يستمروا في التقدُّم إلى الأمام. وساروا في أرض النحاس وصوت حوافر الخيل على النحاس بدا كالرَّعد...

لامست أوستينا بلطف كتفَ أرسيني:

- هل تفهم، عندما تقرأ، أم عندما تلمس الأوراق فقط؟

وبعد أنْ التصقت أوستينا به أكثر، شبكت ركبتيها بيديها. وطلبت منه أن يقرأ من دون أن يستعجل. أومأ برأسه، ولكن بشكل غير محسوس مرّة أخرى بدأ يقرأ على عجل. كانت قراءة الأوراق الخمس التي يخرجونها للمساء تبدو في كل مرَّة أسرع، وسألت أوستينا مرة بعد أخرى أرسيني ما الذي يجعله يستعجل هكذا. وبدلاً من الإجابة، ضغط خدَّه إلى خدِّها. كان في الأمر ثمَّة فكرةُ غيرةٍ؛ لأنَّها في المساء اهتمَّت بالإسكندر أكثر من اهتمامها بأرسيني.

أحياناً كانا يقرأان عن القنطور. لإخفاء زوجته عن الآخرين، حملها القنطور في أذنه. أرسيني كذلك يتمنَّى أنْ يحملَ أوستينا في أذنه، لكنَّه لمْ يحظَ بهذه الفرصة.

-ص-

في نهاية مارس (آذار) قالت أوستينا:

- إنِّي حُبْلى، لأنَّ عادة النساء توقَفتْ عندي.

وقالتْ، واستندت بيدها على خشبة الدكة، بعد أنْ قوَّسَت ظهرَها قليلاً، وهي تنظر بجانب أرسيني. وفي تلك اللحظة، ألقى أرسيني قطعاً من الخشب في الموقد. وخطا خطوةً نحو أوستينا ووقف أمامها، جاثياً على ركبتيه. كانت يده لا تزال تمسك بقطعة من الخشب. سقطت ورنت وهي تتدحرج على الأرض. دفن أرسيني وجهه في قميص أوستينا الأحمر. وأحسَّ بيدها المُحبَّة والمسلوبة الإرادة على قفاه. وبحركة لطيفة، وضع أوستينا على الدكّة، وبدأ ببطء يرفع قميصها - طيَّة بعد طيَّة. وبعد أن كشفَ بطنها، ضغط عليها بشفتيه. كانت بطن أوستينا منبسطةً كالوادي، وبشرتها مرنة. حدَّ من البطن خطٌّ متقطِّع من الأضلاع. وليس ثمَّة ما ينبئ بالتغييرات. لا شيء يشير إلى الشخص الذي كان يستعد بالفعل لكسر هذه الخطوط. وبعد أنْ تزحلقَ بشفتيه على بطنها، أدرك أرسيني أنَّ حمل أوستينا فقط يمكن أنْ يُعبِّر عن حبّه الكبير، إنه كان ينبت من خلال أوستينا. شعر بالسعادة لأنه كان موجوداً في أوستينا طوال الوقت. كان جزءاً لا يتجزأ منها.

أدرك أرسيني أنَّ موقف أوستينا الجديد جعلها أكثر اعتماداً عليه. ربما، لأن الخوف من فقدانها أصبح أقل من ذلك بكثير، والحنان تجاهها على العكس من ذلك. شعرت به بحدّة لا مثيل لها. كان أرسيني يشعر بالحنان، عندما يشاهد مدى رغبة أوستينا في تناول الطعام. بدت شهيَّتُها

مضحكةً حتى بالنسبة لها شخصياً. كانت تنخر، وفتات الخبز يتطاير في جميع الاتجاهات. شعر أرسيني بالحنان عندما كان وجه أوستينا يكتسب لوناً رمادياً وعكرة. وجعل يُخرج زيت جوزة الطيب ويعطيه إلى أوستينا بالملعقة. ويسحب ببطء الملعقة تجاهه، ويشاهد كيف تنزلق شفتا أوستينا عليها. كما أنه صار يتطلع بعينيها بلا كَلَل، اللتين أصبحتا مختلفتين تماماً مع الحمل. إذ بدا فيهما لأرسيني شيءٌ رطب وأعزل، يشبه ما في عيون العِجل.

في بعض الأحيان كان ثمَّة حزنٌ في تلكما العينين. إنَّ الاتحاد بالوجود مع أرسيني، بالطبع، هو سعادتها. ولكنه كان أيضاً شيئاً آخر، والذي أصبح أكثر وضوحاً مع مرور كل يوم. إنَّ أرسيني، الذي بدا لها العالم كله، لم يستطع أن يحلّ محلَّ العالَم بأسره. فالشعور بالانفصال عن الحياة المشتركة أثار القلق في أوستينا. وقد رأى أرسيني ذلك.

وذات مرة، سألت أوستينا عما إذا كان بإمكانها شراء ملابس نسوية. فطوال فترة إقامتها مع أرسيني كانت ترتدي الملابس التي يرتديها هو.

ألا تحبِّين ارتداء ملابسي، سأل أرسيني.

أحبّ ذلك، يا عزيزي، أحبّه كثيراً، لكنّي أودّ فقط أنْ أرتدي ملابس خاصة بي. فأنا على كل حال امرأة...

وعدها أرسيني أن يفكّر بالموضوع. لقد فكّر حقاً، ولكن لم يتوصل في تفكيره إلى أي شيء. إن لم يكشف عن سرّ أوستينا، فلن يتمكن من شراء ثوب نسوي. إذ ليس لديه من يثق به في هذه المسألة. أمّا أنْ يُرسل أوستينا إلى البلدة لوحدها، فهذا أمر لا يمكن حتى الحديث عنه. أولاً، لنِ يكون من الصعب على أهالي البلدة أن يعرفوا من أين أتت، وثانياً... تنفَّس أرسيني بشكل صاخب وشعر بتشنُّجات في حلْقه. لم يستطع أن يتخيل أن أوستينا ستتركه ولو لمدة نصف يوم على الأقل.

بعد مرور بعض الوقت، ذكَّرت أرسيني بطلبها، ولكنها لم تتلقَّ أيّ إجابة. وبعد بضعة أسابيع، كان قد فات الأوان للتفكير في شراء الثوب:

إذ كبُرَت بطن أوستينا ولن تجد ما يناسبها من ملابس. وعند ذاك صارت تعدِّل خياطة أشياء من أرسيني لنفسها.

الذي أثار قلقه أكثر من الملابس أنَّهما لم يذهبا إلى الأفخارستيا (طقس تناول القربان المقَّدس). فقد خاف أرسيني أنْ يذهب إلى الكنيسة لأن الطريق إلى الهبات المقدسة يكمن في الاعتراف. والاعتراف يستلزم الحديث عن أوستينا. فهو لم يكن يعرف ماذا سيقال له في المقابل. الزواج؟ سيكون سعيداً بالزواج. ولكن إذا قيل له - اتركْها؟ أو اسكُنا الآن في أماكن مختلفة؟ لم يكن يعرف ما الذي يمكن أنْ يُقال له، لأنه لم يكن ثمَّة ما يشبه حالتهما حتى الآن.

ولأن أرسيني يخاف المعصية، لم يرغب بالذهاب إلى الكنيسة وبالاعتراف. وأوستينا لم تذهب كذلك.

وذات مرة سألته:

- هل تتزوجني؟

- أنتِ زوجتي التي أحبها أكثر من حياتي.

- أريد أن أكون زوجتك، يا أرسيني، أمام الله وأمام الناس.

- اصبري، يا حُبّي. وقبَّلها في نَحْرِها. ستكونين زوجتي أمام الله والناس. فقط تحلَّي بالصبر قليلاً يا حُبّي.

كانا كلّ يوم تقريباً يذهبان إلى الغابة. في البداية كان الأمر صعباً للغاية، لأنه لا زال هناك ثلج عميق. وكانا يسيران، ويسقطان في الثلج، لحد الركبة، لكنهما يسيران على كل حال. عرف أرسيني أنَّ أوستينا بحاجة إلى الهواء النقي. بالإضافة إلى ذلك، حتى هذه الجولة الشاقة كانت بالنسبة لها أفضل من الجلوس في المنزل. ولأنها تنتعل جزمة كريستوفر الشتوية، كانت أوستينا عادة تمسح بطن قدميها في كثير من الأحيان. وإنَّ الخرق العديدة التي لفَّتها على قدميها لم تُنقذ الوضع. وعلى الرغم من أنَّ الأحذية كانت تُصنَع من الجلد الناعم في تلك الأيام، إلَّا أنَّهم لم يفكِّروا في الاختلافات بين الأقدام اليمنى واليسرى. وكانت قدما أوستينا مختلفتَين جدّاً عن قَدَمَي كريستوفر.

اقتفت أوستينا مسار أرسيني متتبعة خطاه أثراً على أثر. فكل صباح كانا يسيران على الطريق نفسه، وكل صباح يدوسانه كما في المرة الأولى، لأن الطريق خلال اليوم والليلة يُغمَر بالثلج. وحتى لو لم يسقط الثلج، يتغطَّى الدرب المُداس بالثلج المُنجَرِف. ففي الفضاء المفتوح بين المقبرة والغابة دائماً ما تهبُّ رياحٌ قويّة.

عندما يدخلان الغابة، كانت الريح تهدأ. فيجدان هناك في بعض الأحيان مساراتهما. وكان يهطل على هذه المسارات ثلج ناعم أيضاً، وفي بعض الأحيان تقطعها آثار أقدام أخرى - لحيوانات أو طيور - لكنها تبقى موجودة. واعتقد أرسيني أنها لن تختفي من دون أن تترك أثراً.

لم يكن البرد شديداً في الغابة كما في الطريق إليها. وربما، حتى أنَّ الجو فيها دافئ. بدا الغطاء الثلجي الكامن لعدة أيام على الأغصان مثل الفراء لأوستينا. كانت تحب أن تنفضه عن الأغصان وتتمتع بنزوله على أكتافها وأكتاف أرسيني.

- هل ستشتري لي مثل هذه الفروة.

- بالتأكيد، أجابها أرسيني. طبعاً سأشتري.

كان يرغب جداً بشراء مثل هذه الفروة لها.

في منتصف نيسان (أبريل) بدأ الجليد في الذوبان وسرعان ما أصبح قديماً ورثّاً، ومَسامياً من الأمطار التي بدأت تسقط. لم ترغب أوستينا بعد بمثل هذه الفروة. ولأنها تنظر بانتباه تحت قدميها، كانت تنقلهما من نتأة صغيرة آخذة بالذوبان إلى نتأة أخرى. ومن تحت الثلج، بدَتْ أنواع أوساخ الغابة - أوراق الأشجار من السنة الماضية، وقطع الخرق الفاقدة لألوانها، والقوارير الملوَّثة. وفي المروج المكشوفة للشمس نبت العشب، ولكن في الأماكن العميقة كان الثلج لا يزال عميقاً. وكان الجو بارداً هناك. وفي نهاية المطاف، ذاب الثلج حتى هناك، لكن البرك الناشئة بسببه بقيت حتى منتصف الصيف.

وفي شهر مايو (آيار)، غيَّرت أوستينا الجزمة الشتوية بخُفٍّ من الألياف نسجَه أرسيني. أحبَّتْ أوستينا الخُفّ، لأنَّه على قياس قدمها، والأهمّ من ذلك أنَّ أرسيني نسجه. ولأنه لا يسمح لها أن تنحني، فقد كان يلفّ بعناية أربطةَ الخُفّ حول رجليها، وكان هذا يعجبها كذلك. الحذاء خفيف، لكنه يسمح بدخول الماء. وأحياناً، تعود أوستينا إلى المنزل بأقدام مبلَّلة، ولكنها لا تريد العودة إلى الجزمة الشتوية بأي حال من الأحوال.

حسناً، سأكون حذرة بالسير، قالت لأرسيني.

أصبحت جولاتهما أطول بكثير. وصارا يذهبان الآن ليس إلى الغابة القريبة فحسب، بل حتى إلى الأماكن البعيدة عن أيّ مسكن، التي أراها كريستوفر لأرسيني في وقتٍ مضى. في هذه الأماكن شَعَر أرسيني بهدوءٍ أكثر. ففي الغابة القريبة، يحدث أنْ يشاهدا بعض الناس، فما إنْ يلاحظانهم من بعيد، حتى يسارعا بالاختباء. أمّا الآن، بعد أن صارا يذهبان بعيداً، ما عادا يصادفان أحداً.

- ألا تخاف أنْ نضلّ الطريق، سألت أوستينا أرسيني.

- لا أخاف، لأنّي أعرف هذه الأماكن منذ نعومة أظفاري.

وخلال هذه الجولات، حمل أرسيني كيساً فيه الطعام والشراب. وفيه كذلك وضع جلد الغنم الذي يجلسان عليه أثناء فترات التوقّف الطويلة - اهتمّ أرسيني بألّا يترك أوستينا تتعب. وعندما يتجوَّلان، كانا يجمعان الأعشاب، التي تجود بها الطبيعة المتجدِّدة. ويصف أرسيني خصائص النباتات لأوستينا، فتندهش من سِعة اطِّلاعه. وحدَّثها كذلك عن بنية جسم الإنسان وعادات الحيوانات وعن حركة الكواكب والحوادث التاريخية ورموز الأعداد. وفي مثل هذه اللحظات يشعر أنه والدها، أو جدّها - إذا أخذنا بنظر الاعتبار مصدرَ معرفته. بدتْ الطّفلة ذات الشعر الأحمر لأرسيني طينةً في يديه، صَنعَ منها زوجةً له.

-ض-

إنَّ قول أنَّ لا أحد يعرف عن وجود أوستينا الآن فيه مبالغة كبيرة. حتى وإنْ من بعيد، لكنَّ الناس رأوهما معاً مرات عديدة في الغابة. بالطبع، هم لم يعرفوا أوستينا، لكنهم يمكن أن يعرفوا أرسيني من دون صعوبة - حتى من بعيد. وعندما يزورون أرسيني في منزله، يسمعون أوستينا خلف الجدار، لأن الإنسان لا يمكن ألّأ يُحدِث ضجة في جميع الأوقات. الكثيرون خمَّنوا أنَّ شخصاً ما يعيش مع أرسيني، ولكن بما أنَّه يخفيه، لم يُسأل عن أيّ شيء. كان أرسيني طبيبَهم، وكانوا دائماً يخشون إزعاج الأطبَّاء. وأرسيني من جانبه، قد خمَّن، بلا ريب، هذه الشكوك. لكنه لم يحاول تأكيد تخميناته أو دحضها. كان يكفيه أنّه لم يُسأَل عن أي شيء - مهما كانت الحقيقة. إذ اكتفى أرسيني منهم أنْ لا أحد حاول اقتحامَ عالَمِه. هذا العالَم الذي عاش فيه هو وأوستينا فقط.

وفي بداية الصيف، عندما بدأت أوستينا تتعب من المشي لمسافات طويلة، جعلا يجلسان في كثير من الأحيان بالقرب من المنزل. وبعد إصلاح الكوخ بقي هناك عدد قليل من الجذوع والألواح، فقرر أرسيني بناء سقيفة في الفناء. وحينما صار يضع الألواح الواحد تلو الآخر، تذكَّر بألمٍ، كيف قبْلَ أقلَّ من سنة كان كريستوفر يقودُ مثل هذا العمل. طلب أرسيني بصوتِ الجدّ من أوستينا أنْ تعطيه هذه أو تلك من الأدوات، لكنَّ الأمر جرى بصورة أسوأ منه عند كريستوفر. والألواحُ أيضاً ترتيبُها بدا أسوأ. ماذا سيقول كريستوفر عنْ عمَله لو كان موجوداً؟ وماذا سيقول عن أوستينا؟

ألصق السقيفة بالجانب الخلفي من المنزل بحيث لا يمكن رؤيتها من الطريق. وفي غضون بضعة أسابيع نما اللبلاب المتسلق بشكل كثيف على حبالٍ مَدَّها أرسيني. كان سقفُها مغطًّى بالقشّ ولم يسمح بتسرّب المطر. الآن يمكن التواجد في الهواء النقي في أيّ طقس. وأكثر ما كان يعجبهما الجلوس تحت المظلة في المساء.

وفي إحدى أمسيات يوليو (تموز) الطويلة طلبت أوستينا من أرسيني أنْ يعلِّمَها القراءة والكتابة. هذا الطلب في البداية فاجأه. فكل ما يحتاجون قراءته، كان بإمكانه هو أنْ يقرأه، وكان هذا جزءاً من ارتباطهما في وحدة واحدة. وبعد أنْ قطف لها زهرة من اللبلاب، وضعها أرسيني بعناية على طرف أنف أوستينا. لماذا تريدين هذا - أراد أرسيني أنْ يسألها، ولكنه لم يسألْ. دخل البيت وعاد من هناك مع سِفْر المزامير. وبعد أنْ جلس أرسيني بجوار أوستينا، فتح الكتاب. ولمس بسبابته الحرف الأوَّلي الأوَّل المكتوب بحبرِ الزُّنْجُفْر الأحمر. بدا الحرف متوهِّجاً أحمرَ في أشعَّة الشمس المائلة للغروب.

- هذا هو الحرف «ط». هنا تبدأ الكلمة «طوبى» به.

طوبى للرجل الذي لمْ يسلك في مَشورة الأشرار - وقرأت أوستينا من دون أنْ تستعجل - وفي طريق الخطاة لم يقف وفي مجلس المستهزئين لمْ يجلس.

نظر أرسيني بصمت إلى أوستينا. وضعتْ رأسها على كتفه.

- أنا أعرف العديد من المزامير عن ظهر قلب. من السمع.

وهذا أفادها كثيراً عند تعلُّم القراءة والكتابة. فبعد قراءة بعض الحروف، تتذكَّر أوستينا العبارة بأكملها، مما ساعدها على التعرُّف على الحروف التالية على الفور. وحتَّى أنَّ أرسيني لمْ يتوقَّع أنْ تسير الدراسة بهذه السرعة.

وأكثر ما أعجب أوستينا أنَّ الحروف لها أسماء. وقد لفظتها مع نفسها،

وكانت شفتاها تتحركان باستمرار. ألف، باء، تاء. وبعد أنْ كسرتْ غصناً وكتبت أسماء الحروف على أرضية فناء الدار المسحوقة بالأقدام وعلى مسارات الغابة. ثاء، جيم. لقد أعطت الأسماءُ للحروف حياةً مستقلّة. أعْطَتْها معنى غير متوقع، فَتَنَ أوستينا. حاء، خاء، دال، ذال، راء، زاي.

وأخيراً، للحروف قيمةٌ عددية. فالحرف а له قيمة عددية مقدارها واحد، والحرف в – اثنان، والحرف г – ثلاثة.

لماذا بعد а҃ يأتي в҃، اندهشت أوستينا. وتساءلت، إذن، أين الحرف б҃؟

القيمة العددية للحروف تتبع حسب الأبجدية الإغريقية، التي لا وجود فيها لهذا الحرف.

هل تعرف اللغة الإغريقية؟

كلا (وضع أرسيني يديه على خدَّي أوستينا وفرك بأنفه أنفها)، هكذا قال كريستوفر. وهو كذلك لم يكن يعرف اللغة الإغريقية، لكنه كان يشعر بكثير من الأشياء بالحدس.

تعززت خصائص الحروف التي أذهلت أوستينا بخصائص مدهشة للأرقام. بيَّن لها أرسيني كيف أنَّ الأرقام تُجمَع وتُطرح وتُضاعَف وتُقَسَّم. فهي تعني قمة تاريخ البشرية: فالعام ҂є҃ф (5500) مِنْ خَلْق العالَم، عندما وُلدَ المسيح. وهي أيضاً تشير إلى نهاية التاريخ، التي تظهر في العدد الرهيب للمسيح الدجال х҃ѯѕ (666). وكلّ هذا جرى التعبير عنه بالحروف.

كان للأرقام انسجامٌ خاصّ بها، يعكس التناغم العام في العالم وكل شيء فيه. قرأت أوستينا الكثير من المعلومات من هذا النوع من رسائل كريستوفر، التي جلبها إليها أرسيني. الأسبوع فيه سبعة أيام، وتمثّل حياة الإنسان: يوم الـ а҃ يوم ولادة الطفل، ويوم الــ в҃ يوم الشباب، ويوم الـ г҃ – يوم الرجل الراشد، ويوم الــ д҃ يوم الكهولة، ويوم الــــ є҃ يوم المشيب، ويوم الــــ ѕ҃ يوم الشيخوخة، ويوم الــ з҃ يوم الموت.

ومع ذلك، كان كريستوفر مغرماً ليس فقط برموز الأعداد، فقد وجدت أوستينا بين رسائله إشارة إلى المسافات. فمن موسكو إلى كييف، ألف وخمسمائة من الفيرستات، ومن موسكو إلى الفولغا cm من الفيرستات، من بحيرة بيلا إلى أوغليش cm من الفيرستات. لماذا سجَّلَ كلَّ شيء، فكَّرت أوستينا، وهي تقرأ. أجابها أرسيني ذهنياً، إنَّ كريستوفر لم يزرْ، بالطبع، لا موسكو، ولا كييف، ولا الفولغا. ربما في هذه البيانات، جذب انتباهه الـ 240 فيرست، والتي نصادفها مرَّتين. هذه المصادفة (أجاب أرسيني) أَوْلاها المرحوم أهميّة خاصة، وإنْ لم يكن مدركاً تماماً لمغزاها. المهم أننا الآن نفهم بعضنا البعض من دون كلمات.

-ط-

لم يمر حمل أوستينا بسهولة. فمن وقت لآخر كانت تشتكي من الصداع والدوار. في مثل هذه الحالات، يفرك أرسيني صدغَيها بزيت الشبت أو مغلي الفراولة. حدثت حالات انزعاج، شعرت أوستينا بالحرج من ذكرها، وبقيت صامتة عنها. على سبيل المثال، الإمساك. وبعد أن لاحظ أرسيني ذلك، وبّخ أوستينا وقال إنهما الآن واحد ولا ينبغي أنْ تشعر بالخجل. وأعطاها لعلاج الإمساك منقوعاً من أوراق عشبة الخمان الطازجة. وقد جمعا في فصل الربيع معاً هذه الأوراق وغلياها معاً في العسل.

تعكر نوم أوستينا. فقد عرف أرسيني بأنها استيقظت في منتصف الليل، لأنه لم يعد يسمع صوت تنفّسها. فعندما نامت أوستينا، كانت تتنفّس بأنفها - بشكل صاخب ومتساوٍ. لاستعادة نومها، أعطاها أرسيني في الليل منقوعاً من طحلب الخشب.

من الواضح أن جسد أوستينا اختبر قوة روحها. كانت أوستينا تتأذى باستمرار من الحرقة. وتعاني في رحمها، حيث يوجد الطفل، من ألم وثقل. وكان بطنها الذي يكبر يحكّها بلا رحمة بسبب تلامسِه مع قميص أرسيني الكتاني. وقد انتفخت أقدام أوستينا من ثقل حملها. وبدت ملامح وجهها متورمة. وأصبحت عيناها نعستان. وظهر في نظرة أوستينا شرودٌ غير معهود. لاحظ أرسيني هذه التغييرات وانتابَه القلق بسببها. فقد رأى في عيني أوستينا الذابلتين بداية التعب من الحمل.

وقد ساعدَتْها حداثة الحالة على التغلب على انحراف صِحَّتها في الأشهر الأولى. وبعد مدّة، ما عادت هذه الحالة جديدةً. صارت معهودة ومرهِقة. إضافة إلى ذلك حلَّ الخريف، وبدأ النهار يقصر كعادته في الشمال. والظلام الذي يلفُّ المنطقة أدخل الوحشة على أوستينا وأثار لديها شعوراً بالكآبة. رأت أنَّ الطبيعة تموت، ولم يكن هناك أيُّ شيء يمكن أن تفعله حيال ذلك. ولمّا تشاهد أوستينا الأوراق تتساقط من الأشجار، كانت تذرف الدموع كذلك.

صارت ترى التغييرات في جسدها كما لو أنها من طرف آخر. إذ يصعب عليها أكثر وأكثر أن ترى نفسها كالسابق - مرنة وسريعة وقوية - في مخلوق متورم أخرق. وأخذت تشعر أنَّ شخصاً ما قد وضعها في جسم شخص آخر.

والحقيقة أنّ هذا، ليس شخص ما - بل أرسيني. وبعد أن توصلت أوستينا إلى هذه الفكرة، شعرت أنها بلغت القاع، واندفعت بعيداً عنه ثم طفت على السطح من جديد. وهنا انفتحت على جميع المباهج التي تحيط بها. وكانت فرحة أوستينا أكثر إشراقاً من معاناتها وألمها.

غدت سعيدة بشهيتها التي انفتحت، لأنها تعرف أنها الآن لا تأكل لوحدها، بل مع جنينها. وباتت سعيدة باللبأ، الذي بدأ يظهر في حلمتيها. واستسلمت للخيال الجامح عن الطفل القادم وانقسمت بينه وبين أرسيني:

- إذا وُلِدَت بنت، فستكون أجمل البنات في بلدة روكينا وستتزوج أميراً.

- ولكن لا يوجد أمراء في بلدة روكينا.

- في مثل هذه الحالة سيأتي الأمير. إذا ما أنجبتُ ولداً - وهو، بشكل عام، الأفضل - سيكون أشقراً وحكيماً، مثلك، يا أرسيني.

- ما حاجتنا باثنين من الشُّقران والحكماء؟

- هذا ما أريد، يا حبيبي، ما الخطأ في ذلك؟ أعتقد أنه لا يوجد شيء خاطئ.

وذات مرة مرَّرَ أرسيني يده ببطء على بطن أوستنا وقال:

- إنَّه صبيّ.

- الحمد لك، يا رب، كم أنا سعيدة. سعيدة بكل شيء، ولا سيَّما، بالصبي.

عندما تجلس أوستينا على الدكّة عادةً ما كانت تمسّد على بطنها. وفي بعض الأحيان تشعر بتحرّكات الجنين في داخلها. فبعد كلمات أرسيني، لم تشك في كونه ولد. وأحياناً يضع أرسيني أذنه على بطنها.

- ماذا يقول، تسأله أوستينا.

- إنه يطلب منكِ أنْ تتحمّلي بعدُ قليلاً. حتى أوائل ديسمبر (كانون الأول).

- حسناً، حقاً - أرجو أنْ تسألَه. أعتقد، إنه نفسه قد تعب من الجلوس هناك.

- لا يمكنك حتى أن تتصوري، كم أضجرَه الجلوس هناك.

وللترفيه عن الجنين، غنت أوستينا:

السلام لك يا مريم يا أمَّ الله القُدُّوس

السلام لك يا مريم يا بكر بتول وعروس (رسمت أوستينا إشارة المسيح عليها وعلى بطنها)

السلام لك يا مريم يا خليلة سليمان

يا مريم يا ممتلئةً نعمة

الربّ معكِ مباركة أنتِ في النساء

يا زرعاً طاهراً مبرور

يا ضياءً في البريّة.

فكَّر أرسيني أنه قد يسمع صوتها الخارق أحدُ المارِّين في الطريق، لكنه لم يقلْ أيَّ شيء. وقال مع نفسه، دعْها تغنّي، سيصبح الأمر للطفل أكثر متعة.

خاطت له ملابس.

وقالت، فأل سيء - خياطة الملابس لمولود لم يولد بعد.

ولكنها على كل حال خاطت. أخذت القماش من أشياء كريستوفر.

وقالت إنَّ الخياطة من الأغراض الموروثة غير مندوحة كذلك.

وفي الوقت الذي كانت تغرز فيه الغرزة بعد الغرزة، تنهَّدت بشكل عميق، وأخذَ بطنُها الكبير يتحرَّك بالكامل. وبدت من بين يدَيها لفافاتُ سروال وقميص صغيرَين كتلك التي تُلبَس للدُّمى.

وصنعت كذلك دمى. لقد خاطتها من خرق ورسمتها بأشكالٍ مختلفة. وحاكت دمى من القشّ. وكانت جميع دمى القش متشابهة، وجميعها تشبه أوستينا. وعندما قال لها أرسيني ذلك، انفجرت في البكاء.

- شكراً لك (أومأت برأسها) على المجاملة. شكراً جزيلاً.

فاحتضنها أرسيني:

- إني أمزح، يا حمقاء، لا أحد يحبّك، مثلي، ولن يحبك، حبُّنا هو حالة خاصة.

ضغط بخده على شعرها. فخلَّصت نفسها منه بلطف وقالت:

- يا أرسيني، أريد أن أتناول القربان المقدس قبل الولادة، إني أخشى أنْ ألدَ من دون طقس الأفخارستيا.

وضع كفَّه على شفتَيها:

- ستتناولين القربان المقدس بعد أنْ تلدي، يا حُبّي. كيف ستذهبين إلى الكنيسة في هذا الوضع الآن؟ إذ إننا بعد الـولادة، في الواقع، سننكشف للجميع، ونريهم ولدنا، وسنتناول القربان المقدَّس، وسيكون الأمرُ أسهل، لأنه سيكون عندنا طفل - ولن نحتاج لأن نشرح أي شيء لأي شخص، سيبرر الطفل كل شيء، ونبدأ الحياة بصفحة جديدة، هل تفهمين؟

- أفهم، أجابت أوستينا. أنا خائفة، يا أرسيني.

كانت تبكي في كثير من الأحيان. وقد حاولت ألّا يراها أرسيني، لكنّه رآها، لأنهما طوال هذه الأشهر ما افترقا عن بعضها البعض وكان من الصعب عليها أنْ تبكي سراً.

غدت القراءة أصعب على أوستينا. إذ تشتَّتَ ذهنُها. وصار يصعب عليها الجلوس ويصعب عليها الاستلقاء. وصار عليها ألّا تنام على ظهرها، ولكن على جنبها. وجعلت الآن تطلب من أرسيني أن يقرأ لها بشكل متزايد، وكان، بطبيعة الحال، يقرأ لها.

حدث للإسكندر أنْ وصل إلى أرض المستنقعات. ومَرِضَ الإسكندر هناك، ولكن لم يكن في تلك المستنقعات حتى مكانٌ للاستلقاء. وهطل الثّلج من السماء الغريبة عليه. أمر الإسكندر الجنود، أن يخلعوا دروعهم وخوذهم، ويركموها على بعضها البعض. وهكذا وضعوا له سريراً في مكان موحل. فاستلقى عليه، منهكاً، وستروه عن الثلج بدروع السلاحف. وفجأة أدرك الإسكندر أنه نائم على الأرض الحديدية تحت سماء العظام...

- توقَّفْ، تحولت أوستينا بصعوبة إلى جنبها الآخر ثم استلقت وظهرها إلى أرسيني، اليوم لدينا ثلج أيضاً، لماذا تقرأ هذا لي...

- سأبحث لك عن شيء آخر، يا حبّي.

تحوَّلتْ أوستينا من جديد باتجاهه.

- ابحث لي عن قابلة هذا ما سأحتاجه قريباً.

- ما حاجتكِ بالقابلة الجاهلة، فوجئ أرسيني. بعد كل شيء، أنا موجودٌ عندكِ.

- وهل سبق لك أنْ قُمتَ بالتوليد؟

- كلا، لكن كريستوفر حدثني عن هذا بالتفصيل. وكتب لي عنه أيضاً - وفتَّش أرسيني في سلة وأخرج رسالة من هناك - ها هو ما كتبه.

- وهل من الممكن أن تحدث الولادة وفقاً لما هو مكتوب، سألت

أوستينا. إضافة إلى ذلك، الحقيقة، لا أريدك أن تراني هكذا. لا أريد ذلك، يا أرسيني.

- ألسنا، أنا وأنتِ، واحد؟

- طبعاً، نحن واحد. ولكن، مع هذا - لا أريد.

لم يجادلها أرسيني. لكنه لم يبحث عن أيّ شخص.

-ظ-

في 27 نوفمبر (تشرين الثاني) في ساعة الغسق، خرج ماء من أوستينا. لم تدرك معنى ذلك على الفور، حتى تبلَّل سريرُها. وما إنْ ذهبتْ إلى المرحاض، حتى غيَّر أرسيني الفراش. بدأ يرتعش. عندما استلقت أوستينا مرة أخرى، أضاء مصباحين زيتيَّين ومشعلاً واحداً. أخذتهْ أوستينا من يده وأجلسته بجانبها.

- لا تقلق، يا حبيبي، كل شيء سيكون على ما يرام.

مال أرسيني بشفتيه على جبينها وأجهش بالبكاء. شعر بخوف لم يشعر بمثله في حياته قَطّ. مسَّدت أوستينا على عنقه. وبعد ساعة، بدأ يضربها الطّلق. وبدا على وجهها العرق متلألأً في عتمة الغسق ومرعباً كأنّه حبات بزاليا. وتراءى له هذا الوجه غريباً، ولا يعرفه. فقد حلَّت خلف الملامح المألوفة له ملامحُ أخرى - قبيحة ومتورمة ومأساوية. ولم تعد أوستينا السابقة موجودة في هذه الملامح. وكأنها غادرت، وجاءت أخرى بدلاً عنها. أو حتى لم تأتِ محلها أخرى - بل إنَّ أوستينا السابقة استمرت في الرحيل. وجعلت تفقد الكمال قطرة بعد قطرة، وتصبح أكثر نقصاً. كما لو كانت ذات طبيعة جنينية أكثر من غيرها. وقد توقف تنفس أرسيني من فكرة أنها يمكن أن تغادر تماماً. لم يفكر في هذا من قبل مطلقاً. وبدا وقعُ هذه الفكرة عليه شديداً. وجرَّته إلى أسفل، وانزلق من الدكّة إلى الأرض. وكأنه سمع من بعيد صوت ارتطام رأس بشجرة. ورأى كيف أنّ أوستينا تنهض بصعوبة من الدكّة وتنحني عليه.

لقد رأى كل شيء. كان واعياً، لكنه لم يستطع التحرك. لو كان يعلم وقع هذه الفكرة من قبل، وكم بدى سخيفاً بالنسبة إليه أن يتحدث عن أوستينا في البلدة. جلس أرسيني على مهله:

- سأُسرع إلى البلدة، لأحضر القابلة على الفور.

- الوقت متأخِّر الآن (لا تزال أوستينا تمسّد له)، والآن لا يجوز أنْ تتركني لوحدي، سنستطيع أنْ نتصرَّف بطريقة أو بأخرى، إنَّ ذهابك سيثير قلقي، ليس إلا... لم أردْ أن أحكي، لأني ما كنت متأكدة...

أجلسَ أرسيني أوستينا على الدكّة. وجعل يلثم يديها بالقبلات، وأخذ كلامها يتقطّع ليتحول إلى كلمات منفصلة ولم تعد تجمعه في رأسها بشكل موحَّد. كان يعلم أنَّ هذا الرعب قد اجتاحه ليس عبثاً. لمست أوستينا بطنها:

- منذ يوم أمس لمْ أسمع له حركة... الصبي. أعتقد أنه لا يحترك.

مدّ أرسيني يده إلى بطنها وأدارها بلطف من الأعلى إلى الأسفل. في أسفل البطن، تسمَّرت كفُّه. نظر أرسيني إلى أوستينا من دون أن ترمش عينه. لم يشعر في جوفها بالحياة. لم تعد ثمّة دقّات القلب التي سمعها طوال هذه الأشهر. كان الجنين ميْتاً. ساعدها أرسيني على الاستلقاء على جانبها وقال:

- إن الصبي يتحرك، ستلدين بسلام.

وجلس على حافة الدكّة ومسك أوستينا من يدها. وجعل يغيِّر أعواد المشعل مرة بعد مرة. ويسكب الزيت في المصابيح. وفي منتصف الليل نهضت أوستينا:

- تُوفِّي الصبي، فلماذا أنت صامت، إنك لمْ تتفوَّه بكلمة منذ عدة ساعات.

- إني لم أسكت، قال أرسيني، من بعيد. كيف يمكنني أن أبقى صامتاً؟

وهرع إلى رفوف كريستوفر وقلب مقعد التبول الليلي. التفت، ورأى كيف يتدحرج المقعد ببطء تحت الدكّة.

- كيف يمكنني أن أبقى صامتاً؟ ولكني أيضاً لا أستطيع التحدُّث - أخرج أرسيني منقوعاً مغليّاً من عشبة تشيرنوبيل - اشربي هذا.

- ما هذا؟

- اشربي.

رفع رأسها ووضع القدح على شفتيها. وسمع صوت رَشَفاتِها العالي مدوياً في الغرفة بأكملها. - هذه عشبة تشرنوبيل. إنها تطرد...

- ماذا تطرد؟

غصَّت أوستينا، وانسكب المنقوع من أنفها.

- عشبة تشرنوبيل تطرد الجنين الميت.

بكت أوستينا بصمت. أخرج أرسيني سلّة من الرف وسكب محتوياتها على الجمر. انتشرت في الغرفة رائحة كريهة حادة.

- ما هذا، سألت أوستينا.

- كبريت. رائحته تسرّع الولادة.

بعد دقيقة واحدة تقيأت أوستينا. إنها ما أكلت أي شيء من مدة طويلة، وكانت تتقيّأ النقيع الذي شربته.

رقدت أوستينا مرة أخرى. وجعل أرسيني مرة أخرى يمسّد لها. ثم شعرت بتجدّد آلام الطلق. واستولى عليها الألم. وإنَّ ما شعرت به في البداية كان ألماً في بطنها، ثم انتشر في الجسم كله. وخُيِّل إليها أنَّ آلام جميع القرى المحيطة تجمَّعت في نقطة واحدة ودخلت جسدها. لأن خطاياها، هي أوستينا، تجاوزت خطايا منطقتها كلها، وكان عليها أن تدفع ثمن ذلك في يوم ما. وهنا صرخت أوستينا. وكانت هذه الصرخة هديراً أخاف أرسيني، فأمسك بمعصمها. وقد أخاف هذا الهدير أوستينا نفسها بشدة، لكنها لم تستطع الصراخ. وظلّت مستلقية على جنبها، وسحبت

ساقها وبدأ أرسيني يسند ساقها. هذه الساق كانت تنحني وتستقيم، وبدت كمخلوق شرير منفصل، لا يريد أن يكون لديه أي شيء مشترك مع أوستينا الهامدة. حمل أرسيني ساقها بكلتا يديه، ولكن مع ذلك لم يكن قادراً على الاحتفاظ بها. استدارت أوستينا بشدة، وفي شريط من الضوء الساقط رأى برازاً يلمع على الجانب الداخلي لفخذها. واصلت أوستينا الصراخ. لم يفهم أرسيني ما إذا كان الطفل يتحرك. وعندما أحسَّ تحت أصابعه شعر رحمها، تذكّر الملامسات الأخرى، ودعا الله أن ينقل له ألم أوستينا، أو على الأقل نصف ألمها. وفي لحظات صحوها، كانت أوستينا تشكر الله لأنه منحها أنْ تتألم عن نفسها وعن أرسيني، هكذا كان حبُّها له كبيراً. تلمَّس أرسيني ما بدا له رأسَ الطفل في رحم أوستينا. كان الرأسُ ضخماً باللّمس، وفكر أرسيني بحالة من اليأس أنَّ الرأس لا يمكن أن يخرج. وفعلاً، لم يخرج الرأس. ومرة بعد مرة يظهر اليافوخ، ولكن بعد ذلك يختفي مرة أخرى. حاول أرسيني أن يضع أصابعه تحته، لكن أصابعه لم تمر. حتى أنه ظن أنه عندما حاول سحب الرأس، دفعه إلى العمق أكثر. انتابه شعور بالحرارة. كانت الحرارة لا تُحتمل، فنهض واستقام ونزع القميص عن نفسه بدفعة واحدة. كان رأس الطفل لا يزال غير مرئي. أصبحت صرخات أوستينا أكثر هدوءاً، لكنَّها أكثرُ فزعاً، لأنها فقدت قوّتها ليس بسبب تحسن الحالة. فقدت أوستينا وعيها ودخلت في غيبوبة. رأى أرسيني أنها غابت عن الوعي، فجعل يصرخ عليها ليُبقيها صاحية. ضربَها على خدَّيها، ولكن رأسَ أوستينا كان يهتزّ بلا حياة من جانب إلى آخر. ألقى أرسيني ساقها على كتفه وحاول بيده اليمنى أن يلج إلى الرحم. فبدا له أن يده لم تمر، لكن أصابعه شعرت بالطفل. إنه اليافوخ. وهذه الرقبة. والكتفين. وجميعها التصقت في المكان الذي ينتقل فيه العنق إلى الرأس. وتحركت نحو الخروج. دوَّت طقطقة. لم يعد أرسيني يفكر في الطفل بعد. وفي احتمال أنّه، ربما، لا يزال على قيد الحياة. إذ اقتصر تفكيره في أوستينا فقط. استمر في سحب رأس الطفل من رأسه، محاولاً أن يستجمع قواه. ورأى كيف انفرجت شِفَتا الرحم،

وسمع صرخة فظيعة من أوستينا. كان الطفل في يد أرسيني. عندما وُلِدَ، لمْ يصرخ. قطع أرسيني الحبل السري بسكين أعدها مسبقاً. صفَعَ الطفل. إذ إنّه سمع أنَّ القابلات يقمْن بذلك ليساعدن في التنفس الأول. وصفعه مرة أخرى. كان الطفل لا يزال صامتاً. وضعه أرسيني بعناية على قماط وانحنى على أوستينا. لم ينقطع الطّلق. عرف أرسيني أنَّ المشيمة ستخرج. أزاح أرسيني النُّخامة الدموية الخارجة من أوستينا وألقى بها في إناء التبوُّل اللَّيلي. كانت قطعة القماش غارقة بالدم بالكامل، فاعتقد أنَّ الدم أكثر مما ينبغي أنْ يكون أثناء الولادة. لكنه لم يكن يعرف كم ينبغي أن يكون. ورأى فقط أنَّ النزيف لم يتوقَّف. لقد كان خائفاً، لأنَّ الدم ينزف من الرحم، ولم يستطع إيقافَه. أخذ بأصابعه شيئاً قليلاً من الزُّنْجُفْر (كبريتيد الزئبق) المسحوق وأدخله في رحم أوستينا بعمق قدر المستطاع. إذ سمع من كريستوفر أنَّ الزُّنْجُفْر المسحوق يوقف الدم من الجرح النازف. لكنّه لم يرَ الجرح ولم يعرف مكان النزيف بالضبط. والدم لم يتوقَّف. ونقَّع الدمُ السريرَ أكثر وأكثر. كانت أوستينا مستلقية وعيناها مغمضتان، وشعر أرسيني أنها ستغادرها الحياة.

- «لا تذهبي، يا أوستينا»، صرخ أرسيني بقوة كبيرة، حتى سمعه الشيخ نيكاندر في الدير.

كان الشيخ يقف في صومعته يصلي. «أخشى أنَّ الصراخ لا طائل منه»، قال العجوز (وشاهد من خلال الباب المفتوح لأول مرة في هذا العام ندف الثلج تطير إلى الداخل، وقد نفخ تيارُ الهواء الداخلُ الشمعةَ، ولكن القمر خرج للتوّ من الغيوم المهلهلة وأضاء المدخل)، «ولهذا سوف أصلّي من أجل الحفاظ على حياتك، يا أرسيني. ولن أصلّي من أجل أي شيء آخر في الأيام القليلة المقبلة»، قال الشيخ، وهو يغلق الباب.

وخلال لحظة حلَّ في المنزل صمتٌ تام، وفي ظلّ الصمت فتحت أوستينا عينَيها وقالت: يا للأسف، يا أرسيني، إني سأرحل في هذا الظلام وهذه النتانة. وخارج النافذة، بدأت الرياح تصفر من جديد.

«أوستينا، لا تذهبي عنّي»، صاح أرسيني، «حياتي ستنتهي مع حياتك». لكنَّ أوستينا لم تُصغِ له بعد الآن، لأنّ حياتَها قد توقَّفَتْ. كانت مستلقيةً على ظهرها، وساقُها المحنيَّة عند الرّكبة مسحوبةٌ إلى الجانب. ويدُها تتدلّى من الدكّة. وقد ضغطت على طرف الغطاء. وحوَّلت وجهَها نحو أرسيني، وعيناها المفتوحتان لا تنظران إلى أيّ مكان. تمدّد أرسيني على الأرض بجانب مقعد أوستينا. استمرَّت حياتُه، على الرغم من أنَّ هذا ما كان واضحاً. بقي أرسيني راقداً في ما تبقى من الليلة واليوم التالي. وفي بعض الأحيان كان يفتح عينيه، ورأى أحلاماً غريبة. كانت أوستينا وكريستوفر يقودانه، وهو صغير، من يدَيه عبر الغابة. وعندما يصعدان فوق الروابي، بدا له أنّه كان يطير. أوستينا وكريستوفر كانا يضحكان، لأن مشاعره لم تكن لغزاً لهما. كريستوفر ينحني باستمرار فوق الأعشاب ويضعها في كيس قماش. أما أوستينا فما جمعت أي شيء، لقد تباطأت في سيرها وهي تراقب أفعال كريستوفر. كانت أوستينا ترتدي قميصاً رجالياً أحمراً، عزمت في وقت قريب أنْ تعطيه لأرسيني. هكذا قالت بالفعل: «هذا القميص سيكون لك، فقط عليك أن تغيِّر الاسم. عدم وجود فرصة موضوعية لتكون أوستينا، فَسَمِّ نفسك أوستين. اتفقنا؟». نظر أرسيني إلى أوستينا من أخمص قدمها حتى رأسها: «اتفقنا». كانت جديّة أوستينا مضحكة بالنسبة إليه، لكنه لم يُبدِ ذلك. «بالطبع، اتفقنا». مُلأت حقيبة كريستوفر تماماً. ولكنّه تابع جمع الأعشاب، ومع وقع خطواته كانت الأعشاب تسقط من الحقيبة على الطريق. كان الدّربُ كلُّه، بقدر ما يمكن أنْ تراه العين، مغطّى بأعشاب كريستوفر. واستمرَّ هو في جمْعها. وهذا النشاط الذي يبدو للوهلة الأولى بلا معنى، كان له جمالُه ونطاقه الخاصّ به. وإنَّ كرَمَه، الذي لا يبالي بما إذا كانت هناك حاجة له ناتجٌ عن مجرد ترتيب المعطي.

ومع قدوم الصباح، لاحظ أرسيني النور، لكنه فعل كل شيء لكي لا يستيقظ. حتى في نومه، كان خائفاً من اكتشاف أنّ أوستينا قد ماتتْ.

واستولى عليه رعبٌ صباحيّ خاص: كان مجيء يوم جديد من دون أوستينا شيئاً لا يُطاق بالنسبة له. مرّةً أخرى غذّى نفَسه بالنوم حتى الخدر. النَّوم يتدفَّق في عروق أرسيني ويدقّ في قلبه. مع كل دقيقة كان ينام أكثر وأكثر، لأنه كان خائفاً من الاستيقاظ. كان نوم أرسيني قوياً لدرجة أنَّ روحه تركت الجسد أحياناً وعُلّقت تحت السقف. ومن هذا الارتفاع الصغير، في الواقع، تأمَّلَتْ في أرسيني وأوستينا النائمَيْن، متعجِّبةً من غياب روح أوستينا الحبيبة لها عن البيت. وعندما رأت روح أرسيني الموتَ قالت: «لا أستطيع أن أتحمل مجدك وأرى أنَّ جمالك ليس من هذا العالم». هنا تفحَّصت روح أرسيني روح أوستينا. كانت روح أوستينا شبه شفَّافة وبالتالي غير مرئية. هل أنا أيضاً هكذا، فكَّرت روح أرسيني وأرادت أنْ تلمسَ روح أوستينا. لكنّ الإيماءة المهدِّدة للموت أوقفت روح أرسيني. كان الموت يمسك روح أوستينا من يدِها، ويهمُّ أنْ يأخذها بعيداً. «اتركْها هنا»، أجهشتْ روحُ أرسيني بالبكاء، «لقد كبرنا معاً». «اعتدْ على الفراق»، قال الموتُ، الذي على الرغم من كونه مؤقَّتاً لكنَّه مؤلم. «هل سنعرف بعضنا البعض في الخلود؟»، سألت روح أرسيني. «هذا يعتمد إلى حدٍّ كبير عليك»، قال الموت، «خلال الحياة، غالباً ما تصبح الأرواح قديمة وتيبس، ومن ثم لا تعرف الكثير بعد الموت. إذا كان حبّك، يا أرسيني، صادقاً ولا يُمحى بمرور الزمن، فَلِمَ لا تتعرّفان، إذن، على بعضكما هناك، حيث لا مرض ولا حزن ولا آهات، بل حياة لا نهائيّة». ربَّتَ الموت على خدّ روح أوستينا. وكانت روح أوستينا صغيرةً، طفوليَّة تقريباً. وقد استجابت للإيماءة اللطيفة من الخشية أكثر منها من الامتنان. هذه هي الطريقة التي يستجيب بها الأطفال لأولئك الذين يأخذونهم من ذويهم لمدة غير محددة، والحياة (الموت) معهم قد تكون جيّدة، ولكنها مختلفة تماماً، وتخلو من طريقة الحياة السابقة، ومن الحوادث المعتادة وعبارات الكلام المعروفة. وعندما يرحلون، ينظرون من حولهم، وفي دموع أعين ذويهم يرون انعكاس صورتهم الخائفة.

-٤-

استيقظ أرسيني، عندما حلَّ الظلام. اصطدمت يده بيد أوستينا المتدلّية. كانت يدُها باردة. إنّها لم تنحنِ. وكان الجمر في الموقد قد خَفَتَ منذ مدة طويلة، ولكن شيئاً ما بالكاد يلاحَظ يومض في المصباح أسفل أيقونة المخلِّص. حمل أرسيني شمعة وقرَّبها من المصباح. أمسك بها بعناية حتى لا تنطفئ النار الأخيرة المتبقية في المنزل. الشمعة (ليس فوراً) اشتعلت وأضاءت الغرفة. أجال أرسيني النظر من حوله. تلفَّتَ في المكان جيداً، ولاحظ التفاصيل كلها. الأشياء المبعثرة. والأوعية المتكسرة مع العقاقير التي احتوتها. ما فاته أي شيء من التفاصيل الصغيرة، لأنَّ هذا الأمر ساعده على ألّا ينظر إلى أوستينا. ولكنه مع هذا نظر إليها.

كانت أوستينا راقدة في الوضعية نفسها التي رقدت فيها يوم أمس، ولكنها الآن مختلفة تماماً. أصبح أنفها أكثر حدّة، وقد غار بياضُ عينيها المفتوحتين. وغدا وجه أوستينا كأنه من الجبس، وأطراف أذنيها - ذات لون أحمر قاتم. وقف أرسيني بمحاذاة أوستينا وخاف أنْ يمسَّها. لم يشعر بالاشمئزاز، فخوفه ذو طبيعة مختلفة. لم يكن في الجسد الذي أمامه شيء من أوستينا. مدّ يده إلى ساقها نصف الملتوية وتلمسها بلطف. ومرَّر إصبعه على بشرتها: فبدتْ باردةً وخشنة. ما كانت أوستينا خلال حياتها بمثل هذه الحالة مطلقاً. حاول أنْ يمدَّ ساقَ أوستينا، لكنَّه لم يُفلِح في شيء، ولم يفلح كذلكِ في إغماض عينَي أوستينا. إذْ إنَّه

خاف أنْ يضغط أكثر. فربّما، يكون العُضو الذي يمسُّه هشّاً للغاية. غطّى أوستينا بفرشة سرير - كلّها ما عدا وجهها.

بدأ أرسيني يقرأ قدّاس الموت. سأل الربَّ أنْ ينجِّي أوستينا من فخّ الصيّاد ومن كلمة مقلقة. وألّا تخشى من خوف الليل، ولا من سهم يطير في النهار، ولا من أمر يسلك في الظلمة. ومن وقت لآخر كان يلتفت وينظر في وجهها. سمع صوته من بعيد. في بعض الأحيان يصدح فيه البكاء. قال الصوت بشكل منخفض: ليوصي الربّ ملائكته بأوستينا، ليحفظوها في سائر طرقها. وتذكَّر أرسيني كيف غادرت أوستينا، وهي تمسك بيد الموت، وكيف تضاءلت ملامحها حتى تحوَّلت إلى نقطة. وآن ذاك كان معها الموت، وليس الملائكة. فرفع أرسيني بصرَه عن الورقة.

«الآن يجب أن تكوني في أيدي الملائكة، وتحوَّل بخجل إلى أوستينا. وعلى أيديهم يحملونك، لئلّا تعثر بحجرٍ رجلُكِ».

والتفتَ مرة أخرى، وبدا له أنَّ وجه أوستينا ارتجفَ. لم يستطع أنْ يصدِّق عينَيه. وبعد أنْ رفع الشمعة، اقترب منها. وصار ظلُّ أنف أوستينا يتحرَّك على وجهه. لم يتحرك الظلّ فقط: فقد تغيَّر وجه أوستينا مع الظل. لم يبدُ هذا التغيير طبيعياً، ولم يتطابق مع حركات وجه أوستينا الحيّة، ولكن في هذا ثمّة شيء ليس من سمات الموتى. فإذا لم تكن أوستينا بعدُ على قيد الحياة، فهي، كما يبدو، لم تمتْ تماماً.

خاف أرسيني من احتمال إهماله لبراعم الحياة التي لاحظها في أوستينا. هل يجمّدها، على سبيل المثال. الآن فقط شعر أنه خلال اليوم الماضي كلّه برَدَ الكوخ. هرع إلى الموقد وأوقد النار فيه. ارتعدت يدا أرسيني من القلق. ودار في خلَده فجأةً أنَّ كلَّ شيء يعتمد على مدى إمكانية الإسراع في إشعال النار. بعد بضع دقائق كان الحطب يفرقع في الموقد. لم يلتفت أرسيني بعدُ نحو أوستينا، ليعطيها الوقت لترتيب نفسها. لكن أوستينا لم تستيقظ.

ولكي لا يخيف براعم الحياة في أوستينا، قرر أرسيني التظاهر بأنَّه

لم يلاحظها. واصل قراءة الصلوات عن الأموات. بدأ في قراءة المزامير على أرواحهم. كان يقرؤها دون تسرُّع وينطق بكلّ كلمة بوضوح. وصل إلى نهاية المزامير وبدأ يتأمَّل. قرَّرَ قراءتها مرَّة أخرى. أنهى القراءة قبيل الصباح. وبشكل غير متوقع له، شعر بالجوع وأكل قطعة من الخبز.

وكأن الطعام فتح مناخره، فأخذ نفساً عميقاً. آنذاك شعر برائحة تعفُّن الجسد. اعتقد أرسيني أنَّ الرائحة تأتي من الطفل. والحقيقة: أنَّ علامات تحلُّل جسم الصغير كانت واضحة. وعند الفجر، نقله أرسيني أقرب إلى النافذة.

وقال للطفل: «إنك لم ترَ شعاع الشمس أبداً، وسيكون من غير العدل حرمانك من الضوء، ولو بقَدَر قليل جداً».

كان أرسيني في سرّه، بالطبع، يأمل أنْ تتدخَّل أوستينا في حديثه مع ابنه. لكنها لم تتدخل. وحتى الوضعية التي رقدت فيها أوستينا، ظلت ظاهرياً على حالها.

قرّر أن يقرأ سفر المزامير للمرة الثالثة على أوستينا. وعند الآية العاشرة، أحسَّ أرسيني بحركة على الدكّة. وبنظرة جانبية، واصل مراقبة الدكّة، لكن الحركة لم تحدث مرة أخرى. وبعد قراءة سفر المزامير حتى النهاية، انتابت أرسيني الحيرة. لم يعرف ما الذي يمكن قراءته على أوستينا في الوضع غير المستقر بين الحياة والموت، الذي تعيشه، وفق جميع القرائن. وتذكّر أنها خلال حياتها كانت تحبّ أن تستمع إلى الإسكندرية، وبدأ في قراءة الإسكندرية. كانت ردّة فعلها على الرواية عن الإسكندر حيويّةً دائماً، والآن، حسب ما يرى أرسيني، يمكن لهذا أنْ يؤدّي دوره الإيجابي.

حتى الصباح التالي قرأ على أوستينا الإسكندرية. وبعد تأمل قصير، قرأ عليها رؤيا إبراهيم، حكاية المملكة الهندية وقصص سليمان والقنطور. اختار أرسيني عمداً أشياء مثيرة للاهتمام وتحفّز على الحياة. ومع قدوم الليل بدأ في قراءة رسائل كريستوفر، التي لا تتضمَّن إرشادات حياتية ووصفات أدوية. وعند الفجر، أتمَّ أرسيني قراءة الرسالة الأخيرة:

من دون الماء لا يمكن غسل الثوب الوسخ، ومن دون الدموع يستحيل غسل وتنظيف القذارة والبراز من الرُّوح.

جرتْ دموعُه في الأيام السابقة، ولمْ يعد المزيد منها. لم يكن لديه صوت، إذ كان يقرأ الرسائل الأخيرة همساً. لم تكن لديه قوة. جلس على الأرض، بعد أن هوى على الموقد. ولم يلاحظ كيف غفا. أيقظه حفيفٌ على النافذة. كان بجانب الطفل جرذٌ. لوَّح أرسيني بيده، فهرب الجرذ. أدرك أنه لا ينبغي عليه أنْ ينام إذا كان يريد أنْ يُنقذ جثَّة ابنه. ونظر إلى أوستينا. ولاحظ أنَّ ملامح وجهها قد تلاشت.

نهض أرسيني بصعوبة واقترب من أوستينا. وعندما رفع الغطاء، ضربتْ رائحةٌ حادَّةٌ أنفَه. كانت بطنُ أوستينا ضخمة. أكثر بكثير منها في أيام الحمل.

«إذا كنتِ حقاً ميتة، خاطبَ أرسيني أوستينا، يجب أن أنقذ جسدك. وأتوقَّع أنك ستحتاجينه في المستقبل القريب، وإنْ لم يكن الأمر كذلك، سنبذل كل جهد ممكن للحفاظ عليه إلى يوم القيامة العامَّة القادمة. أولاً وقبل كل شيء، بالطبع، سنوقف إيقاد الموقد، الذي يساهم في تحلُّل الأنسجة. وهنا يطير الذباب بالفعل، الأمر غير المعهود لشهر نوفمبر (تشرين الثاني). وظهوره، في الحقيقة، يدهشني. وإنني قلقٌ، ولا سيّما، بخصوص ابننا، فحالتُه تبدو سيّئة للغاية. وفي الواقع، مهمّتُنا ليست معقَّدة كما قد تبدو للوهلة الأولى. وحسب ما يقول جدّي، كريستوفر، العام 7000 من الخليقة هو نهاية محتملة جداً للعالم. إذا كان لنا أنْ ننطلق من حقيقة أنّ العام 6964 سيحل قريباً، فيكون قد بقي علينا أنْ نحافظ على أجسادنا ستة وثلاثين عاماً. وتتفقين معي على أنَّ هذا بالمقارنة مع الوقت الذي انقضى منذ الخليقة، لا يُعدُّ كثيراً. قريباً سيأتي البرد، وسوف نتجمَّد جميعاً ببساطة. ثمَّ، بالطبع، سيحل الصيف ست وثلاثين مرة (أحياناً الجو حار حتى في مناطقنا)، ولكن في أوقات الدفء سنحافظ بطريقة أو بأخرى على وضعنا الجديد، ولا سيّما أنَّ الأشهر الأولى ليست صعبة فقط، ولكنها أيضاً حاسمة».

ومنذ ذلك اليوم توقَّف أرسيني عن تسخين الموقد. كما توقَّف عن الأكل، لأنه ما عادت لديه الرغبة في الأكل بعد الآن. أحياناً قليلة كان يشرب الماء من الدلو. الدلو عند الباب، وفي الصباح لاحظ أنَّ الماء فيه مغطى بطبقة رقيقة من الثلج. وذات مرة، عندما شرب الماء، بدا له أن أوستينا تحرَّكت. التفتَ ورأى أن ساقها المطروحة والمرفوعة قليلاً ممدودة الآن على الدكّة. اقترب من أوستينا. إنَّ ما رآه ليس خدعة بصر. ساقُ أوستينا امتدَّت حقاً. انكبَّ أرسيني على الساق، ووجد أنَّ الساق تلتوي مرّةً أخرى. أخذ يدَ أوستينا المتدلِّية ووضعها بلطف على الدكّة. أدرك أرسيني أنَّ الصَّمَل المَوتِيَّ للجسد قدْ حلَّ، وأنّه صدَّ القلب عن النبض في كثير من الأحيان. لكنَّ منظر بطن أوستينا قتل الأملَ كله. لقد تضخَّمت أكثر وطرحت عن الرحم ما لم يخرج في يوم وفاتها.

ما عاد أرسيني يقرأ شيئاً. ووفقاً لحالة أوستينا، رأى أنها الآن في شغل عن القراءة. وصار يتحدَّث معها قليلاً، لأنه لم يقدر بعد على قول أيِّ شيء مشجِّعٍ لها.

«أنا أخاف على طفلنا»، قالَ ذات يوم، «رأيت اليوم ديدان بيضاء في أنفه».

قال ذلك وندم، فماذا يمكن لأوستينا أنْ تفعل بشأنه، وهي نفسُها حالتُها ليست سهلة. فقد انتفخ أنفُها وشفتاها، وتورَّمتْ جفونُها. وأصبحت بشرة أوستينا البيضاءُ بنيةً زيتيّة، وقد تقيَّحت بعض الأجزاء من جلدها وتشقَّقت. وازرقَّت العروق تحت الجلد بشكل غير طبيعي. ولم يبق إلا شعرها المتلاصق محتفظاً بلونه الأشقر.

حضن أرسيني ركبتيه بيديه، وجلس تحت الموقد ينظر إلى أوستينا من دون أن يرفع بصره عنها. ولم يعد ينهض حتى من أجل الماء. وفي بعض الأحيان يسمع أشخاصاً يطرقون الباب، ويشعر بفرح هادئ لأنه تمكن من إغلاق الباب قبل تحوُّله إلى الجمود. ولمْ يردّ على النداءات، ولم يُعِرْ انتباهاً إلى الخطوات في الفناء. وعندما يتوقَّف ذلك، يعود أرسيني مرة

أخرى منغمساً في السكينة والهدوء. استولى عليه الشعور بالطمأنينة بصورة أعمق وأشمل. ومن مكان ما من أعماق السكينة، مثلِ زهرة عنب الأحراش الخجولة النابتة من تحت الثلج، نما الأمل باللقاء الوشيك مع أوستينا.

وفي أحد الأيام لاحظ حركةً على النافذة. جُرَّت مثانة الثور المسحوبة على إطار النافذة وانفجرت مطلقةً صوت تحطُّم، وظهرت يدٌ تحملُ سكِّيناً. وبدا خلفها وجه. لكن اليد على الفور غطَّت الأنف، واختفى الوجه نفسُه. شعر أرسيني بحركة الهواء وسمع صراخاً. وأصوات تنادي عليه. عاد من جديد إلى أوستينا وتوقَّف عن النظر إلى النافذة. بعد مدّة قصيرة، دوَّت ضربات على الباب. ورأى أرسيني كيف يهتزُّ الباب. فشعر بالأسف لأنه لم يمتْ قبل ذلك.

انحنى الباب في الجزء العلوي منه وسقط من خلال العتبة العليا. المتسلِّلون لم يقتحموا المكان. فهُمْ، على العموم، لم يستعجلوا بالدخول، وانتابهم خوفٌ واضح. تطلَّع أرسيني في الشخصين اللذين في الأمام. إنهما نيكولا تكاتش وديميد سولوما، وهما من سكّان البلدة، اللذان غالباً ما كانا يأتيان إليه للعلاج. وقفا على الباب الساقط وتحدَّثا بهدوء فيما بينهما. وغطَّى كلٌّ واحد منهما أنفَه وفمَه بياقة قفطانه.

عندما توجَّه ديميد إلى أوستينا، قال أرسيني: «لا تلمسها!».

وبعد أنْ جمع أرسيني قواه، نهض. أراد منع ديميد من الاقتراب من أوستينا، لكن ديميد دفعه برفق على صدره بكفّه. سقط أرسيني ولم يتحرَّك. سكب نيكولا الماء عليه من الدلو. ففتح أرسينى عينَيه.

«إنَّه حي»، قال نيكولا.

وبعد أنْ أخذ أرسيني من يده، رفعه وأسنده إلى الموقد. مال رأس أرسيني على كتفه، ولكن عيناه بقيتا مفتوحَتين. قال ديميد إنَّ الجثثَ الموجودة يجب أنْ تؤخَذ إلى الجبَّانة. فقال نيكولا أنَّه من أجل هذا، يجب إحضار عربة من البلدة. ولجلب العربة أرسلا شخصاً ثالثاً لم ينبِسْ بكلمةٍ واحدة.

-غ-

الجبَّانة مكانٌ كئيب وموحش. وحتى المدفن، الذي بالقرب من السياج الذي عاش فيه أرسيني وكريستوفر، بدا بشيء ما مبهجاً أكثر منها. تقع الجبّانة على تلٍّ يبعد فيرستين اثنين من منزل كريستوفر. حيث يرقد هناك مَن ماتوا من الوباء والجوّالون والمخنوقون والأطفال غير المعمَّدين والمنتحرون. والغرقى والذين يموتون محترقين بالنار ومن تضربهم الصاعقة، ومَن ماتوا من الصقيع ومن جميع أنواع الجروح، ومَنَ مات أثناء السَّلْب. حياةُ هؤلاء الناس التعساء كانت مختلفة، ولم تجمعهم الحياة، لأن تشابههم جرى في الموت. إنه الموت من دون توبة.

أولئك الذين تُوفُّوا بهذا النوع من الموت لمْ يُقَمْ لهم قُدَّاس الموت ولم يدفنوا في مقابر عامَّة. بل دفنوهم في الجبَّانة. وهناك، أُنزِلَت الجثّة إلى قاع حفرةٍ عميقة ووضِعَت عليها أغصانُ الصنوبر. وهكذا بقي الموتى مرتَهَنين. لقد رقدوا في حفرة مشتركة، يعذّبهم البؤس والشقاء. وجوههم الرمادية المغطّاة بالرمل تتطلّع أحياناً من تحت الفروع. المشهد محزن، ولا سيما في الربيع، عندما يؤدّي ذوبان الثلوج إلى تحويل الأغصان من أماكنها. آنذاك يَمْثُل الموتى المرتهنون في أقبح أشكالهم - فاقدي العيون والأنوف، وأيديهم وسيقانهم منزلقةٌ إلى الأجساد المجاورة، كما لو كان يحتضنُ بعضها بعضاً.

ولكن مِن رحمة ربِّنا ومخلِّصِنا يسوع المسيح اللا محدودة حتى مصيرهم لم يشمله القنوط. ففي يوم الخميس، في الأسبوع السابع من

عيد الفصح، جاء كاهن من دير كيريل بيلوزيرسك وأقام لهم القداس الجنائزي. وهذا اليوم يُسمى ثالوث الموتى. ورُدِمَت الحفرة وحُفِرَت واحدة جديدة. وبقيت الحفرة الجديد مفتوحة حتى ثالوث الموتى القادم.

ومع ذلك، حتى مع القدّاس الجنائزي للموتى لم تنتهِ مطلقاً الصعوبات للمتوفّين المرتهَنين. إذْ يتذكَّرُهم النّاس في مواسم الجَدْب وقلّة المحصول. فلمْ يكن سرّاً بالنسبة لجميع أولئك الذين يمجّدون التقاليد، أنّ سبب الكوارث في أغلب الأحيان هم الموتى المرتهنون ويظلّون دائماً سبباً للكوارث. وثمّة اعتقاد بأنّ أولئك الذين انتهت حياتُهم قبل الأوان لمْ يموتوا في الحال. ولم تستقبلهم أمُّنا الأرض الرّطبة ولفظتْهم عنها إلى الخارج، ممّا أجبَرَهم على البحث عن تطبيق على السطح.

وإنّ هؤلاء الرجال الموتى، في كينونتهم الأخرى، بطريقة ما يعيشون الزمن المنتزَع منهم، لكنهم عندما يفعلون ذلك يُلحِقون أضراراً كبيرة بمن حولهم. وعندما يبحثون عن منفذ لقوتهم غير المستَهلَكة، فإنهم يدمّرون المحاصيل ويثيرون موجات الجفاف في الصيف. ويفسِّر الأشخاص المطَّلِعون ذلك بأنَّ الأموات (وخاصة أولئك الذين ماتوا من الإفراط في الشرب) يتعرَّضون لعطشٍ فظيع فيقومون بامتصاص الرطوبة من الأرض.

وفي الأوقات العصيبة، تُنبَش قبور الموتى المُرتَهَنين المدفونين وتُطرَح جثَثُهم من الأرض، على الرغم من احتجاجات رجال الدين، وتُسحَب إلى الأدغال والمستنقعات. وحدث، بالطبع، أنّهم تُرِكوا في مكانهم، ولكن قبل ذلك نُبِشت القبور، على كل حال، وجرى قلب الوجوه إلى أسفل. وبطبيعة الحال، قد يبدو الأمر لبعض الناس وكأنه تدبير غير حازم وإجراءٌ ناقص، ولكن مع ذلك هو أهون الشرّ وأقلّ من التقاعس المكشوف.

كان وضع الأحياء، إذا أمْعَنّا النظرَ، ليس بسيطاً كذلك. فلو دفَنوا أولئك الذين لم يُدرِكوا التوبة، وأثاروا غضبَ أُمِّنا الأرض الرَّطبة، فستردُّ عليهم بصقيعِ الربيع. ولو لم يدفنوهم، فسيثيرون غضب الموتى

أنفسهم، فيقومون في الصيف بتدمير المحصول بلا رحمة. وفي هذا الوضع الصعب، كان ثالوث الموتى، في الواقع، حلّاً حكيماً. إذ يجتاز المزارعون بذلك فترة الصقيع من غير خسائر، من دون أن يودعوا الموتى الأرض حتى نهاية الربيع. وبعد أنْ يكملوا القيام بقدّاس الموتى والدّفن في الجمعة السابعة من الفصح، كانوا يأملون في أنَّ الموتى المنتقمين لنْ يدمِّروا المحصول الناضج.

والآن يتوجب على أوستينا أنْ تكون في وسط هؤلاء الموتى. إذ أجمعوا أنْ يلقوا بأوستينا، التي أحبَّها أرسيني بلا حدود، في الجبَّانة. جنباً إلى جنب مع ابنها، الذي لم يحصل حتى على اسم. قام ديميد ونيكولا بلَفِّ أيديهما في خرق، وأخذا أوستينا خارج الكوخ ووضعاها على العربة التي أُحضِرَت. وبعد دقيقة، حمل نيكولا الطفل نصف المتحلّل على يديه الممدودتين. وقد سار أهالي البلدة ببطء وراء العربة. لم يدخلوا إلى البيت ووقفوا صامتين على الطريق.

نهض أرسيني، الذي كان في ذلك الوقت يجلس على الأرض بلا مبالاة، وتناول سكيناً من الموقد وذهب الى الخارج. سار ببطء، ولكن بسلاسة، كما لو أنه لمْ يقضِ كل هذه الساعات في شبه إغماء. وفي الصمت، صار يُسمَع وقع أقدامه على الأرض. كانت عيناه جافَّتين. انتكصَ الحشد، الذي كان واقفاً قرب العربة، لأنّه شعر أنَّ قوة أرسيني تبدو متفوّقة على قوّة الإنسان.

وضع يده على العربة: «لا تحرِّكوها».

وصرخ: «لا تلمسوها!».

صهل الفرس الواقف.

صاح بالناس:

«اتركاهم لي واذهبوا من حيث أتيتم. هذه زوجتي وابني، أمَّا عائلاتكم ففي البلدة، لذا اذهبوا إلى عائلاتكم».

لمْ يجرؤ أحدٌ من القادمين على الاقتراب منه. فقد رأوا أصابعه

الرخامية على مقبض السكين. ورأوا كيف تُحرِّك الريح الزغب على خدَّيه. لم يخشوا السكين، بل خافوا منه شخصياً. ولم يعترفوا.

- إنها آلة حادة، ناولني إياها، من فضلك.

من أعماق الحشد ظهر الشيخ نيكاندر. سار، وهو يمدّ يده إلى أرسيني ويجرّ قدمه. انفرج الحشد أمامه كما انفلقت أمواج البحر أمام موسى. وتبعه راهبٌ كان برفقته.

- صدِّقْني، أنا لست في أفضل حالٍ الآن، ولكني اعتقدت أنَّ من الضروري أن أجيء إلى هنا وأخذ السكين منك.

إنهم يريدون أنْ يأخذوا أوستينا والطفل إلى الجبّانة، قال أرسيني. وهم لا يفهمون على الإطلاق أنَّ الموتى على وشك أنْ يُبعَثوا.

سقط السكين من يده إلى يد العجوز الممدودة.

«أعطهم هذه الجثث، فالقضية ليست في الأجساد»، قال العجوز. «إذا وضعتهم في قبر اعتيادي، فإنَّ هؤلاء»، وأشار لأرسيني بالسكين إلى الحشد، «سوف ينبشونهم في أقرب جفاف قادم. ألا تنبشون الكفَّار؟»، سأل الواقفين، لكنَّهم أطرقوا برؤوسهم. «سينبشونهم من دون أدنى شك. أما بالنسبة للقيامة وخلاص أرواح عباد الله المطروحين، فسأقدّم لك هذه المعلومة، كما يُقال، وجهاً لوجه لوحدنا».

أشار الشيخ إلى الراهب أنْ ينتظر في الخارج. وأخذ أرسيني من يده، فسار أرسيني وهو يعرج. وعندما صعدا إلى الشُّرفة، زلَّت قدم العجوز عدَّة مرَّات على السلالم. رأى الواقفون ذلك وأجهشوا بالبكاء. إذ تراءى لهم أن صلابة روح العجوز دخلت في تناقض عدائيّ مع هرم جسده وتقوِّضه. وكانوا يعرفون نهاية هذه الأشياء. تحرَّكت العربة من دون أيّ صوت. وتوارى العجوز نيكاندر وأرسيني خلف الباب.

- أولاً سأتحدث عن الموت - قال الشيخ - ثم، إن أمكن، سأتحدث عن الحياة.

وبعد أنْ جلس على الدكّة، أشار لأرسيني أنْ يجلس بجانبه. وبعد أنْ جلس أرسيني، استندَ العجوزُ بيديه على الدكّة ونكَّس رأسه. وجعلَ يتحدّث من دون أنْ ينظر إلى أرسيني.

- أعلمُ أنَّك ترغبُ بالموت. وأنك تعتقد أن كل ما هو عزيز عليك صار الآن بيد الموت. لكنك مخطئ. فأوستينا ليست بيد الموت ولا هو يمتلكها. الموت ينقلها فقط إلى الله الذي سيحكم عليها. ولهذا السبب، حتى لو قررت أن تموت الآن، فلن تتصل بأوستينا. والآن أُحَدِّثُك عن الحياة. يبدو لك أنَّ الحياة لم تتركْ لك شيئاً، وأنك لا ترى فيها أيَّ معنى. لكن في هذه اللحظة بالذات، انكشف المعنى الأعظم في حياتك، الذي لم يكن من قبل فيها.

التفت العجوز إلى أرسيني. نظر إليه أرسيني من دون أن يطرف له جفن. كانت يداه مُسْبَلتان على ركبتَيه. وعلى خدِّه تزحفُ ذبابة. طردَ العجوزُ الذبابة، وأخذ أرسيني من ذقنه وأدار وجهَه باتجاهه.

- لن أرثي لحالك؛ أنت مسؤول عن موتها الجسدي. وأنت أيضاً مسؤولٌ عن احتمال هلاك روحها. كان ينبغي عليَّ أنْ أقولَ إنَّ الوقت قد فات لإنقاذ روحها بعد الموت، لكنك تعلم، لن أقول. لأنه حيث هي الآن، لا مكان للماضي ولا للمستقبل. وليس ثمّة زمان، ولكن هناك توجد رحمة لا نهائيّة من الله، وهي ما نأمل به. لكن الرّحمة يجب أن تكون مكافأةً للجهد. (بدأ العجوز يسعل. وغطى فمه بيده، ولأن السعال يحاول أن يندفع، نفخ خديه) القضية وما فيها هي أنَّ الروح بعد أنْ تترك الجسد، تصبح عاجزة. فهي قادرة على الفعل في إطار الجسد فقط. ولا تنجو إلا في الحياة الدنيويّة.

كانت عينا أرسيني جافّتَين كسابقِ عهدهما:

- لكنني أخذت منها حياتها الدنيوية.

- (نظرَ الشيخ إلى أرسيني بهدوء): إذن، أعطِها حياتك.

- وهل لديَّ الفرصة للعيش بدلاً عنها؟

- بالمعنى المفهوم بجدية - نعم. الحبُّ جعلك أنت وأوستينا ككلٍّ واحدٍ، مما يعني أنَّ جزءاً من أوستينا لا يزال موجوداً. إنه أنت.

بعد أن طرق راهبٌ الباب، دخل وناول العجوز وعاءً خزفياً فيه جمرٌ مشتعل. سكبه العجوز في الموقد. وألقى فوقه حطباً. وضع عدة قِرَم من الخشب عليه. بعد لحظة، التهمت النار القِرَم. وتحوَّل وجه العجوز الشاحب إلى اللون الورديّ.

- نصحك كريستوفر بالذهاب إلى الدير. أسأل نفسي لماذا لم تستمع إليه، ولا أجد جواباً (اقتربَ من أرسيني). حسناً، وداعاً، أمْ لديك اعتراض، لأنَّ هذا هو اجتماعنا الأخير. حتَّمت الظروف أنَّ في الأيام القريبة المُقبِلة سوف تتوقَّف حياتي. وإنْ لم أخطأ في شيء، فسيحدث ذلك في يوم 27 ديسمبر (كانون الأول). عند الظهر أو نحو ذلك.

احتضن الشيخ أرسيني واتّجه إلى باب الخروج. وعند العتبة استدار:

- أمامك طريق صعب، لأن قصة حُبّك بدأت للتوّ. والآن، يا أرسيني، كلُّ شيء يعتمد على قوَّة حُبِّك. وبطبيعة الحال، على قوَّة صَلاتِك.

-ف-

كان فصل الشتاء في ذلك العام على عكس فصول الشتاء الأخرى. لم يضرب فيه الصقيع ولم يتساقط فيه الثلج. وكان ضبابياً وسديمياً - وحتى أنه لم يشبه الشتاء، بل يشبه أيام أواخر الخريف. وإذا ما تساقط الثلج، فإنما يتساقط مع المطر. وعرف السكان أنَّ مثل هذا الثلج في هذا العالم ليس مقيماً. لقد ذاب، قبل أن يصل إلى الأرض، ولم يأت لأحدٍ بفرح. وقد تعب الناس من الشتاء، بمجّرد أنْ بدأ. ورأوا في ما يحدث في الطبيعة، فألاً سيّئاً وقد تأكَّد اعتقادُهم ذلك.

وفي اليوم التالي لعيد الميلاد، رقد العجوز نيكاندر. فعند انتهاء صلاة عشيّة عيد الميلاد، قال للإخوة الرهبان إنه ينوي الاحتفال بعيد ميلاده في اليوم السابع والعشرين من شهر كانون الأول. لم يحتفل العجوز بعيد ميلاده قط، وفي الوقت المحدد تجمّع الرهبان، الذين أثار فضولهم، في صومعته.

«عيد الميلاد للأبدية»، قال من الأريكة الخشبية في الزاوية. وكانت يداه مطويتان على صدره.

وبعد أنْ فهم الرهبان حقيقة الأمر، أجهشوا بالبكاء.

- أقول لكم: لا تبكوا من أجلي لأنني سأرى وجه ربِّي. وأقولُ لك، يا ربّ: يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي، ارحمْني وارزقْني الحياةَ الأبديّة. آمين.

- آمين، كرَّر المجتمعون، وهم يراقبون كيف تترك روح الشيخ نيكاندر جسدَه.

عيونهم جفَّت، وجوهُهم أشرقتْ. امتلأ الدَّير بالناس من الضواحي، الذين ينتظرون المعجزات، لأن التقيَّ الفقيد يمتلك بذاته قوّة خاصة. وقد نالوا منها كلٌّ وفقاً لإيمانه.

الشتاء في تلك الأثناء لم يبدأ بعد. والطرق موحلةٌ تماماً، والأنهار لم تتجمَّد.

يتحسّر أهالي البلدة عندما يرون أنّ الانتقال من النقطة (أ) إلى النقطة (ب) غير ممكن أو معقَّد للغاية. إننا نفتقر حقّاً للطرق، والتي بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة لم تكن موجودة حتى من قبل.

لكن حتى عدم وجود طرق لم يمنع انتشار الكارثة الرئيسة في ذلك الوقت - وباء الطاعون. ظهر المرض لأول مرة في بيلوزيرسك، المدينة الرئيسة للإمارة. ومن هناك انتقل ببطء إلى الجنوب الشرقي. وكان يستولي على القرى، مثل جيش العدو، الواحدة تلو الأخرى، ويفتك بالناس من دون رحمة في المناطق التي يحتلّها.

بقي الجميع في أماكنهم، لأنه لم يكن ثمة مكان للهروب إليه من المرض. وحتى التغلب على الطرق الموحلة لم يؤدِّ بالضرورة إلى الخلاص. فوفقاً للشائعات، التي وردت إلى أهالي بيلوزيرسك، عمَّ الطقس الرطب جميع أنحاء روسيا، وهذا يعني أن بؤرة الطاعون قد تندلع في أي مكان. ولأنه بدأ في فصل الخريف، كما حدث في كثير من الأحيان، لم يُتَح للمرض أن يُقضى عليه بالتجمد في فصل الشتاء، لأن فصل الشتاء لم يحلّ.

لم يصل الوباء بعد إلى بلدة روكينا، لكن سكانها انتابهم القلق بالفعل. ولأنهم توقعوا وصول الوباء، قرروا التشاور مع أرسيني. بيد أنَّ التغييرات التي حدثت معه أخافت أهل البلدة، فلم يرغبوا في البداية بالتوجه إلى أرسيني. ولكن بالنظر إلى الخطر الوشيك الوقوع، لم يكن لديهم خيارٌ آخر. وعندما جاؤوا إلى منزل كريستوفر، وجدوه فارغاً.

لم يكن البابُ مغلقاً، فتسلَّلوا إلى الداخل من دون عوائق. وعلى

الرغم من الترتيب الكامل، كان من الواضح أنه لم يعد أحدٌ يعيش في المنزل. والأدقّ، أنَّ ترتيب المنزل بالذات كان غير صالح للسكن. لمس أهل البلدة الفرن: فتبيَّن أنه بارد تماماً. لم تكن فيه حتى ذكرى من الحرارة، التي يُشعَر بها بشكل لا لبس فيه في المواقد المشتعلة قبل مدة قصيرة. بحث أهل البلدة عن رسالة ما قد يكون تركها أرسيني. ولكن لم تكن ثمة رسائل كذلك. وخوفاً من الأسوأ، نظروا تحت الدكّة، وفتّشوا في غرف الفناء، بل حتى ساروا على طول المقبرة المتاخمة للمنزل. لم يعثر أهالي البلدة على آثار تدل على أرسيني – إن كان ميتاً أو حياً. يمكن القول، أنّه ذابَ، كما يذوب الشمع من النار، هكذا فكَّروا. وبتعبير أدق، إنهم ببساطة لم يعرفوا بماذا يفكِّرون.

كِتَاب الجُحُود

- أ -

لكن أرسيني لمْ يذُب. ففي ذلك اليوم الذي فتَّش فيه أهل البلدة عنه في منزل كريستوفر، كان هو على بعد 10 فيرستات منه. وقبل ذلك بيومين ألقى كيس قماش الكتان على ظهره وترك القرية.

وضع في الكيس عدداً قليلاً من العقاقير الطبية وأدوات العلاج. والمكان الباقي شغلته رسائل كريستوفر. كان هذا جزءاً بسيطاً من كتابات المرحوم، لأن تراثه المخطوط كان واسع النطاق ولن يستوعبه حتى كيس كبير. ولم يكن كيس أرسيني كبيراً. فالعديد من الرسائل الرائعة كان عليه أن يتركها للأسف.

عندما غادر أرسيني البيت، توجه إلى كوشيفو، ومن كوشيفو إلى بافلوفو، ومن بافلوفو إلى بانكوفو. كانت قدماه تتزحلقان على الطين الرطب، وسقط في برك عميقة، وسرعان ما دخلت المياه في حذائه. لم يكن مسار أرسيني مستقيماً، لأنه لم يكن لديه هدف جغرافي مُحدَّد بوضوح. ولم يكن في عجلة من أمره. وعندما يدخل أرسيني قرية، يسأل عمّا إذا كان فيها وباء. ففي القرى الأولى التي رآها لم يكن ثمّة وباء. وكان الناس هناك ما زالوا يعرفون أرسيني، وبالتالي دعوه للدخول إلى المنازل وحتى أنهم أطعموه.

بسبب حلول الظلمة المبكرة، اضطر أرسيني لقضاء الليلة في بانكوفو. وعندما خرج في اليوم التالي مرة أخرى في طريقه ووصل إلى نيكولسكويه، لم يُسمح له بدخولها. في نيكولسكويه لم يُسمح لأي شخص بالدخول، حتى لا تُنقَلَ عدوى الوباء إلى الناس في القرية. لم

يُسمَح لأرسيني كذلك بالدخول إلى كوزنتسوفويه، التي تقع على بعد فيرست واحد من نيكولسكويه. فتوجَّهَ أرسيني إلى زاكوزيه الصغرى، لكن المدخل إلى زاكوزيه الصغرى كان مسدوداً بسبب تراكم جذوع الأشجار فيه. فانتقل إلى زاكوزيه الكبرى، ولكنه وجد الجذوع نفسها مطروحة هناك أيضاً.

القرية التالية على طريق أرسيني هي فيليكويه سيلو (القرية الكبرى). كان الدخول إليها مباحاً، لكن أرسيني سرعان ما لاحظ روح النحس التي تحوم فوق هذا المكان.

وقال أرسيني لأوستينا: المكان هنا يفوح برائحة من البلايا. هذه القرية تحتاج إلى مساعدتنا.

كان هذا أول خطاب له مع أوستينا بعد وفاتها، وكان يرتجف. لم يطلب منها أرسيني أن تصفح عنه، لأنه لم يعتبر نفسه مستحقّاً للصَّفح. إنه ببساطة طلب منها أن تشارك في مسألة مهمة وتأمَّل ألّا ترفض. لكن أوستينا ظلَّت صامتةً. فشعر في صمتها بشيء من الشك.

صدِّقيني، يا حُبّي، أنا لا أبحث عن الموت، قال أرسيني. العكس هو الصحيح: حياتي هي أملنا أنا وإيّاكِ. وهل يمكنني الآن أن أبحث عن الموت؟

في الكوخ الأول لم يُفتح له الباب. وقيل له إن الطاعون قد وصل إلى القرية. سأل أرسيني أين هم المرضى بالضبط، فأشاروا إلى منزل يَغور الحدَّاد. فطرق الباب عليه. لم يكن ثمّة جواب. أخرج أرسيني قصاصة قماش من كيسه، وغطى بها فمه وأنفه وربط الأطراف في مؤخرة رأسه. ودخل بعد أن رسم إشارة الصليب.

كان يَغور الحدَّاد يرقدُ على الدكّة. ويده الضخمة متدلّية إلى الأسفل. ومن وقت لآخر تنقبض أصابع يده، دليلاً على أنَّ يغور لا يزال على قيد الحياة. أخذ أرسيني يغور من المعصم لمعرفة ما إذا كانت حركة الدم قوية فيه. لكنّه لم يشعر بأي حركة تقريباً. وعندما أحسَّ يغور باللمسة فتح عينيه فجأةً.

عطشان، أريد ماءً.

لم يكن هناك ماء في الكوخ. وعلى الأرض، عند يد يغور، ثمة مغرفة مقلوبة، لمعت تحتها قطرات الرطوبة الأخيرة. كان من الواضح أن يغور أسقط المغرفة، ولم يعد لديه أي قوة لجلب الماء من البئر.

خرج أرسيني من الكوخ وذهب إلى رافعة البئر. وشاهد عند الرافعة مشهد الموت. كانت رقبة الرافعة الخشبية، المُثبَّتَة بمشبَك إلى جذع قرمة، تتأرجح بصرير في الريح. أسقط أرسيني الدلو في البئر. كان مستوى المياه الجوفية، غير المتجمدة، عالياً. رأى أرسيني فيه انعكاس صورته ولم يعرف نفسه. أصبح وجهه مختلفاً.

لقد أصبح وجهي مختلفاً، قال لأوستينا. من الصعب تحديد هذه التغييرات، لكنها، يا حبّي، واضحة.

وبعد أن عاد إلى الكوخ سقى يغور الحداد الماء. أسند أرسيني رأسه بيده، فشرب يغور من دون أن يفتح عينيه. عبَّ الماء عبّاً واختنق به. سال الماء إلى أسفل لحيته وانسكب تحت قميصه. لكنه مع ذلك لم يرتوِ بعد. مسك بيده يد أرسيني، فلم يتمكّن أرسيني من تحمّل وزنها. كم كان هذا الرجل قويّاً، فكَّرَ أرسيني، وكم هو ضعيف الآن. مجرد بضعة أيام من المرض جعلته كومةً عاجزة من اللّحم، والتي في غضون أيام قليلة سوف تبدأ في التحلّل. وشعر أنه لا توجد حياة في هذا الجسد.

وعلى حين غرّة فَتح يغور عينَيه.

- هل أنت ملَك الموت؟

- كلّا (نفى أرسيني قولَه).

- أخبرْني، أيها الملاك، بماذا يُقضى عليَّ.

نظر أرسيني، كيف تنغلق جفون يغور ببطء.

يعني ستموت قريباً، قال أرسيني بصوت منخفض، ولكن يغور لم يعد يسمعه.

كان يتنفّس بصعوبة، وقطرات العرق تتساقط من جبهته، وتختفي في

شعره الكثيف. جلس أرسيني بجانبه وتذكّر كيف كان ينظر إلى أوستينا وهي نائمة. وتحت اللحاف، بالكاد تبدو حركة صدرها. كانت أوستينا أحياناً تستنشق الهواء من منخريها بضجيج وتنقلب على جنبها الآخر. وتمسح خدَّها. وتُحرّك شفتَيها. حرك أرسيني شفتيه أيضاً. وتلا صلاة خروج الروح. اكتسب بصرُه تدريجيّاً حدّةً، ورأى يغور خلف ملامح أوستينا. وتُوفِّيَ يغور في هذه الأثناء.

ذهب أرسيني إلى المنازل المجاورة. هناك يرقد الأحياء والأموات. فسحب الموتى إلى الخارج وغطَّاهم بالـ«جنفاص» وحطب القِشَاش. وعند سحب إحدى الجثث، شعر أرسيني بعلامات الحياة فيها. لاحظ أنّ الروح لا تزال متشبِّثةً بهذا الجسد. كان ذلك جسدَ امرأة شابَّة.

شيء ما يوحي لي، خاطب أرسيني أوستينا، أنَّ القضية ليست مَيؤوساً منها.

أعاد أرسيني المرأة إلى المنزل. كان المكان دافئاً، لأن أهل المنزل في الصباح كانوا بَعدُ بقوَّتهم وأوقدوا الموقد. وضع أرسيني المريضة على بطنها وفحص عنقها. امتدّ على طول الرقبة دُمَّل الغدَّة المتورِّمة على شكل خرزٍ حمراء رصاصيّة كبيرة. أوقد أرسيني الفحم في الموقد وألقى ببعض الحطب. وبعد أن أخرج الأدوات من الكيس وضعها على الدكّة. وجعل يفكر. وأخذ مِزراقاً ووضعه على النار. وعندما أحمرَّ المزراق، اتجه إلى المريضة. وجسَّ بيده الفارغة الدُمَّل. وبعد أن اختار أكبر وأنعم واحدة منها، شكَّ فيها المزراق وضغطها بإصبعين من أصابعه. فخرج من الدُمَّلة سائل لزج معتم كريه الرائحة. شعر أرسيني بالتدفُّق اللَّزج حول أصابعه، لكنه لم يشعر بالقرف منه. بدا له القيح الذي سال من عنق المرأة خروجاً مرئياً للمرض من جسمها. فشعر أرسيني بالفرح. وبعدما جسَّ بباطن أصابعه عنقَها عقدةً بعد عقدة، أزاح الطاعونَ عن المريضة.

انتقل أرسيني من الرقبة إلى الإبطين، ومن تحت الإبطين إلى الورك. وشمّ هناك إلى جانب رائحة القيح، روائح أخرى، وقد أثارت

تلك الروائح قلقَه. كَمْ فيَّ من خصال الوحش، فكَّر أرسيني، كم. وبعد الانتهاء من العلاجِ، فتح الدمَ في الأماكن التي كان فيها الدمَّلُ أكبر. كان الدم هناك فاسداً، فتوجَّب عليه أنْ يفصِده. وعندما وخز أرسيني عِرقَ الدم الأوَّل، ثابَتْ المرأةُ إلى وعيِها وبدأتْ تئنّ.

اصبري يا امرأة، همس أرسيني، وأُغمِيَ عليها من جديد.

وخزَ عروق الدم في أجزاء مختلفة من جسمها، وفي كل مرّة كانت تئنّ، ولكن في هذه المرة لم تعد تفتح عينيها. وعندما انتهى أرسيني من العلاج، غطَّاها بلحاف.

والآن - نامي نوماً عميقاً واستعيدي القوّة. واستيقظي ليس للموت، بل من أجل الحياة. توقُّعاتي لكِ تُبَشُّر بالخير.

قال أرسيني هذه الكلمات وخرجَ من البيت. وحتى نهاية اليوم زار عدّة منازل أخرى وتعامل هناك مع الأحياء والموتى، ورأى كيف تحوَّل الأحياءُ إلى أموات. واكتشف في أحد المنازل أنَّ الضمادة قد سقطت عن وجهه. ولم يكن لديه وقتٌ للبحث عن واحدة جديدة، فصلَّى لمَلاكِهِ الحارس، وطلب منه عندما يكون على كتفه الأيمن، أنْ يُبعد عنه عدوى الطاعون بجناحيه. ومن وقت لآخر شعر أرسيني بنفحة ملائكية، وهذا هدَّأَه. وصار بإمكانه التركيز بشكل كامل على علاج المرضى.

كان أرسيني يمسك المرضى من المعصم ويصغي إلى حركة دمائهم. وفي بعض الأحيان يمرُّ بيده على الصدر أو على اليافوخ. وهذا كشف له المسار الأكثر احتمالاً، المحدَّد سلفاً للشخص المريض. فإذا ما كان بانتظار المريض الانتعاشُ وتحسُّنُ الحالة، ابتسم أرسيني وقَبَّلهُ على جبينه. وإذا حانت مَنيَّتُه، بكى أرسيني بصمت. وفي بعض الأحيان لم يكن القَدَرُ واضحاً، فإنَّ أرسيني كان يصلِّي بحرارة رجاء شفاء العليل. وعندما يمسك الشخص الراقد بيده، يمنحه قوة الحياة. ولا يترك يده إلا عندما يشعر بأنّ الصراع بين الحياة والموت قد حُسِم لصالح الحياة.

وفي ذلك اليوم، استهلك هذا الأمر الكثير من طاقته، لأنه لم يكن

الناس بحاجة إلى مساعدته من قبل بمثل هذه الكثرة في وقت واحد. في آخر البيوت التي زارها، غفا أرسيني بجوار أحد المرضى. فقد نام، وشاهد في عالم الأحلام المَلاك الحارس، وهو يجرُّه بعيداً عن عدوى الوباء. ولم يطوِ جناحيه حتى في الليل. فاندهش أرسيني من عدم تعب المَلاك وسأله كيف لا يشعر بالتعب.

الملائكة لا تتعب، أجاب المَلاك، لأنهم لا يوفّرون قوَّتهم. فإذا كنت لا تفكر في انتهاء قوّتك، أنت أيضاً لن تتعب. اعلمْ، يا أرسيني، أنَّ مَن لا يخافون من الغَرق وحدهم يمكنهم المشي على الماء.

في صباح اليوم التالي، استيقظ أرسيني والمريض في الوقت نفسه. وأدرك المريض أنّه كان بصحَّة جيدة.

-ب-

بقي أرسيني في القرية الكبرى لمدة أسبوعين. عالج المرضى ونظَّفهم. وقدَّم لهم الشراب والطعام، وفي المقام الأول قدَّم لهم الشراب. وعلَّم الشافين كيفيَّة رعاية المرضى.

الآن أنتم بمأمن من شرّ الطاعون، قال أرسيني للشافين. لأنَّه لم يعد قادراً على المساس بمن أفلتَ مِن براثنه.

لم يثق به الجميع. البعضُ، خوفاً من عودة المرض لهم، غادروا القرية بهدوء وذهبوا إلى الأماكن التي لا وجود فيها للوباء. وسرعان ما اقتنعوا أنَّ هذا كان خطأً. إذ لم تتمكَّن أجسامُهم التي أنهكها المرض أنْ تقاوم شدائد الطريق ومَشاقّه، وإنَّ ما لم يَقدرْ الطاعونُ عليه أتى عليه طينُ الطريق والضباب البارد. أمّا أولئك الذين بقوا (وكانوا الأغلبية)، وثقوا بأرسيني كما يثقون بأنفسهم. فقد كان منقذَهم، وتأكَّدتْ صحَّةُ كلامه في أعينهم عن طريق الشفاء. فدخلوا مع أرسيني بيوتاً موبوءة بالطاعون، لكن لم يُصَبْ أيٌّ منهم.

ولمّا كان مساعدو أرسيني يكُفُّونَ لدعم الأحياء ومساعدتهم، انشغل هو بالموتى. هم أيضاً لم يكن بوسهم الانتظار. وحتى عندما أُخرج الموتى من البيوت إلى الخارج ظلَّت أجسادُهم تتحلَّل بشكل جامح. إنَّ تعابير وجوه المُتوفّين المخجلة أظهرت بوضوح أنهم لم يستطيعوا فعل أي شيء بأنفسهم. وكانوا بحاجة إلى مساعدة عاجلة. عُثِرَ على عربة وضِعَت عليها أجسادهم. ونُقِلوا إلى أقرب جبَّانة، التي تبعد ثلاث

فيرسات، وتُرِكوا هناك بانتظار يوم ثالوث الموتى. لم يبكِ الناس الذين جهَّزوا الموتى. ففي تلك الأيام لم يكن أحد يبكي على الإطلاق، لأنَّ حُزن الموت الجماعي لا يلين بالدموع. إضافة إلى ذلك، لمْ يعد هناك المزيد من الدموع.

وبعد أنْ أدرك أرسيني بأنَّ الحياة في القرية الكبرى تتحسَّن، قرَّر المغادرة. استيقظ في صباحِ صحوٍ من صباحات يناير (كانون الثاني)، وودَّع أهالي القرية، ولم يسمح لأحدٍ بتشييْعِه إلى أبعد من أسوار القرية، ولم تعد شهرتُه تقتصر على هذه المنطقة.

سرتْ هذه الشهرة، لا عن إرادة من أرسيني، في المدن والقرى، متجاوزةً وعـورةَ الطريق ورطوبةَ الجوّ. انتقل أرسيني إلى قرية لوكينسكايا، ولكن المَجد استقبله عند أوّل منزل. وجده في وجه امرأة قروية تحمل رغيفاً، وهي تستند على إطار شبّاك.

- ألستَ أرسيني (سألته المرأة).

- أنا هو (أجاب أرسيني).

دسَّت المرأة الرغيف له، فاقتطع منه شيئاً بطريقة آليّة. كان الرغيف متيبِّساً، لأنَّه (فهمَ أرسيني) قد خُبِزَ قبل مدةٍ طويلة.

- ساعدنا، يا أرسيني، الموتُ سيقضي علينا.

- بمشيئة الله، سأساعدكم (تمتم أرسيني من دون أنْ يرفع بصره إلى المرأة).

لم يعرف من أين علمت عنه، فسار خلفها بصمت في القرية. والطين يصفق وينعجن تحت أقدامهما، وتنهال فوق رأسيهما نتفُ الثلج البَليلة من خلال أغصان أشجار البتولا الرطبة. لم تكن نتف الثلج تُرى على خلفية الجذوع البيضاء لأشجار البتولا، ولكن يمكن الشعور بها من خلال بشرة الوجه. إذ سرعان ما تذوب على الخدَّين وتبقى لمدة وجيزة معلَّقةً على الرموش.

«كيف عرَفَتْني»، سأل أرسيني أوستينا، لكن أوستينا لم تقل شيئاً.

«أخشى أنها تتصورني شخصاً آخر»، قال أرسيني بعد توقف قليل، «وأنّ توقعاتها مرتفعة للغاية».

كان في بعض الأحيان يسبق المرأة وينظر في عينَيها. في عينيها تنعكس السماء الرمادية، التي لم يكن فيها بصيصُ ضوء. أخذَ المرأة من كتفها وتوقَّفَ فجأة. أدارت المرأة رأسها، لكنها نظرت إلى جانبه.

- أنت تعرفين أن حفيدك قد مات، فلماذا تأخذيني إليه (قال أرسيني).

- ولماذا، كما يقال، أعيش أنا (سألت المرأة بلا مبالاة).

لم يعرف أرسيني ماذا يقول، وهذا لم يكن بالأصل سؤالاً. أو على الأقل، لم يوجَّه هذا السؤال إليه. وشاهد بصمتٍ كيف اختفت المرأة خلف نتف الثلج. وعندما لم تعد تُرى، توجَّه إلى أقرب كوخ. هناك كان عملٌ بانتظاره بالفعل.

بقي أرسيني في قرية لوكينسكايا مدّة أطول مما في القرية الكبرى. كان هنا المزيد من المرضى. والموتى أيضاً كانوا أكثر. في لوكينسكايا سادت اللا مبالاة، وكان من الصّعب جعلُ الناس يساعدون بعضهم بعضاً هنا. لكن أرسيني أفلحَ في هذا أيضاً.

فقد أقنع الفلّاحين بأنَّ تعافيهم يعتمد إلى حدٍّ كبير عليهم أنفسهم. ورغبةً منه في إيقاظ قُوَّة الحياة فيهم، أكَّد لهم أنَّ مساعدة الله غالباً ما تنزل من خلال أشخاص نشطين. أومأ الفلاحون برؤوسهم موافقين، لأنهم فهموا أنَّ أرسيني هو المعني بالأشخاص النشطين. إنهم لا يريدون أنْ يصبحوا نشطين بأنفسهم، أو لم يستطيعوا أن يكونوا كذلك. وعندما تعافى العديد من المرضى، الذين ندبوهم من قبل، استيقظ فيهم الأمل.

وبدأ الأفراد الذين اكتسبوا الشفاء في مساعدة المرضى وتجميع المُتوفّين. ووزّعـوا الخبز على الأطفال اليتامى، وغسلوا البيوت وبخَّروها، ونظَّفوا الأفنية والشوارع، التي تحوَّلتْ خلال وباء الطاعون إلى خراب. وعندما رأى أرسيني هذا ترك قرية لوكينسكايا ومضى قُدُماً.

المحطَّة اللّاحقة التي حطَّ أرسيني رِحاله فيها في طريقه، كانت قرية غوري. بعد أنْ مكثَ لبعض الوقت في غوري، سار حول بحيرة كيشيمسكويه، وبعد أن اجتاز ما يقارب عشر فيرسات، وصل إلى قرية شورتينو. ومن شورتينو امتد طريقه إلى كوليغي، ومن كوليغي إلى دوبريلوفو، ومن هناك إلى زاغوريه. وفي هذه الأماكن كلها كان الناس ينتظرون أرسيني بالفعل، وكان السكان المحلِّيون يعرفون ما يجب أن تكون عليه مساعدتهم للمعالج. كلماتُه، مثل شهرته، سارتْ أمامه، والكلُّ يعلم الآن أنَّ أرسيني سيقولها عندما يأتي، لهذا كان كلامه قليلاً. وصار هذا يمثِّل لأرسيني راحةً كبيرة، لأنه تبيَّن أنَّ التلفُّظَ بالكلمات كان الأصعب من بين جميع الإجراءات التي يتَّخذُها.

عندما كان أرسيني في زاغوريه، أصاب المنطقة الصقيعُ أخيراً. الصقيع كان قويّاً. فبعد أقلّ من أسبوع، جمَّدَ نهر شيكسنا وكساه بطبقة رقيقة ولكنها صلبة من الجليد. ثم انتقل أرسيني على طول السطح المتجمِّد لنهر شيكسنا. وكانت رجلاه في بعض الأحيان تنزلقان، وأحياناً تتشبَّثان بالقصب الذي جمد في الجليد، لكن كان السير على النهر أسهل من السير في الطرق الوعرة.

وهكذا وصل إلى قرية إيفاتشيفو الكبيرة. كانت القرية غنيّةً تعيش على صيد السمك. في قرية إيفاتشيفو ثمَّة كنيسة حجرية باسم القدّيس أندراوس أوَّل المَدعوّين، الذي كان قبل قيامه بالتبشير صيَّادَ سمك. اختلطت في أكواخ إيفاتشيفو رائحةُ الشِباك والأسماك المملَّحة برائحة الأجساد المتحلِّلة. لقد ضربَها وباءُ الطاعون لمدّة طويلة - كما هو الحال في جميع قرى النهر، التي تستقبل المسافرين والملَّاحين.

وكان أرسيني، الذي نشأ بعيداً عن المساحات المائية، يشعر بوجود النهر كلَّ ساعة. لم يكن نهر شيكسنا كبيراً، لكنَّ سُمْك المياه المارّة، حتى تحت الجليد، يشعُّ طاقةً حركيّةً خاصّة. هذه القوّة في حياة أرسيني كانت جديدة، وأثارتْ قلقَه. وأيقظتْ فيه فكرةَ الغرابة.

-ت-

صادف أرسيني الربيع في إيفاتشيفو. وقد حلَّ ذوبان الجليد محلَّ الصقيع، الذي جعل الوباء أقلَّ عُنْفاً. بذل أرسيني قصارى جهده لمنع الموجة الثانية من وباء الطاعون؛ إذْ أمرَ أهالي إيفاتشينو أنْ يتناولوا الكبريت المسحوق في صفار البيض، بعد حلِّه بمستخلص من عصير الورد الجوري البرِّي. وفي أيام تناول الدواء، أمر بعدم تناول لحم الخنزير وعدم شرب الحليب والنبيذ. وكان أرسيني خلال النهار يقوم بجولة على منازل المرضى، وفي الليل يصلّي من أجل أنْ يمنحهم الله الصحة، وكذلك من أجل أنْ لا ينتشر المرض ويتكاثر.

على شاطئ شيكسنا، فكَّر أرسيني في أن الجليد سيبدأ قريباً في الذوبان. وقبل بداية الدفء ينبغي عليه عبور النهر إلى قرية أخرى. وكان قد عزم الأمر على الانطلاق في طريقه، لكن في صباح أحد الأيام وصلت عربةٌ زلّاجةٌ إلى إيفاتشيفو على جليد نهر شيكسنا. وهو ينظر إلى جمال الزلّاجة، أطلق عليها واحدٌ من أهالي ايفاتشيفو تسمية عربةِ الأمراء. وتبيَّن أنَّ هذا صحيح. فقد أرسل الزلَّاجة من بيلوزيرسك الأمير ميخائيل. أرسلها لكي تجلب أرسيني.

«من أجلي»، اندهش أرسيني عندما قيل له عن وصول الزلّاجة.

– من أجل أنْ نأخذك معنا، أكّد القادمون من بيلوزيرسك. فقد تعرَّضت الأميرة وابنتها إلى تقرُّحات الطّاعون. شهرتُك كبيرة، يا أرسيني، في أراضي بيلوزيرسك. أَرِنا مهاراتك في العلاج، وستنالُ التوقير من الأمير.

- أبغي الجزاء من مُخلِّصي يسوع المسيح فقط، أجاب أرسيني، وماذا عندي لكي أنال توقير الأمير؟

التفت جانباً، وخاطب أوستينا:

«سأرى، يا حبي، ما يمكنني القيام به لهؤلاء الناس. ولأنهم ينتمون إلى نسل الأمراء، فإن المرض لن يكون أسهل. بل حتى أنه، في الحقيقة، سيكون أصعب كذلك».

بهذه الكلمات، جلس أرسيني في الزلاجة المزخرفة. وقد وُضِعت على المقعد وسائدُ الريش، التي منحت جسمَه نعيمَ ورفاهية الأشياء الباهظة الثمن. دثَّروا أرسيني بلحاف، فشعر بالإحراج وعدم الارتياح أمام أهالي إيفاتشيفو الذين كانوا ينظرون إليه. لم يسبق له أنْ ركب في زلَّاجة من هذا القبيل. ولم يتخيّل أنَّ الطريق يمكن أن يكون ملائماً جداً. والحركة سريعة.

ساروا متزحلقين على الجليد بصوت كريستالي ناعم، وردَّت عليهم طبقة الماء من الأعماق بجرس ثقيل. وعلى المسارات المتخلِّفة وراء المتزحلقين حوَّمَتْ عاصفةٌ ثلجيّة. وتحت الجليد هرعت الأسماك الفزعة متناثرةً في جميع الاتجاهات. كان مسارُ نهر شيكسنا متعرجاً، وأخذت القرى تحلُّ بدل الغابات.

يوجد كذلك طريق إلى بيلوزيرسك أقصر من هذا الطريق. وهو ليس مريح مثل طريق النهر، ويسير عبر القرى الصغيرة الواحدة تلو الأخرى. لكن الذين جاؤوا من أجل أرسيني لم يعرفوا ما إذا كان قد جرى تنظيفُه. كانوا في عجلةٍ من أمرهم وقرَّروا عدم المجازفة، لأنهم يعرفون أنَّ الطريق على طول النهر موثوق وسريع. وربما، لم يرغبوا في المرور بهذه القرى، لأن الطاعون كان متفشياً فيها. كان يكفيهم الطاعون الذي في بيلوزيرسك (ألقى الحوذي نظرة صارمة على أرسيني).

عندما فقدت الشمس سطوعها، بدأت مساحة الجليد تتوسَّع. وعندما نظر أرسيني مِن حوله أدرك أنّ الشاطِئ بقي الآن على اليسار فقط. وبدلاً

عن الضفة اليمنى، تنتشر، على امتداد البصر، أميالٌ لا نهاية لها من الجليد. إنها البحيرة البيضاء. كان جليدها أكثر سلاسة واستواءً من النهر، فتسارع المسير. وعندما حلَّ الظلام الدامس تماماً، تحوّلت البحيرة بسلاسة إلى مدينة. فقد وصلوا إلى بلوزيرسك، المدينة الرئيسة في الإمارة.

انزلقت الزلّاجة في الشوارع المظلمة. لم يرَ أرسيني مثل هذه الشوارع الطويلة والبنايات العالية. كان بإمكانه الحكم على ارتفاع المنازل من خلال وهج النوافذ العليا. وعندما وصلوا إلى مسكن الأمير، وجدوا الجميع بانتظارهم. أخرجوا أرسيني بسرعة من الزلّاجة وقادوه على السلَّم إلى الطابق الثاني. وبعد أن مرّوا بغرفتين شبه مظلمتين، دخلوا الغرفة الثالثة. كانت مضاءة بشكل جيد، وفيها ثمّة رجل. إنه الأمير ميخائيل.

- «سمعتُ، أنك طبيبٌ حاذق»، قال الأمير. واقترب من أرسيني وبدأ يتحدّث بصوتٍ منخفض، وكأنه يهمس في أذنه. وقال بلهجة الآمر «زوجتي وابنتي، مرضتا الليلة الماضية، هل تفهم؟ المعالجون المحلّيون لا يمكنهم فعلُ أيّ شيء. أيّ شيء، حتى علاج الأسنان...».

- هذا واضح (قال أرسيني) لديك نفَسٌ فاسد.

- ساعدْ عائلتي، يا أرسيني. أعتقد أنه يمكنك فعل ذلك.

- لماذا تعتقد ذلك (سأل أرسيني) فمن بين الذين عالجتُهم، مات عدد كبير.

جلس الأمير على كرسي منحوت ضخم. وعندما جلسَ بانَتْ صلعةٌ على يافوخه. نظر إلى أرسيني، بعد أنْ أدار رأسه بشكل غير طبيعي.

- لأنّك نفسك لم تمُت. قيل لي أنك مرَرْتَ بالعديد من القرى التي أصابها الطاعون ولم تمتْ. في هذا أرى بركاتك.

ظلَّ أرسيني صامتاً.

قاده الأمير إلى جناح النساء. وعندما اقتربا من الغرفة التي يرقد فيها المرضى، أوقف أرسيني الأميرَ:

- من هنا سأذهب لوحدي.

حنى رأسه ودخل.

كان في الغرفة سريران اثنان امتدّا جنباً إلى جنب. على أحدهما ترقد امرأة شابّة (أصغر بكثير من الأمير)، وعلى السرير الآخر ترقد صبيّة - بعمر ست سنوات تقريباً. كانت الصبيّة فاقدة الوعي. أومأت الأميرة لأرسيني بشكل ضعيف. في البداية اقترب من الطفلة ومسكها من المعصم. ثم لمس جبينها.

- ماذا تقول، يا أرسيني؟ (سألته الأميرة).

- أنت تعرفين اسمي (اندهشَ أرسيني).

جلس على سريرها. وحتى في ضوء الغرفة الخافت كان واضحاً أنّ الأميرة ذاتُ عينين زرقاوين. في الشمس، فكَّر أرسيني، لا بدَّ أنْ تتألَّق عيناها بالتأكيد بزرقةٍ سماويّة. الربُّ لديه مثلُ هذه الألوان. رفع رأسَها بعناية من الوسادة وتلمَّس رقبتها.

- ماذا تقول؟ (كرَّرتْ عليه).

- صَلِّي، أيتها الأميرة، وسيُظهِرُ الربُّ رحمتَه.

خرج أرسيني وأغلقَ الباب خلفه. اقترب منه الأمير بصمت. وجال بنظره عنه.

- هل رأيتهما؟

- رأيتهما (قال أرسيني)، إنَّ حالتهما سيئة، لكن لا تزال الحياة فيهما. بعونٍ من الربّ، أعتقد ستتحسن حالتهما عند الصباح.

وضع الأمير رأسه على كتف أرسيني. شعر أرسيني بالدموع على رقبته.

عاد إلى المريضتَين وبقي معهما حتَّى الصباح. ورأى كيف تتصارع الحياة مع الموت، وأدرك أنه ينبغي مساعدة الحياة. عالجَ تقرُّحات الطاعون عند الأم والطفلة. أعطاهما الكثير من الشراب، لأن الماء يغسل كل الأشياء النجسة ويطرحها من الجسم. أبقى رأسَيهما فوق الطست

عندما يتتابهما التقيُّؤ. والأهم من ذلك كلّه: نفثَ فيهما من قواه الحياتيّة، عندما شعر أَنَّهما تفتقِرانِ إليها.

خشي أرسيني على الصبيّة على وجه الخصوص، لأنَّ الأطفال يعانون من تبعات الطاعون أسوأ من الكبار. كلّ وقتِ فراغه كان يمسكُها بيده، ولا يتركها. ومن خلال نبضات قلبها، أدرك التغييرات في حالتها ووجَّهَ صراعها من أجل الحياة. كان أرسيني يشعر متى ينبغي عليه أن يتدخل بحزم. ففي مثل هذه اللحظات كان يستجمع كل ما بوسعه من دون أن يترك أي شيء، ويمنح الطفلة كل ما بمقدوره من مقوِّمات الحياة. وما خشي شيئاً سوى استنفادَه لقواه.

عندما دخل بعضهم إلى الغرفة في الصباح، وجدوا أرسيني جالساً بلا حراك على الأرض ويحمل الطِّفلة بيده. وبدا للداخلين إلى الغرفة أَنَّه قد مات، وأنَّ الأميرة وابنتَها مَيتتان أيضاً. لكن أرسيني كان على قيد الحياة. والأميرة وابنتها على الرغم من أنهما ما زالتا ضعيفتَين للغاية، لكنَّهُما قد شُفيَتا من المرض.

-ث-

كانت هذه الحادثة بدايةً لصعود أرسيني. إذ ترك شفاء ذوي الأمير، المتعلِّق بعائلته حتى الوَلَه، عليه انطباعاً عميقاً. فأهدى أرسيني معطفاً من فرو السمّور. وعلى الرغم من الوقت الدافئ، كانت قيمة الهدية واضحة. وقرَّر الأميرُ أنْ يجعلَ أرسيني طبيبَ القصر وأنْ يستقرَّ عنده في قصره.

يجب القول إن منازل الأمراء في تلك الأزمان السالفة لا تتوافق تماماً مع التصوُّرات الحالية عن القصور. إذ كانت مباني النبلاء الروس عادة من الخشب. ويكمن فرقها عن منازل المواطنين العاديين في المقام الأول بالحجم: لقد كانت أكثر ارتفاعاً وأوسع. وبناؤها لا يكتمل أبداً. يمكن أنْ ينقطع العمل في البناء، ولكن يتجدَّد مع أوَّل حاجةٍ لذلك. فمع الزيجات الجديدة في الأسرة، تُرفَق أجزاءٌ جديدة بالمبنى الرئيس. وثمَّة بنايات إضافية مرتبطة بتوسيع المطابخ وغرف الخدم والمرافق المساعدة. ولهذا غدتْ المباني أكبر، ولكن ليس أكثر جمالاً. إنها تشبه خلايا النحل أو مستعمرات الرخويّات. والميزة الرئيسة فيها هي أنها تلائم المالِكين.

بعد أن عاش أرسيني عند الأمير عدة أسابيع، ناشده طالباً منه أن يتركه لحال سبيله. كلّا، لم يرغب أرسيني في مغادرة بيلوزيرسك - إذ لا يزال ثمة الكثير من الناس الذين يحتاجون للعلاج - لم يطلب سوى منزل آخر. فاجأ هذا الطلب الأمير في البداية، لكن أرسيني أوضح له أنّه يزور المرضى الآخرين ويخشى أنْ ينقلَ الوباء إلى بلاط الأمير. وهذا الأمر

كان حقيقة، لكن ليس الحقيقة كلها. فأرسيني لا يتحمَّل حياة القصر ويتضايق منها.

«عندما أعيش في التّرف، يصبح شعوري بكِ أضعف»، (اعترفَ أرسيني لأوستينا وهو يبكي). «وإنّ العمل الذي أعيش الآن من أجله، لا يمكن أن أحققه هناك».

لم يمنع الأميرُ أرسيني من ذلك، لأنَّ كلمة أرسيني كانت تعني له الكثير. والمهمّ بالنسبة للأمير ألّا يغادر أرسيني بيلوزيرسك. فأعطاه منزلاً بالقرب من القصر وسمح له بالعيش بمحض إرادته. انحسرت إرادة أرسيني بمواجهة المرض الذي اجتاح المدينة. واستطاع في وقت قصير أن يقدم المساعدة للمرضى المتعافين في بيلوزيرسك. لم يكن بمقدوره لوحده أنْ يدبِّر الأمر مع المرضى في المدينة كلها.

ومع طلوع الفجر كان أرسيني يغادر بيتَه ويقوم بجولةٍ حول الأكواخ المصاب أهلُها بالطاعون. يقوم بفحصهم، ويحدِّد الحالة وأنماط العيش. وفي الأماكن التي تحتاج إلى مساعدة حاسمة منه، يبقى لساعات طويلة، ويحثُّ ملائكةَ الموت الحزينين على الانتظار. وفي بعض الأحيان، عندما يبدو له أنَّ قوَّتَه قد تركَتْه بالكامل، كان يذهب إلى البحيرة البيضاء.

حلَّت نهاية شهر مايو (آيار)، والبحيرة لا تزال متجمدة. وكان فضاؤها الرصاصي اللا متناهي يتعارض مع شواطئها المغطاة بالخضرة. سار أرسيني على جليد البحيرة وشعر ببرودة أعماقه. وتمثَّلتْ له نفحاتُ هذا البرد كنفحاتِ الموت، وكأنَّ عمق البحيرة اللا متناهي يتضمّن في طيّاته جميع أهالي بيلوزيرسك السالفين في وقت مضى. وكان بإمكانه قضاء ساعات يُحدّق في الجليد، ويتحقّق ممّا جمد فيه خلال فصل الشتاء: شظايا الأوعية وأطراف المشاعل، وذئبٌ ساقطٌ وبقايا من أخفافٍ مصنوعة من الألياف، وكذلك أشياء فقدت شكلها الأصلي بسبب طول مكوثها وتحوّلت إلى مادّة نظيفة.

ظنَّ أرسيني أنه في عزلة، لكنه لم يكن كذلك. إذ لم يستطع الاختباء

في أي مكان من شهرته. فقد كانت مدينة بيلوزيرسك التي لم يرَها أرسيني تراقبه من الشاطئ. فهمت المدينة أنَّ قوّة أرسيني لا يمكن لشخص عادي أنْ يطيقها، ولم تمنعه من اكتساب القوة في الوحدة.

لكن في يوم من الأيام انفصلت نقطة عن الشاطئ وبدأت تتحرك بسرعة نحو أرسيني. انتبه لها أرسيني، عندما أصبح من الواضح أنها متوجِّهةٌ إليه. ظنّ أرسيني أنَّ الشخص كان لا يزال بعيداً، لكن هذا ما تصوره فقط، لأن الشخص القادم كان صغيراً. وعندما اقترب، رأى أرسيني أنه كان صبيّاً ابن سبع سنين تقريباً.

- أنا سيلفستر، قال الصبي. جئت لأنّ والدتي مريضة. لا بدّ لك، يا أرسيني، أنْ تساعدنا.

أخذ أرسيني من يده وسحبه نحو الشاطئ. كانت يد سيلفستر باردة. تبعه أرسيني بصمت. زلق سيلفستر عدة مرات على الجليد وتمسَّك بذراع أرسيني بشكل يثير الضحك. لكن لم يضحك أحد منهما، لأن حركتهما لم تكن مبهجة. كانت الحركة مصحوبة بطقطقة الجليد تحت الأقدام. وفوق رأسيهما صرخت الطيور العائدة من المناطق الدافئة. ومن وقت لآخر، كانت تهبّ موجات من هواء الشاطئ الدافئ، باعثةً الدفء في الفضاء الجليدي.

- توفي والدي منذ عامين، قال سيلفستر. أيضاً من الطاعون. أمي اسمها كسينيا.

أومأ أرسيني برأسه عندما شاهد سيلفستر ينظر إليه.

يقع منزل سيلفستر عند بركة في المستنقعات على حدود المدينة. وعلى النقيض من توقعات أرسيني، كان المنزل جيّداً. لم يكن فيه يُتمٌ وهَجْر. قبل عبور العتبة، سأل أرسيني:

- متى مَرِضَت؟

- أمس، أجاب الولد.

دخل أرسيني. على الرغم من إيماءة التحذير، خطا سيلفستر خلفه.

- هذه هي والدتي (همس سيلفستر)، لا يمكن أن ينالني منها أي سوء.

«هي الآن لا تنتمي لنفسها، بل للمرض»، قال أرسيني همساً كذلك وقاد الصبي إلى الخارج.

كانت كسينيا ترقد وعيناها مغمضَتان. نظر إليها أرسيني في صمت لعدة دقائق. حتى التورّمات المرضية لم تشوّه ملامح وجهها المتناسقة. لمس أرسيني جبينَها بيده واندهش نفسه من تهيُّبِه. وللتَّخفيف من تردُّده، ضغط بكفه على جبينها. فتحت كسينيا عينيها؛ لم تُعبِّرا عن أي شيء. أغمضتهما ببطء. إذ لم تكن كسينيا قادرةً على مقاومة النَّوم. جسَّ أرسيني نبضَها. ومرَّر يده على طول الشريان العنقي. وضغط عدة مرات على المكان الذي نبض تحته قلبها. لم يشعر بأي شيء فيها سوى تناقص الحياة.

في المدخل ألقى عليه سيلفستر نظرة استفسار. عرف أرسيني هذه النظرة بشكل جيّد، لكنه ما رآها أبداً من طفل. لم يَعلمْ ما ينبغي قوله لطفلٍ بمثل هذه النظرة.

- الحقيقة، الأمر سيِّئ (وأدار أرسيني وجهه) يؤسفني أني لا أستطيع إنقاذها.

- لكنك أنقذت الأميرة، قال الصبي. فأنقذها هي أيضاً.

- كل شيء بيد الله.

- الحقيقة، أنَّ شفاءها أمرٌ تافِهٌ بالنسبة لله. وهو عليه هين جدّاً، يا أرسيني. دعنا نُصلِّي له معاً.

- لنصلِّ. أنا أريد منك فقط ألّا تلومَه إذا ماتَتْ على كلِّ حال. تذكر أنَّها من المحتمل أنْ تموت.

- هل تريد منّا أنْ نسألَه ولا نعتقد أنَّه سيعطينا ما نريد؟

قبَّل أرسيني الصبي على جبينه:

- كلَّا، ليس كذلك. بالطبع.

وضع فراشاً لسيلفستر في غرفة المدخل وقال له:

- سوف تنام هنا.

- نعم، لكن أولاً سنصلّي، قال سيلفستر.

جلب أرسيني من الغرفة أيقونات المخلّص وأمّه الطاهرة والقدّيس العظيم في الشهداء بندلايمون الشافي... رفع الدلاء من على الرف ووضع الأيقونات في مكانها. وجثيا هو والصبي على ركبهما. صلَّيا لمدّةٍ طويلة. عندما أنهى أرسيني صلواته إلى المخلِّص، جذبه سيلفستر من كُمِّه.

- انتظر. أريد أن أخاطبه بكلماتي الخاصة (سجد بجبينه على الأرض، وصدح صوته بهمس) يا ربّ، اتركْها لتعيش. لا أريد أيَّ شيءٍ آخر في هذا العالم. بشكل عام. سأقدم الشكر لك مدى الدهور. أنت تعرف أنّها إذا ماتت، سأبقى لوحدي (نظر من تحت يده إلى المخلِّص) ومن دون مساعدة.

عندما أخبر الصبيُّ المخلِّصَ عن العواقب المحتملة، لم يكن خائفاً على نفسه. كان يفكّر في أمه ويستجمع أقوى الحجج لصالح شفائها. ويأمل ألّا يمكن التخلي عنه. وقد رأى أرسيني ذلك. واعتقدَ أنَّ المُخلِّص يرى ذلك.

ثم صلَّيا إلى والدة الإله. ولأنَّ أرسيني لم يعد يسمع صوت سيلفستر، فجأةً جعل ينظر حوله. رأى سيلفستر نائماً، وهو جاثٍ على ركبتيه. فاستند أرسيني على الصندوق وحمل الصبي بعناية إلى السرير. وصلَّى وحدَه إلى القدّيس الشافي. وعند منتصف الليل تقريباً ذهب إلى الغرفة وبدأ يعالج كسينيا.

-ج-

لم تتحسَّن حالةُ كسينيا على امتداد عدّة أيام. لكنها لمْ تمتْ. رأى أرسيني في هذا مظهراً من مظاهر رحمة الله التي لا حدود لها وتشجيعاً له للنضال من أجل حياتها. فاستمر بنضاله. كان يرفع رأس كسينيا، ويسكب في فمها ليس الأدوية المضادة للطاعون فحسب، بل كذلك الجرعات التي يمكن أن تعزز قدرة الجسم في مقاومته للموت. وفي الوقت الذي يهمس فيه بالصلاة، كان يمسك كسينيا من يدها ويشعر كيف يجري عون الله من خلاله إلى المريضة.

عندما خرج من الغرفة، لاقاه سيلفستر في غرفة المدخل. بعد الصلاة لطلب الصحة لكسينيا، سارا لمدة وجيزة إلى البحيرة. صارت الأيام في بيلوزيرسك أكثر حرارة، وبرودة البحيرة كانت لطيفة. لم يعودا يسيران على الجليد لأنه كان رقيقاً ولا يمكن الاستناد عليه. وظهرت في الجليد مواضع غير متجمّدة وحُفَرٌ من الينابيع تحت الماء. وتحول من اللون الأزرق إلى الأسود، ومن متينٍ إلى هش.

- ستتزوّج أمّي (سأله سيلفستر بينما كانا يسيران على طول الشاطئ).

من هول المفاجأة توقّفَ أرسيني.

- أريد أن نكون معاً دائماً (قال سيلفستر).

- ألا ترى، يا سيلفستر، أنَّ...

توقَّف الصبيّ الذي كان يسير أمام أرسيني، وعاد ببطء إليه.

- هل لديك امرأةٌ أخرى؟

- إنك توجِّهُ أسئلةً خاصة بالكبار.

- يعني لديك؟

- يمكن القول، هكذا أيضاً.

رأى أرسيني كيف ترقرَقَتْ عينا الصبيّ بالدموع. مسك سيلفستر نفسه، فلم تنزل الدموع على خدَّيه.

- ما اسمها؟

- أوستينا.

- هل تسكن في قريتك؟

- كلا.

- في بيلوزيرسك؟

- إنها لا تعيش في هذا العالم.

أخذه الصبي من يده، وجعلا يسيران.

في اليوم الخامس من المرض تحسَّنت حالة كسينيا. لم تكن لديها قوّة على الإطلاق، لكنها لم تعد مهدَّدة بالموت. نظرتْ بامتنان إلى أرسيني، الذي سقاها وأطعمها بملعقةٍ شيئاً من العصيدة وساعدها في الذهاب إلى المرحاض.

- إني لا أخجل منك (قالت ذات مرة). هذا هو أكثر شيء مدهش بالنسبة لي.

- عند المرض يفقد الجسد خطيئته (أجاب أرسيني بعد التفكير). ويصبح واضحاً أنّه مجرّد غلاف. فلا ينبغي الخجل منه.

- أنا لا أخجل منك (قالت كسينيا مرة أخرى)، لأنك أصبحت شخصاً قريباً منّي.

تحسنت صحّة كسينيا كثيراً. وفي واحدة من الأمسيات التي تلتْ ذلك استيقظت وطَهتْ اللِّفت. وبعد أنْ قطَّعت كسينيا اللِّفت على شكل حلقات مستوية، وضعته في أطباق. وألقتْ نظرة سعادة على الرجال.

فنظر أرسيني إلى سيلفستر: «الولد تقريباً لم يأكل شيئاً. وطوال اليوم كان خاوياً»، فأثار ذلك قلق أرسيني.

بعد العشاء، أخذ أرسيني سيلفستر من معصمه. عندما اقترب أرسيني من الصبي، كان يعلم أنَّ الأمر سيِّئ، ولكنه جسَّ نبض سيلفستر فحسب، وأدرك مدى السوء. اعتقد أرسيني أنَّ دمَه ينساب في الاتجاه المعاكس. وسيضرب الآن من مناخره، ومن أذنيه، ومن حلقِه. كانت كسينيا لا تزال تتحدَّث، بينما هو لم يعد بإمكانه فتح شفتيه. فمن الواضح أنه شعر بعدم قدرته على المساعدة. نظر إلى الطّفل، وانتابته الرغبة بالموت مرة أخرى.

في الليل، لم ينم سيلفستر. استولى عليه قلقٌ لا سبب له، وكان يتقلَّب في الفراش. ويتحوَّل من جنب إلى آخر ولم يتمكّن بأيّ حال من الأحوال من العثور على وضعية مريحة للنوم. كانت عضلات يديه ورجليه تؤلِمُه. وعندما يغفو لبضع دقائق، يستيقظ على الفور ويسأل عمّا إذا كان كسينيا وأرسيني هنا. بدا له أنهما غادرا. لكنهما كانا قريبين منه. جلسا على سريره وجعلا ينظران إليه من دون توقُّف. لمْ تقُلْ كسينيا أيّ شيء. وكانت الدموع تسيل على وجنتيها وخدَّيها. وعند الصباح انتابتْ سيلفستر غيبوبة.

رفعت كسينيا رأسها.

– أنقذه، يا أرسيني. هو حياتي.

ركع أرسيني بجانبها على الأرض، ودفن رأسه في حضنها وانفجر في البكاء. بكى خوفاً من فقدان سيلفستر وعدم القدرة على مساعدته. بكى لكلّ مَنْ لم يستطعْ إنقاذَهم. لقد شعرَ بمسؤوليَّته عنهم، ولم يكن لديه مَن يشاركه هذه المسؤولية. بكى من وحدته الشخصية، التي أحرقته الآن فجأةً بحدّة.

في محاولةٍ لعلاج سيلفستر، اتّخذَ جميعَ الإجـراءات المضادَّة للطّاعون التي علّمها إيّاه كريستوفر ذات مرة. واستعمل بعض الوسائل، التي اكتشف فائدتها نتيجة ملاحظاته الخاصّة. وضع الطفل في حضنه

وأبقاه من دون أنْ يتركه. خاف أرسيني من أنَّ ملَك الموت يمكن أن يأتي إلى سيلفستر في غيابه. عرف أرسيني أنه في اللحظة الحرجة سيضغط الطفل إليه، لكي تندفع موجات الحياة من قلب إلى قلب. وشعر أرسيني بالرعب عندما بدأ سيلفستر يسعل. وهو يمسح المخاط الدموي من شفاه الصبي، خشي أرسيني أن تخرج روحه مع السعال الرهيب، لأنّ موقعها في الجسم كان هشاً.

وعندما تذكّر أرسيني ما قاله سيلفستر توجَّه إلى الله بالدعاء:

«ساعدْهُ، فهذا عليك، يا رب، سهل يسير. أعرف أنَّ دعائي وقاحة. وحتى أني لا أستطيع أن أقدّم حياتي بديلاً عن الصبي، لأني قدّمت حياتي لأوستينا، التي أنا مذنب إلى الأبد بحقها. ولكني كلّي أملٌ في رحمتك التي لا حدود لها، وأسألك، يا رب: أن تحفظ حياة عبدك سيلفستر».

لم يَنمْ أرسيني خمسة أيام وخمس ليالٍ. لم يترك سيلفستر من يديه، لأن جسده احتاج إلى أن يبقى في وضع شبه الجالس. فما إن يرقد الصبي حتى تمتلِئ رئتاه بسرعةٍ بالبلغم ويبدأ في السعال. وفي اليوم السادس شعر أرسيني بالتغير. في الظاهر لمْ يَبْدُ هذا التغيير واضحاً للعيان بعد، لكنَّه لمْ يَخْفَ عن أرسيني.

من دون تفسيرٍ لأي شيء، أمر كسينيا بزيادة الصلاة. قامت كسينيا، التي أنهكها التعب وقلّة النوم، بالإلحاح بالصلاة. ركعت على ركبتيها أمام الأيقونات في زاوية الأيقونات ووقفت هناك لساعات. وصار صوتها الأجشُّ الآن يُسمَع بلا انقطاع. سقطت جدائلُها من تحت الوشاح، لكنها لم تكن لديها القوة لتعديلها. وبكت حتى جفَّت دموعُها ولم تعدْ تسيل على خدَّيها. وفي اليوم السابع فتح الصبي عينَيه.

بعد أنْ تلا أرسيني صلاةَ الشكر، سقط على الدكّة. ونام لمدّة يومين وليلتين ومع هذا لم يستطع استعادة قواه. وقد أدرك أنه سيضطر إلى النهوض، وكان يحلم أنّه استيقظ. أراد أن يفحص سيلفستر، ورأى في الحلم أنه كان يفحصه. أظهر الفحص أن كل شيء عند سيلفستر على ما

يرام. عرف أرسيني أنه كان يحلم، لكنه عرف أنه يحلم بالحالة الحقيقية للأشياء. وإلا لكان يحلم بشيء آخر.

استيقظ من لمسة باردة على يده. كانت هذه شفتا كسينيا. فبعد أن رأت كسينيا أنّ أرسيني فتح عينيه، ضغطت كفَّه على جبينها. وراءها كان يقف سيلفستر. بعد المرض الذي تعرَّض له بدا الصبي شاحباً ونحيفاً، وشفَّافاً، شبحيّاً تقريباً. وبدتْ طيَّة قميصه خلف ظهره كجناح الملاك. ابتسم لأرسيني من دون أنْ يحاول الاقتراب منه. تاركاً أمَّه في الأمام.

-ح-

ذاب الثلج في البحيرة، وسرعان ما غدا الجوُّ أكثر دفئاً في المدينة. ومع بداية الأيام الحارّة، بدأ الطاعون في التراجع. وعادت الحياة في بيلوزيرسك إلى شكلها الطبيعي، وتبدَّد قلقُ سكّانها بالتدريج. لكن لم تتبدَّد شهرةُ أرسيني الكبيرة، التي دوَّت في جميع أنحاء الإمارة. وصار الناس يلتجئون إلى أرسيني لأيِّ دافعٍ علاجيّ وحتى أنَّ بعضهم توجَّه إليه دون سبب. فقد شعر سكان المدينة في الحديث معه بغبطةٍ واضحة. كان أرسيني يتحدَّث قليلاً، لكن اهتمامه الكبير وابتسامته ولمساته غمرتْهم بالفرح والقوّة.

دعا الأمير ميخائيل أرسيني من وقت لآخر إلى تناول الغداء. ووجه الدعوة مرة أخرى إليه للانتقال إلى منزله، ولكن أرسيني رفض ذلك عدة مرات بهدوء. أراد الأمير بناء منزل كبير له بالقرب من قصره، لكن أرسيني رفضه كذلك. كان بودّ أرسيني لو يرفض تناول الطعام، لكن الأمير سيأخذ مثل هذا الفعل كإهانة شخصية له.

كان الأمير رجلاً ذكياً، ولم يحاول الإلحاح على أرسيني للتقرّب إليه. فبعد أن أدرك الأمير ميخائيل أن أرسيني يحتاج إلى نوع من الاستقلال المحدّد، لم يعد يفرض عليه صحبته. فهمُّ الأمير الاستقلالُ المحدَّد؛ على أنّه الاستقلال الذي يعيِّن حدودَه هو بنفسه. وبعد أن ترك لأرسيني العيش في المدينة وفقاً لإرادة أرسيني الخاصة، حدَّه فقط في شيء واحد: الحقّ في مغادرة المدينة. وقد أوضح هذا لأرسيني بأدبٍ، ولكن بحزم.

لم تقتصر الصعوبات بالنسبة لأرسيني على تناول الطعام عند الأمير

فحسب. فقد عذَّبتْ روحَه أكثر من ذلك بكثير دعواتُ كسينيا المتكررة له لتناول الطعام عندها. ففي كل يوم تقريباً كان يأتي إليه سيلفستر ويجرُّه إلى بيت أمّه. وكان رفض دعوات الطعام هذه أكثر صعوبة من رفض دعوات الأمير. فقد كان أرسينى ينزعج منها لكنه لا يريد أن يرفضها.

فهو يأتي إلى كسينيا ويشاهد كيف تعد المائدة. وأعجبته حركاتها الهادئة والدقيقة. بالكاد كان يتحدث مع كسينيا. لم يكن الصمت معها ثقيلاً، وأحبَّ أرسيني هذا أيضاً. وفي بعض الأحيان يتحدث سيلفستر، ولكن في كثير من الأحيان كان يحاول تركهم بمفردهم. بعد تناول الطعام يسير مع أرسيني ويشيِّعه إلى المنزل. وكان هذا يسعد أرسيني أيضاً. وأحياناً يبدو له أنَّ سيلفستر يخشى من أن يعرِّجَ على منزل آخر.

- أوستينا لا يمكن أن تكون زوجةً لك، قال سيلفستر ذات مرة، وهو يودِّع أرسيني.

- لماذا، سأله أرسيني.

- لأنها لا تعيش على هذه الأرض.

- أنا، يا سيلفستر، مسؤولٌ عنها أينما حلَّت وفي كلِّ مكان.

وضع أرسيني يدَه على مَتْن سيلفستر، لكنَّ سيلفستر أشاحَ عنه.

ليس سيلفستر وحدَه كان غير سعيد. لم يجد أرسيني مكاناً لنفسه أيضاً. إذ لم يستطع أرسيني عدم زيارة كسينيا، لأنه لم تكن ثمة أسباب واضحة تمنعه من القيام بذلك. علاوة على ذلك، بدأ يلاحظ أنه ينتظر هذه الزيارات كالعيد، وبدأ يشعر بالخجل. كان أرسيني يشعر بالخجل أيضاً لأنه في بيلوزيرسك لم يستطع الاختباء من شهرته. ولكنه كان ممنوعاً من مغادرة بيلوزيرسك.

صار أهالي بيلوزيرسك يأتون إليه بأنفسهم. إنه يعالجهم من الأمراض نفسها التي عانى منها سكان بلدة روكينا. ولم يطلب أي أجور مقابل العلاج لأي شخص، ولكنّ قليلين كانوا يقبلون العلاج مجّاناً. بخلاف سكان البلدة،

نادراً ما يدفع سكان المدينة المنتجات الطبيعية، ويفضّلون دفعَ المال. ودفعوا أكثر من اللازم بكثير. وكثيراً ما قدم له الأمير ميخائيل هدايا سخيّة.

وبهذا المال اشترى أرسيني من حين لآخر بعض الكتب الصغيرة، التي تصف الخصائص العلاجية للأعشاب والحجارة. أحدُها كان لمعالجٍ أجنبيّ، وقد دفع أرسيني للتاجر أفناسي بلوخا الذي سافر إلى الأراضي الألمانية، مقابل الترجمة. كانت ترجمة بلوخا تقريبيّة للغاية، مما حدَّ من استعمال الكتاب. لم يستعمل أرسيني الوصفات التي حصل عليها من الكتاب إلا عندما تتطابق مع ما تعلَّمه من كريستوفر.

بعد أنْ راقب أرسيني كيف يقرأ التاجر الرسائل غير المألوفة ويترجم الكلمات التي تتألَّف منها، صار يهتم بالعلاقة بين اللغات. عرف أرسيني عن وجود اثنتين وسبعين لغة في العالم من تاريخ البلبلة وبناء برج بابل، ولكن غير اللغة الروسية، لم يسمع في حياته حتى الآن أية واحدة منها. جعل يحرّك شفتيه، ويكرِّر مع نفسه وراء بلوخا تركيبات غير معهودة من الأصوات والكلمات. عندما أدرك معناها، اندهش من أنَّ الأشياء المألوفة يمكن التعبير عنها بشكل غير عادي - والأهم من ذلك بطريقة غير ملائمة. وفي الوقت نفسه، فتن أرسيني وجذبه التنوُّع الكبير لاحتمالات التعبير. وحاول أنْ يحفظ كذلك العلاقة بين الكلمات الروسية والكلمات الألمانية، ونطق بلوخا، الذي من غير المحتمل أن يتوافق مع النطق الألماني الحقيقي.

لاحظ بلوخا الممارس اهتمام أرسيني ودعاه على الفور إلى أن يعطيه دروساً في اللغة الألمانية. وافق أرسيني بسهولة. كانت الدروس التي بدأت، في جوهرها، بعيدة عن التصورات المعتادة حول التدريس، لأن أفناسي بلوخا لم يكن بمقدوره قول أي شيء واضح عن اللغة في حد ذاتها. لم يفكر أبداً في بنيتها وبالتأكيد لم يعرف قواعدها. جرت الدروس في بداية الأمر بأن يقوم التاجر بقراءة كتاب التداوي بصوت مرتفع ويترجمه. والفرق بين هذه الدروس وبين الترجمة السابقة ينحصر في أنه في نهاية كل فصل يسأل بلوخا أرسيني: «هل هذا مفهوم؟».

وقد سمح هذا للتاجر بأخذ أجرةٍ مضاعفة من أرسيني – على الترجمة وعلى الدروس. لم يتذمَّر أرسيني، لأنه لم يتأسَّف على المال. وأعرب عن تقديره لأفناسي لكونه الشخص الوحيد في بيلوزيرسك، الذي يعرف بدرجة أو أخرى الكلام الأجنبي. ولأن أرسيني أدرك أنَّ من خلال قراءة الكتاب الطبيِ وحده فقط لا يفهم إلا قليلاً، قّرر استعمال ميزة لا ريبة فيها من ميزات معلِّمه: فهو لديه سماع جيد وذاكرة قوية.

خلال رحلاته الطويلة إلى بلاد الألمان، تعلّم بلوخا تركيب الكلمات المنطوقة في المواقف المختلفة، وعند طرح الأسئلة يمكنه تكرار هذه الكلمات. فوصف أرسيني هذه المواقف لبلوخا وسأله عن ما يجب أنْ يُقال بالضبط في مثل هذه الحالات. فكان التاجر يُلَوِّح (يا للبساطة!) بيده مندهشاً ويحكي لأرسيني جميع الخيارات التي سمعها. فيقوم أرسيني بتسجيل ما يقوله بلوخا كلّه. وعندما يبقى لوحده يعيد ترتيب ملاحظاته. وكان يستخرج من التعبيرات، التي سمعها من بلوخا، الكلمات غير المألوفة ويضعها في قاموس خاص.

وذات مرّة، عندما بِيعت أشياء من تاجر أجنبي تُوفّي في الطريق، اشترى أرسيني مدوَّنة ألمانية. كانت عبارة عن مخطوطة سميكة ومهذَّبة نوعاً ما. وبعد أن فتحاها عشوائيّاً، لم يعد بإمكان أرسيني وبلوخا أنْ يتوقَّفا عن قراءتها.

قرأا عن الناس الذين يُطلَق عليهم الساتير، الذين عندما يركضون، لا يمكن لأحدٍ أنْ يسبقهم. يمشون عراة، ويعيشون مع الوحوش، ويغطّي أجسادَهم الصوف. والساتير لا يتكلّمون، بل يصرخون فقط بصراخ. وقرأ أرسيني وبلوخا عن الأتاناسي الذين يعيشون في شمال المحيط الكبير. آذانهم كبيرة لدرجة أنهم يغطّون بها أجسادَهم بالكامل من دون صعوبة. وقرأا عن الشيريتيِّين، الذين، على العكس من أولئك، لا يملكون آذاناً، بل ثقوباً فقط. وقرأا عن المانتيكور الذين يعيشون في أراضي الهند: أسنانهم في ثلاثة صفوف، ورؤوسهم رؤوس بشر، وأجسادهم أجساد أسُود.

يا لتنوُّع هذا العالم، فكَّر أرسيني، وتذكَّر تواصيف مماثلة في كتاب الإسكندرية، وسأل نفسه: ما هو مكان الظواهر المذكورة في الترتيب العام للأشياء. فبعد كل شيء، لا يمكن لوجودها (يسأل نفسه) أن يكون عن خطأ في العالم، المبني بشكلٍ حكيم؟

ومع ذلك، لم ينفق أرسيني الجزء الأكبر من أمواله على الكتب أو حتى على الدروس. فبشكل رئيس كان أرسيني يشتري الجذور والأعشاب والمعادن اللازمة لتصنيع العقاقير. وقام أرسيني بتوزيع عقاقير باهظة الثمن على أولئك الذين لم تسمح لهم إمكانيّاتهم بشرائها. وكانت أغلى العقاقير الطبية تلك التي تُجلَب من بلدان أخرى. ومن بينها ثمة أدوية سمع عنها أرسيني فقط من كريستوفر أو قرأ عنها في دليل الأدوية الألماني. الآن، بفضل سخاء أهالي بيلوزيرسك أصبحت لدى أرسيني إمكانية تجريبها.

بادئ ذي بدء، اشترى بعض اللآلئ وطحنها طحناً ناعماً. ثم خلطها مع السكر المستخلص من العليق البري، وأعطاها لكي يتناولها الشخص الذي وهنت صحته بعد الإصابة بالطاعون. وهذا الدواء، وفقاً لما قاله كريستوفر، يسترجع القوة للبدن. لكن في الواقع عادت القوة إلى المريض، كما عادت إلى المرضى الباقين على قيد الحياة. وبقي تأثير هذه اللآلئ المطحونة بالنسبة لأرسيني غير واضح. ولم يكن بمقدوره، على وجه اليقين، إلا أن يقول إن اللؤلؤ ليس فيه ضرر على المريض.

اشترى أرسيني أيضاً حجر الزمرد المذهل، الذي جُلب من بريطانيا. فالذي يُكثِر النظر إلى الزمرد، قال كريستوفر، يقوى بصره. والزمرد المطحون والمذاب في الماء يساعد ضد السم القاتل. لم يستعمله أرسيني مطلقاً مادةً مضادةً للسموم، والنظر إلى الزمرد، على كل حال، يسرّ الخاطر بالفعل.

وجرَّب زيوتاً لم يرها من قبل. فقد استعمل أرسيني، لتضميد الجروح الطرية، زيت التربنتين، وبدا له أنه فعال. وفي حالات ألم المفاصل، قام

بدهن الأماكن المؤلمة بزيت النفط الأسود. شعر المرضى أنَّ لمسة أرسيني تخفّف الألمَ عنهم. إنّهم على كل حال لم يهتمّوا بنوع الزيت الذي يدهن به أرسيني. المهم بالنسبة لهم أنه هو من يفعل ذلك، لأنهم عندما يدهنون أجسادَهم بالنفط بأنفسهم، يكون تأثير الشفاء أضعف بكثير. لكنهم لم ينكروا الدور الإيجابي للنفط.

بعد أن جرَّب أرسيني الوسائل التي لم تكن متاحة له، هدأ واستقرّت نفسه. لا يمكن أن يقال إنه فقد ثقته فيها كلياً، ولو لكونه يثق بكريستوفر. ومع ذلك، أخذ أرسيني في الاعتبار أن كريستوفر، أيضاً، كان يحكم على العديد من الأدوية ليس من تجربته الخاصة. سمح ذلك له بالتحقق منها وإصدار أحكامه الشخصية عليها. وبشكل عام، عزّز أرسيني افتراضه القديم، في أنَّ الأدوية تتمتع بأهمّية ثانوية. والدور الرئيس يقع على عاتق الطبيب وقوّته في العلاج.

وفي هذه الأثناء، انتهى الصيف الشمالي القصير. وعادت راحة المساء عند الموقد وإنارة عيدان المشاعل. وأحياناً يحدث صقيع في الليالي. فأمسى أرسيني يبقى حتى وقت متأخِّر عند سيلفستر وكسينيا، يقرأ لهم رسائل كريستوفر.

يقول فاسيلي الكبير: العِفَّة في الشيخوخة، ليست عِفَّة، بل عجز عن الشهوة. وقال الإسكندر، بعد أنْ رأى شخصاً يدَّعي أنَّ اسمه «الكائن الفظيع»: أيّها الشاب إما أنْ تُبدِّل اسمك وإما أنْ تبدِّل طبعك. وعندما شتم أحدهم ديوجانس الكلبيّ ناعتاً إيَّاه بالأصلع، قال ديوجانس: «إنِّي لا أرُدُّ لك الشتم، بل أُثني على شعر رأسك، لأنه لو رأى جنونه، لفرَّ منه هارباً». قال أحد الشباب في السوق، مفتخراً بنفسه، إنه حكيم، لأنه تحدث مع العديد من الحكماء، لكن ديموقريطوس أجابه: «ها أنا ذا قد تحدَّثت مع العديد من الناس الأغنياء، لكنَّني لم أصبح غنيّاً بسبب ذلك». وعندما سُئل ديوجانس عن كيفية العيش مع الحقيقة، أجاب: «إنها كالنار، لا تقترب منها كثيراً فتحترق، ولا تبتعد عنها كي لا تتجمَّد».

-خ-

وفي غضون ذلك، قرُبَ أوان الصقيع. وجرَّدت الرياح أشجار بيلوزيرسك من أوراقها وألقتْها في البحيرة. أصبح هبوب الرياح أقوى، وغدا تعلُّق الأوراق بالفروع ضعيفاً. وبدت الأوراق الساقطة في البحيرة كأنها أسرابُ طيور صغيرة تسعى لسبب ما نحو الشمال.

واصل أرسيني علاج أهالي بيلوزيرسك، ولكن لم يقتصر علاجه عليهم فقط. فقد جعل الناس يتوافدون إليه من جميع أنحاء إمارة بيلوزيرسكويه، إذ جذبتهم شهرة الطبيب وانتشار الأخبار عنه. في البداية يُجلِسهم أرسيني في غرفة المدخل. وعندما لا يكفي المكان في غرفة المدخل، يأمر بوضع عدة مقاعد في الفناء. وعندما لم يعد المكان يستوعب الوافدين إلى هناك، بدأ أرسيني يحدّ من استقبال المرضى. ولا يستقبل إلا أولئك الذين تمكَّنوا من شَغْل المقاعد. غيرَ أنَّ الباقين لم يغادروا. وظلُّوا يتسكَّعون في الفناء وينتظرون بصبرٍ المِنَّة والفضلَ من الطبيب. فهم يعرفون أنه سيفحص المنتظرين على أيِ حال.

كان ثمة الكثير من المرضى، وكانوا متنوِّعين للغاية.

أُحضِر إليه مرضى ذوو عظام مكسورة. فكان أرسيني يعدِّل عظامهم ويشد الأماكن المتضرِّرة بقماش من الكتان بعد أن يدهنها بمرهم علاجي. هذا المرهم مأخوذ من زهرة الخُبّاز البري المطبوخ في نبيذ مجلوب من فرنسا. ويعطيهم للشرب عصير عشبة الشوك المخلوط بمسحوق القنطريون العنبري. ويجبر المرضى على ارتداء الضمادات بصبر وأن يشربوا الدواء في الصباح لمدة ثمانية أيام. فالتَأَمَتْ عظامهم.

وأُحضِر إليه الذين تعرضوا الحروق بالنار والذين اكتوت أجسادهم بالماء المغلي. استعمل أرسيني للحروق الكرنب المسحوق وبياض البيض. بعد أن يغير الضماد، يرش الحرقَ بالزُّنْجُفْر. ويعطي للمصابين بالحروق شراب منقوع عشبة أليفيليا. وبعد فترة وجيزة، تبدأ الحروق تلتأم وتندمل.

ويأتي إليه المرضى بالديدان المعوية. فكان يصف لهم الفجل البري المسحوق مع العسل الطازج. ويقرر لهم كذلك اللوز. والقُرّاص الطازج المسلوق في الخلّ مع الملح. وإذا ظلّ لدى الفرد نوعٌ من الديدان - رغم ذلك - يقدِّم له أرسيني، على معدة منملئة، قليلاً من الزاج حتى تخرج الديدان بشكل نهائي. في العصور الوسطى كانت الديدان كثيرة.

وعولج لديه الذين يعانون من البواسير. إذ يأمرهم أرسيني برشّ البقع المؤلمة ببذور الشبت المسحوق أو الكحل. وتوجّه إليه كذلك الذين لديهم حكّة في الصدر. فيأمرهم بالحصول من التجار على أسماك الرنجة البحرية، المعروف عنها أنها تسبح في أسراب وعيونها تتوهج في الليل. ويطلب منهم أن يقطِّعوا الرنجة بالطول ويضعوها على الصدر. وجاء إلى أرسيني المصابون بأمراض اللثة. فنصحهم بمضغ حبات اللوز وإبقائها في أفواههم لمدة طويلة، حتى تقوى لثتهم.

ظل سيلفستر يأتي إلى أرسيني كالسابق ويأخذه معه إلى والدته. ولأن الصبي يعرف أن أرسيني مشغول طوال النهار مع المرضى، فهو يأتي إليه في ساعة متأخرة من المساء. ومن دون أن يدرك ذلك، يبدأ أرسيني في نهاية اليوم بالاستعجال ويقوم بفعل كل شيء لكي يضمن عند مجيء سيلفستر أن يكون حُرّاً ومتفرِّغاً. وقد لاحظ مرضى أرسيني هذا وحاولوا عدم المجيء في المساء. وفي نهاية المطاف لاحظ أرسيني هذا أيضاً. وفي اليوم الذي اكتشف فيه ذلك، انقبض قلبُه. وظلَّ صامتاً حتى غروب الشمس، وفي المساء لم يحضِّر الرسائل اللاحقة للقراءة التالية.

عندما جاء سيلفستر، تردَّد أرسيني. فنظر إليه الصبي بصمت، ولم يتمكن أرسيني أنْ يحتمل هذه النظرة.

- لنذهب، يا سيلفستر.

لم يتحدَّثا في الطريق. شعر الولد أن هناك بعض التغييرات في روح أرسيني، لكنه خشي أن يسأل. وضعت كسينيا الأكل والشرب على الطاولة. لم يرغب أرسيني بالأكل. لكنه كي لا يسيء إلى كسينيا ويزعجها، تناول الطعام. لم تكن معه رسالة من رسائل كريستوفر ليقرأها، ولم يتسنَّ له الحديث. وعندما ذهب سيلفستر إلى غرفة المدخل، قال أرسيني:

- لا ينبغي لي المجيء إلى هنا، يا كسينيا.

لم تتغير ملامح وجه كسينيا. فقد توقّعت هذه الكلمات وكانت مستعدّة لها. هذه الكلمات آذَتْها.

- أعلم أنك مُخلصٌ لأوستينا، قالت كسينيا، وأنا أحبُّكَ لذلك. لكنَّني لا أبحث عن مكان أوستينا.

- أشعر بالراحة والسعادة معكِ، قال أرسيني. لكنّ أوستينا هي عروستي الأبدية.

- إذا كنت سعيداً معي، فكُنْ أخي. دعنا نعيش أنا وإيّاك في أجواء من الحبّ المثالي. المهم، يا أرسيني، أنْ أراك.

- لا أستطيع العيش معك في حُبٍّ مثالي، لأني ضعيف. اغفِري لي، أرجوكِ.

- الله يغفرُ لك، قالت كسينيا. إنّك وفيٌّ لذكرياتك وتُبدي إخلاصاً وتفانياً عظيماً، لكن اعلمْ، يا أرسيني، أنّك باسم الموتى تدمِّرُ الأحياء.

- القضية وما فيها (قال أرسيني بصوتٍ عالٍ) أنّ أوستينا حيّة، والطفل حَيّ، ويتوقان إلى أنْ يُصلَّى من أجلِهما. من سيصلّي من أجلهما، إنْ لم أكنْ أنا، الآثم؟

- نحنُ. أنا وأنت وسيلفستر، الذي سيكون سعيداً لمشاركة الصلاة معك. ويكون سعيداً لإعادة الطمأنينة إليك. صلاتُه يرضى بها الربّ. سوف نُصلّي ثلاثتنا للربّ كلّ الأيام، من الصباح حتى الليل. ولكن لا تتركنا، أخي، يا أرسيني.

كانت كسينيا شاحبة ولهذا بدتْ جميلة للغاية. شعر أرسيني بغصّة في حلْقه. وفي طريقه للخروج رأى سيلفستر في غرفة المدخل، وبدت نظرته يتيمة. جعلت هذه النظرة أرسيني يجهشُ بالبكاء. غطّى وجهَه بيديه وقفز إلى الشارع. سار على طول سياج الصنوبر وبكى بأعلى صوته. لم يره أحد، لأن الليل قد حلّ في بيلوزيرسك. سمع أهالي بيلوزيرسك بكاءه فقط وتساءلوا مَنْ يا تُرى يمكن أن يكون هذا، لأنَّ صوت أرسيني لمْ يكن مألوفاً لهم من قبل.

وعندما وصل أرسيني إلى المنزل، مسحَ دموعه وقال لأوستينا:

«ترين، يا حبّي، ما يجري. لم أتحدث معك، يا حبّي، منذ أشهر، وليس لديّ أيُّ عُذر. وبدلاً عن التكفير عن خطيئتي الرهيبة، ها أنا عالق فيها كثيراً جداً وكلّ يوم يزيد تعلّقي. كيف يمكنني، يا صبيّتي المسكينة، أنْ أُصلّي من أجلكم إلى الربّ، وأنا نفسي منغمسٌ في الهاوية؟ لو أني سقطت لوحدي، في الحقيقة، ما كنت آسى على نفسي، لكن من سيصلّي من أجلِك ومن أجل الطفل؟ أنا هنا الوحيد الذي يمكن أنْ يصلّي من أجلكم، ولهذا فقط ما زلت لا أشعر باليأس».

هكذا قال أرسيني لأوستينا. وجمع رسائل كريستوفر في كيس، وعرَضَها على أوستينا وأضاف:

«ها هو كيس رسائل كريستوفر، إنه، في الواقع، أكثر الأشياء التي أملكها قيمةً. تمنّيت لو أخذته وذهبت في أرض الله الواسعة هرباً من شهرتي. شهرتي تغلَّبَتْ عليَّ، إنها تعذبني وتمنعني من التحدث إلى الله. تمنيت الرحيل من هنا، يا حبي، لكن أمير هذه المدينة لا يسمح لي، والأهم من ذلك - كسينيا وسيلفستر. سيكون من دواعي سرورهم أن يُصلّيا معي من أجلك ومن أجل الطفل، لكنهما لا يفهمان أنني أنا لوحدي فقط من يستطيع القيام بذلك. أنا الشخص الوحيد الذي ما زلتِ على اتصال به على هذه الأرض، ومن خلالي كأنّكِ ما زلتِ تعيشين. بينما كسينيا تعتقد أني باسم الأموات أدمِّر حياة الأحياء، وتريد أن تصلي

من أجلكِ كما تصلي من أجل الموتى، على الرغم من أنني أعرف أنكِ على قيد الحياة، ولكن تعيشين بطريقة مختلفة».

استغرق أرسيني في أفكاره. وجعل يمسِّد على كيس الرسائل، فأجابتْه الرسائل بحفيف من صحائف لحاء البتولا.

سأذهب، في الحقيقة، إلى بوابة المدينة. إنها في هذا الوقت مُغْلَقَة، لكن إذا كان الأمر هكذا، سيخرجني الملاك من هذه المدينة.

سقطت نظرتُه على معطف الفراء الذي أهداه له الأمير. لم يرتَدِه بعد ولا مرّة واحدة. وعلى الرغم من روعة المعطف، لم يكن ثقيلاً ولا كبيراً. ارتدى أرسيني معطف الفراء ومشى في الغرفة. المعطف أعجبه. فكّر أرسيني أنه بدأ يقدّر راحة الأشياء الثمينة، وشعر من ذلك بعدم الارتياح. ظلّ مرتدياً المعطف لمدة دقيقة، وبعد ذلك قرّر، على كل حال، عدمَ خلْعِه. إذا كان عليه أن يسافر، يمكن أن يكون مثل هذا المعطف مفيداً له. لاحظ على المقعد عند الباب بضعة رسائل أخرى من رسائل كريستوفر. لم يكن يريد فكّ الكيس المعبّأ بشكل جيد. فوضع أرسيني الرسائل في جيب معطفه وغادر المنزل.

في الشارع هبَّت عاصفة. ولأن أرسيني لم يرَ شيئاً في العتمة، فقد شعر بالعاصفة عندما صفعته في خدَّيه. لم تكن ثمَّة أضواء في النوافذ، وكانت هذه علامة جيّدة: فأضواء الليل في حياته مصحوبة دائماً بالمرض والموت. الظلام لم يُعِقْه في السَّير. إذ كان يمكنه السير في الطريق المؤدِّي إلى بوّابة المدينة وهو مُغمَض العينين.

كان المكان المفتوح قربَ البوّابة أكثر إنارة. لاحظ أرسيني حركة في إحدى زوايا الساحة. وبعد تردّد، توجه إلى هناك. ظهر حصان وراكبٌ على خلفية السياج الخشبي المبني قبل مدة قصيرة. لم يعرف أرسيني ما إذا كانت الملائكة تركب الخيل. في مكان قريب كان ثمة حصان آخر.

- مستعدّ؟ (سأله الفارس بهدوء).

- مستعدّ (أجاب أرسيني كذلك بهدوء).

أشار الفارس بصمت إلى الحصان الثاني، فقفز أرسيني إلى السرج. تحرَّك الفارس باتجاه البوابة. تبعه أرسيني. عند البوابة، ترجَّل الفارس وطرق مقصورة الحراسة. فأجابه صوت يشوبه النعاس. دخل الفارس. تناهى إليه من المقصورة صوت حديث خافت مصحوب برنين لنقود معدنية. وبعد دقيقة خرج عدة أشخاص من المقصورة، ومعهم الفارس. أخذ مكانه على السرج مرة أخرى. وضع شخصان المفتاح في القفل وأداراه بقَعْقَعة اجتاحتْ المدينة الصامتة فجأة. وضغط ثلاثة آخرون على البوابة. فانفتحت - مرة أخرى بقرقعة - بالحدّ الكافي بالضبط لمرور الحصان. فاختفى في هذا الشقّ جَوَّالا الليل.

-د-

- الحُرّاس مرتشون (قال رفيق أرسيني، عندما ابتعدا عن البوابة).

- أومأ أرسينى برأسه وقال: لكن لم يرَ أحدٌ ذلك قطّ.

لم يقل صاحبه أي شيء بعد ذلك. وسرعان ما دخلا غابة. هناك فقط صار مفهوماً ما هو الظلام الحقيقي. فتحتَّم عليهما أن يسيرا ببطء، وصارت الخيول تنقل أقدامها باللمس. ضرب غصنٌ مرّةً واحدة وجهَ الغريب، فأطلق شتائم بذيئة. أدرك أرسيني أنَّ مرافقه ليس ملاكاً. وكان، ربما، يشك بذلك من اللحظة الأولى لاجتماعهما.

وبعد ربع ساعة، تبعه الغصن الثاني، الذي ضرب الفارس من السرج. فأخرج ساقه، وهو يسقط، فأصابها. وحاول في هذه اللحظة أن ينهض، فوطئَ على الساق المصابة وسقط على الأرض وهو يتأوّه.

- رجلي... أنهكني السفر، اللعنة.

قفز أرسيني من الحصان واقترب من الرَّجل الذي سقط. وجسّ رِجلَه بعناية.

- لا بأس، إنه مجرد خلع. المهم أنَّ العظم سليم.

وأثناء ما كان أرسيني يتكلّم، توتّر الرجل الغريب. فأحسَّ أرسيني كيف تحركت رجله.

- لا صعوبة في التعامل مع هذه الحالة، قال أرسيني مشجعاً إيّاه.

ومن دون أن يقول كلمة واحدة، أمسك بأرسيني من شعره وجرَّه إليه. فأحسَّ أرسيني بالسكين على رقبته.

- من أنت، صاح الغريب بصوت أجشٍّ.
- أنا؟ أرسيني.
- سأذبحك، أيُّها السافل.
- لماذا، سأله أرسيني.
وبدا السؤال لا معنى له، حتى بالنسبة له نفسه.
- لأنه في مكانك كان يجب أن يكون صاحبي جيلا. (هزّ الغريبُ أرسيني، فحزَّ السكينُ الجلد قليلاً حول رقبته) هل أنت جيلا؟
- كلا، قال أرسيني.
- كيف جئتَ إلى هنا، أيها القذر؟
- أنت نفسك سألتني، إن كنتُ مستعدّاً.
- ماذا؟
- وأنا بالفعل كنتُ مستعداً.
- وا حسرتاه، يا... للهول، سيذبحني جيلا في أوّل لقاءٍ له بي. حسناً، اللعنة، لن تقتصر فعلتي على جلبك معي فحسب بل جلبت معي النقود المشتركة... الآن يجلس ويظن أنني تخليت عنه، هذه هي الحماقة بعينها. ألا ترى هذا، بحق الجحيم!
وهزَّ أرسيني مرة أخرى، ولكن لم يضع السكين على رقبته في هذه المرة.
- وضِّحْ له أنَّ هذا خطأي، قال أرسيني.
- نعم، إنه لا ينتظر إلا توضيحاتي. ماذا تقول، لن يكفي لي الوقت حينها حتى لكي أفتح فمي. لكن قبل ذلك، سأذبحك، حسناً؟
غير أنَّ في هذه الكلمات المريرة، مع ذلك، كان ثمة بعض الراحة. فنغمة الكلام أظهرت إمكانية التوافق مع الظروف. أخذ أرسيني السكين بلطف من رفيقه وأمسك بقدمه. وقام بتعديل ساقه بضربة واحدة جعلته يطلق صرخة قصيرة.

- حذِّرني على الأقل، شكا المريض.

- بدون تحذير، أفضل.

نهض بمساعدة أرسيني، من الأرض وخطى بعناية على قدمه الممدودة:

- يبدو أنَّ الألم صار أخفّ.

- قال أرسيني: اصعدْ على الحصان، ولا تمشِ على قدميك، مؤقَّتاً، بعد الآن. ستشفى تماماً خلال أيام قليلة.

لم يعد الظلام في الغابة حالكاً. لم يطلع الفجر بعدُ، ولكن بانت تباشيره. نظر رفيق الدرب إلى أرسيني باهتمام.

- ربما، الأمر ينبغي أن يكون بهذا الشكل، لكي يبقى جيلا في بيلوزيرسك (قال بتفكير). ربما، هكذا هو الصحيح.

وبعد أنْ أخذ الحصانَين كليهما من اللّجام، بدأ يتقدَّم إلى أعماق الغابة.

- وأنت، هل تسمع، اغرُبْ من هنا أيضاً. لا أشعر بالراحة، أيها الوغد، إلا عندما أكون لوحدي. سأرتاح بعيداً عن الطريق، ثم سأذهب بهدوء في الليل... وأنت، يا أخي، اتركْ لي فقط معطف الفرو، فمعطفك الفرو هذا جيد.

- ماذا؟ (لم يفهم أرسيني).

- اخلع معطف الفرو الخاصّ بك، ويمكنك الذهاب. أنت عالجت ساقي، سأتركك حيّاً. حسناً، ما لك تحملق؟

لمعت في يده السكّين من جديد. خلع أرسيني معطفَه الفرو وسلَّمَه إلى الغريب. فخلع هو قفطانه القصير وألقى به إلى أرسيني وقال:

- هاكَ، ارتَدِه.

لبس معطف الفراء، وجرَّبَه وقال «أليس ضيقاً عند الكتفين». والتفَّ بشكل مضحك أمام أرسيني. وبعد أن فكّر، ذهب إلى الحصان الذي كان يركب عليه أرسيني، ولمدة طويلة ظل يفكّ الكيس الجلدي من السرج.

لم تنفك الأشرطة. قام بتقطيعها بالسكين، فسقط الكيس على الأرض. وبعد أن رفع الكيس، غمز الغريبُ بعينه:

- هذا لي، وهذا لك (ألقى الأَزِمَّة إلى أرسيني). الحصان الثاني لا حاجة لي به. اذهبْ حيثما ترغب الذهاب - حتى وإن إلى بيلوزيرسك. يمكنك النوم في الطريق كي تستعيد قواك. الحصان من بيلوزيرسك، إنه سيحملك في الأحوال كلّها إلى هناك. وانسَ كلَّ شيء عني، أفهمت؟

لم يذهب أرسيني إلى بيلوزيرسك. فقد أُوصِدَت أبواب هذه المدينة خلفَه. وعلمَ أنَّه لن يدخلها بعد الآن. في بيلوزيرسك، كانت أمورُه جيّدة، وهذا هو السبب في هروبه منها. هذه المدينة أبعدَتْه عن أوستينا. أرسيني غادر على الطريق وتوجّه إلى الجانب المعاكس لبيلوزيرسك.

سار في حالة من الاكتئاب. وعلى الرغم من طلب رفيقه السابق في الطريق، لم يستطع أرسيني أن ينساه. ما انزعج أرسيني من الطريقة التي تعامل بها معه رفيقه. ولم ينزعج حتى من حقيقة كون الذي أخرجه من المدينة ليس المَلاك - الذي، في الواقع، كان يحلم به. وشعر أرسيني بالقلق عندما كان يتقدم ببطء باتجاه غير معروف. وهذا القلق على ما يبدو بلا سبب، ولكن مع كل دقيقة يصبح من الواضح أنه يدور حول الرجل الذي تركه. عرف أرسيني أنه لا يستطيع العودة إليه، لأن ذلك الرجل قد طرده. ولأنه لوحده هناك يشعر بالسكينة والهدوء.

وبعد أن سار أرسيني ساعة أخرى تقريباً، تذكر أنَّ في معطف الفرو بقيت عدة رسائل من كتابات كريستوفر - تلك التي وضعها هو في اللحظة الأخيرة. شعر بالأسف على الرسائل: إنها من غير المعقول أن تكون ذات فائدة وقيمة للمالك الجديد لمعطف الفرو. وبإمكانه أن يستعيدها. أدرك أرسيني أنه صار لديه عذر لرؤية رفيقه مرة أخرى. وحوَّلَ حصانه. عاد، وازداد قلقه.

وفي المكان الذي يجب أن يهبط فيه من الطريق، ترجَّل أرسيني. ربط الحصان إلى شجرة واتجه إلى الغابة. لاحظ من بعيد خلف الأشجار

العارية ثمة حركة. وبين حصانين يقفان هناك، سار رجل يرتدي معطف الفرو خاصَّتَه، لكن أرسيني عرف أنه ليس الشخص الذي سار معه في الليل. عرف أنه جيلا، على الرغم من أنه لمْ يلتقِ به. كان جيلا يمسك في يده اليسرى هراوة. ربما كان أعْسَرَ. وبعد أن قام ببضع خطوات أخرى، رأى أرسيني رفيقه.

كان الرجل مستلقياً على الأرض خلف أحد الخيول، ووضعية رقوده غير طبيعية. وجهه مستدير إلى الأعلى، ويضع إحدى يديه لسبب ما خلف ظهره، ورِجلاهُ تبحثان بتشنَّج في الأرض. أحدُ عقبي قدمَيه حفرَ ميزاباً ضحلاً محاطاً بإبرِ الصنوبر. اتَّجَهتْ عيناه بنظرةٍ شاردة صوب أرسيني، وفيهما قرأ أرسيني دون صعوبة ما ينتظره هذا الرجل.

من دون أن يعير انتباهاً إلى جيلا، انحنى أرسيني على الرجل المحتضر. فلمْ يتحرّك الرجل. فكَّر جيلا وهوى بالهراوة على رأس أرسيني.

-ذ-

كان في الغابة شبه ظلام. وكان من الصعب معرفة ما إذا كان غروب أم فجر. وعندما أضاء الجو قليلاً، أصبح واضحاً أنّه الفجر. وبعد أنْ جمع أرسيني قوَّتَه تمكَّن من رفع رأسه عن المادة الصلبة التي تمدَّد عليها. تلك المادة هي جسد رفيقه. كانت باردة مثل الأرض.

«بينما أنا أشعر بالدفء» (قال أرسيني لأوستينا) «أنا، من يقع عليه اللوم في موته. متدفِّئٌ وحيٌّ؛ الآن أُنقِذتُ من أجلك وحدَك، لكنَّه، مثلك، في ضميري. أنا قتلتُه بكلمة قُلتُها. لو لم أقلْ له أنني مستعد، لما رقد هنا بارد الجثَّة». وتذكَّر أرسيني العظيمَ الذي ندم مراراً وتكراراً على الكلمات التي نطق بها فمُه، لكنه لم يندم أبداً على الصمت - «لا أريد التحدث مع أي شخص آخر من الآن فصاعداً، إلا معكِ، يا حبّي».

تمسّك أرسيني بشجرة، ونهض على قدميه. الخيول ذهبت. من الواضح أن جيلا أخذها معه. مشى أرسينى ببطء متثاقلاً باتجاه الطريق. فوجد الحصان الذي ربطه ما زال في مكانه. فحلَّ وثاقه، وبعد أن تشبَّث بعُرفه، حتى لا يسقط، قادَه إلى أعماق الغابة. كان يتأرجح من جانب إلى آخر.

عندما وصل إلى الجثّة، جلس أرسيني يستريح. وبعد أن استجمع قوَّته، سحب القتيل إلى الفرس وحاول أن يضعه علي السرج. انزلقت جثة القتيل المتيبسة عدة مرات. وسقطت على الأرض بصوت متصلّب خافت. استطاع أرسيني بجهد أن يلقي بيديه على السرج، وبكل قوته

استند برأسه على رجليّ القتيل ودفع جسده إلى الأعلى. تمايل القتيل على السرج في توازنٍ غير مكترث، ونظرة عينيه المفتوحتين كانت تعبِّر كذلك عن عدم الاكتراث. كان منظره منظرَ مَن يريد أن يُترَكَ بسلام لوحده.

تمكن أرسيني من أنْ يدير وجهَ المُتوفَّى إلى الأمام وأجلسه على السرج. لم يجد أرسيني أي شيء لربطه بالفرس، فبحث في حذاء المتوفى. وجد في إحدى الفردتين السكّين الذي هدّده به بالأمس. نزع أرسيني القفطان الذي أعطاه إياه وجعل يقطِّعه إلى شرائط. ربطها ببعضها البعض، فحصل على حبل طويل بما فيه الكفاية. وبهذا الحبل ربط رِجلَي الميت على السرج.

قاد أرسيني الحصان إلى الطريق.

«قال إنك من بيلوزيرسك. احملْه إذاً إلى المدينة، وسيوارونَه الثَّرى هناك».

ظلَّ الحصان ينظر إلى أرسيني ولم يتزحزح من مكانه.

قال أرسيني أنا لن أركب. هو بحاجة إليك أكثر مني. وصفَعَ الحصانَ صفعةً خفيفة على الرِّدف.

تحرّك الحصان وذهب باتجاه مدينة بيلوزيرسك. وعلى ظهره خيّالٌ مَيْتٌ مستندٌ على عُرفه. نظر إليهما أرسيني، حتى ابتعدا وبانا كالخيال. وتحوّلا إلى دائرة واحدة كبيرة، ثم تحلَّلت إلى دوائر صغيرة. عامت تلك الدوائر من دون أن تصطدم بعضها ببعض. وعندما كانت تلتقي، يدخل بعضها ببعض. تقيّأ أرسيني. ولمْ تعُد قَدماهُ قادرتان على حمله.

....

....

....

فكَّروا: إنّه ميّت، لأنه لا يبدو حياً.

بعد عشرة أيام، وصل جيلا إلى نوفغورود. كان راكباً على حصانٍ، والحصان الثاني من دون خيّال يسير خبَباً. وقد طقطقت على الأرض المتجمّدة أربعة أزواج من الحوافر بصوت عالٍ جداً. سار ببطء، لأنه لم يكن ثمة مكان يُسرع للوصول إليه. وبعد أن دسَّ جيلا يده في جيب معطف الفرو، أخرج رسائل كريستوفر. قرأها وحرَّك شفتيه.

«يقول داوود: موت الخاطئين عنيف. ويقول سليمان: لِيَمْدَحْكَ الْغَرِيبُ لاَ فَمُكَ، الأَجْنَبِيُّ لاَ شَفَتَاكَ... سأل كيريك المطران نيفونت: هل يمكن تأدية الصلاة على وعاء طينيّ نجس، أو فقط على وعاء خشبي، والأوعية الباقية يجب أنْ تُكسر؟ فأجاب نيفونت - كما على وعاء الخشب، يمكن على وعاء الطين، وكذلك على وعاء النحاس والزجاج والفضّة، يمكن أداءُ الصّلاة عليها كلّها. أيُّ شخصٍ يحمل الفضيلة لا بدَّ أنْ يكون له أعداء. لا تجلبُ الثروةُ صديقاً، بل الصَّديقُ يجلبُ الثروة. تذكَّرْ الأصدقاء الغائبين أمام الأصدقاء الحاضرين، حتى يعلموا، عندما يسمعون ذلك، أنك لا تنساهم».

جميع أصدقاء جيلا كانوا غائبين، فكان عليه أن يتذكرهم لوحده.

-ر-

«فتَحَ عينَيه»، قال الواقفون أمام أرسيني.

وأدرك هو أنه فتح عينيه. تراءت له تقاطعات الأغصان التي تكلَّلت عليه وكأنها حلم. ظهر أمامه وجه شخصٍ. كان الوجه كبيراً لدرجة أنه غَطَّى القُبَّة المُذهلة التي عامت فوقه. رأى أرسيني كلَّ تجاعيد الوجه واللّحية التي أطَّرت الوجه. بدأ فمٌ في اللحية يتحرك وقال:

- ما اسمك؟

«هكذا تتكوّن الأصوات»، فكَّر أرسيني.

- ما اسمك؟ (سأل الفمُ من جديد لافظاً الكلمات متفرقةً، وكأنه لا يثق بسمع الراقد).

- أوستين (قال أرسيني بصوت ضعيف بالكاد يُسمَع).

- أوستين (تحوَّل الوجهُ باتجاه شخصٍ ما: «اسمه هو أوستين»). ما الأمر، يا أوستين؟

تعب أرسيني من النظر إلى الوجه وأغمَض عينيه. وأحسَّ جسدَه كلّه بالقشّ الناعم. تلمَّس بيده المتن الخشبي للعربة.

- اتركْهُ (قال صوت آخر)، سننقُله إلى أقرب قرية، دعْهم هناك يتولّون الأمر.

فتح أرسيني عينيه مرة أخرى، ولكن لم يعدْ يشعر بأيٍّ اهتزاز للعربة. الجوُّ بارد. شعر أنَّه يرقد على شيءٍ صُلب، شيء يشبه الحطب. سحب

من تحته قرمة من الخشب ونظر إليها طويلاً. انساب الضوء من خلال الباب المفتوح قليلاً. ضوءٌ وصريرٌ. إنها سقيفة لتخزين الحطب.

وبعد أن نهض أرسيني مستنداً على كوعه، رأى أنه عارٍ تماماً. وبجانبه كيسه وبعض الأسمال. وبعد تردُّد، مدَّ أرسيني يده إلى الأسمال وفكّها على الفور. شعر بالاشمئزاز. نفر من الأسمال ليس بسبب وساختها فحسب. فهو لم يحتمل فكرة أنها، ربما، كان يرتديها الشخص الذي جرَّده من ملابسه. ذلك الذي لم يأخذ كيس رسائل كريستوفر - وهذا الأمر مؤسف بحد ذاته. وبعد أنْ تغلَّب على التقزز، مدَّ أرسيني يده إلى الأسمال، التي تبيَّن أنها قميص وسروال وحزام.

لم يكن أرسيني بحاجة إلى الملابس فحسب، بل إلى حذاءٍ أيضاً، لأن حذاءه أُخِذ منه كذلك. بعد بعض التردُّد، نزعَ اللّحاء من قرمتَي شجرة بتولا وقاس قطعتين على قدميه. وبالاستعانة بأسنانه، أعطى اللحاء الشكل المطلوب. ومن ثم سحب الحزام من الخِرَق وحكَّه بعضادة الباب. وبعدما انقطع الحزام القديم بالحكّ إلى قسمين، ربط بهما أرسيني اللّحاء إلى قدميه. وأخذ يتلهّى بلبس الحذاء الذي صنعه من اللحاء لكي يؤخِّر لحظة ارتداء الملابس. وعلى الرغم من كونه يرتجف، تردَّد في ارتدائها.

لكن كان من المستحيل الخروج عارياً من السقيفة. أخذ أرسيني ما كان ذات مرّة قميصاً، ووضعه على صدره. بعد تردُّد، وضع يديه في أكمامه ورأسه في الحفرة - الياقة كانت مخلوعة. تهدَّل القميص على جسمه كخرقة عديمة الشكل. وقد أنعشت البقع فيه انعدام اللون.

أصعب شيء هو السروال. بدا أكثر سلامة بقليل من القميص، لكن هذا جعله أسوأ. فبعد أن ارتداه أرسيني فكَّر أنَّ هذه الخرقة قد لامست الأعضاء التناسلية للِّص. تخَيَّل أرسيني سرواله بمثابة مقاربة جسدية معه، فارتجف من الاشمئزاز. إنَّ ما أغمَّه في السرقة، ليس فقدانه ملابسه، بل اضطراره لارتداء ملابس شخص غريب. خاف أرسني من أنه من الآن

فصاعداً سيشمئزُّ من جسده، وأجهش بالبكاء. وفي الوقت نفسه عندما خطر على بال أرسيني، أنّه من الآن فصاعداً سيشمئزُّ من جسده، ضحك.

خرج أرسيني من الحظيرة بمعنويات عالية. سار بضع خطوات في ملابسه الجديدة، ثم قال لأوستينا:

«تعرفين، يا حبّي، منذ وصولي إلى بيلوزيرسك، هذه، في الواقع، الخطوات الأولى لي في الاتجاه الصحيح».

تقع السقيفة في طرف القرية. ذهب أرسيني إلى أقرب كوخ وطرق الباب. كان يسكن في الكوخ أندريه سوروكا مع عائلته.

- مَن أنت، سأل سوروكا أرسيني.

- أوستين، أجاب أرسيني.

- يا أوستين، انتظر حتى يحينَ وقتُ التعميد، قال سوروكا وضحك ضحكة عاليةً وأغلقَ الباب.

ثم طرق أرسيني باب تيموفي كوتشا. تفحَّص تيموفي أرسيني وقال:

- ستنقل لي قمْلَكَ، لأنه في وضعك لا بدَّ أنْ يكون القملُ، أو البراغيث. فمنها لديك، على ما أعتقد، كيسٌ كامل.

ما كانت في الكيس إلا رسائل كريستوفر، لكن أرسيني لم يفتحْه أمام تيموفي.

الكوخ التالي كان كوخ إيفان سوخوبوك. ولأن إيفان تذكّر كرم الضيافة عند إبراهيم، لم يرغب في طرد الجوّال. لكنه في الوقت نفسه ما رغب بالسماح له بدخول المنزل. أخذه إلى الطرف الآخر من القرية إلى الجدة يفدوكيا، التي لا تخشى القمل أو البراغيث أو الغرباء.

عندما دخلا، كانت يفدوكيا تمضغ فتات الخبز. لم تكن لديها أسنان، فمضغت الفتات بلثّتِها، ولهذا تحرَّكَ وجهُها بالكامل. كان ببساطة يهتزّ اهتزازاً شديداً، ينطوي وينفتح، كأنّه محفظةُ نقودٍ جلديَّة قديمة.

قال إيفان وهو يتطلَّع بوجهِ يفدوكيا:

- إنّه ضيف لك، يا جدّة، ولا نعرف عنه، إلا أنه أوستين. وهذه، بطبيعتها، معلومةٌ على الأقل.

- أعتبرُ أنَّ هذا يكفي (وأومأت يفدوكيا برأسها).

اقتطعت نصفاً من لُبِّ الرغيف وناولَتْه لأرسيني:

- كُلْ، يا أوستين.

نظر إيفان ويفدوكيا إلى أرسيني كيف يأكل.

- جائع (قال إيفان).

حقيقةً جائع (أكَّدت يفدوكيا). دعْهُ يبقى.

ما إن تدفّأ أرسيني حتى شعر بحكّة في رأسه. كانت الملابس التي يرتديها مليئة بالقَمْل. انتعشَ القمل في الدفء وبدأ في الزحف على شعر أرسيني. كان يجلس، ويشعر بحركة القمل على رقبته - من الأسفل إلى الأعلى. عرف أرسيني أنه من الصعب إزالة القمل، وشعَر بالأسى لـيفدوكيا. لم يكن يريد زيادة الصعوبات في حياتها. فقرَّر أنه لا ينبغي له أن يبقى هنا. فنهض أرسيني وانحنى احتراماً ليفدوكيا. واصلت يفدوكيا مضغَ الخبز. خرج من الدار وأغلقَ الباب خلفَه.

لفح البردُ أرسيني. كان لا يزال يمسك بحلقة الباب. انتابته الرغبة في جذبه والعودة إلى الكوخ الدافئ. ولكن بعد أنْ نزل من الشرفة، أدركَ أنَّه لن يعود. تكثَّف الغسقُ المُبكر. سار أرسيني، وهو يقاسي من البرد والخوف. إنه نفسه لم يفهم لماذا خرج من الدفء. فهو يعرف أنْ ليس في انتظاره إلا طريق صعب - إذا كان بالإمكان اجتيازه - وهو لا يعرف أين تكمن هذا الطريق.

سار أرسيني في طريق الغابة، الذي أصبح أكثر ظلاماً. سار، كأنما على رِجلينِ خشبِيَّتَين، لأنَّ ساقيه لم تنحنيا من البرد. ثم بدأ الثلج يهطل. كان هذا هو أول تساقط للثلوج في السنة، إذ حامت نُدَف الثلج بتردّد. في البداية، ظهرت نُدَفٌ منفصلة، قليلة، ولكنها كبيرة. ويبدو من مظهرها

الرقيق أنَّ الجو أصبح أكثر دفئاً قليلاً. تزايد هطل الثلج كثيراً حتى تحوَّل إلى جدار متراصٍّ لعاصفة ثلجية. وعندما انتهت العاصفة الثلجية، ظهر القمر وأصبح الفضاء منيراً. وبات الطريق مرئيّاً في كل منعطف من انعطافاته.

مع ظهور القمر، بدا الصقيع يشتد. ظنّ أرسيني أنه كان القمر نفسه الذي يبعث هذا البرد الفضِّي الذي ينتشر في الأرض. شعر بالأسى لجسمه المرتعش من البرد، لكنه تذكر أن جسده تدنَّس بملابس شخص آخر وبقمْلِهِ، ففارقه أساه. فهو لم يعد جسده. إنه يعود إلى القمل، وإلى الشخص الغريب الذي ارتدى ملابسه من قبل، وأخيراً، إلى الصقيع. لكن ليس له.

«يبدو أنِّي في جسم غريب»، فكَّر أرسيني.

«بكُلِّ أساكَ لألمِ جسمِ شخصٍ آخر، لا يمكنك أنْ تشعرَ به كما تشعر بألم جسمك»؛ وقد أدرك أرسيني ذلك عندما كان يساعد الأجساد العاجزة للناس الآخرين. وحتى عندما كان يتقمَّص ألم الآخرين من أجل تخفيفه، فإنه لم يستطع أبداً إدراك عمقه كلّه. والآن المسألة تتعلّق بجسدٍ لم يتعاطف معه على أقلّ تقدير، جسدٍ يكنُّ له الكثيرَ من الاحتقار.

لم يعد أرسيني يشعر بالبرد، لأنه لا يمكن أن يشعر بالبرد مَن يعيش في جسم شخص آخر. وعلى العكس من ذلك، شعر بوضوح كيف أنَّ (ليس) جسده امتلأ بالقوّة، وبات يتحرّك بثقة نحو الفجر. كان مندهشاً من مدى صلابة خطوته ومن اتساع حركة يديه. ارتفعت موجات الدفء من مكان ما في الأسفل وصبَّت في رأسه. لم يلاحظ أرسيني حتى كيف سقط على الأرض، وكيف توقفت حركته التي لا تكلّ.

....

....

....

-ز-

....

....

....

«هل أريد»، فكَّر أرسيني، أنْ أنسى كل شيء ومن الآن فصاعداً كأنَّ كلَّ شيء لم يحدث، كما لو أني أتيت للحياة للتو - لكني ما أتيت صغيراً، بل وكأنّي أتيت كبيراً في الحال؟ أو حتى: أن أتذكر من التجربة التي عشتها الجيِّد فقط، لأن الذاكرة تميل إلى التخلّص مما هو مؤلم؟ فذاكرتي من حين إلى آخر تتركني، وإذا بها فجأة تغادرني إلى الأبد. ولكن هل سيكون تخلصي من الذاكرة هو غفران وخلاص لي؟ أعلم أنه لا، وحتى أني لا أطرح هذا السؤال. فبعد كل شيء، كيف يمكن أن يكون خلاصي من دون خلاص أوستينا، التي كانت السعادة الرئيسة والمعاناة الرئيسة في حياتي؟ لذلك أصلي لك، يا رب: لا تأخذ ذاكرتي منّي، التي فيها أمل أوستينا. وإذا ما دعوتني إليك، كنْ رحيماً معي: لا تحكم عليها وفق أعمالنا، بل وفق أملي في خلاصها. وهذا الخير القليل، الذي هو من صُنعك، اكتبْه لها.

....

....

....

لسان البقرة ناعم وهي لا تتقزَّز من المقمِّل. وملاطفتها الخشنة يمكن

أن تعوِّض جزئياً عن دفء حنان البشر. فالإنسان يصعب عليه أن يعتني بالمقمِّل والنتِن. فالذي يعوْدُ المريضَ يمكن أن يضع إلى جانبه رغيفاً من الخبز أو كوزاً من الماء، ولكن في العناية الحقيقية من دون اشمئزاز، يمكن الاعتماد على البقرة فقط. سرعان ما اعتادت البقرة على أرسيني وعدَّته صاحبها. وأزالت بلسانها الطويل من شعره جلطات الدم والقيح الجافة.

راقب أرسني لساعات تأرجح ضرعها وأحيانا كان يهوي عليه بشفتيه. (البقرة: ما لك وضرعي؟) ما كانت ضدَّ ذلك، على الرغم من أنَّ ما يهمها فحسب هو حلب الصباح والمساء. إذ لم تجلب لها الراحة الحقيقية إلا أيدي صاحبة المنزل. كانت فيهما قوة، على عكس شفتَيَ أرسيني. إنها الرغبة في حلب اللبن كله من دون أن تترك منه شيئاً وجمعه في الدلو المصنوع من لحاء شجر البتولا. كان الحليب يدرّ من الضرع مطلِقاً صوتَ خرير صاخبٍ - في البداية رقيق، كأنه صرير، ولكن مع امتلاء الدلو يصبح أكثر وفرة ومدىً. بعض الحليب كان يسيل على أصابع صاحبة المنزل. ولأن أرسيني يراقب الأصابع مرتين في اليوم، تذكَّرها بشكل أفضل مما تذكَّر وجه صاحبة المنزل. كان يعرف كيف يبدو كل إصبعٍ منفرداً، لكنه لم يشعر أبداً بلمستها.

أحياناً تقف البقرة متسمّرةً في مكانها، بالكاد ترفع ذيلها قليلاً (فيهتزّ)، وتحت طرف الذيل على أرضية الحضيرة انطرحت أقراص دافئة. ومن حين إلى حين تطرطش هذه الأقراص في جميع الاتجاهات في مسيل ضيق. وعندما تسقط على وجه أرسيني قطراتٌ منها، يمسحُها بقبضةٍ مِنَ القشّ.

....

....

....

شُفِيَ الجرح على رأسه تقريباً، ولكن ظهرت عنده نوبات من

الصداع. الألم لم يأتِ من الجرح، ولكن من مكان ما في أعماق الرأس. تصوَّر أرسيني أنَّ ثمَّة دودة لديه هناك، وأنَّ حركتها سبّبتْ له ذلك الألم الذي يصعب تحمّله. أثناء النوبة، كان يمسك رأسه بيديه أو يضع وجهه على ركبتيه. ويفرك رأسه بشدة، فيحل الألم الخارجي بطرفة عين محل الألم الداخلي. لكن الألم الداخلي، كما لو كان يستريح، سرعان ما يعود بقوة متجددة. انتابت أرسيني رغبة بأن يشطر جمجمته إلى شطرين، وأن ينفُض منه الدودة ومُخَّه معاً. وصار يضرب نفسه على جبهته وعلى يافوخه، لكن الدودة في الداخل عرفت تماماً أنه لا يستطيع الوصول إليها. إنَّ مناعة الدودة جعلتها تتعجرف فدفعتْ أرسيني إلى الجنون.

....

....

....

سألوا أرسيني ما اسمه، لكنه ظل صامتاً. واندهش عندما لم يجد البقرة إلى جانبه.

«وأين هي البقرة»، سأل أرسيني أقرب الحاضرين. «كانت بالنسبة لي رفيقاً رائعاً وأبدت لي الرأفة والإحسان».

لم يجبه أحد، لأنَ الذين بدوا له حاضرين قد غابوا. وإنَّ أقربهم إلى أرسيني - وهو صغير ومحدودب وأغبر اللون - عند تدقيق النظر تبين له أنه مقبض محراث. والباقون كذلك كانوا محدودبين وهزيلين. مشابك ذات أحجام كبيرة (على أي منها تريد الركوب؟). عربات زلّاجة للسير على الثلج. عرائش وعواتق للعربات. وكان المكان مختلفاً على الإطلاق.

حسناً، قال أرسيني، بعد أن تلمَّس عجلة العربة تحته. جيد أن الوقت يمر، وأنا مستلقٍ على عجلة إحدى العربات، ولا أفكر في المهمة الفائقة لوجودي.

نهض أرسيني بصعوبة، وسار يترنَّح إلى أن خرج من الباب. فشاهد

أمامه سقوف أكواخ القرية المجهولة كأنها قبعات منفوشة. يتصاعد الدخان من كل كوخ فيها في سكون تام. اعتقد أرسيني أنَّ جميع الأكواخ مثبَّتَة بشكل موحَّد بالسماء بوساطة دخانها. إذ إنَّ خيوط التثبيتِ بعد أن فقدت الحركةَ التي هي من خصائص الدخان، اكتسبت قوة غير عادية. وفي الأماكن التي كانت فيها البيوت أقصر بقليل من اللازم، ارتفعت عدة قامات. وفي بعض الأحيان كانت تتمايل. كان في هذا شيء غير طبيعي، لهذا شعر أرسيني بالدوار. وبعد أن تمسَّك بعضادة الباب قال أرسيني:

إنَّ ربط السماء بالأرض ليس بهذه البساطة، التي، على ما يظهر، اعتاد فيها الناس على التفكير في هذه القرية. وإنَّ مثل هذه النظرة للأمور تبدو لي ميكانيكية إلى حدٍّ بعيد.

سار أرسيني مبتعداً عن القرية، ورجلاه تطلقان صريراً على الثلج الساقط للتو. وبعد مدة قليلة من الزمن جذب هذا الصوت انتباهه، فتفحَّص قدميه اللتين تُطلقان هذا الصرير: لاحظَ أنهما في حذاء طويل من اللباد.

قبل ذلك كانتا تنتعلان لحاء البتولا، تذكّر أرسيني. هكذا هي التحوّلات.

وأحسَّ على ظهره يتدلَّى كيسُ رسائل كريستوفر.

-س-

سار أرسيني من قرية إلى أخرى، ولم تتركه ذاكرتُه أبداً. رأسُه يؤلمه أقلَّ من ذي قبل، وفي بعض الأحيان لا يؤلمه على الإطلاق. أجاب أرسيني على أيّ أسئلة أنّه أوستين، لأنَّ هذا بالذات بدا له ضرورياً في هذه اللّحظة. ومع ذلك، كان من الواضح للجميع أيّ صنف من الناس هو وكيف يمكن مساعدته. لم يعد أرسيني نفسه أرسيني السابق. فخلال تجواله، حصل على الشكل الذي لا يتطلب أيّ تفسير. ومن دون أن يقول شيئاً، كان يُعطى مكاناً في السقيفة (الحظيرة)، أو لا يُعطى. وكان الناس يجلبون له من الأكواخ الدافئة قطعة من الخبز - أو لا يجلبون. في أكثر الأحيان كانوا يجلبون له الخبز. وأدرك أنَّ الحياة دون كلام ممكنة.

لم يعرف أرسيني في أيِّ اتجاه كان يتحرَّك - وبشكل عام كان يتحرَّك في اتجاهٍ واحد. إذ إنّه، بالمعنى الدقيق للكلمة، لم يكن بحاجة للاتّجاه، لأنه لم يكن يسعى إلى أي مكان. كما أنه لم يعرف كم من الوقت مضى عليه منذ أنْ غادر بيلوزيرسك. واستناداً إلى تضاؤل حدّة الصقيع، أدركَ أنَّ فصل الربيع يقترب. ومع ذلك، لم يشكِّل هذا بالنسبة إليه قلقاً معيَّناً. ولأنَّ أرسيني حسِبَ أنه في جسم شخص غريب، فقد اعتاد على الصقيع. فعندما أُهدِيَ في قرية الحمراء قفطاناً رثاً لكنه دافئ، لم يعد متأكِّداً من أنه بحاجة إلى هذا الشيء. فترك القفطان في أحد الأكواخ في قرية الصعود، بعد أن قال لأوستينا:

- إنكِ تعرفين أنَّ مع كلِّ هذه الأشياء غير المرغوب فيها لا يمكننا

أنْ نرتقي ونصعد مع المخلِّص الصاعد إلى السماء. فالإنسان، يا حُبّي، لديه الكثير من الممتلكات والمتعلِّقات غير الضرورية التي تجرُّه نحو الأسفل. وإذا كنتِ قلقةً على صحَّتي، فيسعدني أنْ أقولَ لكِ، أنَّه بالفعل قد دنا أوان الربيع الدافئ – وإن كان ما يزال بارداً.

لقد أدرك أرسيني قدوم الربيع بشكل لا لبس فيه، عندما كان يتنقل على الطرق التي غدت رخوة، ولكنها لا زالت جامدة. وتذكّر البهجة التي عاشها في حياته الماضية عند تبدّل الجوّ، وعندما كانت أشعة الشمس تسقط بقوّة ويشعر هو بها لمّا تقع على وجهه.

وذات مرّة رأى وجهَهُ في بركة من برك الربيع وبكى. إذْ لم يعد لشعره الأشعث الكثّ لون. وزحفت كالشّوك لحيتُه من خدَّيه الغائرين. إنها حتَّى لم تكن لِحية، بل زغباً منتفخاً، يلتصق أحياناً بالجلد، وأحياناً يتدلّى كرقائق الثلج المدلّاة. لم يبكِ أرسيني على نفسه، بل بكى على الزمن الذي مضى عنه. لقد فهم أنّه لنْ يعود. وحتى أنَّ أرسيني لم يكن على يقين من أنَّ الأرض التي عاش فيها خلال فصول الربيع الماضية، لا تزال موجودة إلى الآن. وهي، مع ذلك، تقع في المكان نفسه.

وصل أرسيني إلى مدينة بسكوف وهو يبكي. كانت هذه أكبر المدن التي شاهدها، وأجملها. لم يعرف أرسيني اسم المدينة، لأنه لم يسأل أحداً أيَّ شيء. وأهل بسكوف بوصفهم سكان مدينة كبيرة أيضاً لم يسألوا أرسيني أيَّ شيء، وهذا ما أسعدَ أرسيني. واعتقد أنه يمكنه هنا أنْ يتخفَّى.

سار على طول سور الكرملين (القلعة) واندهش من قوَّته. خلف هذا الجدار، فكَّر أرسيني، يمكن، على ما يبدو، العيش بسلام واطمئنان. فمن الصعب توقُّع أنْ يتغلَّب العدوُّ الخارجي على سور الكرملين. ولا أتصوَّر وجود سلالم نقَّالة يكفي حجمها لتسلّق هذه الجدران. أو، على سبيل المثال، آلات قادرة على اختراق هذا السُّمْك. لكن (أرسيني ألقى برأسه إلى الوراء، وبدا له أنَّ الجدار بدأ ينحني ببطء إليه)، حتى هذا الجدار لا

يلغي خطر العدوّ الداخلي، إذا ما تحرَّك من خلف هذا الجدار. آنذاك، يمكن القول، يحدث الأسوأ: هذه حقاً كارثة.

قاد السورُ أرسيني إلى النهر العظيم. ما زالت تطفو عليه كتلٌ منفصلة من الجليد، ولكن النهر بأكمله كان خالياً من الجليد. وعلى الشاطئ، جمع العاملون الناسَ على العبّارات. شعر أرسيني أنَّ لديه الرغبة في العبور إلى الشاطئ المقابل، وركب أيضاً على مَتْن العبَّارة.

- هل دفعتَ أجرة النقل؟ (سأل أحدُ العاملين على العبارة أرسيني).

- أرسيني لم يُجِبْ.

- لا تسألْه عن المال (قال بعض الناس للمَراكبِيّ) لأن مَن يقف أمامك مِن أهل الله، ألا ترى؟

- أرى (أكَّدَ المراكبِيُّ)، ولكني سألت هكذا، على كل حال.

- اتَّكأَ بالعصى على الشاطئ، وأبحرتْ العبَّارة، وهي تطحنُ الرِّمال في القاع، مبتعدةً. وعند منتصف النهر، رفع أرسيني رأسَه. ومن خلف جدار الكرملين، بدتْ قببٌ لم تُرَ من قبل. جعلت أشعةُ الشمسِ طلاءَها الذهبي يبدو مزدوجاً. وعندما ضرب الجرسُ الرئيسُ، أصبح واضحاً أنَّه يصدح من الماء، لأنَّ القباب على الماء كانت أكثر حيويَّةً من القباب في السماء. عكَسَ ارتعاشُها الطفيف قوَّة الصوت الناتج.

- بعد أنْ غادر أرسيني العبَّارة، ظلَّ يتطلَّع طويلاً بالمنظر المتجلِّي أمامَه.

- «إنكِ تعرفين، يا حُبّي، أنَّ نفسي أقلعتْ عن كلِّ ما هو جميلٌ في الحياة، قال لأوستينا. وإذا بالجمال ينكشف أمامي على نحو غير متوقَّع عند عبور النهر، بشكل لا أجد الكلمات التي أصفُه فيها. وها أنا ذا في أحد جوانب النهر - أقف غارقاً في القيح والقمل، وفي الجانب الآخر هذا الجمال. ويسعدني أنْ أؤكِّد عظمةَ الجمال بمظهري البائس هذا، وكأنني بهذه الطريقة أشارك في خلقه».

– عندما حلَّ الظلام، كان أرسيني يتسكع على الشاطئ. وفي نهاية المطاف وصل إلى السور. سار على طول الجدار ولاحظَ وجودَ شقٍّ ضيِّقٍ فيه. كان الظلامُ فيه أكثر عتمةً من الظلام المحيط به. جسَّ أرسيني حافَّات الشقّ، ثم تسلَّقَ إليه. أضاءت بوهنٍ بعضُ القناديل أمامَه. وعلى ضوئها الخافت بانتْ ملامحُ صُلبان. كانت تلك مقبرة. يا له من مكان جميل، فكَّر أرسيني. الأفضل عدم التفكير في الأمر. بالضبط هذا هو المطلوب في الوقت الحالي. وبعد أنْ أخذ أحدَ المصابيح، دفّأ يديه عليه. سَرَتْ الحرارةُ في بدنه كله. وضع أرسيني كيسَه تحت رأسه ونام. وفي المنام، كان يرتعشُ أحياناً، وآنذاك كانت رسائل كريستوفر تخشخش تحت خَدِّه.

-ش-

- أيقظَه تغريدُ الطيور. كان تغريداً ربيعيّاً حقيقيّاً، على الرغم من أنَّ حلول الربيع لم يكن واضحاً بعد. فالثلج ما زال على بعض القبور. ساهمت الطيور في ذوبان الثلوج. فعلى وقع تغريدها، تحول الثلج إلى ماء وتسلَّلَ إلى الموتى، مما جلب لهم أخباراً سارّة عن الربيع. حلَّ الربيع في بسكوف في وقت سبق حلوله في بيلوزيرسك. ولهذا أهل بيلوزيرسك دائماً ما عدّوا أهل بسكوف جنوبيِّين. وما زالوا يعدّونهم هكذا حتى يومنا هذا.

- وكانت المقبرة، التي قضى فيها أرسيني ليلتَه، مقبرةً للرهبان. لقد فهم هذا عندما رأى راهبات يسِرْنَ عبر المقبرة. وعندما سألتْه الأخواتُ عن اسمه ومَن يكون، ادَّعى أرسيني، كالعادة، أنَّ اسمه أوستين. وبالطبع، لم يقل لهم أكثر من ذلك. أخبرنه الأخوات أنه موجود على أرض دير مار يوحنا المعمدان للراهبات. لم يكنَّ متأكدات من أنَّ أرسيني قد فهمهنَّ. وبعد أنْ تشاورن، أحضرن لأرسيني وعاءً من حساء السمك. وبعدما أكل أرسيني الحساء، أخذنَه من يده وقُدْنَه خارج السياج.

- تجول أرسيني طوال اليوم على ضفاف النهر العظيم. وبعدما رأى العبّارة تقترب، قرَّر عبورَ النهر في الاتجاه المعاكس. وفي هذه المرَّة لم يطلب المراكبيُّ المالَ منه. وقال:

- اسبح، إذا تريد، يا عبد الله. وإنْ كانت زيارتك، بالنسبة إليَّ، خير.

- على هذا الشاطئ التقى أرسيني بفوما المجذوب الأبله.

- نعم (صرخ فوما)، أرى أنك مجذوبٌ حقيقي. نعم، حقيقي. فأنا، يا صاحبي، لديَّ فطنة من الدرجة الأولى في هذا المجال. ولكن هل تعرف، يا صديقي، أنّ كل جزء من أرض بسكوف مدفون فيه مجذوب أبله؟

- ظلَّ أرسيني صامتاً. ثم أمسكه فوما المجذوب من يده وجرَّه معه. ركَضا تقريباً على طول سور الكرملين، ولم يرَ أرسيني إمكانية إيقاف هذه الحركة: تبيَّن أنَّ فوما كان قويّاً جداً. وظهر أمامهُما نهرٌ آخر. إنه نهر بسكوفا، الذي يصب مياهه في النهر العظيم.

- «هناك، وراء نهر بسكوفا» (قال فوما الأبله) «يعيش كارْب المجذوب الأبله. كلامُه قليل وغير مفهوم. في بعض الأحيان، لا يقول شيئاً سوى تكرار اسمه: كارْب، كارْب، كارْب. إنه شخصٌ جديرٌ جدّاً بالتقدير. ومع ذلك، أضربه في وجهه تقريباً مرّةً واحدة في الشهر. يحدث هذا في الأيام التي يعبر فيها النهر ويأتي إلى المدينة. وحينما أتسبَّبُ لكارب الأبله بجروحٍ دامية، أُقنعه بعدم مغادرة حي زابسكوفيه. مصيرك، أعلمه أنا، في حدود زابسكوفيه. خذ بعين الاعتبار، أنَّ المنطقة تبقى من دونك يتيمة، بينما إذا أتيتَ إلى الجزء المخصَّص لي من المدينة فستكون زيادة في عددنا. والزيادة فاسدة وتؤدّي إلى دمار روحاني...» وإذا به يظهر فجأة!

وضع فوما الأبله ذراعيه على صدره ونظر إلى الشاطئ المقابل. ومن هناك هدَّدَه كارب الأبله بقبضته.

- هدِّدْ، أيها المقرف، هدِّدْ (صاح فوما المجذوب من دون غضب). إذا ما وجدتُك هنا مرة واحدة، سأحطّم أعضاءك دون رحمة. اغرُبْ عن وجهي، لا أريد أنْ أرى لكَ أثراً.

- إنهم يتصورونني أبلهاً (قال أرسيني لأوستينا).

- وكيف يمكن أنْ نتصوّركَ! (اندهش فوما). انظرْ إلى نفسك، يا أرسيني. إنَّك أبله، إذ اخترت لنفسك حياة العربدة والمَهانة.

- إنه يعرف اسمي المعموديّ!

ضحك فوما:

- كيف لا أعرف عندما يكون الاسم مكتوباً على جبين كل معمَّد؟ أمّا ما يخصُّ أوستين فالتخمين، بطبيعة الحال، أكثر صعوبة، لكنك نفسك تُخبرُ الجميع به. تَصَنَّعْ البله، يا عزيزي، لا تخجل، وإلا فإنهم بتبجيلهم سيَصِلُون إليك. إنَّ توقيرهم لا يتوافق مع أهدافك. تذكَّرْ كيفَ كان في بيلوزيرسك. هل احتججت له؟

«من هذا الذي يعرف أسراري؟!» (التفت أرسيني إلى فوما):

- مَن أنت؟

- قضيبٌ ذكريٌّ في معطف (أجاب فوما). إنك تسأل عن الأشياء الصغيرة. وسأخبرك عن الشيء الرئيس. عُدْ إلى زافيليتشيه، حيث يوجد، في ساحة كومسومولسكايا التي ستكون في المستقبل، ثمّة ديرُ يوحنّا المعمدان. وفي مقبرة الدَّير، أظنُّ أنَّك قضيتَ اللّيلة فيها. ابقَ هناك وثِقْ: في هذا الدير يمكن أن تكون أوستينا موجودة. أعتقد أنها لم تصل إلى هناك بعد. لكن جئتَ أنت. صَلِّ - من أجلها ومن أجل نفسك. كُنْ هي ونفسَك في الوقت نفسه. انتهكْ الحرمةَ وعربِدْ. أنْ تكون ورعاً شيءٌ سهلٌ وممتعٌ، كُنْ مكروهاً. لا تدعْ سكّان بسكوف ينامون: إنهم كسالى وغير فضوليِّين. آمين.

رفع فوما يده وضرب أرسيني في وجهه. نظر إليه أرسيني بصمت، وشعر بالدَّم يسيل من أنفِه على ذقنِه ورقبَتِه. احتضنَ فوما أرسيني، وتلطَّخ وجهُه بالدَّم أيضاً. وقال فوما:

- لأنك وهبتَ نفسكَ لأوستينا، فإنك، وأنا على علم، قد استنفدْتَ جَسدَك، ولكنَّ التخلّي عن الجسد؛ هذا ليس كل شيء. إنه، يا صديقي، بالذات ما يمكن أن يؤدّي إلى الفَخر.

- ماذا يمكن أن أفعل بعد؟ (فكَّر أرسيني).

- ابذلْ المزيدَ من الجهد، همسَ فوما في أذنه. تخلَّ عن شخصيَّتك. لقد اتّخذت بالفعل الخطوة الأولى، عندما سميّت نفسك أوستين. والآن تخلَّ عن نفسِك كلياً.

-ص-

من ذلك اليوم بالذات استقرَّ أرسيني في المقبرة. وفي أحد الجدران، رأى شجرَتي بلّوط، وصارتا أوّل جدارٍ في منزله الجديد. والجدارُ الثّاني هو جُدار المقبرة. والجدار الثالث شيَّدَه أرسيني بنفسه. فقد كان يسير على طول النهر، ويجمع جذوع الأشجار الساقطة والطُّوب من الجدران المدمرة، وقِطَع الشّباك والعديد من الأشياء الأخرى، التي لا بدٌّ منها للبناء. والجدار الرابع لم تكن ثمّة حاجةٌ به لأرسيني: ففي مكانه كان المَدخل.

تابعت الراهبات هذا العمل، لكنهن لم يقلْنَ أيَّ شيء لأرسيني. وهنَّ كذلك لم يسمَعْنَ أيَّ كلام منه. جرى البناء في ظلِّ اتفاقٍ متبادل على الصّمت. عندما انتهى البناء، جاءت رئيسة الدير إلى منزل أرسيني، برفقة عددٍ من الراهبات. وعندما رأتْ أرسيني مستلقياً على عشبِ العام الماضي الأصفر، قالتْ:

- مَن يعشْ هنا يفترشْ الأرض ويلتحفْ السَّماء.

- نعم، لا يمكن أن يسمى هذا البناء بناءً كاملاً (أكَّدتْ الراهبات كلامَها).

- إنه ببساطة يبني بيته الرئيس في السماوات (قالت رئيسة الدير). صلِّ للربّ من أجلنا، يا عبد الله.

بأمرٍ من رئيسة الدير، جيء لأرسيني بوعاء من العصيدة. وما كاد أرسيني يشعر بدفء الوعاء، حتى انبسطت يداه. وسقط الوعاء محدثاً قرقعة عميقة، لكنه لم يُكسَر. وامتصَّ العشبُ العصيدة ببطء. وصارَ واضحاً، كيف برزت أوائل الخضرة المبكرة مخترقةً الوبر الأصفر للعشب.

«هذه الخضرة» (قال أرسيني لأوستينا) «تحتاج أيضاً إلى طعام. دعِيْها تنمو، وهي تمَجِّد ولَدَنا».

وجيء له بالعصيدة بعد ذلك مرّاتٍ عديدة وفي كل مرّةٍ يحدث لها الشيء نفسه. أكلَ أرسيني ما تركَه العشب له فحسبْ. فقد أخذَ بلطف بقايا الطعام من العشب، من خلال تمرير أصابعِه فيه، وكأنّها مجرفة. وفي بعض الأحيان من خلال الشقّ تركض الكلابُ إلى المقبرة وتلحسُ العصيدة بألسنتها الحمراء الطويلة. لم يَطرُدْ أرسيني الكلابَ، لأنه فهم أنها تحتاج أيضاً إلى الطعام. بالإضافة إلى ذلك، ذكّرته الكلاب بالذئب في طفولته. فكان يتمنّى أنْ يطعم الذئب إلى جانب إطعامه للكلاب. وفاءً لذكراه، أكلتْ الكلاب ما لم يستطع الذئبُ تناولَه في ذلك الوقت. وعندما تغادر الكلاب، كان أرسيني يصرخ على أثرها بكلمات الوداع ويطلب منها أنْ تنقل تحيّاته إلى الذئب.

«أنتم جنسٌ واحد» (صاح أرسيني) «وأعتقد أنكم تعرفون كيف تفعلون ذلك».

وعندما رأت الراهبات خصوصيات طعام أرسيني، صرنَ يضعنَ الطعام له على العشب. فكان ينحني، ولا يلتفت إليهنَّ، وعندما يغادرنَ، لا يشيّعهنَّ بنظرته. فقد خشي من أنْ يرى في وجوه القادمات ملامح أوستينا.

خلال الأسابيع الأولى من حياته في بسكوف كان أرسيني يستيقظ عند الفجر ويذهب يتمشّى في حي زافيليتشيه. ويتطلّع في الناس الذين يعيشون هناك. وبعد أن يقف، يركز نظره خاصة على مَن تختلف عقليّته عن تلك العقليات المألوفة بشكل عام. ويلقي نظره خلف الأسوار. ويلصق جبهته على النوافذ ويراقب الحياة الخفيّة للبسكوفيين. وهي بشكل عام، لم تُثر فيه الشعور بالفرح.

منازل زافيليتشيه مليئةٌ بالدخان المختلط مع البخار. حيث تُجفّف فيها الملابس ويُسلَق حساءُ الملفوف. وفيها يُضرَب الأطفال ويُصرَخ على المسنّين. ويتناكحُ الأزواجُ في مساحة الكوخ المشترَكة للجميع.

ويصلّي الناسُ فيها قبل تناول الطعام وقبل النوم. وأحياناً كانوا يغفون دون صلاة - بعد أنْ تُستَنفَد قوَّتُهم في العمل. أو بعد السُّكْرِ إلى حَدِّ الثّمالة. يطرحون أرجلهم في الأحذية على الخرق البالية التي تفرشها زوجاتهم. ويشخرون بصوتٍ عالٍ. ويمسحون اللعاب الذي يسيل أثناء النوم من أفواههم أو يطردون الذباب بأيديهم. ويمرّرون أيديهم على وجوههم يحكّونها حكّاً شديداً. ويتشاتمون بأنواع الكلمات البذيئة. ويفسدون الهواء بالغازات التي يطلقونها. كل هذا من دون أنْ يستيقظوا.

صار أرسيني يسير في شوارع زافيليتشيه، ويلقي على منازل الناس التُّقاة الحِجارة، فتطير الحجارة بعيداً عن الجذوع مصدرةً صوت قرعٍ خفيف على الخشب. يخرج الناس من منازلهم، فينحني لهم أرسيني، وهو يرسم علامة الصليب. ويقترب أرسيني على نحو متلاصقٍ من منازل الفاسدين أو الناس الذين يتصرفون بشكل غير لائق. ويهوي على ركبتيه، يُقبِّل جدرانَ هذه المنازل ويقول شيئاً ما بصوت منخفض. وعندما اندهش الكثيرون من تصرُّفات أرسيني، قال فوما الأبله:

- حسناً، ما هو المدهش هنا، إذا ما أمعنّا النظر. أخونا أوستين محقٌّ جدّاً، لأنه يرمي الحجارة على منازل الناس الأتقياء فقط. فالملائكة طردت الشياطين من هذه المنازل. فهي تخشى الدخول إلى الداخل وتبقى متشبِّثة، كما تُبيِّن الممارسة، في زوايا البيوت. وأشار فوما الأبله إلى أحد المنازل. ألا ترون الشياطين الكثيرة في الزوايا؟

- لا نراها (أجاب المجتمعون).

- بينما هو يراها. ويرميها بالحجارة. إنَّ الشياطين تجلسُ داخل بيوت الناس غير الصالحين، لأنَّ الملائكة الموكَلة بالحفاظ على أرواح البشر لا يمكن أن تعيش هناك. تقف الملائكة عند الدار وتبكي على الأرواح الساقطة. فيناشد أخونا أوستين الملائكة ويطلب منهم عدم ترك صلاتهم، حتى لا تهلك الأرواح نهائياً. وأنتم، يا أبناء الكلبات، تعتقدون أنه يتحدّثُ إلى الجدران...

لاحظ فوما الأبله بين المستمعين كارْب الأبله. كان كارب متّجهاً بوجهه للشمس. فاستمع إلى فوما وابتسم ابتسامة بلهاء. كان يستمتع بالنهار الربيعي الحارّ وبحضوره في هذا الجزء من المدينة. وبعد أنْ لمح نظرة فوما الغاضبة، تذكَّر كارب انتهاكَه للحظْر. فحاول الاختباء بهدوء، على الرغم من أنه فهم أنّ هذه المهمة ليست بسيطة. وسعياً منه للوصول إلى الجسر على نهر بسكوفا، بدأ كارب يلتف حول الحشد بخطوات متسارعة. بدا له أنّ الحركة الجانبية يمكن أن تغطِّي على نواياه الحقيقية. وبعد لحظات قليلة، لاحظَ أنَّ فوما قد منعه من الوصول إلى الجسر.

- كارب، يا كارب، كارب! (وأخذ كارب الأبله يصرخ وتوجَّهَ بخطوات إضافية في الاتّجاه المعاكس).

لكن فوما الأبله كان أسرع من كارب المجذوب الأبله. فهوت يده بصفعة قوية بشكل غير طبيعي على عنق الناكث المخالف.

- وهل يمكنني أن أتوقع من هذا فعلاً آخر (صاح كارب وهَرَعَ يركض باتّجاه الجسر).

طارده فوما بالرّكلات. وبعد أن وصل إلى منتصف الجسر، توقف كارب. وعندما اقترب المطارِد، وجَّه إليه الهارب صفعةً قويّة. تقبَّلها فوما الأبله بخنوع، لأن هذه كانت أرض كارب الأبله.

-ض-

أنتم أصدقائي المخلصون في الكفاح ضد الجسد، قال أرسيني للبعوض. لا تسمحوا للجسد أن يملي عليَّ شروطه.

في ضفة النهر العظيم، التي يقع عليها الدير، كان ثمّة الكثير من البعوض. وخلف جدار المقبرة، حيث لا تصل رياح الشاطئ، كان البعوض أكثر مما هو على الماء نفسه. لم يُرَ البعوض بمثل هذه الكثرة أبداً. إنَّ الحشرات المصاصة للدماء هذه هي نتاج للربيع الحار بشكل غير عادي.

لم يُكشَف من الإنسان في العصور الوسطى سوى وجهه وكفيه، ولكن هذا المقدار يكفي لجعل سكان بسكوف يفقدون صبرهم. فكان أهل بسكوف يحكّون أجسادهم، ويبصقون على راحتهم ويلطخون اللعاب على جلودهم، معتقدين أنهم بهذا سوف يخففون من معاناتهم من اللدغات. لم تكتفِ الحشرات الغاضبة بالأجزاء المكشوفة من الجسم، بل لدغت حتى الملابس الثخينة.

لم يزعج البعوضُ أرسيني. وفي الليالي الذافئة الرطبة، التي يتحول فيها الهواء إلى كتلة طنانة، كان يتجرد من ملابسه ويقف على شاهد قبر أمام منزله. ويمرر يده على جسده، فيشهد إحساساً غير عادي. ويتخيَّل أن جلده كان مغطى بشعر كثيف كجلد عيسو. وعندما يلمس بشرته، يتحول الشعر إلى دم. لم يرَ أرسيني الدم في الظلام، لكنه شعَرَ برائحته وسمع طنين الحشرات المُهاجِمَة. وفي كثير من الأحيان لم يُعِرْ انتباهاً لها، لأنه خلال الليل كان يُصلِّي باجتهادٍ من أجل أوستينا.

وهكذا يقف في الليل فقط، الذي كان، على الرغم من قصره، كافياً للاستنزاف التام. لكن أرسيني لم يُستَنزَف. إما ملَّ البعوض دمه، أو - بسبب سخاء غير عادي من أرسيني - قررتْ الحشرات الطفيلية الماصّة للدماء أنْ تتحلّى بضبط النفس، وتكفَّ عن أخذ حياته في وقفة الليل فقط. وقد عُثِر عليه أكثر من مرة من غير نفَس، ولكن في كل مرة يعود إليه وعيه في نهاية المطاف.

كانت رئيسة الراهبات تقول في مثل تلك الأيام بعد أن تولّي وجهها عن عُرْيِهِ، لتُنزَعْ عنه الملابس الدنيويّة الرثّة وليلبسْ رداء الكهنوتية.

ومع مرور الوقت، أصبح البعوض أقلّ، لكن ساعات استيقاظ أرسيني في الليل لم تتوقف. ولا يمكن لها أن تتوقف، لأن الليل بقي لأرسيني الوقت الوحيد الهادئ للصلاة. فالنهار كان مليئاً بالمشاغل والقلق.

استمر أرسيني يطوف في زافليتشيه ويراقب سير الحياة فيها. يلقي الحجارة على الشياطين ويتحدث مع الملائكة. وكان يعرف كل أوقات التعميد وحفلات الزفاف ومراسم الجنائز. وعرف عن ولادة الأنفس الجديدة في زافليتشيه. فيقف بالقرب من منزل الوليد، يتبصَّر في قدَرِه ومصيره. فإذا كان من المُتوقَّع أن يكون عمره طويلاً، يضحك أرسيني. وإذا كُتِبَ عليه أن يموت قريباً، يبكي أرسيني. في تلك الأيام لم يكن أحد يعرف، ما عدا فوما الأبله، ما الذي جعل أرسيني يضحك ويبكي. لم يستعجل فوما في تفسير ذلك لأحد، وحتى أنه نادراً ما كان يزور زافيليتشيه.

وذات مرة جاء فوما الأبله إلى زافليتشيه وطلب من أرسيني أن يتبعه عبر النهر.

أنا بحاجة إلى مشورتك، قال لأرسيني. القضية ليست بسيطة، لهذا السبب فقط آخذك إلى جهتي من المدينة.

قائد العسكر بيريجوغا مرِضَ طفلُه أنفيم. كان يرقد في مهده يتطلّع بنظره إلى الأعلى بصمت. ويقف لخدمته عند مهده عشرة أشخاص. إذ تجمَّع حول مهد أنفيم أقربُ الأقارب. وعندما أخذ أرسيني الطفل

بين ذراعيه، جعل الطفلُ يصرخ صراخاً شديداً. فاغرورقت عينا أرسيني بالدموع، وأعاد أنفيم ثانية إلى المهد. واستلقى على الأرض. وشبك ذراعيه على صدره. وأغمض عينيه.

- إنَّ أخانا أوستين يرى أنَّ الطفل سيموت (قال فوما الأبله). الطبُّ عاجز.

توقَّفَ أنفيم عن التنفس عند حلول الغسق. وعندما ودَّع فوما الأبله أرسيني عند العبّارة وجَّهَ إليه صفعة.

- هذا مقابل تواجُدِك على أرضي. إنَّ هذا الأمر أسهل بالنسبة إليك، أليس كذلك؟

وعند منتصف النهر أومأ أرسيني برأسه موافقاً: «بالطبع، الأمر أسهل». وكانت تبدو في ضوء الشفق الخافت ومضات الضوء الباهتة وهي تلمع في تموجات النهر. وتحركت أكبر حزمةٍ فيها ببطء على طول قمة الموجة، فاعتقد أرسيني أنَّ تلك هي روح الطفل المتوفى، قد خرجت من جسده الصغير في الليل تتطلَّع من حولها.

- لديك ثلاثة أيام أخرى لقضائها هنا (خاطب أرسيني الروح). إذ يُعتَقد عموماً أن الأيام الثلاثة الأولى تقضيها الروح في المكان الذي عاشت فيه. الحقيقة، بسكوف مدينة جيدة، فلماذا لا تترك العالم من هنا؟ انظر: أُوقِدَتْ النيران في المنازل على ضفة النهر، أهلُ تلك المنازل يستعدّون للنوم. بينما السماء في جهة الغرب لا تزال مضيئة. تراكمت عليها السحب الباردة ذات الحواف القرمزية غير المتساوية. إنها لا تنوي التحرُّك حتى الصباح. وأشجار الزيزفون تهتزُّ بهدوء في نسيم المساء المنعش. باختصار، إنها أمسية صيفية دافئة. إنك تترك هذا كلّه، وربما، تكون خائفاً. لأنك ما إن رأيتني حتى صرختَ من هذا الخوف، أليس صحيحاً؟ هَيْأَتِي أخبرَتْكَ أنَّ الموتَ قريب. لا تخفْ. ولكي لا تشعر بالوحدة، سأقضي هذه الأيام الثلاثة معك، هل تريد؟ أنا أسكن في مقبرة الدَّير، إنه مكان هادئ للغاية.

قاد أرسيني روح أنفيم إلى المقبرة.

تلا الصلوات لمدّة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. وفي نهاية اليوم الثالث، لم تعدْ شفتا أرسيني قادرتان على الحركة، لكن شعور الحبّ للطفل لم يفقد حدّته. قال هذا الشعور لأرسيني: «كُنْ مستيقظاً». وقال: «إذا جلستَ على الأرض، فسوف تغفو». لم يجلس أرسيني، ولكنه سمح لنفسه أن يستند بمرفقَيه على أشجار البلُّوط النامية التي كوَّنت جدار منزله. لم يكن يريد أنْ يترك الطفل بمفرده.

همس أرسيني وهو يودِّع روحَ أنفيم:

- اسمع، عندي طلب إليك. إذا قابلت صبيّاً هناك، هو أصغر منك... ستتعرَّف عَليه بسهولة، ليس لديه حتى اسم. إنّه ابني. أرجوك... (ألصقَ أرسيني جبهته بشجرة البلوط وشعر كيف تنسكب القساوة فيها) قبِّلْهُ نيابةً عني. بكلّ بساطة قَبِّلْه.

-ط-

صباح كارْب المجذوب الأبله يبدأ هكذا: فبعد أن يشبك يديه وراء ظهره، يقف عند منزل سامسون صانع الكعك.

- كارب، كارب، كارب (يقول كارب المجذوب لعابري السبيل).

وعندما كان سامسون يخرج إلى الشارع والطَّبَقُ على حزامه، يأخذ كارب بأسنانه كعكة ويقفل راجعاً. بالنسبة لرجل يحمل كعكة في أسنانه، يمكن أن نقول إنه كان يركض بسرعة كبيرة. ولدواعي الضرورة يركض بصمت. ومن دون أن يفكّ يديه خلف ظهره. يركضُ خلف المجذوب الأبله الفقراءُ الذين عرفوا أنَّ الكعكة سوف تسقط في نهاية المطاف. وعندما تسقط الكعكة، كانوا يأخذونها. وما بقي في فم الأبله يكون طعامه لذلك اليوم.

لم يركض سامسون صانع الكعك خلف كارب المجذوب. وحتى لو أراد أنْ يركض، لا يمكنه فعل ذلك وهو يحمل طبقاً ثقيلاً. لكن مع ذلك لم يردْ صانع الكعك أن يركض. لم يغضب على كارب الأبله. لأنه بعد أن يصادف المجذوب، كان يبيع بشكل جيّد ويُستنفَد الكعكُ بسرعة كبيرة. وإذا كان الأبله المجذوب يتأخّر، بسبب شغلٍ لديه، فإنَّ سامسون الكَعكِيّ ينتظرُه بصبرٍ أمام منزله في زابسكوفيه.

لم يكن هكذا بروخور صانع الكعك من حي زافيليتشيه. لقد كان رجلاً ذا مظهر كئيب ولا يميل إلى توزيع الكعك. وطالما أنَّ حي زافيليتشيه يقع في نطاق مسؤولية أرسيني، قُدِّرَ له أن يواجه بروخور صانع الكعك. حدث ذلك في نهاية الصيف.

ما إن رأى أرسيني بروخورَ مع كعكه، حتى شعر بانقباض روحه. ثبَّت نظره على بروخور، وأخذت نظرته تشوبها مرارةٌ أكثر فأكثر.

- ماذا تريد، أيها المجذوب، سأله بروخور.

ومن دون أن ينطق أرسيني كلمة واحدة، ضربه أسفل الطبق. تناثر الكعك من الطبق وسقط في غبار شهر آب (أغسطس). أراد المارَّة أن ينفضوا الكعك ويأخذوه، لكن أرسيني لم يسمح لهم. ثم جعل يفتت معجنات بروخور الكعكيّ إلى قطعٍ صغيرة، وبدأ يركلُها ويدوسها في التراب. وعندما تحوَّل الكعك إلى كومةٍ من الأوساخ، صحا بروخور من غفلته. تقدَّم ببطء نحو أرسيني، وكلّ قبضة من قبضتيه كأنها كعكة. ومن دون أن ينبس بكلمة، ضرب أرسيني في وجهه بقبضته. سقط أرسيني على الأرض، فضربه الكعكيّ بقدمه.

- لا تلمسْه، إنه من أهل الله (صاح المارة).

- ومَن نثر كعكي - أليس من أهل الله؟ ومن داسها بقدميه - أليس من أهل الله؟

مع كل سؤال، كان بروخور يوجه إلى أرسيني ضربة بقدمه. وكان أرسيني الراقد ينقلع من هذه الضربات مثل كومة من الخِرَق. ربما، أصبح هو فعلاً كومة من الخِرَق، لأنه لم يبقَ أيٌّ جسدٍ في داخله. قفز صانع الكعك، وهو يصرخ، على ظهر أرسيني بكلتا قدميه، وسمع الجميع طقطقة أضلاعه. آنذاك هجم الرجال على بروخور صانع الكعك ولووا ذراعيه وراء ظهره. وأحدهم ربطهما بحزامه. حاول بروخور القويُّ التخلّص من أولئك الذين كتَّفوه ومرة أخرى اندفعَ نحو أرسيني.

- اذهب من هنا، يا عبد الله (قال لأرسيني مَن كانوا حولَه).

لكن أرسينى لم يترك المكان. ولم يتحرَّك. ظل يرقد وذراعاه ممدودتان، وتحت رأسه فاضت بركةٌ بنّية اللّون. نظر الجميع إلى بروخور صانع الكعك، الذي بدأ يهدأ شيئاً فشيئاً. وجاء من طرف العَبّارة فوما المجذوب.

- من الآن فصاعداً، اسمك ليس صاحب الكعك، بل صاحب القبضة (صاح فوما بوجه بروخور). سوف أُخبركم، أيها المتسكعون (ألقى نظرة على الواقفين من حوله) بالحقائق التالية: الليلة الماضية، هذا المزعج تجامع مع زوجته. ثمّ، من دون أن يغتسلِ، عجَنَ العجين وخبزَ الكعك. وفي الصباح أرادَ أنْ يبيعَ منتَجاً نجساً للأرثوذكسيِّين، ولولا أخانا أوستين، لكان يبيعه ببساطة مثل ما يشرب الماء.

- هل هذا صحيح؟ (سأل الحاضرون).

لم يجب بروكور صانع الكعك، ولكنَّ صمتَه كانَ جواباً أيضاً. الجميعُ يعلمون أنَّ فوما المجذوب ما يقول إلا الحق. فقرَّروا أنْ يأخذوا بروخور إلى السجن الانفرادي. وأُجِّلَت العقوبة حتى يتَّضِح مصير أرسيني. وقالوا:

- إذا مات عبد الله، فستتحمل عاقبة هذا الذنب.

وُوضِع أرسيني على حصيرة، ونُقِل إلى دير القدّيس يوحنا.

عند بوابة الدير، استقبلتْهم الراهبات بالبكاء، لأنهنَّ أصبحن متعلِّقاتٍ بأرسيني. وقد عَرفْنَ بالمصيبة التي حدثتْ. أخذت الراهبات الحصيرة من الحواف، وحَمَلْن أرسيني بعناية إلى الدير، حتى لا يتسبَّبن له بألمٍ إضافي. لكن أرسيني لم يكن يشعر بالألم؛ لقد فقد الشعور بأيّ شيء. حملته الراهبات، واجتهدْن أنْ يَسِرْن بخطوات صغيرة وأن لا يهزُزْن أثناء النقل رأس أرسيني ورِجليه.

قالت رئيسة الراهبات:

- إنك غريب وسط أهلك، لقد تحمَّلتَ كلَّ شيء بفرح من أجل المسيح، بحثاً عن الوطن القديم المفقود.

كانت رئيسة الراهبات تغطّي وجهها بيديها، وصدح صوتها بهمس، ولكن بشكل واضح.

فرَّغوا لأرسيني صومعةً بعيدة، بحيث لا يمكن لوجود رجل أن يثير

الامتعاض لدى أيّ واحدة من الزائرات. الراهبات أنفسهن لم يكنَّ محرجاتٍ منه، لأنَّ أوستين المجذوب الأبله كان في نظرهم لا جنس له وإلى حدّ ما عِنّين. وعندما نقلنَ المريض إلى الصومعة القصوى، كنَّ يأمَلْنَ في شفائه ويستَعدِدْنَ لموته.

- لا بد أن نؤكد بمرارة (قالت رئيسة الراهبات) أنَّ إصابات الضحيّة قد تودي بحياته. ومع ذلك، فإنَّ وفاة أخينا أوستين ليست حالة شاذة: أخونا أوستين أماتَ نفسه حتى وهو على قيد الحياة. إنَّ أوستين المجذوب الخيِّر يستحقُّ الحِداد والتأبين، ومع ذلك سيصلح ويتجدد فيه الإنسان الداخلي. فبعد أن عاش أخونا هذا بلا مأوى، سيكون منزله في السماوات.

في حالة حدوث الوفاة، عيَّنَت الأخوات لأرسيني مكاناً بالقرب من جدار المقبرة، حيث استقر في الربيع. بدا مسكن أرسيني لهنَّ تقريباً مدفناً جاهزاً. فالمبنى مريحٌ وقابلٌ للسكن.

-ظ-

لكن أرسيني نجا وعاش. وبعد بضعة أيام استعاد وعيَه، وبدأت عظامه تلتئم شيئاً فشيئاً. أحسَّ أرسيني بالتحامها بشكل واضح كما كانت قبل الكسر. جرى ذلك بهدوء لكن بشكل ملموس.

الراهبات أطعمْن أرسيني بالملعقة. فكان يفتح فمَه في صمت، وتجري دموعه على خدَّيه. وكانت الدموع تسيل أيضاً غلى خدود الأخوات. وقد دَعَيْنَ النَّجار فلاس لغسل أرسيني، الذي لم ينهض من مكانه.

في اليوم الأول من أيلول (سبتمبر)، جاء فوما الأبله إلى أرسيني وهنَّأه بالعام الجديد. وكهديَّة، أحضرَ له فأراً ميتاً. أمسكه فوما من ذيله، فتمايل الفأر بحزن.

وبعد أن وضع الفأر عند رأس أرسيني، ضغط فوما الأبله كفوفه الأمامية على وجهه وخاطب المريض قائلاً:

- إني سعيد جداً، يا زميلي، لأنك لم تقبلْ هذه الصورة المقفرة. لكن هذا ما حصل، دعْنا منه. أهنّئك بحلول العام الجديد 6967، الذي نحتفل بذكراه القديمة في هذا اليوم المشرق من أيلول قبل ثلاثة وثلاثين عاماً من بدء الألفية السابعة.

إنّ وجود الفأر لمْ يُرضِ الأخوات الرّاهبات، لكن لم يجرُؤنَ على الاعتراض على فوما. وبعد أنْ رأينَ ابتسامة أرسيني، توقّفْنَ عن الغضب. كانت هذه ابتسامتُه الأولى منذ عدَّة أشهر. وعندما دغدغ فوما الأبله أنفَ أرسيني بطرف ذيلِ الفأر، عطسَ أرسيني.

- يحتاج المريض إلى نضارة وهواء منعش (صاح فوما)، والوضعُ لديكم هنا، اعذروني، هو القذارة بعينها. اسحبوه إلى النهر. هناك تدفقٌ للمياه والهواء. هذا سيساعد على شفائه.

التفتتْ رئيسة الراهبات وحرَّكت عينيها إلى الأعلى، لكنها أشَّرت إلى الراهبات أنْ يُنفِّذنَ أمر المجذوب. فنقَلْنَ المريض (بدأ أرسيني يئنّ) وطرحنَه على قطعة من القماش، التي رفعها هو بعناية (وجعل يئن مرة أخرى).

- صِرْ، أطلِقْ صريرَك، أيّها المكنسة التافه، قال فوما الأبله متذمّراً، فأشاحت رئيسة الراهبات مرة أخرى ببصرها وتحوَّلت بعيداً.

نقلت الأخوات أرسيني إلى النهر. أشار فوما إلى المكان الذي يجب وضع المريض فيه. ومع أخذ كل الاحتياطات، وضعن أرسيني على العشب.

- والآن، اذهبن من هنا، أيتها الطائشات اللعوبات (خاطب فوما المجذوب الأبله الراهبات).

لم تنبسْ واحدةٌ من الراهبات بكلمة، ثمَّ توجَّهن صوبَ الدير. شدَّت الرياح أطرافَ ثيابهنَّ، بينما كان أرسيني وفوما ينظران في أثرهنَّ. أظهرت الطريقة التي ابتعدت بها الراهبات أنهن، في الحقيقة، لم يشعرن بالإهانة من كلام فوما المجذوب. وغير غاضبات منه تقريباً.

عندما اختفت الأخوات خلف البوابة، قال فوما الأبله:

- لقد نفَّذتُ طلبك بخصوص بروخور. إذا ما فهمتك بشكل صحيح عبر النهر، فأنت لا تريد أن تعاقبه السلطات.

- إنّي صلَّيتُ فقط من أجله (قال أرسيني لأوستينا). وقلتُ في دعائي: يا رب، لا تحاسبْه على تصرُّفاته وأفعاله. صليّ أنتِ من أجله كذلك، يا حبيبتي.

أومأ فوما الأبله برأسه:

- أما بصدد صلاتك فأهالي حي زافيليتشيه يعرفونها الآن جيداً،

وأخبرتُهم بذلك (وأشار بيده إلى المتجَمهرين من سكان حيّ زافيليتشيه، فأكَّدوا ما قيل). أخشى أنَّ الصلاة من هذا النوع لا تكون الأخيرة بالنسبة لك. وسحنتك هذه، يا صديقي، سيحطّمونها لك، وأكثر من مرة.

- ليس بالضرورة (اعترض أهالي زافيليتشيه). الجميع في روسيا يعلمون أنه لا يجوز ضرب المجذوبين، مطلقاً.

ضحك فوما بصوت عال:

- عندما أشرح فكرتي، ألجأ إلى المفارقة. إنهم يضربون المجذوبين، لأنه لا يجوز ضربهم. ومن المعروف في الواقع أنّ كل من يضرب رجلاً مجذوباً هو شرير.

- ومَن غير الشرير (وافق أهالي زافيليتشيه).

- هنا يكمن مربط الفرس (قال فوما المجذوب). الإنسان الروسي متديِّن. ويعلم أنَّ المجذوب يجب أن يتحمل المعاناة، فيقوم بالخطيئة ليوفر له هذه المعاناة. ولا بد من أن يكون أحدهم شريراً، أليس كذلك؟ يجب أن يكون هناك شخص قادر على أن يضربه أو، على سبيل المثال، أنْ يقتل المجذوب، ما رأيكم، أليس صحيحاً؟

- نعم، هذا هو الصحيح بعينه (قال أهالي زافيليتشيه واضطربوا). الضرب قد يحدث، ولكن أن يتعدى الأمر للقتل، أهذا من التقوى؟ إنها خطيئة قاتلة، إذا جاز التعبير.

- اللعنة! (هتف فوما الأبله بغضب). في الواقع الإنسان الروسي ليس تقيّاً فحسب. وأقول لكم على العموم، إنه كذلك عبثيٌّ ولا يرحم، ويمكن لأي قضية عنده أنْ تتحوّل بسهولة إلى خطيئة مميتة. ولكن، في الواقع، أنتم، أيها الخنازير، لا يمكن أن تفهموا هذا الحدّ الرفيع.

لم يعرف أهل زافيليتشيه ماذا يقولون له. ولم يعرف ذلك حتى كارب المجذوب الأبله، الذي كان يقف في الحشد. فقد استمع إلى فوما الأبله في حيرة كاملة وفمه مفتوح من الدهشة.

- آها، وأنت هنا كذلك، أيها الخاطئ، صاح فوما الأبله (فأجهش كارب الأبله في البكاء). لم أضرب وجهك منذ زمن طويل.

بدأ فوما يشقُّ طريقَه إلى كارب، لكنّ الأخير تراجع باتجاه الدَّير، وانشقَّ الحشدُ أمام ظهره.

- أوه، الويل لي (صاح كارب المجذوب).

بعد أنْ خرج من الحشد، اندفع إلى بوابة الدَّير. كانت البوابة مغلقة. طرق عليها كارب طرقاً شديداً بكل ما أوتي من قوة وشاهد في رعبٍ كيف اقترب منه فوما. لم ينتظر كارب فتح الباب له، فوضع يديه وراء ظهره وهرع إلى النهر. وعندما فتحت البوابة، ركض فوما من جانبها. وقد أظهر فوما لسانه للراهبات اللائي كنَّ ينظرن من البوابة، وركض إلى الأمام. تبادلت الراهبات النظرات وكأنهنَّ معتادات على عدم التعجب.

- ألمْ أقل لكَ: ابقَ في زابسكوفيه (صاح فوما المجذوب بكارب المجذوب).

غطَّى كارب وجهَه بيديه وواصل الجري أبعد. كانت أقدامه الحافية تضرب بصوت عالٍ على العشب. وبالقرب من النهر توقّف. وبعد أن رفع كفَّيه عن وجهه، رأى أنَّ فوما يلاحقه.

صاح كارب المجذوب: «كارب، كارب، كارب!».

خطى على سطح الماء وسار بعناية. وعلى الرغم من الرياح الهابَّة، كانت الأمواج على النهر العظيم منخفضة في ذلك اليوم. في البداية، سار كارب ببطء وبنوع من عدم الثقة، لكن خطواته تسارعت بالتدريج.

ركض فوما نحو النهر واختبر الماء بإصبعه الإبهام. وبعد أنْ هزَّ رأسَه بحسرة، داس كذلك على الماء. شاهد أرسيني وأهالي زافيليتشيه في صمت كيف سار المجذوبان الأبلهان واحداً تلو الآخر. كانا يقفزان ببساطة على الأمواج ويلوحان بأيديهما بشكل مضحك، للحفاظ على توازنهما.

- ما بقي إلا أن يسيرا على الماء (قال أهالي زافيليتشيه. ولم يتعلَّما بعدُ الرَّكض).

في منتصف النهر توقَّف كارب الأبله. وبعد أنْ انتظر فوما الأبله، ضربَه بقوته كلّها على خدّه. طار صوت الصفعة عبر المياه إلى الواقفين على الشاطئ.

- لديه الحق (لوَّح أهالي زافيليتشيه بأيديهم). هذه أرضه.

ومن دون أن يقول كلمة واحدة، استدار فوما الأبله وتوجه إلى الجزء الخاص به من المدينة. وفي أشعة شمس الخريف المنخفضة، بانَ عدم التساوي في تيار النهر. وتناوب السطح اللامع كالمرآة مع الترقرق والأمواج. وبدا، عند إلقاء نظرة طويلة على الماء، أنَّ النهر يتدفق في الاتجاه المعاكس. لأنه، ربما، يعكس حركة الغيوم. وفي إيقاع الحركة العامة على سطح النهر، انزلق جسمان صغيران، وهما يفترقان. ولم يبقَ في المكان إلا أرسيني وسكان زافيليتشيه.

-٤-

ومع قرب حلول فصل الشتاء تحسَّنت صحَّة أرسيني. نمتْ عظامُه، ولم يعد يشعر بالمرض إلا في ضعفٍ ينتابه في بعض الأحيان. وبعد أنْ شعر أرسيني أن صحته الآن أفضل، عاد إلى منزله في المقبرة. أقنعتْه الأخوات بالبقاء في الصومعة القصوى، لكنَّه كانَ مُصرّاً.

لتكن مباركاً، أيها الجوَّال المتشرِّد، قالتْ رئيسة الراهبات وتركَت أرسيني يذهب إلى محلّ السكن الذي اختاره.

بعد أن عاد أرسيني إلى مكانه تحت أشجار البلوط النامية، أدرك أنَّه فقدَ التعوُّد على الحياة الصعبة. وحزنَ على فقده للأسابيع التي قضاها في الصومعة، لأنها جعلته ينتبه إلى جسده. إنَّها، في الحقيقة، أضعَفَتْ هِمَّة أرسيني، وفي الأيام الأولى بعد عودته لم يستطعْ أنْ يشعر بالدفء والاطمئنان. كان يهمس باستمرار إلى نفسه بأنه يعيش في جسدٍ غريب، لكن هذا لم يساعده على الفور. ساعدة بعد أربعة أيام.

وفي اليوم السابع، جاءه بروخور صانع الكعك. أخرج بصمت من عبِّه كعكة وهوى على ركبتيه أمام أرسيني. اقترب أرسيني – الذي كان واقفاً أمام منزله – من بروخور صانع الكعك. ووقف على ركبتيه بجانبه واحتضنته. وأخذ من يديه الكعكة.

– لقد صمتُّ سبعةَ أيّام، قال بروخور.

أومأ أرسيني برأسه، لأنه فهم هذا من شكل الكعكة ورائحتها.

– سامحني، يا أوستين التَّقِيّ (قال بروخور صانع الكعك وهو يبكي).

لمس أرسيني خدَّي بروخور، وظلت دمعة بروخور على سبابته. فمسح بها حافة الكعكة. قضم أرسيني الكعكة في المكان الذي امتص دمعة بروخور. وبعد أن مضغ ما قضمه، نهض أرسيني نفسه وأنهض صانع الكعك. فرسم إشارة الصليب وعاد أدراجه من حيث أتى. وعندما اختفى بروخور صانع الكعك في الشقّ، أخذ أرسيني الكعكة ثم اندفع إلى الخارج. كان يقف الفقراء بالقرب من جدار الدير. كسر أرسيني الكعكة إلى قطع أعطاها لهم.

ومن ذلك اليوم، صار بروخور صانع الكعك في كثير من الأحيان يزور أرسيني. وفي كل مرة يحضر معه كعكة، وأحياناً أكثر من واحدة. فكان أرسيني يقْبَل الكعكة بكلّ امتنان. وبعد أن يغادر بروخور يحملها أرسيني إلى جدار الدَّير ويعطيها للفقراء.

غير أنه مع مرور الوقت، صار ينتظر الكعك من أرسيني غيرُهم كذلك. إذ جاء الناس من المدينة ومن ضاحية زابسكوفيه، ومن بينهم الكثير ممن يُعَدَّون ميسوري الحال. أولئك لم يُضنِهم الجوعُ، ولكنهم علموا أنَّ الكعك من يدَي أرسيني لذيذٌ ومفيدٌ بشكل غير عاديّ. ووفقاً لملاحظاتهم هذا الخبز يمنح القوّة، ويوقف النزيف ويُحسِّن التمثيل الغذائي.

جاء ذات مرة إلى أرسيني غافريل حاكم بسكوف بعد أنْ سمع عن توزيع الخبز. حصل غافريل على نصف كعكة وأخذها معه إلى منزله. أكل الخبز الذي حصل عليه هو وزوجته وأطفاله الأربعة ذوي الأعمار المختلفة. أعجبهم الخبز، وشعروا بتحسُّن صحَّتهم، على الرغم من أنهم في السابق أيضاً كانوا بصحة جيدة.

- هذه الظاهرة تستحق كل الدعم الممكن (قال الحاكم غافريل).

وذهب إلى أرسيني وبحضور الراهبات وأعطاه محفظة فيها دراهم من الفضة. ولدهشة الحاكم غافريل قبِلَ أرسيني المال. وبعد أن غادر الحاكم ترك أمام الدير رجلاً ليراقب كيف يوزّع المجذوب المال الذي

أعطي له. وفي مساء ذلك اليوم نفسه، جاء الرجل إلى الحاكم غافريل وقال له إن أول شيء فعله أوستين الأبله - أن ذهب إلى التاجر نيغودا. ولوحظ بشكل منفصل أن الأبله دخل إلى التاجر بمحفظة في يديه، وخرج منه من دون المحفظة.

آنذاك ذهب الحاكم غافريل مرة أخرى إلى أرسيني وسأله لماذا أعطى المال ليس لمتسول، بل لتاجر. نظر أرسيني بصمت إلى الحاكم.

- قُلْ لي، ما هو غير المفهوم هنا! (فوجئ فوما المجذوب، الذي كان يقف أمام شق الجدار). لقد أفلس التاجر نيغودا، وأنهك الجوعُ عائلتَه. وإنه يخجل من طلب الصدقة والتسوُّل. وسيتحمَّل، ابن العاهرة، حتى يموت، هو وعائلته. وإذا بأوستين يعطيه المال. فالمتسوّلون يطعمون أنفسهم بأنفسهم، ويطلبون الصدقة - فهذه في نهاية المطاف مهنتهم.

تعجب الحاكم غافريل من حكمة أرسيني وسأله:

- ماذا تحتاج، يا أخ أوستين، لتستفيد منه في حياتك؟ اسألْني أُعطِك ما تريد.

ظلَّ أرسيني صامتاً. عند ذاك قال فوما الأبله:

- إذا طلبتُ أنا بدلاً عنه، هل ستعطيه؟

أجاب الحاكم غافريل:

- أُعطي.

وهل ستعطيه حتى مدينة بسكوف العظيمة (قال فوما الأبله) وتكون مُلكاً له.

لم يتفوَّه الحاكم بكلمة واحدة، لأنه لا يستطيع أن يعطي المدينة كاملة. وبعد أنْ رأى فوما المجذوب أنَّ الحزن خيَّم على الحاكم غافريل، ضحك ضحكة عالية وقال:

- لا تقلقْ، يا للَّعنة. لا يمكنك منحه هذه المدينة. لا تعطه، سوف يحصل عليها من دونك.

-غ-

كان الشتاء الذي حلَّ فظيعاً. لم يعرف مثل هذا الشتاء لا أهالي بسكوف، ولا خطر ببال أرسيني. ومع ذلك، لا يتذكر أرسيني كم من فصول الشتاء مرّت منذ وصوله إلى بسكوف. ربما واحد. وربما اندمجت كل فصول الشتاء في فصل واحد ولم تعد ذات صلة بالوقت. صارت شتاءً مطلقاً.

في البداية، تغطّت المدينة بالثلوج. إذ تساقط الثلج ليلاً ونهاراً، وقد أُذهل الناس بوفرته في الهواء وعلى الأرض، جاعلاً عالم الله كخثرةِ حليبٍ واحدة. طمرت الثلوج الحظائر والمنازل، وحتى الكنائس المنخفضة. وتحولت إلى كثبان ثلجية ضخمة، لاحت في أعلاها في بعض الأحيان الصلبان. وخرق الثلج بثقله أسطح المنازل القديمة، فتحطمت محدثةً فرقعة جافة. بقي الناس في الهواء الطلق تحت السماء المكشوفة، التي هطل منها الثلج دون توقف وملأ المنازل التي تضرَّرت خلال النهار. ظلَّ الثلج يتساقط لمدة ثلاثة أسابيع، وبعد ذلك ضرب الصقيع.

كان الصقيع لا يرحم. وضاعفت من قوَّة الصقيع الرياحُ، التي لم يكن ثمّة مفرٌّ منها. طرقت الرياح المارة من أقدامهم، وتسللت من شقوق الأبواب وأخذت تصفر في جذوع الأشجار المطروحة. وبسببها ماتت الطيور في الهواء وتجمَّدت الأسماك في الأنهار الصغيرة، وسقطت الوحوش في الغابات. وحتى الناس المتدفئين بالنار، بسبب عجز

أجسادهم، لم يستطيعوا تحمل هذا الزمهرير الشديد. ثم تجمَّد الكثير من الناس والماشية في المدينة وفي القرى المحيطة وعلى الطرق. أما المتسوِّلون والجوّالون من أجل المسيح، فبسبب معاناتهم من الكارثة الكبيرة كانوا يأنّون من أعماق قلوبهم، ويبكون بمرارة ويرجفون باستمرار ويتجمَّدون.

بأمرٍ من كبيرة الراهبات انتقل أرسيني إلى الصومعة القصوى، حيث قيل له أنْ يبقى حتى يقضي الزمهرير العنيف. لكن بعد مرور ثلاثة أيام ترك أرسيني الصومعة القصوى، وعاد إلى منزله في المقبرة. وأجاب بالصمت على جميع التوسلات له بالبقاء.

قال لأوستينا: «الحقيقة، أنَّ جسدي في الصومعة القصوى يتدفّأ ويبدأ يطرح طلباته. وهذه، يا حبّي، مجرّد بداية. ما إن تمدّ إصبعك لها، حتى تلتهم اليد كلها. الأفضل، يا حبّي، أن أبقى في الهواء الطلق. ولكي لا أتجمَّد، ربما، أتمشَّى في ضاحية زافيليتشيه. وسوف أراقب ما يحدث في دنيا الله البيضاء، لأنها ما كانت بيضاء بهذا الشكل من قبل».

وصار أرسيني يتمشى في زافيليتشيه. وعندما يلتقي بأشخاص متجمِّدين من البرد أو سكارى أو عرضة لأنْ يغفوا على كومة من الثلج، فإنه يقودُهم إلى منازلهم. وإذا كان أحدهم لا منزل له، يقوده إلى منزل المحتاجين المُعَدّ لأيّام البرد في سقيفة قديمة عند سور دير يوحنا.

وذات مرَّة عندما كان يمشي على طول النهر المتجمِّد رأى أرسيني عليه فوما الأبله، الذي قال له من على الجليد:

- صديقي العزيز، الآن طُمِسَ الحدُّ بين أجزاء المدينة بطريقة طبيعيَّة. ينبغي أن نثبِّت الجدارَ الفاصل بيننا الذي اختفى مؤقتاً تحت الجليد السميك الذي لم يسبق له مثيل. إذا كنت ترغب في جمع المكون المتجمد حتى على الأراضي التابعة لي، فلن أقول ما لا يرضيك.

بعد ما قاله فوما لم يعد أرسيني يتحدّد بضاحية زافيليتشيه. فجعل يذهب إلى المدينة، وحتى إلى ضاحية زابسكوفيه التي يسكنها كارب

الأبله. أشارت إلى ذلك آثار الأقدام العارية، المنطلقة كالإشعاع من دير يوحنا. ففي كل صباح، تُكتشَف مسارات جديدة، يعرف من خلالها سكان بسكوف في أي جزء من المدينة كان أرسيني اللّيلة الماضية.

وذات مرّة قاد أرسيني إلى المنزل جوّاباً ليلياً. وكان ذلك الرجل قد خرج من الحانة، وهو منهك القوى. وكان معتاداً على الجلوس في الطريق، ويتطلَّب من أرسيني أن يتركه في حال سبيله. في مثل هذه الحالات، حدث لأرسيني أنْ يسحب شخصاً غريباً في الثلج بالقوة. وكان الانزلاق سيئاً، لأن الغريب خلال الجزء الأول من الطريق، يجرف الثلج بمقدّمة جزمته وهو يقهقه. وبعد ساعة يشعر بالبرد القارص فيتركه المرح. فيمشي بصمت خلف أرسيني، وقد صحا من سُكرِه وانتابَه شعورٌ كبيرٌ بالغضب.

وقد سارا بحثاً عن منزله، وهما يلفّان ويدوران في قرى الضواحي. وعند منتصف الليل تقريباً، ظهرَ القمرُ في السماء، وهذا ما ساعد في حلِّ القضيَّة. إذْ عرف الغريبُ في واحدة من التراكمات الثلجيَّة كوخَه، وتوجَّه بشكل حاسم نحو الشُّرفة. وبمثل ذلك الحسم فُتح الباب أمامه وأغلق على الفور خلفه.

تطلَّع أرسيني مِن حوله. إذ حيَّره اللف والدوران لمدة طويلة، والآن لا يستطيع أن يعرف في أي جهة من المدينة هو. تغطى القمر مرة أخرى بالغيوم. أدرك أرسيني أنه إذا ما سار خطوات قليلة بعيداً عن الكوخ، فسوف يضيِّع الكوخ نفسه. وشعر أنه هو نفسه يحتاج إلى المزيد من الدفء.

«في هذه اللحظة، يا حبّي، أنا بحاجة إلى أن أكون في مكان دافئ على الأقل لساعة واحدة» (قال أرسيني لأوستينا). «لا داعي لأن تقلقي من أجلي، لا شيء، كما ترين، يثير القلق. ما أحتاج إلَّا أنْ أرتاحَ قليلاً، يا حبّي، وبعدها يمكنني أنْ أعود».

حاول أرسيني أنْ يبتسم، لكنه أدرك أنه لا يشعر بشفتَيه ولا بخدَّيه.

وبعد تردُّد، عاد إلى الكوخ وصعد إلى الشرفة المتجمِّدة. طرق الباب. لم يفتحه أحد، فطرق مرة أخرى. فُتحَ الباب له. وقف على العتبة صاحبه. تراجع إلى الخلف، كما لو أنه يفسح المجال لأرسيني. شعر أرسيني بالحزن، لأنه أدرك أن هذا الرجل في الحقيقة يحتاج إلى جَرْي. ركض الرجل الذي فتح له الباب وهو يصرخ، ودفع أرسيني بكلتا يديه من الشرفة.

عندما فاق أرسيني، كان القمر ينير مرة أخرى. أخذ حفنة من الثلج وفرك بها وجهه المتجمِّد. كان الثلج الذي قذفه مخلوطاً بالدم. وعلى ضوء القمر، رأى أرسيني أشباح المنازل البعيدة. فمشى باتجاهها وهو يتمايل. كانت المنازل عتيقة ومتداعية، فأدرك أرسيني أن مساكين يعيشون فيها. خرج الناس على طرقه بالعصي. وقالوا:

- اذهبْ ومُت، أيها المجذوب، حتى في البيت لا خلاص منك.

غادر أرسيني هؤلاء الناس لأنه لم يجد عندهم التعاطف معه. مشى على طول المنازل وفي نهاية الشارع لاحظ سقيفة متهالكة. ولأنَّ عينيه اعتادتا على الظلام، فقد رأى عدة أزواج من العيون في زاوية السقيفة. إذ انعكس ضوء القمر في العيون، وانسلَّ من خلال الشقوق في المأوى. نظرت إلى أرسيني كلاب كبيرة. فوقف على أربع وزحف إلى الكلاب. بدأت الكلاب تهرُّ بصوت مهموس، لكنَّها لم تهاجم أرسيني. استلقى بينها وغفا. وعندما استيقظ، لمْ تعد الكلاب بجانبه فقد اختفت.

«كم أنا تافه» (قال أرسيني لأوستينا). «لقد تخلى عني الله والناس. وحتى الكلاب، فلأنها تركتني، يعني أنها لا تريد التعامل معي. وحتى أنِّي نفسي أشعر بالاشمئزاز والتقزُّز من جسمي القذر والأزرق من الكدمات. كل هذا يدلّ على أنّ وجودي الجسدي لا معنى له وأنه يقترب من نهايته. لذلك، يا حبّي، ليس عن طريق صلاتي، سيتمّ العفوُ عنك».

جلس أرسيني القرفصاء، وشبك يديه على رأسه وخبَّأه في حضنه. فقد أدرك أنه لم يعد يشعر لا برأسه ولا بيديه وركبتيه. ولا يُسمَع منه إلا

قلبه الذي ينبض بشكل ضعيف. قلبه وحده لم يتجمَّد بعدُ، لأنَّ مكانه عميق داخل الجسم. «حسناً» (فكَّرَ أرسيني)، «إنّي قد ودَّعتُ جزءاً من جسدي. من الواضح أن توديع ما لم يتجمَّد بعد، سيكون أسهل بكثير».

وعندما فكر أرسيني بذلك، شعر أنه تدريجياً كان يمتلئ بالدفء من الداخل. وما إن فتح أرسيني عينيه، حتى رأى أمامه شابّاً، جميل المظهر. كان وجهُه يضيء مثل شعاع من نور الشمس، ويحمل في يده غصناً مليئاً بالزهور القرمزية والبيضاء. لم يكن هذا الغصن مثل غصون دار الفناء، وكان جمالُه خارقاً.

سأل الشاب الوسيم الذي يحمل الغصن في يده:

- يا أرسيني، أين أنت الآن؟

- أنا جالس في الظلام، محاط بالحديد، في ظل الموت (أجاب أرسيني).

عند ذلك ضرب الشاب أرسيني بالغصن على وجهه وقال:

- يا أرسيني، خذ لجسمك كله حياةً لا تُقهَر وتطهيراً وإنهاءً لمعاناتك من هذا الزمهرير.

ومع هذه الكلمات دخلت إلى قلب أرسيني رائحة الزهور والحياة التي مُنِحَتْ له للمرة الثانية. عندما رفع نظره، اكتشف أن الشاب أصبح غير مرئي. فأدرك أرسيني مَن هذا الشاب. يتذكّر كلمة نشيد الإنشاد الباعثة للحياة: الربُّ يريد أن ينهزم ناموسُ الطبيعة. لأنه وفقاً لناموس الطبيعة، كان على أرسيني أنْ يموت. ولكن، عندما حلَّق نحو الموت، التُقِطَ وأُعيدَ إلى الحياة.

-ف-

منذ ذلك الحين، سار زمن أرسيني بطريقة أخرى. وبتعبير أدقّ، توقّف ببساطة عن التحرك ومكثَ في حالة من السكون. وصار أرسيني يرى الحوادث التي تجري في العالم، لكنه يلاحظ أنها تنتشر بشكل غريب على مر الزمن ولم تعد تعتمد على الوقت. وفي بعض الأحيان تجري تلك الحوادث الواحدة تلو الأخرى، وكما في السابق، في بعض الأحيان تأخذ ترتيباً معاكساً. وفي حالات نادرة كانت تحدث من دون أي ترتيب، وبتعاقب مختلٍّ ومن دون وازعٍ من ضمير. ولم يُتَح للزمن التعامل معها. إذ رفض الزمن التحكم بمثل هذه الحوادث.

«لقد اتضح هنا أن الحوادث لا تجري دائماً وفق الزمن» (قال أرسيني لأوستينا). «ففي بعض الأحيان تجري لحالها، خارج إطار الزمن. وأنتِ، يا حبّي، تعلمين هذا جيداً، لكنني هنا لأول مرة أصطدم بهذه الحالة».

لاحظَ أرسيني كيف يذوب ثلج الربيع وكيف تنسكب المياه الموحلة في النهر العظيم عبر الميزاب الذي حفرته الراهبات. فكلّ ربيع، تنظّفُ الأخواتُ هذا الميزاب، لأنه في الخريف ينسدُّ بأوراق أشجار البلوط والقيقب. تلك الأوراق تكنسها الرياح حتى منزل أرسيني، ولا يرفض أرسيني هذا الفراش، لأنه يعدّه معجزة.

يرى أرسيني كيف تظهر شمس يونيو (حزيران) المبكرة بعد مطر الليل. والماء لا يزال بعد يرتجف فوق الأوراق. وتنفصل بسحب البخار من قبة القدّيس يوحنا المعمدان، وتختفي في السماء الزرقاء بشكل

ساحر لا مثيل له. تتكأ الأخت بولخيريا على المكنسة وتراقب تبخر الماء. تلمس الرياح الدافئة خصلة شعرها الحنطي اللون، التي خرجت من تحت المنديل. الأخت بولخيريا تخدش الشامة بعناية وتموت من تسمم الدم. إنها ترقد في قبر جديد على بعد بضعة ساجنات[1] من منزل أرسيني. قبرها مغطى بالثلوج.

في الخريف عند تساقط أوراق الأشجار، تأتي رئيسة الراهبات إلى أرسيني. وتقول:

– لقد حان الوقت لي لأن أنتقل من هذا العالم الباطل إلى المسكن الأبدي الخالد. باركْني، يا أوستين.

الأوراق تنزلق بحفيف من خلال ردائها الكهنوتي. أرسيني يبارك رئيسة الراهبات.

«ليس عندي مثل هذا الحق لأبارك» (يقول هذا لأوستينا). «لذا، يا حبي، أفعل ذلك لا عن حق، ولكن عن جسارة، طالما أنَّ المرأة طلبت ذلك. إضافة إلى ذلك، طريقها بعيد فعلاً، وهي تعرف ذلك».

تموت رئيسة الراهبات.

يوم صيفيّ حار، أمام كنيسة القدّيس يوحنا المعمدان، تقف الأخت أغافيا متكئةً على مكنسة. إنها تنظر إلى قبة الكنيسة، ويدها تمتد إلى وحمة على وجهها. وفي منتصف الطريق تُوقِف يدُ أرسيني يدَ الراهبة أغافيا. لقد تمكّن في الوقت المناسب.

«سوف تعيش»، يفكّر أرسيني، وهو يبتعد.

إنه يدخل بيت الكاهن يوحنّا بمشية راسخة. يفتح الباب بقفزة سريعة. يندفع على أثر أرسيني تيار زمهريري مقعقع. يجلس الكاهن يوحنّا وعائلته على الطاولة. تستعد زوجة الكاهن لتقديم الطعام. إنها تنظر في النافذة الضبابية، التي لا شيء خلفها سوى الثلج. ينظر الكاهن يوحنا أمامه، وكأنه يحاول أنْ يرى مصيرَه في المستقبل. تقوم زوجة الكاهن بإيماءة

1– ساجن – القامة: وحدة قياس روسية قديمة.

صامتة، داعيةً أرسيني إلى مشاركتهم الطعام. الإيماءة تنطلق من زوجة الكاهن وتطير إلى الباب المفتوح. أرسيني لا يلاحظها. يتكدَّس الأطفال على الدكّة وينظرون إلى أيديهم الممدودة على رُكَبهم. تُحرِّكُ أصابعُهم بقلقٍ قماشَ قمصانهم الخشن. أرسيني بالنسبة لهم يشبه كرة البرق، التي شاهدها والدهم ذات مرة. علمهم أبوهم أنه عندما تضرب كرة البرق، فمن الأفضل عدم التحرك وعدم فضح النفس. والاكتفاء بالتنفس والتسمر في المكان. إنهم يتسمَّرون في أماكنهم. أرسيني يُمسِك بسكّينٍ من المائدة ويهرع إلى الكاهن يوحنّا. يواصل الكاهن يوحنَّا النظرَ إلى أمامه ولا يبدو أنَّه يلاحظ أرسيني. إنه، في الواقع، يرى كلَّ شيء، لكنَّه لا يحسبُ أنَّ من الضروري مقاومة القدر. أرسيني يلوِّح بالسكين على وجه الكاهن يوحنا. الكاهنٍ كسابق عهده لا يتحرَّك ويفكِّر، ربما، بكرةِ البرق. وبحقيقة أنَّها، على كلٍّ حال، عثرت عليه. يلقي أرسيني السكِّين على الأرض ويخرج من الكوخ راكضاً. الكاهن يوحنا لا يشعر بالتحسّن. يدرك أنَّ ما حدث هو تنبُّؤ. إنَّه مجرَّد وميضٍ خفيف، وهو في انتظار وصول البرق. وهو يتوقَّع أنَّ هذه المرة سيكون من الصعب أنْ يفوِّت أحدهُما الآخر.

أرسيني يسير في ضاحية زابسكوفيه، والأولاد يترصَّدونه. يطرحونه على ألواح الطريق. عدَّةُ أزواج من الأيدي تضغطُه على الألواح، على الرغم من أنه لا يقاوم. والشخص الذي بقيت يداه غير مشغولَتين، يسمّر حواف قميص أرسيني إلى الألواح. أرسيني يشاهد كيف يضحك الأولاد، ويضحك هو أيضاً. وفي كل مرة، عندما يثبت الأولاد قميصه على الرصيف، يضحك معهم. ويطلب بصمت من الله ألّا يلومهم ولا يحاسبهم على ذلك. كان بإمكانه أن ينتزع قميصه برفق من المسامير، لكنه لا يفعل ذلك. أرسيني يريد أن يُدخِل السرور على الأولاد. يقف فجأة، وينقلع طرف قميصه بقرقعة. يتدحرج الأولاد من الضحك على الأرض. بقيّة اليوم يقضيه أرسيني بالبحث في القمامة عن قصاصات قماش ويخيطها بدلاً عن طرف قميصه الممزق. وبعد أن رأى الأولاد الخرق الجديدة على قميصه جعلوا يضحكون أكثر من قبل.

ما إنْ يَفرُّوا حتى يحلّ الهدوء. يبقى صبيٌّ واحد فقط، يأتي هذا الصبي إلى أرسيني ويحتضنه. وهي يبكي. أرسيني يعلم أن الصبي يرثي لحاله، ولكن يخجل من إظهار ذلك أمام الجميع، وينقبض قلب أرسيني. إنه يريد أن يكون هذا الطفل سعيداً، لأنه في ملامحه سيعرف ملامح طفل آخر. فيبكي أرسيني. إنه يقبّل الفتى على جبيه ويهرب، لأن قلبه يكاد أن ينفجر. يختنق أرسيني من البكاء. إنه يركض، والتنهدات تهزه، والدموع تطير من خديه في اتجاهات مختلفة، وتنبت على جنبات الطريق نباتات بسيطة متنوعة.

في الربيع يرتفع النهر العظيم، وفي بعض الأماكن تعوم جنبات الطريق الخشبية. الطين يغمر ضاحية زابسكوفيه. يعجن الكاهن يوحنا الطين وهو يمشي في طريقه إلى المنزل. يسمع الصليل الدهني للطين خلفه. ويستدير ببطء. أمامه يقف رجل يحمل سكيناً، وكله وحل. يضع الكاهن يوحنا بصمت يده على صدره. وفي رأسه تومض ذكرى نبوءة أرسيني. تصدح في صدره أصوات الصلاة، التي لا يُسعفه الوقت للنطق بها. يطعنه الرجل بثلاث وعشرين ضربة من السكين. ومع كل ضربة يتأوّه ويئن من الشدة. يبقى الكاهن يوحنا راقداً في الوحل. وفي المكان نفسه، تضيع آثار الرجل. يقال، وكأنه لم يكن ثمة رجل، ما كان إلا صفق الطين. اندفع الكاهن يوحنا بقوة وتدفق على الفور على طول الطريق. بعد وقت قصير، تُسمَع صرخة خارقة. تنطلق عبر النهر العظيم وعبر نهر بسكوفا، منتشرةً على مدينة بسكوف بأكملها. إنه الكاهن يصرخ.

وصل مبعوثون عن غافريل حاكم المدينة. ويقولون:

– إنك، يا أوستين، شخصٌ مميز، وزيارتك مفيدة. زوجة الحاكم تؤلمُها أسنانُها للأسبوع الثالث، فهل يمكنك مساعدتُها؟ لقد جاءها العديد من الأطباء، ولكن في الواقع لم تتحسَّن حالتُها. والحاكم يدعوك إليه، ويأملْ في مساعدتك.

ينظر أرسيني إلى أولئك الذين أتوا من طرف الحاكم غافريل. إنهم

ينتظرون. يقولون إن زوجة الحاكم يمكن أن تأتي إليه في المقبرة، لكنها تخشى الذهاب إلى المقبرة. يهزّ أرسيني رأسه. يمدّ يده في فمه، ويسحب سن العقل ويسلمه لأولئك الذين جاؤوا. إنهم يفهمون أنّ هذا هو جواب الرجل المبارك على طلبهم. وبكل الحذر يحملون سن أرسيني إلى زوجة الحاكم. تضعه زوجة الحاكم في فمها، فيسكن وجع أسنانها.

يأتي الحاكم غافريل مع حاشيته إلى أرسيني. يجلب له ملابس ثمينة ويطلب من أرسيني أنْ يرتديها. فيرتديها أرسيني. يُجلَب له وللحاكم غافريل كأسان من الخمر. يشرب الحاكم، فينحني أرسيني، ويستدير شطرَ الشمال الشرقي، ويسكب الكأس ببطء على الأرض. فيلمع مسيل الخمر بحافات مصقولة، وهو يشكّل لولباً أثناء سقوطه. تمتص الأعشاب الرطوبة الثمينة. الشمس في كبد السماء في ذروتها. فيقطّب الحاكم غافريل جبينه عابساً.

- هل حقاً لا تفهم (يسأل فوما المجذوبُ الحاكمَ) لماذا قام عبد الله أوستين بصبِّ خمرك في اتجاه الشمال الشرقي؟

لا يفهم الحاكم هذا ولا يميل حتى لإخفائه.

- إنك، يا رجل (يقول فوما المجذوب)، ببساطة لست على بيِّنة من حقيقة أنه في هذا اليوم في مدينة نوفغورود الكبرى شبَّ حريق، وعبد الله أوستين يسعى ليسكب عليه بالوسائل المتيسرة.

يرسل الحاكم غافريل أشخاصاً من طرفه إلى مدينة نوفغورود الكبرى لكي يستعلموا بشكل موثوق عن ما حدث. وبعد عودتهم يقدِّمون تقريراً إلى الحاكم غافريل أنَّ صباح ذلك اليوم المحدَّد في نوفغورود، في واقع الأمر، شبَّ حريقٌ هائل، ولكن عند الظهر تقريباً قوة مجهولة لأهالي نوفغورود أطفأته. لم يَرُدَّ الحاكم بكلمة. أعطى إشارة للحاضرين أن يخرجوا، فغادروا وهم راكعين. يقوم الحاكم بإشعال المصباح. تصل كلمات صلاته المهموسة إلى أولئك الذين يقفون وراء الأبواب.

يذهب أرسيني وهو يرتدي الملابس المهداة له إلى الحانة. زُوّار

الحانة يخلعون عن أرسيني الملابس ويعتزمون أن يسْكَروا بالمال الذي حصلوا عليه من الملابس لمدَّة ثلاثة أيام وثلاث ليال. لدى أرسيني حزمة فيها ملابس قديمة، فيلبسها على الفور. يتنهَّد شاعراً بالراحة. يطلب زوّار الحانة أن تُقدَّم لهم الكؤوس الأولى. ما إن يرى أرسيني هذا، حتى يُسقِط الأقداح من أيديهم. تتدحرج الأقداح مطلقةً طقطقة، وهي تصبُّ محتوياتها عبر الأرض. يطلب الزائرون أقداحاً ثانية، لكن أرسيني لا يسمح لهم أن يشربوا مرة أخرى. أحدهم يريد ضرب أرسيني في وجهه، لكن صاحب الحانة يمنعه من القيام بذلك. فصاحب الحانة يعرف أنه سيكون المسؤول عن الضرب، لهذا يدفع الزوار ويُخرجهم بالركلات. يتفرّق الزوّار إلى منازلهم وهم صاحون ومعهم مال. وعندما يأخذ ذوو العائدين المالَ لا يستطيعون أن يجدوا لهذه الظاهرة تفسيراً معقولاً. ويبقون في حيرة مطلقة.

- لكن هل تعلم (يسأل فوما المجذوبُ أرسيني)، كم سنة مرّت منذ ظهورك هنا؟

أرسيني يهزّ كتفيه.

- حسناً، أنت لست بحاجة إلى معرفة ذلك (يقول فوما الأبله). عشْ في الوقت الحالي خارج الزمن.

أرسيني يلقي كتلاً من الوحل على بعض سكان زابسكوفيه المحترمين. فهو يميّز خلف ظهورهم بشكل لا لبس فيه بين الشياطين الكبيرة والصغيرة. السكان غير راضين.

العزاء الوحيد في ذلك، يقول أرسيني لأوستينا، أنّ الشياطين أكثر انزعاجاً منهم.

وفي بعض الأحيان يرمي الحجارة على أبواب الكنائس. هناك أيضاً، يتكدَّس عددٌ كافٍ من الشياطين. إنهم لا يجرؤون على دخول الهيكل فيتشبَّثون عند المدخل.

عندما ترى رئيسة الراهبات الجديدة كيف يصلِّي أرسيني في الليل، تقول:

- في النهار عبد الله أوستين يُضحِك الناسَ، وفي الليل يبكي على هذا العالم.

تُحضَرُ إلى الدير يفبراكسيا، ابنة النجار أرتومي. قبل شهرين، سقطت على يفبراكسيا عتبة السقف في الحظيرة، ومنذ ذلك الحين ترقد بلا حراك. والمرض لا يسمح لها بالعودة إلى الحياة، لكنه لا يتركها تهوي إلى الموت. ولا يعرف المحيطون بيفبراكسيا إلى أيّ الحالتين هي أقرب.

توضَع يفبراكسيا في صومعة الضيوف وتُقرأ عليها الصلوات. في أيام الصحو، تُنقَل إلى فناء الدير وتُقرأ عليها الصلوات في الهواء الطلق. تُحرِّك الريح شعر يفبراكسيا، لكنها نفسها تبقى ثابتة. يقترب أرسيني من سرير يفبراكسيا في الفناء. يأخذ يفبراكسيا من يدها.

«الحياة لم تتركها بالكامل» (يقول أرسيني لأوستينا). «أشعر أنها يمكن أن تستيقظ. إنها بحاجة إلى المساعدة فحسب في هذا».

يضع أرسيني كفّه على جبين يفبراكسيا. شفتاه تتحركان. تفتح يفبراكسيا عينيها. ترى أرسيني والراهبات من حولها. إنه يوم صيفيّ دافئ. ظلال الأشجار حادّة. إنهم يتحرّكون على إيقاع حركة الشمس. أوراق الزيزفون لزجة، وترتعش قليلاً في الريح.

- إننا نحتفل بعودة يفبراكسيا، تقول رئيسة الراهبات الجديدة، لكننا نتذكر أيضاً أنها عودة مؤقتة، لأن كل شيء مؤقّت على هذه الأرض.

- كنت أتمنى التحدّث معها ولو لمرة واحدة، يقول النجار أرتيمي. والآن سأتحدث معها باستمرار. بالمعنى، طبعاً، المؤقت. أبكي عند التفكير برحمة الله التي لا نهاية لها ولا اضمحلال، والنعمة التي نزلت على عبد الله أوستين. وكلنا، الحاضرون، بدون استثناء، قادرون على تنفس هواء النهار الصيفي الدافئ والاستماع إلى زقزقة الطيور. من دون استثناء، لأنه لولا أرسيني، لكان هذا الاستثناء هو ابنتي يفبراكسيا.

يقف النجار أرتيمي أمام أرسيني على ركبتيه ويقبِّل يدَه. يسحب أرسيني يده، ويعبر النهر العظيم على الجليد، ويذهب إلى ضاحية

زابسكوفيه. في وقت مبكر من الصباح، يخرج سامسون صانع الكعك مع بضاعته. إنه في انتظار المجذوب كارب، الذي يجب أن يختطف منه كعكة واحدة. يأتي كارب المجذوب يختطف كعكة، ويحملها واضعاً يديه وراء ظهره، ويذهب بعيداً عن سامسون صانع الكعك. يبتسم صانع الكعك بابتسامة رضاً. يستقر البخار من فمه متجمداً على لحيته. يمرّر يده على لحيته ويقول:

- إنه من أهل الله، ألا ترون. مبارك.

لا تكفي الكلمات (كالعادة) للتعبير عن مشاعر صانع الكعك بشكل كامل. يرمي كارب المجذوب (كالعادة) الكعكة، ويلتقطها الفقراء. ويمضغ كارب الباقي في فمه من الكعكة.

عندما يفرغ فمه، يصرخ:

- من سيكون رفيقي إلى القُدس؟

الناس الذين التقطوا الكعك يظلّون في حيرة. ويقولون:

- إن صاحبنا كارب يتبالَه. مَن سيذهب من بسكوف إلى القُدس؟

- من سيكون رفيقي في الدرب إلى القدس، يصرخ كارب المجذوب بأولئك المجتمعين.

يجيب المتجمهرون:

- القدس، إنها أبعد المدن. كيف نصل إلى هناك؟

يتطلّع كارب المجذوب في أرسيني من دون أنْ يرمش له طرف. أرسيني صامت، لكنه لا يلتفت. لديه غصة في حلقه. يريد أن يطيل النظر إلى كارب المجذوب، وهذا ما جاء من أجله. يتغاضى كارب، ويسحب رأسه إلى كتفيه ويترك المكان.

- كارب، كارب، كارب (يقول مستغرقاً بالتفكير).

جُلب إلى الدير دافيد الواهن. دافيد مريض من أيام شبابه. إنه غير قادر على التحرُّك ولا يستطيع حتى أن يثبِّت رأسه. فعندما يطعمون دافيد العصيدة، يرفعون رأسه. وفي بعض الأحيان تسقط العصيدة من فمه. آنذاك

يجمعونها بملعقة من ذقنه ويعيدونها إلى فمه. نُقِلَ دافيد إلى مقبرة الدير. ووضِعَ بحذر على تلة المقبرة بالقرب من منزل أرسيني. وقال مَن أحضره:

– ساعدنا، يا أوستين، إذا استطعت.

أرسيني لا يجيب بشيء. يقطف القرّاص بيدين عاريتين من على القبور ويضعه في حزمة. عندما تكون الحزمة جاهزة، يسوط أرسيني أولئك الذين يأتون على وجوههم وأيديهم. فيشعرون بأن وجودهم هنا غير مرغوب فيه. ويغادرون، تاركين دافيد يرقد على القبر. بعد التفكير، يسوطه أرسيني بالقرَّاص. دافيد يستهجن، لكنه يبقى راقداً، لأنه ليس لديه مَخرجٌ آخر. الشمس تتحرك أسرع من المعتاد. القمر يظهر في السماء.

يركع أرسيني على ركبتيه بجانب دافيد ويلامس يديه. ويتفحص بشرة دافيد البيضاء والخاملة تقريباً. إنه جلد مخلوق لضوء القمر. يمسحه أرسيني بأصابعه ويبدأ في دعكه بقوة. يتحول إلى اليد الأخرى. يقلب المريض المسترخي على بطنه. ويفرك جسده شبه الميت بكل ما أوتي من قوة، وكأنه يضخ فيه قوة الحياة. ويفرك ظهر دافيد على طول العمود الفقري. ويمرِّن رِجلَي دافيد، من الجهة التي تدلَّيتا بها من تلّة القبر، فترتعش يدا دافيد. المريض يشبه دمية كبيرة. تأتي رئيسة الراهبات الجديدة مرتين في الليلة إلى المقبرة وتشاهد عمل أرسيني المتواصل. مع ظهور أشعة الفجر الأولى، ينهض دافيد ببطء على قدميه. يقوم بعدة خطوات ضعيفة باتجاه الهيكل، حيث تنتظر عائلته. يفقد دافيد قوته، لأن عضلاته غير معتادة بعدُ على المشي. يندفع أقارب دافيد عليه ويمسكونه من يديه. يفهمون أن الخطوات الأولى هي الأكثر أهمية. ولكنها الأصعب.

«ما هذا»، تسأل رئيسة الراهبات الجديدة الحاضرين، «ولكن أولاً وقبل كل شيء»، تسأل بنفسها، «هل هو نتاج الأنشطة العلاجية لأخينا أوستين أو معجزة الربّ بالإضافة إلى التأثير البشري؟». في الواقع، تجيب رئيسة الراهبات بنفسها: «لا تتناقض الفكرتان مع بعضها بعضاً، لأنّ المعجزة يمكن أن تكون نتيجة لعملٍ مضافٍ إليه الإيمان».

يجمع أرسيني الأعشاب قرب النهر العظيم وفي غابات بسكوف. تقع أراضي بسكوف جنوب بيلوزيرسك وتنتج الكثير من الأعشاب. إذ توجد هنا حتى أعشاب لم يصفها كريستوفر في وقته. يحزر أرسيني تأثيرها من رائحتها ومن شكل أوراقها. يجفف هذه الأعشاب في سقيفة الدير ويجربها على نفسه. ويجفف أعشاب أخرى.

بعض محبي المسيح يصطادون سمكة كبيرة في النهر العظيم ويعطونها إلى الكاهن قسطنطين. تقوم الأم مارفا بطبخ السمكة لطعام العشاء. وتحذر زوجها من أن الأسماك الكبيرة لها عظام كبيرة وتدعوه لتوخي الحذر. الكاهن قسطنطين، رجل غير مبالٍ، فيأكل السمكة ساهياً، من دون أن يفكر في عظامها. فهو غارق في التفكير في كنيسة الأبرشية التي يجري بناؤها. يحاول مرة أخرى أن يحسب عدد المواد التي اشتراها ويخشى ألّا تكون كافية. لم يلاحظ الكاهن قسطنطين على الفور كيف أن عظماً مقوَّساً شبيهاً بكسرة شوكة يدخل إلى حلقه، مع لحم السمك الرقيق. يسعل، فتطير قطع السمك من فمه - كلّها ما عدا العظم.

يَعلَق العظم في حلقه بثلاث نقاط. إنه لا ينزل بعدُ إلى الأسفل، ولكنه لا يرتفع إلى الأعلى. لقد هبط كثيراً بحيث لا يمكن التقاطه باليد. تدق الأم مارفا على ظهر زوجها، ولكن العظم يبقى بلا حراك. يرقد الكاهن قسطنطين على بطنه على الطاولة، ويتدلى رأسه إلى الأرض تقريباً، ويحاول أن يُخرِج العظم بالسعال. يسيل من فمه اللعاب مخلوطاً بالدم، لكن العظم لا يتزحزح من مكانه.

يحضر الطبيب تيرينتي إلى الكاهن قسطنطين. يطلب تيرينتي من المريض أن يفتح فمه ويدس شمعة في فمه. ولكن حتى في ضوء الشمعة، لا يُرى العظم. يحاول تيرينتي دفع أصابعه الطويلة إلى حلق المريض، لكن حتى أصابعه غير قادرة على تلمّس العظم. يهتز الكاهن قسطنطين بصمت من حركات التقيؤ ويفلت أخيراً من يد الطبيب. الأم مارفا تطرد تيرينتي من الكوخ.

- إنهم يرفضون المساعدة الطبيّة (قال الطبيب ترينتي للناس الذين تجمعوا في الشارع. ووضع يده على قلبه). إنهم على حق، لأن عمق نزول العظم يتجاوز قدرات الطبّ الحديث.

بعد ليلة من المعاناة، يُنقل الكاهن قسطنطين عبر النهر إلى ضاحية زابسكوفيه. وعند وصولهم إلى مقبرة دير القدّيس يوحنا، يضعون الكاهن أمام أرسيني. لكن المريض لم يعد قادراً على الوقوف، يجلس على شاهد قبر. وقد تورَّم حلقه، وأخذ يلهث. وفي عينيه الألم والجزع: وتهيَّأ له أنه سيُدفن في الحال. إنه خائف من أنَّ ألمه لن ينتهي حتى بعد موته.

يجلس أرسيني القرفصاء أمام الكاهن قسطنطين. يجسّ رقبته بكلتا يديه. يتأوَّه الكاهن بصوت خفي. فجأة يمسكه أرسيني من رجليه ويرفعه فوق الأرض. يهزَّه بقوة غير متوقعة وبغضب. غضبُ أرسيني موجَّهٌ ضد المرض. تنطلق من حلق المريض صرخة ومخاط أحمر والعظم.

يرقد الكاهن على الأرض ويتنفَّس بصعوبة. ينظر بعيون شبه مغمضة إلى سبب معاناته. يريد بعض الذين تصادف وجودهم في المقبرة أن يرفعوه، لكنه يوقفهم بيده: إنه يحتاج إلى التقاط أنفاسه. الأم مارفا تجثو على ركبتيها أمام أرسيني. ينحني أرسيني ويمسك الأم من رجليها، محاولاً رفعها. الأم تصرخ. إنها ثقيلة جداً، وأرسيني لم يعد لديه الكثير من القوة.

- واقعاً لا يمكن رفعها، يهمس الحاضرون، وهم يهزون رؤوسهم.

يترك أرسيني الأم مارفا ويغادر المقبرة. تلف الأم العظم في منديل كذكرى لامتنان العائلة لأرسيني.

تموت آنا ابنة الحاكم غافريل. في السنة السادسة عشرة من عمرها. إذ تزحلقت آنا على العبّارة، ثم سقطت في الماء وهوت كالصخرة إلى القاع. يقفز العديد من الناس بحثاً عنها. يغوصون في اتجاهات مختلفة، محاولين أن يحزروا المكان الذي انجرف باتجاهه جسد الفتاة. إنهم يغطسون وعندما يختنقون يخرجون ويملؤون رئاتهم بالهواء ويغوصون مرة أخرى في الماء. يَصِلون بصعوبة إلى قاع النهر العظيم، لكنهم لا

يستطيعون العثور على ابنة الحاكم. الماء عكر. مجرى الماء سريع ومليء بالدوامات. أحد الغاطسين يكاد يغرق، ولكن جهود الغواصين تذهب سدىً. يعثرون على جثة الغريقة في أسفل مجرى النهر بعد عدة ساعات، بعد أنْ جرَّها التيار إلى القصب.

الحاكم غافريل يخرج عن طوره من شدة الحزن. إنه يريد أن يدفن ابنته في دير القدّيس يوحنا ويذهب إلى رئيسة الراهبات في الدير. تخبره رئيسة الراهبات أنَّ الأفضل لآنّا أن تُدفَن في الجبّانة. يمسك الحاكم غافريل رئيسة الراهبات من كتفيها ويهزها لمدة طويلة. تنظر رئيسة الراهبات إلى الحاكم من دون خوف، لكن بحزن. إنها تسمح للحاكم أن يدفن ابنته في الدير. يأمر الحاكم أنْ تُقَلَّد آنا بحليها ومجوهراتها الذهبية والفضية، لكي لا تفقد جمالها حتى وهي ميتة. يستقبل سكان ضاحية زافيليتشيه وأجزاء أخرى من بسكوف العبارة التي تحمل الجثة. الجميع يجهشون بالبكاء. يوارون آنا الثرى بالبكاء والعويل. الجميع يغادرون باستثناء الحاكم. يبقى ممدداً لعدة ساعات على القبر الجديد. وعندما يحل الليل، يُخرجونه من هناك. يبقى في المقبرة أرسيني لوحده، مستنداً إلى أشجار البلوط المتداخلة. يبدو أنه تداخل معها أيضاً بعد أن اكتسب لون لحاءها وسكونها.

هذا الانطباع خاطئ، لأن جوهر أرسيني ليس شجرياً، بل جوهر إنسانٍ وصلاةٍ. ففي داخله قلب ينبض، وشفتاه تتحركان. إنه يطلب الهبات السماوية لآنا التي فارقت الحياة من مدة قصيرة. عيناه مفتوحتان كلَّ الفتح. ينعكس فيهما ضوء شمعة، وهذا الضوء يخترق المقبرة بتردد. ينعطف الضوء حول الصلبان ويرتفع على الأكِمات. وبعد أن يصل إلى قبر آنا، يتوقف. يدٌ خفية تُثبِّته على جذمور بالقرب من القبر. ويد أخرى تكسر غصناً من شجرة الحور وتغطي به الضوء من جانب الدير. تظهر مجرفة في دائرة وهج الشمعة. تجرف بسهولة تلة القبر. فالأرض الجديدة لا تتطلب جهداً. يقف الحفار بعمق الركبة في القبر. يقف لحد الخصر. وجهه يبدو على حدٍ واحد مع مستوى الشمعة. يتعرَّف أرسيني على هذا الوجه.

- يا جيلا، يقول بهدوء.

جيلا يرتعد ويرفع رأسه. لا يرى أحداً.

- إذا دخلتَ، يا جيلا، في هذا القبر إلى مستوى صدرك، فلن تخرج منه أبداً (يقول أرسيني). أليس مكتوباً في الرسائل التي سرقتها: موت الخاطئين عنيف؟

يرتجف جيلا. وينظر إلى السماء المظلمة.

- هل أنت ملاك؟

- هل يهم من أنا، أجاب أرسيني، إنْ كنتُ ملاكاً أو بشراً. في السابق كنتَ تسرق الأحياء، والآن قد أصبحتَ لصَّ قبور. اتضح أنه حتى أثناء الحياة يمكنك الحصول على خصائص ترابية وبسبب ذلك يمكنك فجأة أن تصبح تراباً.

- لذا، ماذا يجب أن أفعل، سأل جيلا، إذا كنت نفسي عبئاً على نفسي؟

- صلِّ من دون انقطاع، ولكن أولاً اردمْ القبر.

يردم جيلا القبر.

- لو لم يكن ملاكاً، لما عرفَ ما هو اسمي، يقول لشخص ما في الأعلى. لأنَّ اليوم هو اليوم الأول لي في مدينة بسكوف.

شيئاً فشيئاً تشيع شهرة الموهبة العلاجية لأرسيني في جميع أنحاء بسكوف. يأتي إليه الناس للعلاج من الأمراض بمختلف أنواعها ويطلبون منه تخفيف آلامهم. إذ يُحدِّثون المجذوبَ عن أنفسهم وهم يتطلعون في عينيه الزرقاوين. فيشعرون كيف تغرق متاعبهم في هاتين العينين. لا يقول أرسيني أي شيء ولا يومئ حتى إيماءة برأسه. يستمع باهتمام إليهم. فيبدو لهم أن انتباهه من نوع خاص، لأن من يتخلى عن الكلام يعبِّر عن نفسه من خلال السماع.

في بعض الأحيان يعطيهم أرسيني أعشاباً. تجد الأخت أغافيا، بعد أن تفتش في كيسه، رسالة كريستوفر الملائمة وتقرؤها على المريض

بصوت عالٍ. توصف عشبة الوقواق للمتسمم بغليها في الماء مع العرق: واستعمالها يجذب القيح من الأذنين. وتُعطى للذي تلسعه النحلة عشبة العكرش (النجيلة) ويُأمر بأن تُدلك اللسعة بها. يصغي أرسيني بصمت إلى قراءة الأخت أغافيا، على الرغم من أنه لا يميل للمبالغة بأهمية الأعشاب المقترحة. إذ علَّمته التجربة الطبية أن الأدوية في العلاج ليست هي الشيء الرئيس.

لا تشمل مساعدة أرسيني الجميع. وعندما يشعر بالعجز من تقديم المساعدة، يستمع إلى المريض ويُعرِض بوجهه عنه. وفي بعض الأحيان يضغط بجبينه على جبين المريض، وتنهمر الدموع من عينيه. يشارك المريض ألمه، وحتى يشاركه الموت إلى حد ما. فأرسيني يُدرِك أنَّ العالَم برحيل المريض لن يبقى كسابق عهده، ويمتلئ قلبه من ذلك بالحزن والأسى.

«لو كان فيَّ ثمة نور، لساعدته على الشفاء» (يحكي أرسيني عن مريضٍ لأوستينا). «لكن لا أستطيع أن أشفيه بسبب شدة خطاياي. هذه الخطايا لا تسمح لي بالسمو إلى أعلى حيث يكمن خلاص هذا الرجل. أنا، يا حبي، سبب موته ولهذا أبكي على رحيله وعلى آثامي».

لكن حتى أولئك المرضى، الذين لا يستطيع أرسيني علاجهم، يشعرون بالآثار المفيدة للتواصل معه. فبعد اللقاءات مع أرسيني، يصبح الألم، كما يبدو لهم، أقل ويتناقص معه الخوف كذلك. فأولئك الذين لا يشفون من أمراضهم يرون أنه الشخص القادر على فهم عمق معاناتهم، لأنه ينحدر في دراسة الألم إلى قعره.

يأتي إلى أرسيني ليس المرضى فحسب. إذ تأتي إلى المقبرة النساء الحوامل. فينظر إليهن من خلال الدموع ويضع يده على بطونهنَّ. وبعد لقائهنَّ مع المجذوب، يشعرنَ بتحسُّن، وتجري الولادة بسهولة. وتأتي إليه المرضعات اللواتي جفَّ حليبهنَّ. فيعطيهنَّ أرسيني عشبة الماميران. وإذا لم تساعدهنَّ العشبة، يقود أرسيني النساء إلى واحدة من

حظائر الأبقار في زافيليتشيه ويأمرهنَّ بحلب البقرة. ويراقب كيف تنضح النداوة البيضاء من خلال أصابعهنَّ الحمراء. وكيف يهتزُّ ضرع البقرة المُتَراص. وأهل الدار يقفون خلف الباب. إنهم أيضاً يراقبون. فهم يعرفون أن مجيء المجذوب والمرأة هو نعمة. يوجِّه أرسيني إشارة إلى المرأة المرضعة لكي تشرب الحليب. فتشرب وترى كيف ينتفخ ثدياها. فتسارع إلى طفلها.

يعبر أرسيني النهر العظيم. يلاحظ في أثناء الرحلة أنه لا يوجد ثلج، ولكن الماء لا يزال بارداً. فمنذ الصباح الباكر تهبُّ الرياح الباردة من النهر مبرِّدةً هذا الجزء من المدينة. وفوما المجذوب يتطلَّع بعيداً في الأفق وهو يضيِّق عينيه. والرياح تعبث بلحيته. يقف كارب المجذوب، وهو يغطي وجهه بيديه. ويميل بنصف التفاتة إلى فوما المجذوب. سامسون لا يجبر نفسه على الانتظار طويلاً، يأتي مع صينية من الكعك. وابتسامة لطيفة على شفتيه. يرفع كارب المجذوب يديه عن وجهه في حالة من التعب ويشبكهما خلف ظهره. ينبض على صدغه عِرقٌ أزرق. إنه، في الواقع، ليس شابّاً. ملامحه رقيقة. يتقدم كارب المجذوب بمشية خفيفة كمشية الباليه من سامسون صانع الكعك ويأخذ أقرب كعكة بأسنانه. ويلتفت كارب المجذوب بعد أن يخطو خطوة عن الصينية. ينظر إلى سامسون بشفقة. يقوم سامسون، من دون تغيير في ملامح وجهه، برفع الصينية ويضعها بعناية على الأرض. يخطو عدة خطوات باتجاه كارب المجذوب. تتكسَّر الكعكة المتناسقة. تميل يده نحو بوط جزمته. ثمة شيء لامع وبارد وحاد. يقترب بائع الكعك من كارب. يتمطَّط كارب كالوتر. إنه أطول من صانع الكعك ويشعر بنفَسه عند رقبته. يدخل السكّين ببطء في جسم المجذوب. يا إلهي، يهمس سامسون، كم كنت أنتظر هذا اليوم.

كِتَاب الدَّرْب

-أ-

ولِدَ أمبروجو فليكيا في بلدة مانيانو. إلى الشرق من مانيانو، على مسافة يوم على صهوة حصان، تقع ميلان، مدينة القدّيس أمبروزيوس. وتكريماً للقدّيس، سمّي الصبي أيضاً أمبروجو؛ هكذا يُنطَق بلغة والديه. ويذكِّر، ربما، بأمبروسيا، شراب الخالدين. فوالدا الصبي كانا من صانعي النبيذ.

عندما كبر أمبروجو صار يساعدهم. كان مطيعاً ويُنفِّذ كل ما يُطلَب منه، لكن في عمله لم يكن ثمة فرح. وبعد أن راقب فليكيا الكبير مراراً ابنه خلسة أصبح مقتنعاً بهذا جداً. وحتى عندما كان يدوس العنب في الحوض بقدميه الحافيتين (وما يمكن أن يدخل السعادة على الطفل أكثر من ذلك؟!)، يبقى أمبروجو جدِّياً.

إنَّ فليكيا الكبير، صانع النبيذ أباً عن جد، شخصياً لم يعجبه المرح المفرط. فهو يعلم أن عملية تخمّر النبيذ - عملية بطيئة، بل ومملّة، وبالتالي تسمح لصانع الخمر بدرجة معينة من التأمّل. لكن الانعزال الذي قاربَ به ابنه إنتاج الخمر كان شيئاً آخر: في نظر والده كان محدوداً بعدم المبالاة. لكن القادر على صنع النبيذ الحقيقي (يتنهَّد فليكيا الكبير وهو ينفض عن أصابعه ثفل البذور المعصورة) هو الشخص المبالي فقط.

جاءت مساعدة الصبي لعمل الأسرة من جانب غير متوقع. فقبل خمسة أيام من جمع العنب، أعلن أمبروجو أنه يجب جني محصول العنب على الفور. وقال إنه في الصباح، عندما فتح عينيه، لكنه في الحقيقة لم يستيقظ، رأى في الحلم عاصفة رعدية. كانت عاصفة رعدية فظيعة،

ووصفها أمبروجو بالتفصيل. وفي الوصف كان ثمة ظلام دامس مفاجئ، ورياح عاتية، وحبات برَدٍ، تطير وهي تصفر، الواحدة بحجم بيضة الدجاج. وقصَّ الصبي كيف تَضرِبُ عناقيد العنب الناضجة بالجذوع بشدة، وكيف تخرق قطعُ الجليد المستديرة الأوراقَ بسرعةٍ وتدمِّرها وتسحق الثمار الساقطة على الأرض. وبالإضافة إلى كل شيء، هبط من السماء الزرقاء برْد قارس، وتغطى مكان الكارثة بطبقة رقيقة من الثلج.

لم يرَ فليكيا الكبير مثل هذه العاصفة الرعدية إلا مرة واحدة في حياته، أما الصبي لم ير مثلها مطلقاً. ومع ذلك، توافقت تفاصيل القصة كلها مع ما لاحظه والده بالضبط في وقته. أصغى فليكيا الأب، الذي لا يميل إلى التبصّر الروحي، إلى أمبروجو وأطاعه بعد تردّد، وشرع في جني العنب. لم يقل أي شيء لجيرانه، لأنه كان يخاف من السخرية. لكن بعد خمسة أيام، هبَّت فعلاً عاصفة رعدية فظيعة على مانيانو، وتبيَّن أنَّ آل فليكيا هم العائلة الوحيدة التي جنت محصولها ذلك العام.

رأى الصبي الأسمر رؤى أخرى. تطرّقت تلك الرؤى إلى مجالات الحياة بمختلف أنواعها، ولكنها كانت بعيدة تماماً عن صناعة النبيذ. فمثلاً، تنبأ أمبروجو بالحرب التي نشبت في عام 1494 في إقليم بييمونتي بين الملوك الفرنسيين والإمبراطورية الرومانية المقدَّسة. ورأى نجل صانع النبيذ بوضوح كيف سارت الوحدات الفرنسية المتقدمة من الغرب إلى مانيانو. لم يمس الفرنسيون السكانَ المحليين بأذى تقريباً، ولم يأخذوا إلا بعض الماشية من أجل إكمال مؤنة القطعات وعشرين برميلاً من نبيذ بييمونتي، الذي بدا لهم جيداً. وصلت هذه المعلومات لفليكيا الأب في 1457، أي قبل وقوعها بوقت مبكر جداً، الأمر الذي، في الواقع، لم يسمح له أن يستخلص منها الفوائد المحتملة. فقد نسي العمليات العسكرية التي تنبّأ بها ابنه في غضون أسبوع.

كما تنبّأ أمبروجو باكتشاف كريستوفر كولومبس لأمريكا في عام 1492. وهذه الحادثة أيضاً لم تجذب انتباه والده، لأنها لا تؤثر كثيراً

على صناعة النبيذ في بييمونتي. أدت رؤية الولد نفسه إلى هلع، لأنها تصاحبت بتوهج شرير في معالم سفن كولومبس الشراعية الثلاث كلها. لقد تأثر بالضوء السيِّئ حتى الجانب الدقيق عند المستكشف الأول. إنَّ كولومبس الجنوي الذي انتقل، بسبب قوة الظروف، إلى الخدمة في إسبانيا، كان، في الواقع، ينحدر من البلدة التي ولد فيها أمبروجو. لم تكن ثمة رغبة للتفكير بأنه في 12 أكتوبر من 1492، كان هذا الشخص يقوم بشيء غير مناسب، وبسبب هذا كان الطفل يميل إلى شرح تأثيرات الضوء بالتهيُّج الكهربائي المفرَط للغلاف الجوي للمحيط الأطلسي.

عندما كبر أمبروجو، أعرب عن رغبته في الذهاب إلى فلورنسا للدراسة في الجامعة هناك. لم يعارضه فليكيا الأب في ذلك. ففي ذلك الوقت اقتنع بصورة نهائية أنَّ ابنه لم يُخلَق لصنع النبيذ. وفي الواقع، كان واضحاً للجميع في مانيانو أن فليكيا الابن - معتمد على نفسه، لذلك فإنهم توقعوا أن يترك المكان من يوم لآخر. ومع ذلك، تأجل الرحيل بقرار من أمبروجو نفسه، الذي كان قادراً على التنبؤ بأن الطاعون سوف ينشب في فلورنسا للسنتين القادمتين.

في نهاية المطاف، وصل الشاب إلى فلورنسا. في هذه المدينة كان كل شيء مختلفاً: فقد كانت المدينة مختلفة تماماً عن مانيانو. وجدها أمبروجو متعافية من الطاعون، وكان لا يزال كل شيء هناك ممزوجاً بالحيرة والارتباك. وفي الجامعة، درس أمبريجو الفنون الحرة السبعة. فبعد أن استوعب مواد مقدمات العلوم (قواعد اللغة، والمنطق، والبلاغة)، انتقل إلى العلوم الأربعة، والتي شملت الرياضيات والهندسة والموسيقى وعلم الفلك.

وكما يحدث في الغالب في جامعات ذلك الوقت، كانت عملية الدراسة طويلة. وشملت عدة سنوات من الدراسة الدقيقة، التي تخلَّلها على مرّ السنين فهمٌ شاملٌ للدرس، وعندما تُعلَّق الدراسة في الجامعة، يجوب أمبروجو إيطاليا سائحاً فيها. وفي الواقع، لم تنقطع علاقة الطالب

مطلقاً بمدرسته الأم، حتى في أيام رحلاته إلى أقاصي وطنه - غير الكبير جداً لحسن الحظ.

ومن بين جميع المواد التي صادفها أثناء دراسته أحبَّ أمبروجو التاريخ على وجه الخصوص أكثر من غيره. لم يُنظر إلى التاريخ في الجامعة آنذاك بوصفه مادةً منفصلة: فقد جرت دراسته ضمن إطار المقدمات، بوصفه أحد مكونات مادة الخطابة. كان الشاب مستعداً للانكباب على المؤلَّفات التاريخية وقراءتها لساعات طوال. فلأن تلك الكتب كانت موجهة إلى الماضي، وتتحدث عن الماضي مثَّلَت بالنسبة إليه خروجاً من الحاضر (وهذا ما جعلها تتشابه مع الرؤى التي تتحدث عن المستقبل). فالتحرك على جانبي الحاضر صار حاجة ملحة لأمبروجو كحاجته للهواء، لأنه فتَّتَ البعد الواحد للوقت الذي كان يختنق فيه.

قرأ أمبروجو مؤلفات المؤرخين من العصور القديمة والوسطى. وقرأ الحوليات وسجلات الحوادث ومخطوطات التاريخ العالمي، وتاريخ المدن والأقاليم والحروب. وتعلَّم كيف تكونت الإمبراطوريات وكيف انهارت، وكيف حدثت الزلازل، وكيف سقطت النيازك والشهب وكيف فاضت الأنهار. وانتبه بشكل خاص إلى تحقق النبوءات، وكذلك ظهور العلامات وقيامها. وقد رأى في هذا الاختراق للزمن تأكيداً على عدم وجود الصدفة في أي شيء يحدث على الأرض. إذ يواجه الناسُ بعضهم البعض (فكَّر أمبروجو)، ويصطدم بعضهم ببعض مثل الذرات. إنهم ليس لديهم مسارهم الخاص، وبالتالي أفعالهم عشوائية. ولكن هذه الحوادث في مجملها (فكَّرَ أمبروجو) لها انتظامها الخاص، والذي يمكن توقُّعُه في بعض أجزائه. ولا يعرف ذلك كله إلَّا الذي خَلَقَ كلَّ شيء.

ذات مرة جاء تاجر من بسكوف إلى فلورنسا. كان التاجر يدعى فيرابونت. يتميَّز عن السكان المحلِّيِّين بطوله وببروز ذؤابتين في لحيته وبأنفه الكبير المجدور. فبالإضافة إلى حُزَم من جلود السمور جلب فيرابونت خبراً مفاده أنَّ الناس في روسيا ينتظرون نهاية العالم في عام

1492. تعامل الناس في فلورنسا مع هذه المعلومة على العموم بشكل هادئ. أولاً، لأنَّ أهالي فلورنسا مشغولون كثيراً بشؤونهم الجارية، ولم يكن لدى الكثيرين منهم الوقت الكافي للتفكير في أمور لا تهددهم بشكل مباشر. ثانياً ليس جميع الناس في فلورنسا يعرفون أين تقع روسيا. ونظراً للشكل غير العادي لفيرابونت نفسه (لم يكن واضحاً ما إذا كان جميع الناس في وطنه لديهم أنوف ولحى مماثلة لأنفه ولحيته) فقد تصوروا احتمال أنَّ روسيا تقع خارج نطاق العالم المأهول. وهذا أعطى السكان الأمل بأن النهاية المفترضة للعالم ستقتصر على روسيا وحدها.

بدى خبر التاجر فيرابونت مهمَّاً بشكل حقيقي لشخص واحد فقط من بين جميع سكان فلورنسا - هو أمبروجو. بحث الشاب عن فيرابونت وسأله، على أي أساس استند في استنتاجه حول نهاية العالم في عام 1492. أجاب فيرابونت، أن هذا الاستنتاج لم يكن هو الذي قام به، ولكن سمعه من أشخاص مختصِّين في بسكوف. ولأنَّ فيرابونت لم يكن قادراً على تبرير التاريخ الحتمي، عرض مازحاً على أمبروجو الذهاب إلى بسكوف لمعرفة التفسيرات. أمبروجو لم يضحك. أومأ برأسه متأمِّلاً، لأنه لم يستبعد مثل هذه الفرصة.

بعد هذا الحوار، بدأ يأخذ عند التاجر دروساً باللغة الروسية (القديمة). لم يَدُر في خلد فليكيا الأب على أي شيء تُنفق أمواله وحتى أنه لم يشك بشيء. وأمبروجو، في المقابل، لم يقل شيئاً لوالده من باب الفطنة والتبصّر: إنَّ وجود روسيا قد يبدو لفليكيا الأب مشكوكاً فيه أكثر من تفاصيل حرب عام 1494، التي وصفها له ابنه ذات مرة.

يرتبط بذلك الوقت نفسه، تعرُّف أمبروجو فليكيا على البحار المستقبلي أميريغو (أمريكو) فسبوتشي. فهِمَ أمبروجو من نظرة فيسبوتشي بسهولة إلى أين ستكون وجهته. وكان واضحاً أنه في 1490 سيتوجه أميريغو إلى إشبيلية، حيث يقوم، بعد أن يعمل في بيت التجارة التابع لجوانوتو بيراردي، بالمشاركة في تمويل حملات كولومبوس

الاستكشافية. وبدءاً من عام 1499، يقوم هذا الفلورينسي نفسه، بعد أن استلهم العزم من نجاح كولومبوس، برحلات عدة، التي كانت ناجحة جداً إلى درجة أنّ القارة المكتشفة حديثاً تكتسب اسمه من بعده، وليس اسم كولومبس. (في العام 1499 نفسه - ولا بدّ أنَّ أمبروجو قال هذا للتاجر فيرابونت - كان رئيس أساقفة نوفغورود غينادي يقوم، لأول مرّة في روسيا، بإعدادٍ كاملٍ للكتاب المقدَّس، الذي سيسمّى في وقت لاحق إنجيل غينادي).

أثار أمبروجو انتباه أميريغو فيسبوتشي إلى التقارب الغريب للحادثتين المزعومتين في عام 1492 - فمن ناحية اكتشاف قارة جديدة، ومن ناحية أخرى نهاية العالم المتوقعة في روسيا. إلى أي مدى (أمبروجو في حيرة) هاتان الحادثتان مرتبطتان، وإذا كانتا مرتبطتَين، فكيف؟ ألا يمكن (يخمِّن أمبروجو) أن يكون اكتشاف القارة الجديدة بدايةً لنهايةٍ للعالم ممدودةً في الوقت؟ وإذا كان الأمر كذلك (يأخذ أمبروجو أميريغو من كتفيه وينظر في عينيه)، فهل تستحق هذه القارة أن تعطيها اسمك؟

في غضون ذلك، استمرت الدراسة مع التاجر فيرابونت. قرأ أمبروجو سفرَ المزامير السلافيّ الموجود عند التاجر، لا بدّ من القول إنه فهم الكثير مما فيه، لأنه كان يعرف النص اللاتيني من المزامير عن ظهر قلب. وباهتمام لا يقلّ عن ذلك، استمع إلى قراءة فيرابونت. فبناءً على طلبه، جرت قراءة كل مزمور من المزامير بشكل متكرِّر. سمح هذا لأمبروجو أن يتذكر ليس الكلمات فقط (لقد حفظها أثناء القراءة)، ولكن أيضاً خصائص النُّطق. ولدهشة فيرابونت، أصبح الشاب الصغير شيئاً فشيئاً شبيهَه في النطق. وفي بعض الكلمات التي نطق بها أمبروجو لم تُمَيَّز ملامح النطق الروسية على الفور، ولكن في بعض الأحيان - وهذا ما حدث غالباً - كان فيرابونت يرتجف من دون إرادته: فمن شفاه الإيطالي كانت تخرج النبرات الواضحة للتاجر البسكوفي.

جاء اليوم الذي أدرك فيه أمبروجو أنه مستعد للذهاب إلى روسيا.

وكان آخر ما سمعه أهالي فلورنسا منه هو التنبُّؤ بفيضانٍ مُروِّع، كان من المقرر أنْ يجتاح المدينة في 4 نوفمبر 1966. وفي دعوته المواطنين إلى توخّي الحذر أشار أمبروجو إلى أنَّ نهر أرنو سيفيض من الشواطئ وتندفع إلى الشوارع كتلة من المياه بحجم 350 مليون متر مكعب. وفي النتيجة، نسيت فلورنسا هذه النبوءة، كما نسيت مَن تنبَّأ بها.

ذهب أمبروجو إلى مانيانو وأخبر والده بخططه.

- لكن هناك حدود نهاية المكان المأهول بالسكّان (قال فليكيا الأب) لماذا تذهب إلى هناك؟

- في حدود نهاية المكان، أجاب أمبروجو، ربّما، سأعرف شيئاً عن حدود نهاية الزمان.

-ب-

غادر أمبروجو فلورنسا بحزن وحسرة. ففي تلك السنوات، كان يقيم فيها العديد من الأشخاص الجديرين بالاحترام (ساندرو بوتيتشيلي، وليوناردو دا فينشي، ورافائيل سانتي، ومايكل أنجلو بوناروتي)، الذين كان دورهم في تاريخ الثقافة واضحاً له بالفعل في ذلك الوقت. بيد أنَّ أيّاً منهم لم يستطع تقديم أدنى قدر من التوضيح لمسألة نهاية العالم – التي هي المسألة الوحيدة المهمة بالنسبة لأمبروجو. فهذه القضية لا تقضُّ مضجَعَهم، قال أمبروجو في نفسه، لأنَّهم يُبدعون من أجل الخلود.

تلقَّى أمبروجو في الأيام الأخيرة من حياته في فلورنسا العديد من الرؤى – الكبيرة والصغيرة. لم تكن الرؤى واضحةً تماماً له، ولم يُخبرْ أحداً عنها. إنها لم تتعلقْ بالتاريخ العام. كانت الحوادث التي رآها تتعلَّق بتاريخ بعض الأفراد، التي تصبُّ، فكَّر أمبروجو، في نهاية المطاف في التاريخ العام. إحدى الرؤى – التي فَهِمها أقلّ ممَّا فهم غيرها – كانت تتعلَّق بالبلد الكبير في الشمال، الذي يتطلَّع للسَّفر إليه. ولسببٍ ما، قرَّر أمبروجو أنْ يُخبِر به التاجر فيرابونت. إنه باختصار ينحصر فيما يأتي:

في عام 1977، أوفَـدتْ جامعة لينينغراد يوري ألكسندروفيتش ستروف، الذي أوشك على نيْل شهادة المرشَّح في علوم التاريخ، في البعثة الأثرية إلى بسكوف. كانت أطروحة يوري ألكسندروفيتش، المكرَّسة لسجلّات الحوادث الروسية المبكرة، قد اكتملت تقريباً. ولا ينقصها سوى الخاتمة التي تحتوي على الاستنتاجات التي لم يسلمها

كاتب الأطروحة لسبب ما. وبمجرد أن بدأ استنتاجاته، بدأ يشعر أنّها غير مكتملة، وأنّها تحطُّ من قيمة عمله، وقد تُحوِّله إلى لا شيء. ربما، كان كاتب الأطروحة ببساطة مُجهَداً. على الأقل هذا كان رأي البروفسور إيفان ميخائيلوفيتش نيتشيبوروك، مشرفه العلمي. وهو الذي، في الواقع، أشرك سترويف في البعثة الأثرية. إذ اعتقد البروفسور أنَّ كاتب الأطروحة يحتاجُ إلى راحة صغيرة وأنَّ استنتاجاته سوف تتكوَّن بنفسها. فالبروفسور لديه خبرة كبيرة في الإشراف العلمي.

في بسكوف، أُسكِنَ أعضاء البعثة في شقق خصوصية. تقع شقة سترويف في حيٍّ زابسكوفيه، في شارع بيرفومايسكايا (شارع الأول من أيار)، بالقرب من كنيسة أيقونة منديل الرها، التي بنيت في زمن وباء الطاعون الكبير عام 1487. تتكوَّن الشقّة من غرفتين. تسكن الغرفة الكبيرة امرأة شابة مع ابنها الذي بلغ الخامسة من العمر، وأُسكِنَ سترويف في الغرفة الصغيرة. المرأة، كما قيل له، تُدعى ألكساندرا مولير، وكانت من ألمان روسيا.

قدَّمت الألمانيةُ نفسَها إلى سترويف باسم ساشا[1]. وكذلك هو اسم ابنها الذي قابل الضيف معها. احتضن الصبي ساقَها وتحوَّلَ ثوبُ ألكسندرا الشيت إلى سروال ضيق. ومع أنَّ سترويف منغمسٌ في التفكير بالأطروحة، فقد لاحظَ أنَّ ألكسندرا لها رِجْلان ممشوقتان.

أحبَّ سترويف البيت. كان منزلاً قديماً لتاجرٍ مبنيّاً من الطوب الأحمر. كانت نوافذُه تتلألأ في المساء بضوء كهربائي أصفر. عندما عاد سترويف لأوَّل مرّة من الحفريات، توقَّف عند الشرفة لكي يستمتع بتألُّقها. هذا التألّق انعكس على سيّارة من نوع بوبيدا واقفة أمام المنزل. وعلى حجارة الرصيف المستديرة.

عند دخوله، رأى سترويف ألكسندرا وابنها يشربان الشّاي. فشرب الشاي معهُما.

1- ساشا – صيغة التصغير والتحبيب من اسم ألكساندر وألكساندرا.

- ما هي طبيعة عمل بعثتكم، سألت ألكسندرا.

خلف الجدار، بدأ أحدهم يعزف على الكمان.

- ندرس أساس كاتدرائية يوحنا المعمدان. لأنه، خلال القرون الماضية، انخفض بشكل ملحوظ.

قرَّب سترويف ببطء راحتيه إلى الطاولة. وكذلك كادت راحتَا الصبي تلامسان الطاولة. وبعد أن لاحظ نظرة سترويف، بدأ في تحريك أصابعه على زخرفات الغطاء المشمَّع. وقد كانت تلك الزخرفات معقَّدة وصغيرة، لكن أصابع الصبيّ كانت أصغر. ويمكنها التعامل مع هذه الأشكال الهندسية بسهولة.

قالت ألكساندرا:

- في دير يوحنا عاش أرسيني المجذوب، الذي أطلق على نفسه اسم أوستين. عند جدار المقبرة. الآن لا يوجد جدار. لا توجد حتى المقبرة. صبَّت ألكساندرا الشاي لسترويف. أصبحت المقبرة ساحة لمنظَّمة الكومسومول (الشبيبة الشيوعية).

- وماذا عن الموتى (سأل الصبي) هل أصبحوا أعضاء في الكومسومول؟

انحنى سترويف على أذن الطفل:

- هذا سيتّضح خلال الحفريّات.

وفي المساء التالي ذهبوا للنزهة. عبروا شارع ترودا، ووصلوا إلى برج الجُلْجُلة وجلسوا هناك على شاطئ نهر بسكوفا. جعل الصبي يرمي الحصى في النهر. وجد ستوريف عدة شظايا من القرميد وقذف بها على سطح النهر فارتَدّت واثبةً. وقفزت أكبر الشظايا على الماء خمس مرات.

وفي المرة الأخرى ذهبوا إلى زافليتشيه. فبعد أن عبروا النهر العظيم على جسر الجيش السوفياتي، توجَّهوا نحو دير يوحنا، ووصلوا إلى الكاتدرائية ووقفوا لمدَّة طويلة على حافة الحفريّات. وهبطوا على السلَّم بحذر. ومسَّدوا على الحجارة القديمة التي تدفَّأت بحرارة مساء

آب (أغسطس). لقد تدفَّأتْ لأوَّل مرَّة من عدة قرون. وللمرّة الأولى منذ قرون عديدة، مسَّد عليها أحدُهم. هكذا فكَّرتْ ألكسندرا إذ تخيَّلتْ المجذوب القديم قربَ هذه الأحجار ولم تستطعْ الإجابة بنفسها عمَّا إذا كانت تُصدّق حقاً ما قرأتْه عنه. وهل كان، على وجه العموم، ثمة مجذوب حقاً؟ وتساءلَت مع نفسها: هل كان حُبُّه موجوداً بالفعل؟ وإذا كان الأمر كذلك، فإلى أي شيء تحوَّل ذلك الحب خلال مئات السنين التي مرت؟ ومن شعر به آنذاك، إذا كان العشّاق قد تحلّلت أجسادهم منذ زمن طويل؟

«أشعر أنني بحالة جيدة معهما كليهما»، قال سترويف مع نفسه، «لأني أشعر بشيء ودِّيٍّ فيهما كليهما. يمكن للمرء أن يقول، إنه وئام من نوعٍ خاص، على الرغم من أصلها الألماني. إنها هادئة، وذات شعر بنّي فاتح، وقسمات وجهها منتظمة ومتناسقة. لماذا هي وحيدة مع ولدها، وأين هو زوجها؟ ماذا تفعل هنا في محافظة روسية، وسط النوافذ المظلمة المدفونة في الأرض، والسيارات القديمة، والقمصان الكتانية (ذات الجيوب الفوقية) الطليقة، والمكرَّمين ذوي الوجوه الصُّفْر والمجعَّدة في لوحات الشرف التي غسلها المطر، وانهال عليها الغبار (الرياح تحرِّك تحتهم الحشائش بشكل لا يكاد يُلاحَظ)؟». «لا أعلم»، أجاب هو بنفسه، «ماذا تفعل؟ لأنها بالنسبة لهذا العالم غير مرتبطة بجوهره». وتصَوَّرَ ألكسندرا مولر في أحد شوارع لينينغراد الصاخبة أو، على سبيل المثال، في مسرح كيروف، متورِّدة الخدَّين، قبل الجرس الثالث، وارتجف قلبه، لأنَّ بوسعه أن ينقلها إلى هناك.

ثم عادوا إلى المنزل وشربوا الشاي، وصدح عزف على الكمان خلف الجدار مرة أخرى.

- قال الصبي: هذا بارخومينكو يعزف. ونحن نحب الاستماع إليه.

هزَّت ألكسندرا كتفيها.

حاول سترويف أنْ يراهم - الثلاثة كلهم - في النافذة، في الضوء الكهربائي الأصفر، بنظرة ذهنية من الشارع. وربما، حتى بنظرة من

لينينغراد. فقد علم الآن، أنه سيحنُّ طويلاً لهذا المطبخ، ولهذه السيارة من نوع بوبيدا التي تُرى من النافذة، ولرصيف الحصى ولكمان بارخومينكو غير المرئي. لقد نظر إليهم وهم جالسون، وكأنه ينظر إلى صورة عزيزة، وتصوَّر إطار النافذة إطاراً لها، وضوء الثُّريَّات غمرها باصفرار الزمن. «لماذا أحزن وأشعر بالحنين مسبقاً» (فكَّر سترويف)، «وأرسم صورة مسبقة للحوادث متجاوزاً الزمن؟ وكيف لي أن أعرف دائماً أني سأحزن وأشعر بالحنين؟ ماذا يعطيني هذا الشعور المؤلم؟».

- أنا معلمة اللغة الروسية والأدب في المدرسة (قالت ألكسندرا) لكن قلَّة من الناس هنا مهتمُّون بهذا.

أخذ سترويف قطعة من البسكويت من سلطانية، وضغطها على شفته السفلى.

- وبماذا هم مهتمون؟

- لا أعرف - وبعد أنْ صمتتْ، سألته: لماذا اخترتَ تاريخ العصور الوسطى؟

- من الصعب الإجابة... ربّما، لأن المؤرخين في العصور الوسطى لم يكونوا مثل المؤرخين الحاليين. فلتفسير الحوادث التاريخية، كانوا يبحثون دائماً عن أسباب أخلاقية. وكأنهم لم يلاحظوا ارتباطاً مباشراً بين الحوادث. أو لم يولوا ذلك أهمية كبيرة.

- كيف يمكن تفسير العالم من دون رؤية الروابط داخله! (قالت ألكسندرا مندهشة).

- إنهم كانوا ينظرون إلى ظاهر الحياة اليومية ورأوا الصلات الخارجية. وإلى جانب ذلك، فإن جميع الحوادث مرتبطة بالوقت، على الرغم من أن مثل هذه العلاقة لم يحسبها هؤلاء الناس موثوقاً بها.

مسك الصبي قطعة البسكويت بالقرب من شفته السفلى، فابتسمت ألكسندرا.

- ساشا يُقلِّد إيماءاتِك.

بعد أسبوعين، عاد سترويف إلى المنزل. بدأ الفصل الدراسي، وخلافاً للتوقعات، في البداية لم يشعر بالحزن. ولم يشعر به حتى لاحقاً، لأنه طوال أشهر الخريف كان مشغولاً بإكمال أطروحته والاستعداد للدفاع عنها. وفي نهاية العام دافع سترويف عن أطروحته بنجاح. ونالت أطروحته استحسان الجميع، وخاصة البروفيسور نيتشيبوروك، الذي كان مقتنعاً بأن قرار إرسال كاتب الأطروحة إلى الحفريات هو القرار الصحيح والوحيد. وهنا دخل سترويف في شهر كانون الثاني من العام الجديد، بعد أن أزاح الثقل الذي أرهق كاهله مدة طويلة، والذي، بصريح العبارة، سمَّمَ وجودَه. وشعر بالراحة والسَّكينة. وفي خضمّ تلك الحالة النفسية الهائجة، وإذا به يشعر بغياب ألكسندرا مولر.

هذا لا يعني أن سترويف بات يفكر باستمرار في ألكسندرا. وحتى أكثر من ذلك أن يفعل شيئاً لرؤيتها، لأن الفعل لم يكن بجانبه القوي. لكن قبل أن ينام، في تلك اللحظة المضطربة، عندما تغيب شؤون النهار، ولم تكن الأحلام تقترب بعد، تذكَّر ألكساندرا. طاف أمامه مطبخُها، والمصباح، ذو الغطاء المصنوع من القماش، يضيء فوق الطاولة وإبريق الشاي الملوَّن بالأوراق. وعندما استلقى سترويف على سريره، تنفَّس رائحة المنزل القديم في بسكوف. وسمع خطى المارَّة خارج النافذة ومقاطع من أحاديثهم. ورأى إيماءات الصبي التي بدت كإيماءاته. أحسَّ سترويف بالهدوء، ونام.

وفي أحد الأيام تحدث إلى صديقه وزميله إيليا بوريسوفيتش أوتكين عن ألكسندرا.

- ربّما، هذا هو الحبّ (قال أوتكين بتردد).

- لكن الحبّ (لوح ستروف بيده) هو شعور ساحق، لا يؤدي، كما أفهمه، إلّا إلى التشنُّجات. وهو مرهِق من الناحية العملية. لكنني لا أشعر بهذا الشيء. إنني أفتقدها - نعم. أريد أن أكون إلى جانبها - نعم. استمع إلى صوتها - نعم. لكن من دون تهوُّر.

- إنك تتحدَّث عن الولَع، وهو في الحقيقة نوع من الجنون. وأنا أتحدّث عن الحبّ المعقول، وإنْ شئتْ، المقدَّر سلفاً. لأنه عندما تفتقد شخصاً ما، فإن الأمر يتعلق بجزء ينقصكَ شخصيّاً. وأنت تبحث عن لمّ الشَّمل مع هذا الجزء.

- يبدو ذلك رومانسيّاً للغاية (فكَّرَ سترويف)، ولكن ما هو الحال مع مثل هذه المفاهيم في الحياة الحقيقية؟ فمثلاً عند ألكسندرا، نفترض، ابناً، فتى لطيف للغاية. لكنه ليس ابني. لا أعرف أي شيء عن والده (يمضغ سترويف شفتيه)، وبصراحة، لا أريد أنْ أعرف. أنا لا أستبعد أن بعض الحكايات القاتمة مرتبطة بهذا الشخص. وأخشى من وجود أشياء عميقة في حياة ألكسندرا نفسها. مع أنَّ القضية، إلى حد كبير، لا تكمن في ذلك. أخشى أنني لا أستطيع أن أتعامل مع الصبي نفسه.

بعد شهر تقريباً قال لأوتكين:

- أنا أفكر طوال الوقت في الطفل. ألنْ يقف حائلاً بيني وبين ألكسندرا؟

- وهل وافقَتْ بالفعل على أنْ تكون زوجَتَك؟

- هل تعتقد، أنها لن توافق؟

- لا أعرف هذا. اتصل بها، واسألها.

- مثل هذه الأشياء لا تُحَلُّ عن طريق الهاتف.

- إذاً سافرْ إليها... حسناً، أنت أيضاً ستقول، يا إليا... أنا لست مستعداً لذلك حتى الآن.

- أنا نفسي لا أعرف، ما أريد (اعترفَ سترويف لنفسه). لديَّ العديد من الأفكار والمشاعر المختلفة، لكنني مرة أخرى لا أستطيع استخلاص النتائج.

في مارس، سأل أوتكين نفسُه سترويف عن ألكسندرا.

قال سترويف:

- أخشى، أنها يمكن أن تتزوجني حتى تترك السكن في المحافظات فحسب. أو لكي يكون لدى طفلها أب.

- وأنت ألا تريد لها أن تترك السكن في المحافظة وأن يكون لطفلها أب؟

- لماذا تسألني هذا؟

- لأنك لم تنظر بعد بعينَيها لما يجري. إذا استطعت فعل ذلك، فأنت تحبُّها وينبغي عليك الذهاب إليها.

في نهاية شهر مايس، قال سترويف لأوتكين:

- الحقيقة، يا إيليا، أعتقد أنني سأذهب.

ركب سترويف القطار وذهب إلى بسكوف. كان زغب أشجار الحور يندفع في نافذة العربة. سافر سترويف وهو يفكِّر أنه لن يجد ألكسندرا هناك. سيصل إلى الباب، لكن لن يفتحه أحدٌ له. وسيضغط جبهته على زجاج نافذة المطبخ. ويضع يده على صدغيه، حتى لا يضايقه الانعكاس وسيرى بقايا السعادة السابقة، ومظلة المصباح، والطاولة. لا شيء على الطاولة. سينقبض قلبه. وسيخرج من الباب المجاور بارخومينكو عريضُ المنكبين، قصيرُ الساقين، موبِّخاً:

- الحقيقة، كنتُ أعرف. هذا، يبدو، ما تسببت به الموسيقى. إنهم غير موجودين (سيقول بارخومينكو). لقد غادروا المكان نهائياً. إلى الأبد. في الواقع، تأخّرتَ كثيراً، ولم تأتِ إلى هنا في الوقت المناسب، لأن الحب الحقيقي خارج الزمن. كان بإمكانها أن تنتظر العمر كله (يتنهد بارخومينكو). يكمُن سببُ الحوادث الجارية في غياب النار الداخلية. مشكلتك - إذا تريد الحقيقة - هو أنك لا تميل إلى التوصُّل إلى الاستنتاجات النهائية. إنك تخشى أن القرار الذي تتخذّه سيحرمك من الاختيار اللاحق، وهذا ما يشلّ إرادتك. ما زلتَ إلى الآن لا تعرف لماذا جئتَ إلى هنا. وفي غضون ذلك، فقدتَ أفضل ما أعدّتْه لك الحياة. أقول

لك الحقيقة، أنه كانت بانتظارك جميع الظروف المواتية، التي يمكن أن تمنحها الطبيعة لبشر: منزل في شارع هادئ من شوارع بسكوف، وأشجار الزيزفون المعمِّرة في النافذة، والموسيقى الجيدة وراء الجدار. إنك لم تستفد من أي شيء من الأشياء المذكورة، وإنَّ رحلتك الحالية، بالمناسبة، كما هو حال سابقتها: مضيعة تافهة للوقت.

- مضيعة تافهة للوقت (قال أمبروجو متأمِّلاً).

- مضيعة تافهة للوقت (كرَّر التاجر فيرابونت).

-ت-

وصل أمبروجو فليكيا إلى روسيا في عام 1477، أو في عام 1478. وفي بسكوف، التي أرسله إليها التاجر فيرابونت، استُقبِلَ الإيطالي بتحفّظ، ولكن من دون عداء. إذْ نظَرَ النَّاسُ إليه هناك كرجلٍ أهدافه غير واضحة تماماً. وعندما اقتنعوا بأنَّ نهاية العالم هي اهتمامُه الوحيد، بدؤوا يعاملونه بطيبة أكثر. إذ إنَّ توضيح وقت نهاية العالم للعديد من الناس مهمة تحظى بالاحترام، لأنَّ الناس في روسيا يحبّون المسائل الضخمة على نطاق واسع.

- دعوه يستوضح (قال الحاكم غافريل). تقول لي خبرتي أنّ علامات نهاية العالم ستكون عندنا الأكثر وضوحاً.

بعد أن تعرَّف الحاكم غافريل على الإيطالي عن كثب، صار يعتني بأحواله ويحميه. فلولا هذه الرعاية لصعبت أمور أمبروجو، لأنه لم ينتج أي شيء ولم يتاجر بأي شيء. وكان، في الواقع، مداناً لكَرَم الحاكمِ على حياته الطيّبة في بسكوف.

أحبّ غافريل التحدّث مع أمبروجو. إذ حدَّثه الإيطالي عن العلامات السالفة في التاريخ، وعن علامات نهاية العالم، وعن المعارك الشهيرة، وبكل ببساطة عن إيطاليا. وعندما يتحدَّث أمبروجو عن موطنه كان يتأسَّف لأنه لا يستطيع أن يعبِّر عن الزرقة المتموِّجة للجبال، وعن الملوحة الرطبة للهواء، وعن العديد من الأشياء الأخرى التي تجعل من إيطاليا أجمل مكان في العالم.

- ألم تندم على مغادرة مثل هذه الأرض (سأله الحاكم غافريل ذات مرة).

- بالطبع، أتأسف على ذلك (أجاب أمبروجو). لكن جمال أرضي لم يسمح لي أنْ أركِّز على الشيء الرئيس.

كرّس أمبروجو وقتَه كله لقراءة الكتب الروسية، التي حاول العثور فيها على إجابة للسؤال الذي يقلقه. وبعد أن عرف كثيرٌ من الناس عن بحثه، سألوه عن وقت نهاية العالم.

- الله وحده يعرف كل شيء (أجاب أمبروجو بشكل مراوغ). تحدَّثتْ الكتب التي قرأتُها عن هذا الموضوع كثيراً، لكن لم أجد فيها توافقاً على تاريخ معيّن.

أثار تنوع الأقاويل الإرباك لدى أمبروجو، لكنه لم يترك المحاولات لمعرفة تاريخ نهاية العالم. وأثار دهشته أنه، على الرغم من الإشارة إلى العام سبعة آلاف بوصفه الأكثر احتمالاً لنهاية العالم، لكن ليس ثمة شعور بقرب حلول الحادث الرهيب. على العكس تماماً: فإنَّ رؤى أمبروجو الكبيرة والصغيرة تناولت سنوات أبعد من ذلك التاريخ. وفي الحقيقة، كان هو سعيداً بذلك، ولكن الأمر زاد من حيرته.

«في صيف عام 6967» (قرأ أمبروجو) «تحلُّ ولادة المسيح الدجال، وسيكون عند ولادته خوفٌ لم يحدث مثله من قَبل أن يولد هذا الملعون الشرس أبداً، وستكون آنذاك مَناحةٌ عظيمة تعمُّ الأرض المسكونة كلها».

«نعم» (فكَّر أمبروجو)، «يجب أن يظهر المسيح الدجَّال قبل ثلاث وثلاثين سنة من نهاية العالم. لكن سنة 6967 من خلق العالم (هي 1459 من ميلاد المسيح) قد مرَّت منذ زمن طويل، ولا تزال علامات ظهور المسيح الدجَّال غير واضحة وغير ملموسة. ألا يعني هذا أنَّ نهاية العالم قد تأجَّلَتْ لأجلٍ غير مُسمَّى؟».

وذات يوم قال له الحاكم غافريل:

- أنا بحاجة إلى رجل يذهب إلى القدس. أريده أن يعلِّق سراجاً

في كنيسة القيامة تخليداً لذكرى ابنتي آنّا المتوفّاة. ويا حبّذا لو كان هذا الشخص أنت.

- حسناً (أجاب أمبروجو)، يمكن أن أكون هذا الشخص. لقد فعلتَ الكثير لي، وسوف آخذ السراج لإحياء ذكرى ابنتك الميتة.

عانق الحاكم غافريل أمبروجو:

- أعلمُ أنك تنتظر نهاية العالم هنا. أعتقد أنك ستعود قبل ذلك الوقت.

- لا تقلق، أيها الحاكم (قال أمبروجو)، لأنه إذا حدث ما ننتظره، فإنه سيكون ملحوظاً في كل مكان. وزيارة القدس مباركة.

اقتاد الناسُ في الشارعِ سامسون صانعَ الكعك مقيَّداً.

- يا مُعجَّناتي الرائعة والحبيبة (كان صانع الكعك يقول وهو يبكي). أحببتكم أكثر من حياتي وحياة الغريب، لأنني عرفت كيف أصنعكم بشكل لا مثيل له في مدينة بسكوف بأكملها. لقد اختطفكم كارب المجذوب بفمه النجس وطرحكم على الأرض، ووزعكم لأولئك الذين لا يساوون حافّة منكم، وابتسم الجميع، يريد أنْ يعمل الخير لي. وأنا كنت أبتسم، فماذا عسايَ أنْ أفعل، بعد أن عدَّني الجميع رجلاً طيباً، وكنتُ فعلاً كذلك، في الحقيقة. سوى أنَّ حجم المتوقَّع مني تجاوز حجم طيبتي. وهذا كثيراً ما يحدث، فما هو المدهش. ولذا، سأقول لكم، بأنّ الفجوة بين ما كان متوقَّعاً وما هو متاح امتلأتْ غضباً قاتلاً. اتسعتْ الفجوة، وزاد الغضب، وعلى شفتي ارتسمتْ ابتسامة، كانت بالنسبة لي، حقّاً، كأنّها تشنُّجات.

- هل تعرف كم مضى عليك من الوقت في بسكوف (سأل فوما المجذوب أرسيني).

هزَّ أرسيني كتفيه.

- بينما أنا أعرف (قال فوما مسروراً). لقد عملتَ كثيراً، كما يقول المثل، بدلاً عن ليّا وراحيل، وعن شخص ثالث آخر أيضاً.

«ولكن ليس بدلاً عن أوستينا» (قال أرسيني مع نفسه).

أشار فوما إلى سامسون صانع الكعك، الذي اقتاده الحراس، وصرخ:

- مع رحيل كارب، لم يعد ثمَّة أيُّ معنى في صمتك. كان بإمكانك أن تصمت، لأن كارب يتحدّث. الآن لم تعد لديك مثل هذه الفرصة.

- إذن، ماذا عسايَ أن أفعل الآن (سأله أرسيني).

- كارب دعاكَ إلى القدس السماوية، لكنك لم تصبح رفيق دربه. هذا أمر مفهوم: إنك لن تذهب إلى هناك من دون أوستينا. لكن اذهبْ إلى القدس التي على الأرض لكي تدعو العليَّ القدير من أجلها.

- كيف يمكنني الوصول إلى القدس (سأله أرسيني).

- هنا لدي فكرة واحدة (أجاب فوما المجذوب). الآن، يا صديقي، أعطني كيس رسائل كريستوفر. لن تحتاجه بعد اليوم.

سلَّم أرسيني فوما المجذوب كيسَ رسائل كريستوفر، لكنه كان من الداخل كئيباً. وعندما أعطى أرسيني الكيس، كان يعتقد أنَّ التعلُّق بالملكية الخاصّة قد توقَّف عنده، وأحسَّ بالخجل من مشاعره. فهِمَ فوما المجذوب ما كان يدور في نفس أرسيني، وقال له:

- لا تحزن، يا أرسيني، لأن الحكمة التي جمعها كريستوفر تصل إليك من طريقٍ غير مكتوب. أما بالنسبة لوصفات الأعشاب، فإني أعتقد، أنها بالنسبة لك مرحلة قد تجاوزْتَها؛ بشفاء المرضى، من خلال أخْذِ ذنوبهم على عاتقك. وآمل، أنّك تعرف أنَّ هذا النوع من العلاج لا تلزمه الأعشاب. ومرَّةً أخرى: من الآن فصاعداً أنتَ لست أوستين، بل كما كنتَ من قبل: أرسيني. إذاً، استعدّ، أيها الرفيق، للسفر.

-ث-

سرعان ما علم أهل بسكوف كلُّهم أنَّ أوستين تحدَّث. وأنَّ اسمه ليس أوستين، بل أرسيني. وذهب الجميع لينظروا إليه، لكنهم لم يستطيعوا رؤيته، لأنه لم يعد يعيش في المقبرة، بل في صومعة الضيوف في دير يوحنا.

- حسناً، لماذا أنتم متجمِّعون، هل لدينا سيرك هنا (سألت رئيسة الراهبات القادمين). الرجل عاش لمدة أربعة عشر عاماً في العراء، لذلك دعوه يرتاح ويسترجع أنفاسه.

وفي أحد الأيام، جاء أمبروجو إلى أرسيني:

- لقد أرسلني إليك غافريل الحاكم، قال أمبروجو. إنه يريدك أنْ تكون رفيقي في السفر إلى القدس. أنا أنطلق من حقيقة أنَّ نهاية العالم لن تأتي قبل العام 7000 من الخليقة، 1492 من ميلاد المسيح. لذا، إذا كان كل شيء على ما يرام، فسوف نعود قبل ذلك الوقت.

- على أي شيء تستند في حساباتك (سأله أرسيني).

- إنها بسيطة جداً. أشبِّه الأيام بالألفيَّات من السنين، لأنه مذكور في المزمور التاسع والثمانين: «أَيَّامُ سِنِينَا هِيَ سَبْعُونَ سَنَةً، وَإِنْ كَانَتْ مَعَ الْقُوَّةِ فَثَمَانُونَ سَنَةً، وَأَفْخَرُهَا تَعَبٌ وَبَلِيَّةٌ، لأَنَّهَا تُقْرَضُ سَرِيعاً فَنَطِيرُ». بما أنَّ هناك سبعة أيام في الأسبوع، نحصل على سبعة آلاف سنة من الحياة البشرية. الآن عام 6988، فلدينا 12 سنة أخرى تحت تصرُّفنا. وهي، كما أعتقد، لا تكفي للتَّوبة.

- هل أنتَ متأكِّد (سأله أرسيني) أنَّ الآن هو هذا العام بالذات؟ أيْ، هل أنت متأكد أنه منذ الخليقة إلى يومنا هذا مضت 6988 سنة بالضبط؟

- لو لم أكن متأكِّداً (أجاب أمبروجو) ربَّما لَمَا دعوتُك للذهاب معي إلى القدس. احكمْ بنفسك: من سنة 5500، عندما ولد المخلِّص يسوع المسيح، جميعُ تواريخ الممالك معتمدةٌ على سجلّات الأخبار الهيلينية والرومانية. اجمعْ عهد الأباطرة في روما والقسطنطينية، وسوف تحصل على التاريخ الذي تريده.

- ولكن لماذا - أعذرني، أيها الغريب - تعتقد أنه منذ خلق العالم إلى ميلاد مُخَلِّصنا يسوع المسيح مرَّت بالضبط 5500 سنة - لا أكثر ولا أقل؟ ما هو مصدر هذا الاستنتاج؟

- إني ببساطة أقرأ الكتاب المقدَّس بتركيز (أجاب أمبروجو)، وهو مصدر رئيس. على سبيل المثال، يشير كتاب سفر التكوين إلى عمر كل واحد من الأسلاف في وقت ولادة البكر. وعلاوة على ذلك، يذكر عدد السنوات التي عاشها السَّلَف بعد ولادة البكر، وكذلك المجموع العام لسنوات عمر السَّلَف. وكما ترى، يا أخي أرسيني، إنَّ آخر موضِعَيْن في حسابي لا لزوم لهما. فلمعرفة العدد الإجمالي للسنوات التي مرت، يكفي أن تضيف سنوات الأسلاف إلى وقت ولادة أول مولود لهم.

- لكن الحروف التي تعني أرقاماً تعرَضَتْ للتَّلف (اعترض أرسيني). فمع مرور الزمن مُسِحَ المكتوب، وبعضه يكون غير مفهوم. وإذا ما مُحِيَ حرف واحد ستكون الكلمة مبهمة وسيتوهم المرء في حساب أرقام الحروف. بماذا يمكنك أن تُثبت، أخبرني، يا أمبروجو، أنَّ حساباتك معصومة من الخطأ، وأنَّ ميلاد مخلصنا يسوع المسيح كان حقاً في عام 5500؟ بأي نوع من الانسجام تعتقد أنك واثق من كل هذه الحسابات الجبرية؟

- الأعداد، يا أرسيني، لها معناها السامي، لأنها تعكس ذلك الانسجام السماوي، الذي تنشده أنت. والآن أصغِ لي بانتباه. سقطت آلام المسيح

في الساعة السادسة من اليوم السادس من الأسبوع، وهذا يشير إلى أن المخلص قد ولد في منتصف الألفية السادسة، أي في عام 5500 من خلق العالم. ويشير إلى ذلك مجموع قياسات تابوت موسى، الذي كان، بحسب الإصحاح الخامس والعشرين من سفر الخروج، خمسةَ ذُرْعَان ونصف الذراع. لذلك، فالمسيح بوصفه تابوتاً حقيقياً يجب أن يأتي في عام 5500.

«هذا الرجل قادر على التفكير بشكل سليم» (قال أرسيني لأوستينا). «مع مثل هذا الرجل بالذات، في الواقع، يمكن الذهاب إلى القدس. إذا ما وثقنا بحساباته، وأنا أميل إلى هذا، لدينا ما لا يقلّ عن عشر سنوات للسفر. لذلك أنا، يا حبّي، أذهب إلى مركز الأرض. أذهب إلى تلك النقطة، التي هي الأقرب إلى السماء. وإذا قُدِّرَ لكلماتي أن تصعد إلى السماء، فسيحدث ذلك هناك. وكل كلماتي عنكِ».

-ج-

ومنذ ذلك اليوم، بدأ أرسيني وأمبروجو التحضير للرحلة إلى القدس. وقد خصص الحاكم غافريل لكل واحد منهما لنفقات الطريق كيساً من الدوكات (النقود) الذهبية الهنغارية. فالدوكات كانت معترفاً بها ومستعملة في جميع الأراضي من بسكوف إلى القدس، ويفضِّل الحُجَّاج أخذَها معهم للنفقات في الطريق. وكان بوسع الحاكم أن يمنحهم أكثر، لكنه كان يعلم أنه في العصور الوسطى، نادراً ما تبقى القطع النقدية مع المسافرين لمدة طويلة. إذ كان يصعب اجتياز المال والأشياء عبر المسافات. وغالباً ما عاد أصحابها إلى منازلهم من دونها. وحتى أنهم في كثير من الأحيان لم يعودوا.

والأكثر فائدة من المال للحُجّاج، كانت في بعض الأحيان خطاباتُ التوصية والاتصالات الشخصية. ففي ذلك العصر الصعب، كان من المهم أنَّ شخصاً ما بانتظار أحدهم في مكان معين، أو على العكس، يبعثه إلى مكان ما، أو يتكفَّله ويطلب تقديم المساعدة له. وفي بعض النواحي، كان هذا تأكيداً على أن الشخص المعني قد احتلَّ سابقاً مكانةً في الحياة وأنه لم ينشأ من العدم، بل يجوب البلدان بأمانة ونزاهة. وفي السياق الأكثر عمومية، أكَّد السفرُ استمرارية الحيِّز بالنسبة للعالم، الأمر الذي لا يزال يثير بعض الشكوك.

سُلِّمَت لأرسيني وأمبروجو خطاباتُ التَّوصية إلى عدَّة مدن. كانت هذه رسائل لأشخاص يتمتعون بمكانة في الدولة ورجال دين

وممثلين لطبقة التاجر: لتقديم المساعدة لهم عند الحاجة. وقد مُنِح كل واحد منهما حصانَين، وقفطانَين للسفر. وقام الحاجَّان بخياطة الدوكات في أطراف القفطانين. ولكي يمنعا رنين القطع النقدية وإمكانية تلمُّسها، أدخلاها في شرائط من الجلد. كما اشتريا لحماً وسمكاً مجفَّفاً، بالقدر الذي تمكّن من حمله الحصانان، اللذان بقيا غير مركوبين. وقد قام أمبروجو بتوجيه جميع الاستعدادات، لأن لديه خبرة في السفر البعيد.

وعندما جمعا الملابس والمواد الغذائية، راعيا الاعتدال في ذلك. في أراضي بسكوف كان موسم الدفء مرّةً في السنة، أما الأراضي الفلسطينية فكانت دافئة دائماً. دافئة وخصبة، لأنها أرض مصدر المياه، وينبوع يتدفق من الأعماق عبر المراعي والجبال، التي تتغنى بالكروم والتين والتمر، أرض تنضح بالسمن والعسل، وذلك لأنها الأرض المباركة حقاً، والأقرب إلى جنة الله.

وقبيل مغادرة أرسيني وأمبروجو استدعاهما الحاكم غافريل وسلَّمَهُما سراج الفضة السداسي. كان المصباح صغيراً بما يكفي لعدم جذب الانتباه الزائد. وللسبب نفسه، سلمهما الحاكم إضافة إلى السراج ستَّ ماسات. وطلب منهم عند الوصول إلى المكان المقصود أنْ يضعوا الماسات في الأماكن المخصَّصة لها على كل واحد من جوانب السراج الستة. بأن يثبّتوها ويشدُّوها بألسنة تعشيق، التي تنحني بسهولة. وأراهم الحاكم كيف تنحني ألسنة التعشيق:

- لا شيء مُعقَّد، العملية بسيطة.

سكتَ قليلاً.

- فكرتُ طويلاً، في مَن أُرسِلُ إلى القدس، واخترتكما. لكل منكما دينٌ يختلف عن دين الآخر، لكن كلاهما حقيقي. وكلاكما تعبدان ربّاً واحداً. سوف تمرّان عبر أراضي الأرثوذكس وغير الأرثوذكس، وسوف يساعدكما اختلافكما.

قبَّل الحاكم غافريل السراج. واحتضن أرسيني وأمبروجو:

- هذا مهم بالنسبة لي. هذا مهم جداً بالنسبة لي.

انحنَيا إلى الحاكم غافريل.

-ح-

طقطقت الخيول بحوافرها على الشاطئ وخافت من دخول السفينة. لم تكن تخشى الحركة على الماء: ففي حياتها سبحت عبر النهر أكثر من مرَّة وخاضت من خلاله. ما أخافها هو الحركة فوق الماء. لأنها بدت للخيول غير طبيعية. جُرَّت الخيول على طول السِّقالة (سُلَّم القارب) من أعِنَّتها. فكانت تُحَمْحِم وتضرب سطح السفينة بحوافرها. انشغل أرسيني بالنظر إلى الخيول، ولم يلاحظ كيف أبحروا.

أبحر الحشد على الشاطئ أيضاً. فعندما أدار المجذِّفون المجاذيف، بدأ يتناقص في الحجم والصوت. جاش الحشد، وتحول إلى دوَّامة، التفَّتْ حول الحاكم الذي صار في وسطها. وحتى أنه لم يلوِّح. وقف بلا حراك. وإلى جانبه كانت ترتجف رئيسة راهبات دير القدّيس يوحنا. وكان ثوبها الأسود في بعض الأحيان يلامس وجه الحاكم، لكنه لا يبتعد عنه. وقد بدتْ رئيسة الراهبات في مهب الريح أعرض بكثير من المعتاد. وبدت منتفخة قليلاً. باركت السفينةَ المغادرة برسم صلبانٍ بطيئةٍ وواسعة.

تحرَّكتْ الشُّطآن على إيقاع المجاذيف. وكانت تحاول اللّحاق بالغيوم التي انزلقت عبر السماء، لكن من الواضح أنها لم تكن لديها السرعة الكافية. استنشق أرسيني نسيم النهر بسرور، مدركاً أن هذه هي رياح التجوال.

«كم من السنين» (قال لأوستينا)، «كم من السنين كنتُ جالساً هنا

من دون أن أتحرَّك، والآن أنا أُبحِرُ على وجه الدقة نحو الجنوب. أشعر، يا حبّي، أنَّ الحركة مفيدة. إنها تقرِّبني منك وتُبعِدُني عن الناس الذين صار اهتمامهم، في الحقيقة، يجعلني أشعر بالتضايق والضجر. معي، يا حبّي، رفيق طيّب، إنه شاب ذكيّ لديه مجموعة واسعة من الاهتمامات. وهو أسمرُ، وأَحَصُّ، أو أنه يحلق أطراف لحيته. إنه يحاول تحديد وقت نهاية العالم، وعلى الرغم من أنني لست متأكدّاً من أنّ هذا يدخل ضمن إمكانياته، إلّا أنَّ الاهتمام بعلمِ آخِرِ الزمان في حدّ ذاته يبدو بالنسبة لي يستحقُّ التشجيع. يسافر معنا سفّانة من بسكوف. إنهم ينقلوننا على النهر العظيم إلى حدود أرض بسكوف. النهر عريض. يرافقنا سكان الشواطئ العائمة بنظراتهم، إذا ما لاحظونا. وفي بعض الأحيان يلوِّحون على أثرنا. ونحن كذلك نلوِّح لهم. ماذا ينتظرنا؟ أشعر أنَّ بانتظارنا فرحٌ لا يوصف ولا أخشى من أي شيء».

قبيل حلول الظلام رسوا على الشاطئ وأوقدوا ناراً. لم يقتادوا الخيول من السفينة لأنها اعتادت على ذلك. حلَّ ليل بسكوف المتأخِّر.

- في بلادنا (قال السفّانة)، من الصعب توقُّع المفاجآت. لكن علاوةً على ذلك، وفقاً لبعض المعلومات، هناك أشخاصٌ لديهم رؤوس كلاب. لا نعرف ما إذا كان هذا صحيحاً، لكن هكذا يقال.

- لا تفتخروا (أجاب أمبروجو)، هنا كلُّ شيء في وفرة. اذهبوا، على سبيل المثال، إلى الكرملين: تجدون ثمَّة الكثير.

من وقت إلى آخر كان أحد السفّانة يذهب إلى غابةٍ مجاورة ويجمع أغصاناً مكسورة هناك. راقَبَ أرسني النار كيف ترتفع. كان يضيف غصناً بعد غصن وهو مستغرقٌ في التفكير، جاعلاً من الأغصان كالهرم. في البداية كانت النار تلتهمها. وقبل أن تلتهم الغصنَ كاملاً، بدت كأنها تذوقُه بلسانها. بعض الأغصان كانت تطقطق أثناء احتراقِها.

- إنها بليلة (قال السفّانة). فالغابة لا تزال رطبة.

حامت حول النار أنواعٌ من البعوض والبراغيش. كانت تطير على

شكل أسراب شفافة، وكأنها دخان. وتُشكِّل داخل السرب دوائرَ وأهاليج، إذ بدت وكأن أحدهم يحرّكها. لكن لم يكن ثمّة من يحركها. وعندما كان الدخان يتحول في اتجاهها، تتفرق طائرةً باتجاهات مختلفة. لاحظ أرسيني بدهشة أنَّ تطاير البعوض يسعده.

«أتصدّقين» (قال لأوستينا)، «صِرتُ موسوساً وأخشى مصَّاصي الدماء. ولأني تصوَّرتُ أني أعيش في جسد غيري، لم أخشَ أيَّ شخص. وهذا الأمر، يا حبّي، يخيفني. ألم أفقد في الوحدة ما كنتُ أجمعُه لك طوال هذه السنوات كلها؟».

– سمعنا (قال السفّانة)، أنَّ النار التي تنزل في عيد الفصح على كنيسة القيامة لا تشيط. وأنتما انطلقتما بعد عيد الفصح، والحاصل أنكما لن تريا الخصائص غير العادية للنار.

– أليس كل يوم من أيام الربّ هو عيدُ فصحٍ بالنسبة لنا (سأل أرسيني).

لقد نشر كفَّه على النار نفسها. مرَّتْ ألسنة اللهب من خلال أصابعه المنبسطة وأضاءتها بضوءٍ وردي. توهَّجَت كفُّ أرسيني وسط الليل، الذي أسدل ستاره، أكثر من النار. تطلَّع أمبروجو إلى أرسيني وظلَّ ينظر إليه من دون أن يرفع بصرَه عنه. فرسم السفّانة علامةَ الصّليب.

-خ-

في اليوم التالي وصلوا إلى الحدود الجنوبية لأرض بسكوف. وكان الأمر إيصال الحاجّين إلى هذه الحدود بالذات. أصبح النهر العظيم صغيراً وتحوّل إلى الشرق.

- النهر يقترب من منابعه، قال السفّانة، إذ غالباً ما نصادف شِعَاباً ومناطق ضحلة، من شأنها أن تسبب المتاعب والصداع. الحقيقة، إنه لأمر مؤسف، أن نفارقكم، لكنَّ عزاءنا هو أننا عند العودة سوف نتحرك مع مجرى النهر. ولطالما لوحظ (أكد أمبروجو) أنَّ الحركة مع التيار أسهل بكثير. إذاً اذهبوا في سلام.

اقتيدت الخيول إلى الشاطئ، واحتضن أمبروجو وأرسيني البحَّارة وودَّعاهم. وعندما شاهدا كيف تبتعد السفينة، شعرا بعدم الارتياح. فمن الآن وصاعداً، تُرِك الرحَّالة لوحدهما وسيعتمدان على الله ومن ثمَّ على نفسيهما. وبانتظارهما طريق وعرة.

تحرَّكا جنوباً. سارا على مهلٍ - أرسيني وأمبروجو في الأمام وخلفهما حصانَيّ الحمل مربوطين بأزمَّتهما. الطريق كانت ضيقة، والمنطقة أرض تلال. ترجَّلا لتناول الطعام. قطَّعا اللحم المجفف إلى شرائح، ونقَّعاه بالماء. الخيول كانت ترعى العشب على عَجل خلال التوقف. وعندما يجتازون الجداول، تمدُّ بشفاهها إلى الماء وتشرب وهي تصهل.

ومع حلول نهاية اليوم وصلا إلى مدينة سيبج. وعند المدخل سألا أين يمكنهما قضاء الليلة. فأشاروا لهم إلى الحانة. في الحانة كانت تفوح رائحة

تشبه البيرة المسكوبة أو البول. كان صاحب الحانة ثملاً. فبعد أن أجلَسَ القادِمَيْن على دكّة، جلس هو على دكّة أخرى. ألقى عليهما نظرة طويلة من غير أن ترمش له عين. جلس بعد أن أفرج ما بين ساقيه واستند بيديه على ركبتيه. لم يجب على أسئلتهما. وبعد أن ربَّتَ أرسيني على كتفه، أدرك أن صاحب الحانة نائم. نام وعيناه مفتوحتان.

جاءت زوجة صاحب الحانة وقادت الخيول إلى الإسطبل. وأرت الضيفين الغرفة.

- إيه، يا تشيرباك (نادت زوجها لكنه لم يتحرك). يا تشيرباك! (لوحت المرأة بيدها). دعه ينام.

- أغمضوا عينيه (طلب أمبروجو)، النوم بعينين مغمضتين هو أفضل بكثير.

- لا، أفضل هكذا، (قالت زوجة صاحب الحانة). إذا بدأتما في التحسّس في الحانة لسرقة شيء، فسوف يراكما.

- تشيرباك نائم - تشيرباك مستيقظ (قال صاحب الحانة، بعد أن تجشَّأ). لا تعقِّدوا الأمور. الشيء الرئيس هو عدم التعدي على زوجتي والتطاول عليها، لأنها سوف تتطاول عليكم (ومدَّ قدميه على الدكّة وغطّى نفسه بحصيرة من قماش الهُبابة). لا يمكنكم حتى أن تتخيلوا ما هي الأشياء التي أغمض عيني عليها.

في منتصف الليل، شعر أرسيني بشيء دافئ يتحرك على بطنه. ظن أنَّ ذلك جرذ، وتحرّك للتخلص منه.

- هسْ (همست زوجة صاحب الحانة). الشيء الرئيس ألّا تثير ضجة، أنا آخذ مبلغاً قليلاً، ويمكنك القول، مبلغاً رمزياً، بل إني ما كنت لآخذ أية نقود، ولكن زوجي، كما ترى، إنه حيوان، إنه يعتقد أنَّ في كل فعلٍ يجب أن يكون عنصر اقتصادي، النذل، لا يقتنع، بينما المرء يحتاج هذا، وأنَا جدّاً أريد...

- اذهبي عني (همس، بصوت بالكاد يُسمَع).

وواصلت التمسيد على بطن أرسيني، وشعر كيف أنه تحت يد هذه

المرأة، المسنّة والقبيحة، يفقد كل إرادة. وأراد أن يقول لأوستينا، إنّه الآن قد يحطِّم كلَّ ما بناه على مر السنين، ولكن زوجة صاحب الحانة جأرتْ بصوت عالٍ تقريباً:

- إني أعرف أخاك حقّ المعرفة...

هبطت يدها إلى أسفل البطن، فقفز أرسيني وضرب رأسه بشيء ثقيل ورنّـان، سقط من الجدار، وتدحرج، ثم قفز وطار من الغرفة مع زوجة صاحب الحانة.

في الغرفة المجاورة توهَّجت نار.

- كلّا؟ حسناً، انظرْ بنفسك (صاحت زوجة صاحب الحانة، وهي تشير إلى أرسيني)؛ بدأ يضايقني!

- استغل استراحتي القصيرة! (صاح صاحب الحانة، وكان غير سكران تقريباً، ولهذا كان غاضباً).

- إنّه تحرَّشَ بي، يا تشيرباك! في يديه بقي جزءاً من ملابسي. لقد أفلَتُّ منه.

مدَّ أرسيني يديه، وكانت فارغة:

- ليس لدي أيُّ ملابس.

نظرتْ زوجة صاحب الحانة إلى أرسيني وصارت تصرخ بصوت أهدأ من ذي قبل:

- إش، تطاولتَ، أنتَ لستَ في بسكوف. ادفع قطعة ذهبية على انتهاكك للعِرْض.

- هذه إمارة ليتوانيا الكبرى (قال صاحب الحانة)، وإلا فإني لن أسمح لأحد...

أجهش أرسيني بالبكاء.

- اسمعْ، يا تشيرباك (قال أمبروجو)، عندي رسالة سأسلّمها إلى السلطات عندكم. ولكني لفظياً (اقتربَ أمبروجو كثيراً من صاحب الحانة) سأخبرهم عن كيفيّة استقبال الناس في سيبيج للضيوف. لا أعتقد أنّهم سيفرحون بذلك.

- وأنا ما دخلي (قال صاحب الحانة). إني ما عرفت شيئاً إلا من كلامها. إذا كنتَ لا ترغب في ذلك، فلا تدفع على انتهاك العِرض.

نظرتْ إليه زوجة صاحب الحانة نظرةً صارمة:

- أوه، ما هذا، يا تشيرباك. ألمْ تقلْ لي: أَغرِيه بجمالك. وأنا سأمنعه. إذا لم تدفعوا قطعة ذهبية، أعطِ على الأقل شيئاً.

- لماذا ندفع، هل ندفع لجمالك؟ (سأل أمبروجو).

- سندفع، لحقيقة أنها رفضتني (قال أرسيني). لأنها إذا رفضتني بالكلمات، فهي قادرة على القيام بهذا بالفعل. أنا المذنب في هذا كله، وهذا هو سقوطي. اغفري لي، أيتها المرأة الطيبة، اغفري لي أنتِ، يا أوستينا.

ومن دون أن يتفوَّه بكلمة، أخرج أمبروجو قطعة ذهبية (دوكات) وسلّمها إلى زوجة صاحب الحانة. وقفت المرأة مُطرقةً برأسها وعيناها إلى الأسفل. فهزَّ صاحب الحانة كتفيه. نظرت هي إلى زوجها، أخذتْ القطعة الذهبية وهي تشعر بالخجل. وقد انبثق نور الفجر خارج النافذة.

سارا من سيبج إلى بولوتسك في صمت. تقدَّم أرسيني بعض الشيء، ولم يلحق أمبروجو به.

بعد صمت دام طويلاً، قال أمبروجو:

- من الصعب أن تعتاد على الكلام مرة أخرى.

أومأ أرسينى برأسه.

عندما ترجَّلا في المرة اللاحقة، قال أمبروجو:

- أفهم لماذا ألقيتَ الذنبَ على عاتقك. إنَّ مَن يحتوي العالم داخله يكون مسؤولاً عن كلِّ شيء. لكن ألا تعتقد أَنَّكَ حرمتَ هذه المرأة من الشعور بالذنب. فبفضلكَ اقتنعَت بأنَّ كلَّ شيءٍ مسموحٌ لها.

- أنت مخطئ (قال أرسيني). انظرْ، هذا ما وجدتُه في جيبي.

أخرج يده من جيبه وفتح قبضته. وإذا الدوكات (القطعة الذهبية) على كفِّه.

-د-

ترجَّلا في بولوتسك عند دير القدّيسة يفروسينيا. ربط أمبروجو خيوله إلى شجرة دردار كبيرة. وضغط أرسيني جبينه على سور الدير وقال:

- مرحباً، أيتها القدّيسة يفروسينيا، كما تعرفين، على الأرجح، أنني وصديقي أمبروجو (أمبروجو أطرق برأسه) ذاهبان إلى القُدس. لا نحكي لكِ عن مدى صعوبة الطريق، لأنك قمت به، بينما نحن في بدايته. والأكثر من ذلك، سيكون من غير الملائم بالنسبة لنا أن نتحدث عن مدى صعوبة الطريق، ونحن حتّى لم نبدأ التحرك فيه. لقد رفضتِ، أيتها القدّيسة، ذلك تماماً، ولكن برحمة الله انتقلتِ إلى الدار الآخرة في الأرض المقدَّسة. إننا ذاهبان إلى هناك للدعاء إلى اثنين من النساء ونتطلع إلى مساعدتك. باركينا، أيتها القدّيسة يفروسينيا.

ركع الحاجّان وانطلقا.

على مشارف بولوتسك، توجَّه أمبروجو إلى أحد المارة:

- إننا نبحث عن الطريق المؤدية إلى أورشا.

- أورشا تقع على نهر دنيبر، قال عابر السبيل. (دنيبر نهر كبير، وهذا يفتح، بالتالي، فرصاً كبيرة).

وأشار إلى الاتجاه نحو أورشا وذهب في حال سبيله.

- لقد لاحظتُ (قال أمبروجو)، وهو ينظر بأثر عابر السبيل، أنَّ سكان روسيا القديمة بسبب وعورة الطُّرُق يفضِّلون الطرقَ المائيّة. وبالمناسبة، هم لا يعرفون حتى الآن أنّ روسيا قديمة، ولكن في نهاية المطاف سوف

يفهمون. إذ إنَّ بعض مهارات الاستبصار تسمح لي بتأكيد ذلك. وأجزم، مع ذلك، أن وضع الطرق لن يتغير. وبشكل عام، سوف يتقدَّم تاريخ موطنك بشكل غير عادي.

- وهل تاريخ موطني لفافة حتى يتقدَّم (سأله أرسيني).

- كلّ تاريخ إلى حدٍّ معين لفافةٌ في يد الله القادر على كل شيء. وبعض الناس - على سبيل المثال، أنا - يوهَبون في بعض الأحيان قدرةَ الاستبصار ورؤية ما يحدث في المستقبل. لكنني لا أعرف ما إن كانت هذه اللفافة ستُطرَح فجأة.

- تقصد نهاية العالم (سأله أرسيني).

- نعم، نهاية عالم النور. وفي الوقت نفسه، نهاية عالم الظلام. أتعرف، إنَّ في هذه الحادثة، ثمّة تناظرٌ وتناسق.

سارا لعدة ساعات من دون أن يقولا كلمةً واحدة. امتدَّ الطريق على طول نهر دفينا، وسلك مجرى النهرَ، يتعرَّج معه، ويوحِشُ معه، وحتى أحياناً يتلاشى معه، لكنه دائماً ينكشف في مكان ما أبعد. وسارا في الأحراش، وصار صوت حوافر الخيل يُسمَع بصوت أعلى.

سأل أرسيني:

- إذا كان التاريخ هو لفافةٌ في يد الخالق، فهل هذا يعني أنَّ كلَّ ما أفكّر به وأفعله هو ليس تفكيري ولا فعلي، بل فعل خالقي وتفكيره؟

- كلا، ليس هكذا الأمر، لأن الخالق صالح، بينما أنت تفكّر وتفعل ليس ما هو صالح فحسب. إنكَ خُلِقت على صورة الله ومثاله، وشَبَهُكَ به يكمن، من بين أمور أخرى، في الحرّية.

- ولكن بما أنَّ الناس أحرار في أفكارهم وأفعالهم، فقد تبيَّن أن التاريخ يخلقونه هم بحرية مطلقة.

- الناس أحرار (أجاب أمبروجو)، لكن التاريخ ليس حُرّاً. إذ يحتوي على الكثير، كما تقول، من الأفكار والأفعال، إلى درجة أنه لا يمكن

أن يجمعها ويمليها الله وحده. وحتى أنني يمكنني أن أقول إنَّ الأحرار ليسوا الناس، بل الفرد. وإنَّ تضارب إرادات البشر أُشَبِّهها ببراغيثٍ في وعاء: حركتها واضحة، ولكن هل لها توجُّهٌ مشترَك؟ لذلك، التاريخ ليس له هدف، وكذلك البشرية أيضاً ليس لديها هدف. الهدف موجود لدى الفرد فقط. وليس عند كلّ فردٍ دائماً.

-ذ-

سارا على طول النهر لليوم الثاني. وعندما اجتازا الغابة، شاهدا مرجاً ومنحدراً إلى الماء. ترجَّل أمبروجو لكي يروي الحصان. وعند حافة النهر تزحلق على الطين وسقط في الماء. وتبيَّن أنه عميق بشكل غير متوقع، تقريباً إلى الحلق. ضحك أمبروجو، وهو يبصق من فمه الطحالب. شعره الأسود الطويل يشبه الطحالب أيضاً. إذ انهمر على وجهه الضاحك. طبطبت ضحكة أمبروجو ببقع ضوء الشمس على سطح الماء.

قال أرسيني إن اليوم هو يوم دافئ، بل حار تقريباً. يمكننا غسل بعضٍ من الملابس، وسوف تجفّ قبل المساء.

وبعد أن جمع لحاء البتولا وأغصان الأشجار، بدأ بإيقاد النار. أخرج من الكيس حجَرَي القدْح. وأخرج صوفان الاشتعال الذي صنعه من عشبة فطر عيش الغراب ولفَّه في خرقة منفصلة. وظل يقدح الحجرين حتى أشعلت إحدى الشرر الصوفان. لاحظ ذلك من خلال انبجاسٍ صغيرٍ للدخان. ثم ظهرت نقطة صغيرة من التوهج على الصوفان وبدأت في التوسع. وضع أرسيني عليها قطعاً صغيرة من لحاء البتولا وأشواك الصنوبر الجافة. فبدأت قطعة عريضة من لحاء البتولا بالاحتراق ونفث اللهب. وعندما اشتعلت، وضع أرسيني الأغصان الرفيعة. ثم الأغصان الأكثر سُمكاً.

- الآن يبقى علينا الانتظار حتى يتحول الخشب إلى رماد (قال أرسيني). نحن بحاجة إلى رماد للغسيل.

كان أمبروجو لا يزال يقف في الماء. وقد رسمت يداه نصف دائرة رغويَّة على وجه الماء.

- اقفزْ إلى هنا (صاح لأرسيني).

بعد تردُّد، نزع أرسيني ملابسه وقفز في النهر. شعر بالماء كأنه لمسةٌ لشخصٍ ما، لمسة باردة لطيفة لامست على الفور جسدَه كّله. شعر أرسيني بالسعادة، وخجلَ من ذلك، لأنَّ أوستينا لم تتمكَّن من الدخول معه في مياه نهر دفينا. فخرج إلى الشاطئ. ولأنه خجل من عريه، لفَّ نفسه بحزام عريض، لم يكن ينوي غسله.

عندما احترق قسم من الأغصان، جرف أرسيني الرماد على جانب وملأه بالماء. وقام بنشر خرقة على الأرض ثم نقل الرماد إليها. وربط نهايات الخرقة. وتحقق منها - فاتضح أنها مشدودة جيداً. لاحظ وجود حجر بارز من الماء فنقل إليه ما نوى غسله من الملابس. نزع أمبروجو بصعوبة قفطانه المبلل، وهو يخرج من الماء. وأضاف إلى القفطان شيئاً من الملابس ووضعها على الكومة التي جمعها أرسيني.

نقَّع أرسيني ملابسه وملابسه الداخلية، ثم دعكها على الحجر بعقدة الرماد. جلس القرفصاء. رنَّت القطع النقدية المخاطة في القفطان بصوت مهموس من جرّاء تلامسها مع الحجر. شطف أمبروجو الملابس المغسولة ونشرها على الأغصان السفلى من الأشجار. وعلى شجيرات الورد الجوري البري وأشجار الصنوبر الصغيرة، التي انحنت تحت وطأة ملابس العصور الوسطى الرطبة الثقيلة.

اضطجع أرسيني بالقرب من الماء. وكان يتحسس بظهره حرارة الشمس، وببطنه - نعومة العشب. وكلاهما كان مفيداً لجسده. هو نفسه أصبح عشباً. إذ زحفت على يديه مخلوقات صغيرة لا اسم لها. اخترقت شُعيرات جلده، وزحفت على باطن كفيه ثم طارت على مهل. وكان البط يضرب بجناحيه على الماء. قلَّبَت الرياح الأوراق وهزّتها، ثم حركت قممَ أشجار البلوط. وفي هذه الأثناء غفا أرسيني.

وعندما استيقظ، وجد نفسه في الظل. إذ اجتازته الشمس وصارت خلفه واختبأت خلف الأشجار. ومع هذا في بعض الأحيان، مع هبوب الرياح، تظهر من بين مناور الأغصان. تلقفت الرياح الرماد من مشعل النار، الذي أضاف إليه أمبروجو جذعين جافين من خشب البتولا بالعَرض كالصليب. كان الجذعان يحترقان ببطء، وبخفوتٍ، ولكن بشكل مأمون: لا يمكن أن تطفئها الرياح. تمكّن أمبروجو من جمع الملابس الداخلية من الأغصان وتلمَّس القفطانين. كانا ما يزالانِ رطبَين.

- أعتقد أننا سنبقى لنمضي الليلة هنا (قال أمبروجو).

- دعنا نبقى (أومأ أرسيني برأسه موافقاً).

أراد البقاء هنا إلى الأبد، لكنه يعلم أنَّ هذا مستحيل.

عند الغسق صار الجوُّ بـارداً. فأحضرا أغصاناً جافة من الغابة ووضعاها بالقرب من النار. كانت السماء ملبَّدة بالغيوم، لهذا حلَّ الظلام الدامس سريعاً. لم يعد القمر يُرى ولا النجوم. ولا ثمَّة غابة ولا نهر. لم يبقَ سوى مشعل النار والقليل مما يضيئه، والجذعين المتعاكسين، والجوّابَيْن الجالسَين، وظلال متعددة الأيدي على الأشجار.

- هل صحيح أنَّ هناك وحوشٌ كثيرة الأيدي (سأل أرسيني).

- لم أسمع عنها (أجاب أمبروجو)، ولكن عندما كان أحد أبناء بلدتي يجوب شرق روسيا، رأى وحوشاً لها يدٌ واحدة، وهي في وسط الصدر. بالإضافة إلى ساق واحدة. ومع هذه الميزات، كانت تطلق من قوس واحد سهمَين. وتتحرك بسرعة كبيرة لدرجة أن الخيول لم تتمكن من اللحاق بها، على الرغم من أنها تقفز على قدم واحدة. وعندما تتعب، كانت تسير على يد ورجل، وتدور من حولها. هل تستطيع أن تتخيل ذلك؟

جلس أمبروجو بعد أن أطرق رأسه مرة أخرى، ولم يعد وجهه يُرى. وبحسب صوت الإيطالي، بدا لأرسيني أنه كان يبتسم. كان أرسيني جاداً. إنه مندهش من العالم الأسود الضخم الذي ارتمى خلف

ظهريهما. احتوى هذا العالم على الكثير من المجهول، وأخفى أخطاراً، وحفَّ أوراق الشجر في ريح الليل وصرَّ على الأغصان بألم. لم يعد أرسيني يعرف ما إذا كان هذا العالم موجوداً على الإطلاق أو على الأقل موجوداً الآن، في هذا الوقت الهشّ عندما حلَّ فيه الظلام. هل أُلغِيَت الغابات والأنهار والمدن في الليل؟ ألم تسترح الطبيعة من نظامها، حتى في الصباح، بعد أن تستجمع قواها، وتتحوّل من الفوضى مرة أخرى إلى الفضاء؟ الوحيد الذي لم يخن نفسه خلال هذا الزمن الغريب هو أمبروجو، فشعر أرسيني له بالامتنان على هذا.

-ر-

بعد بضعة أيام وصلا أورشا. وتبين أنه خلال رحلتهما تضاءلت مؤونتهما الاحتياطية إلى حدٍّ كبير، والآن هما ليسا بحاجة إلى خيول الحمل. فباعا الحصانين في أورشا. ومع الحصانين المتبقِّيَين، صار من الأسهل التفكير في الطريق المائي. بعد يومين عثرا على سفينة متجهة إلى كييف، وركبا فيها.

نهر دنيبر في أورشا لم يكن عريضاً بعدُ. لم يكن أعرض من النهر العظيم. لكن أرسيني وأمبروجو توقَّعا أنه سيتوسع، لأنهما سمعا أنه على عكس نهر بسكوفا، فإن دنيبر نهر عظيم حقاً. أراد أمبروجو معرفة المزيد عن هذا النهر، لكن تبين أنَّ السفّانة كانوا كئيبين ولم يتواصلوا في الحديث. كانوا يدركون أنهم يقبضون الأجرة مقابل نقل الأشخاص والبضائع فقط. ويعرفون، على ما يبدو، أنهم لا يقبضون ثمناً مقابل الكلام.

إنهم لم يتحدثوا حتى عندما كانوا يتجمعون في دائرة ضيقة، ويشربون بعض المشروبات الموحلة في المساء. لم يكن أرسيني أو أمبروجو يعرفان ما يشربه هؤلاء الناس بالضبط، بيد أنَّ الشراب لم يجعلهم أكثر بهجة. وحتى أنَّ ظهورهم انحنت أكثر. بدا الجالسون كزهرة كبيرة غير جذابة، من النوع الذي ينكمش في الليل. وفي بعض الأحيان يقومون بالغناء في نغمات منخفضة. كانت أغانيهم قاتمة ومشوهة كالشراب الذي يشربونه.

- قال أمبروجو: إنَّ الكثيرين من الروس متشائمون.
- هذا بسبب المناخ (أومأ أرسيني برأسه).
بعد ثلاثة أيام رسوا في موغيلوفو. لا المدينة ولا حتى اسمها (المستمد من موغيلا بمعنى - القبر) استطاعا تحسين مزاج السفّانة. وفي المساء شربوا أكثر من المعتاد، لكنهم لم يذهبوا للنوم. حوالي منتصف الليل وصلت إلى المرسى عربة نقل يجرُّها حصان. صفَّر أحدهم من العربة. تبادل السفّانة النظر إلى بعضهم البعض ثم ذهبوا إلى الشاطئ. عادوا مرة أخرى مع أكياس مربوطة بإحكام. وقد ساعدهم في سحب الأكياس إلى السفينة أشخاص من العربة. بفضول وانفتاح الأجانب، أراد أمبروجو أن يسألهم عما كان في الأكياس، لكن أرسيني وضع إصبعه على شفتيه.
عندما أبحرت السفينة، دنا أرسيني من أحد السفّانة. مسكه بكلتا يديه من رقبته وسأله:
- ما اسمك أيُّها السفَّان؟
- بروكوبي (أجاب السفان).
- لديك، يا بروكوبي، تورم في المسالك التنفسية. موقفك خطير، ولكن ليس ميؤوساً منه. إذا قررت أن تطلب المساعدة من الرب، تخلَّص أولاً مما يثقل كاهلك.
لم يردّ السفان بروكوبي على أرسيني بكلمة، ولكن انهمرت الدموع من عينيه.
في روجاتشيف، أصبح النهر أوسع بكثير.
وفي ليوبيك، اقترب بروكوبي من أرسيني وقال له:
- لا أحد يعرف عن مرضي، لكني بدأت الآن أختنق.
- إنك تختنق من خطاياك، أجاب أرسيني.
وعندما اقتربوا من كييف، قال بروكوربي السفَّان لأرسيني:
- لقد فهمت كلامك وسأعمل بقولك.
عندما رأى السفان بركوربي على الجانب الأيمن جبال كييف، صاح:

- يا قدّيسي المغارات، صلّوا إلى الله من أجلنا!

نظر الرفاق بإحباط إلى بروكوبي. فقد أقلقهم تقواه غير المتوقع لهم. وعندما دخلت السفينة إلى نهر بوتشاينا لترسو في ضاحية طرف كييف، قال لهم بروكوبي:

- اهربوا من هذه السفينة، وكأنكم تريدون أن تتوبوا عن خطاياكم وتسلِّموا أنفسكم لبارئكم.

لو أنَّ السفينة لم ترسُ على مرفأ كييف المزدحم، ولم يكن ثمة ضيفان على متنها، ربما، ما تمكن السفَّان بروكوبي من مغادرة السفينة بهذه السهولة. من المحتمل تماماً أنه لم يكن ليتمكن من مغادرة السفينة على الإطلاق. لكن الظروف كانت إلى جانب بروكوبي.

نزل إلى الشاطئ وأعطى التعليمات الأخيرة لرفاقه السابقين من هناك. نصحهم ألا يركنوا إلى الخطيئة، وبعد أن يتوبوا، يصعدوا مع تيار نهر دنيبر إلى مدينة أورشا، وهناك يبحثوا لأنفسهم عن مهنة نزيهة. استمع المراكبيون له في صمت، مع إنهم كانوا يستطيعون الاعتراض على خطاب بروكوبي النزيه. وهم يراقبون حركة شفته، كانوا إلى حد ما يتأسفون لأنهم لم يكسروا عنقه في مكان ما بالقرب من ليوبيتش ولم يلقوا به في نهر دنيبر العميق.

جاءت سلطات الميناء إلى السفينة. فقال لهم السفّان بروكوبي بحرِّية إنه بالإضافة إلى الحاجَّين وخيولهم والقمصان الكتان وأواني الفخار، نقلت السفينة إلى مدينة كييف سلعاً منهوبة من مدينة موغيليفو. وقال لهم إنه قبل ثلاثة أسابيع قُتل في موغيلوفو التاجر سافا تشيغير. وإنَّ أملاك سافا، بسبب خطرِ تحديد الهوية لا يمكن بيعها في موغيلوفو، قد نُقِلَت في السفينة إلى كييف. وبالطريقة هذه نفسها، حدث نقل ممتلكات تُجّار آخرين من موغيليفو كذلك من قبل، الأمر الذي لم يعرف عنه المراكبي بروكوبي شيئاً لأنه أُخِذ إلى الخدمة من دون أي تفسيرات خاصة. على الرغم من كونه اندهش، بطبيعة الحال، أن يجري التحميل في وقت

متأخر من الليل مع احتياطات غير عادية بالنسبة للقمصان والأطباق. وعندما وجد في هذه المرة، في أحد الأكياس، بدلاً من الأطباق، مجوهرات وكأساً يعود إلى سافا القتيل (كان اسمه محفوراً على الكأس الفضي)، شكَّ بروكوبي على الفور في وجود شيء ما غير صحيح. ولمّا تدهورت صحته، بدا له أنَّ ذلك ليس من قبيل الصدفة، وأنه رأى في كلمات الحاج أرسيني إشارة من الله، وبالتالي عليه أن يتوب قبل الجميع. تنفَّسَ بروكوبي. وبدا له أن تنفسه اللاحق أسهل.

وبعد سماع اعترافات المراكبي، صعدت سلطات الميناء إلى متن السفينة، ولكن لم يعثروا على أشخاص هناك. وجدوا بعض الأكياس، وفعلاً محشوة بأشياء ثمينة. ثم بدأوا يستجوبون بروكوبي عن رفاقه، فحدَّثهم عن كل شيء يعرفه. تحدث بصوت مخنوق، لأنه لم يكن لديه ما يكفي من الهواء.

اقترب أرسيني من بروكوبي، ووضع يديه على رقبته مرة أخرى. جسَّها وضغط بإبهامه على الحنجرة. انتابت المراكبي نوبة من السعال. انحنى بصعوبة، وخرج لعاب دموي من فمه. سال اللعاب على لحية بروكوبي، وعلق بها كأنه قطعة رقيقة من الثلج الوردي اللون متدلية من فوق.

وبالنظر إلى التوبة المخلصة للمراكبي، وعدم مشاركته في القضية، فضلاً عن حالته الصحية المزرية، أفرجت عنه السلطات.

الآن بإمكانك تناول القربان المقدَّس، وسوف تتحسَّن صِحّتك، قال له أرسيني. صدِّقني يا أخي بروكوبي، لقد نجوتَ بسهولة.

-ز-

كانت لدى أرسيني وأمبروجو رسالةٌ من غافريل حاكم بسكوف إلى سيرغي والي كييف. طلب فيها غافريل من سيرغي إبداء المساعدة للحاجَّين، وإلحاقهما، إذا أمكن، بإحدى قوافل كييف التجارية، التي تنطلق من وقت لآخر من هناك. وعندما سأل الحجاج أين يمكن العثور على الوالي، أشار لهم السكان المحلّيون إلى القلعة. كان هذا هو اسم قسم المدينة، الذي يقع على هضبة صغيرة ويحيط به سور.

كانت القلعة مرئية من كل مكان. أخذ أرسيني وأمبروجو الخيول من اللجام، وصعدا ببطء بأحد الشوارع. كان الشارع متعرّجاً، لكن الرجلين كانا يعرفان أنهما لن يضلّا الطريق. فقد بدت لهما القلعة معلّقة بجذوع مهيبة في السور.

إنها الأورطة[2]، قال لهم أحدُ المارَّة، وهو يشير إلى الجدار الداكن. لأني أعرف أنكما غريبان، سأشرح لكم سبب هذه الهيبة: إنَّ أورطة مينجلي - جيري، كلها متاعب، صداع كبير، بصراحة.

ابتسم ابتسامة عريضة، كشفت عن فمه الخالي من الأسنان، وذهب في حال سبيله.

ومع ذلك، فإن الروس ليسوا كئيبين مثلما يبدو لك، قال أرسيني لأمبروجو. في بعض الأحيان يكونون في مزاج جيد. على سبيل المثال، بعد رحيل الأورطة.

2- الأورطة - وحدة إدارية عسكرية للأقوام الرُّحَّل المغولية والطورانية - المترجم.

عند مدخل القلعة استقبلهم الحرس. وعندما عرَّفوا بأنفسهم، سُمِحَ لهم بالدخول. تضم القلعة دُور أشراف كييف وعدد من الكنائس. وصلا إلى منزل الوالي سيرغي وقدما نفسيهما لحراس آخرين. وبعد أن أنصتوا، دخل أحد الحراس إلى المنزل. بعد بضع دقائق عاد وأشار إلى الحرّاس أن يفتّشوا الزّائرَيْن. وبعد تربيتٍ بسيط على الملابس، سُمِح لأرسيني وأمبروجو بالدخول.

كان الوالي سيرغي أصلعاً وذا حاجبين غليظَين. جعل الحاجبان وجهَه غير المثير مُعبّراً. إنَّ أدنى تحرك للمشاعر، غير الملحوظ عند أي شخص آخر، يبدو عند الوالي سيرغي، بفضل حاجبيه، تعبيراً واضحاً على وجهه. وبعد أن استقبل الوالي الحاجَّيْن بتجهّم (قطَّبَ حاجبيه) أخذ منهما رسالة الحاكم غافريل. ولأنه غمر نفسه في الرسالة، بان وجهه وهو يقرأ منبسطاً، إلى أنْ امتد حاجباه على شكل حبل واحد مستقيم وسميك. وبعد أن قرأ الرسالة حتى النهاية، وضعها على الطاولة وضغط عليها بيده. وقد أدخل أصابع اليد الأخرى تحت الجانب الأيسر من القفطان. وكان يحركهما.

أنا أعرف الحاكم وسأساعدكما، قال الوالي سيرغي. سأرسلكما مع أقرب قافلة تجّار. وخلال مدة الانتظار، ستقيمان في بيت الضيافة.

- هل ننتظر طويلاً، سأل أمبروجو.

- ربما أسبوع وربما، شهر (أجاب الوالي سيرغي). لا أحد يمكنه أنْ يتكهَّن (وشرب من مغرفة خشبية على شكل بجعة ومسح بيده على جبينه. كان الجو حاراً).

صار واضحاً أنَّ المقابلة الرسمية قد انتهت. فقال أرسيني عند الخروج:

- الحقيقة، أيها الوالي، أنَّ المشكلة ليست في قلبك. بل في العمود الفقري. فالكثير من الأمور تتعلّق به. أكثر بكثير مما نعتقد في بعض الأحيان.

زحف حاجبا الوالي سيرغي باتجاه الأعلى:

- هل تعلم أن قلبي يؤلمني؟!

- أكرّر، إنه ليس القلب، بل العمود الفقري (أجاب أرسيني). يخزكَ أحد عروق القلب، فتعتقد أنه القلب. اخلعْ ملابسك، أيها الوالي، وسأرى ما يمكن القيام به.

وبعد تردُّد، بدأ الوالي سيرغي يخلع عنه ثيابه. كان كتفاه وصدره مغطاة بالشعر. إنه محدودب، وبطنه كبير، وهو نفسه يشبه المغرفة التي يشرب منها. أشار أرسيني إلى الدكّة:

- استلقِ، أيها الوالي، على بطنك.

استلقى سيرغي على بطنه، وكأنه مستلقٍ على شيء منفصل عنه. وكانت الدكّة تحته تصر صريراً شديداً. تغللت أصابع أرسيني في ظهر الوالي الكث الشعر. كان يحركها من أعلى إلى أسفل، متلمساً بها عموده الفقري فقرة بعد فقرة. وتوقفت أصابعه عند واحدة منها. دعكتها قليلاً. وأخلت المكان للجزء السفلي من راحة كَفِّه. وضع أرسيني على ذلك الكف كفه الآخر وبدأ يضغط على العمود الفقري بقوة وبشكل إيقاعي. شاهد أمبروجو كيف يهتز عنق المريض المشحم. انطلقت طقطقة طفيفة، وصرخ الوالي.

- كل شيء على ما يرام (قال أرسيني). من الآن فصاعداً سوف تتركك آلام القلب وجميع الآلام.

نهض الوالي سيرغي من الدكة وفرك ظهره. استقام. لا شيء يؤلمه. فسأل:

- ماذا تطلب على مساعدتك لي، أيها المعالج؟

- أطلبُ شيئاً واحداً: اخشَ تيارات الهواء ورفع الأثقال (أجاب أرسيني، بعد أن فكر). إنها بالنسبة لك مميتة كالسكين الحاد.

-س-

لم يسمح لهم الوالي سيرغي بالذهاب إلى منزل الضيوف وأسكنهم في قصره. وفي الأيام الثلاثة اللاحقة زارهم كثير من الناس.

جاء فيوغنوست والد زوجة الوالي، الذي لم يكن قادراً على الانحناء من مدة طويلة. كان يمكث دائماً نصف منحنٍ ومتّكِئاً على عصا قصيرة. وضع أرسيني المريض على المقعد. وبعد أن جسَّ العمود الفقري لفيوغنوست فقرة بعد فقرة وجد سبب عدم مرونته. خرج فيوغنوست من عند أرسيني من دون عصا.

جاءت زوجة الوالي فوتينيا الحامل شاكية من هيجان الجنين في الرحم. وضع أرسيني يده على بطنها:

- أنتِ في شهْركِ الثامن، قال لها، وستلدين ولداً. أما بالنسبة للهيجان، فهو ابن الوالي، كيف يمكن أن يكون هادئاً؟

جاءت حماة الوالي أغافيا، التي، بعد أن سقطت في الشتاء، لم تنمو لديها العظام المكسورة في معصمها. قام أرسيني بربط رسغ أغافيا بقطعة قماش بإحكام وأسنده بيديه.

- لا تعيري أهمية للألم، يا أغافيا، ستستعيدين صحَّتَكِ قبل ولادة حفيدك.

زار أرسيني يرميا متعهد شؤون الخدم لعلاج أسنانه المريضة، وزوجة القس سيرافيم لعلاج دوار في رأسها، والتاجر ميخالكو الذي تعفَّن جرحٌ على فخذه، وبعض الأشخاص الآخرين الذين سمعوا عن

مساعدة مذهلة من رجل من بسكوف. وقد شفي الذين جاؤوا إليه من أمراضهم أو أعطاهم المسكنات التي عززت مواجهة الأمراض والتغلّب عليها، لأن الحوار معه بحد ذاته يبدو فيه الشفاء. وسعى آخرون للمس يده، لأنهم شعروا أنَّ قوة حيوية تخرج منها. وآنذاك وصل بصورة غير معروفة من بيلوزيريا - اسمه الأول الروكيني - صاحب اليد الشافية. وكل من جاء إلى أرسيني عرف أنه الروكيني. ومن ثم تعرّفوا على لقبه الرئيس، الطبيب.

في الليلة الرابعة من إقامتهم في كييف، ذهب أرسيني وأمبروجو خارج المدينة واتَّجَها إلى دير بيتشيرسكي. سارا على مرتفع فيه غابة كثيفة، وإلى الأسفل منه امتدَّ نهر دنيبر الكبير الداكن. لم يكن يُرى، لكنه كان يلهث ويمكن الإحساس بوجوده مثلما يُحَسُّ بوجود البحر وكل وفرة من المياه. عندما اقترب أرسيني وأمبروجو من الدير، بدأ الظلام يتبدّد ويحلّ النور. وصارت تُرى من قمة الجبل الضفة اليسرى المنحدرة تدريجياً. لم يُعِق شيء النظر إلى الشرق، فالنظرة يمكن أن تحوم فوق السهل وتصل إلى روسيا الممتدة في البعد السحيق. ومن هناك ارتفعت بوضوح شمس حمراء ضخمة وكأنها تُدفَع دفعاً.

عند بوابة الدير، استُجوِبوا لمدة طويلة عن حقيقة هويتهما. وعندما اكتشفوا أن أمبروجو كاثوليكي، شكّكوا بإمكانية السماح لهما بالدخول إلى هناك. وأرسلوا شخصاً إلى رئيس الدير. وبعد أن قرّر أن زيارة الدير يمكن أن تجلب للأجنبي فائدة، بارك رئيس الدير السماح لهما كليهما بالدخول.

أُعطيَت لكل واحد منهما شمعة، وقادهما الراهب إلى مغارة أنطوني ومغارة فيودوسي. رأيا رفات القدّيس أنتوني والقدّيس فيودوسي. كان هناك العديد من القدّيسين الآخرين، الذين يعرفهم أرسيني، وبعضهم، كما يبدو، لم يعرفهم. سار أمامهما الراهب الذي يرافقهما. في واحدة من المنعطفات التفت، وفي عينيه لمع لهب الشمعة.

- يفروسينيا من بولوتسك (أشار الراهب إلى أحد الأضرحة). عادت من المكان الذي أنتما ذاهبان إليه. في أوقات الفوضى في الأراضي المقدسة، نُقِل رفاتها إلى هنا.

- سلامٌ عليكِ، يا يفروسينيا (قال أرسيني). لكننا مررنا بمدينة بولوتسك، وبالطبع، لم نعثر عليكِ.

- ستعود هي إلى بولوتسك في عام 1910 (تنبّأ أمبروجو). وسيُنقل رفاتها إلى أورشا في نهر دنيبر، ومن أورشا إلى بولوتسك ستُحمَل على الأيدي.

لم يقل الراهب شيئاً وواصل السير. وسار أرسيني وأمبروجو على أثره، وهما يتحسَّسان الأرضية غير المستوية بأقدامهما. هناك في الأعلى، كان الفجر والصيف يتوهجان، ولكن هنا ثلاث شموع فقط بدَّدت الظلام. غادر الظلام الشموع، ولكن بطريقة ما غير مؤكد وليس بعيداً. وتسمَّر تحت أقبية منخفضة على طول يد ممتدة وتصاعد بطريقة لولبية، مستعداً للإطباق من جديد. كان الجو، في هذه الساعة المبكرة في الأعلى، حاراً جداً، ولكن هنا سادت البرودة.

- هل الجو هنا دائماً بارد (سأل أمبروجو).

- لا وجود هنا لا للصقيع ولا للحرّ، اللذان هما مظهر من مظاهر التطرف (أجاب الراهب). الاعتدال هنا دائم، ويتميّز بالبرودة القليلة.

قرَّب أرسيني الشمعة من نقش على شاهد أحد الأضرحة.

- مرحباً، يا أغابيت المحبوب (قال أرسيني بهدوء). كنت آمل أن ألتقي بك.

- لمن هنا تريد أن تطلب الصحة (سأل أمبروجو).

- هذا القدّيس أغابيت، إنه طبيب مجاني (ركع أرسيني ولثم بشفتيه يد أغابيت). الحقيقة، أغابيت، هو شفائي؛ إنها قصة غريبة... لا أستطيع أن أفسرها لك. بينما كنت أعالِج بالأعشاب، كان كل شيء واضحاً

نوعاً ما بالنسبة لي. كنت أعالج وأعرف أن غوث الله يأتي من خلال الأعشاب. وها أنت ترى. الآن يأتي غوث الله عن طريقي شخصيّاً، هل تفهم؟ إنني أَحقَرُ مِن أنْ أُشفي، أَحقَرُ بكثير، وأنا نفسي لا أقوم بذلك، فتارةً أشعر بالفزع وتارة أشعر بالإرباك.

- سأله الراهب: أنت تقصد أنك أسوأ من الأعشاب.

- نظر أرسيني إلى الراهب: على نحو ما؛ أنا أسوء، لأن الأعشاب هي بلا خطيئة.

- فقال أمبروجو: إنها في الواقع، لأنها بلا خطيئة، لأنها بلا وعي. وهل ثمة أي ميزة في ذلك؟

- بمعنى، ينبغي عدم الوقوع بالخطيئة عن وعي وإدراك (وهزَّ الراهب كتفيه). هنا يكمن جوهر القضية. الحقيقة، ينبغي ألّا نجادل في هذا الموضوع، بل أن نسلِّم لأمر الله.

واصل الثلاثة السير، وصاروا يصادفون المزيد من القدّيسين الجدد. الحقيقة، لم يكن القدّيسون يتحركون أو حتى يتحدثون، لكن صمت الموتى وعدم حركتهم لم يكونا مطلَقَيْن. فهناك، تحت الأرض، جرت ثمة حركة غير طبيعية تماماً، وصدحت ثمة أصوات من نوع خاص لا تنتهك الصرامة والسكينة. إذ كان القدّيسون يتحدثون بكلمات من المزامير وبسطور من حياتهم الخاصة، يتذكرها أرسيني من الطفولة. انتقلت الظلال من الشموع التي أحضروها على الوجوه الجافة والأكف البنية شبه المثنية. وبدا أن القدّيسين رفعوا رؤوسهم، وابتسموا ولوَّحوا بأيديهم بحركة بالكاد تُلاحَظ.

- مدينة القدّيسين (همس أمبروجو، وهو يراقب حركة الظلال). إنهم يقدّمون لنا مثالاً على وهم الحياة.

- كلا (اعترض أرسيني هامساً كذلك). إنهم يدحضون وهْمَ الموت.

-ش-

وبعد أسبوع، توجَّهت قافلة للتجّار من كييف إلى مدينة البندقية، فانضم إليها أرسيني وأمبروجو. وعندما سمح لهم الوالي سيرغي بالسفر، شعر بالحزن، الذي لم يخفه. كان الوالي يتأسف على فراق مثل هذا الطبيب الرائع. ويتأسف على فراق مسامرَيْن طيبين. إذ أنه، خلال المدة القصيرة التي ضيَّفَ فيها الحاجَّيْن عنده، تعلم الكثير عن الحياة في بسكوف وفي إيطاليا، وعن تاريخ العالم وعن طرق حساب أوان نهاية العالم. بذل الوالي سيرغي محاولات ضعيفة لإبقاء ضيفَيْه عنده، لكنه لم يحاول جدياً أن يفرض عليهما البقاء. فهو يعرف لماذا قام أرسيني وأمبروجو بهذه الرحلة.

تشكَّلت القافلة من أربعين تاجراً ومبعوثَين اثنين من نوفغورود وثلاثة عشر من الحُرّاس. جُمِع المال للحُرّاس من جميع المسافرين، بما في ذلك من أرسيني وأمبروجو، اللذين استُوفِيَت منهما أربع دوكات (قطع ذهبية) - مأخوذاً بنظر الاعتبار أنهما لم يكن لديهما أية حمولة تقريباً. جلب كل واحد من التجّار عدّة خيولِ حِمل، وحَمل الكثيرون أيضاً حمولتهم على عربات تجرها الثيران. ملأت القافلة، التي تجمّعت أمام كنيسة القدّيسة صوفيا، الساحةَ بأكملها. وصدح في كل مكان صرير العربات، وصهيل الخيول، وخوار الثيران والشتائم التي أطلقها حراس القافلة. وكما هو المفترض في الحراس، فقد كانوا غاضبين.

بعد ساعتين من الترتيب والتسوية النقدية، انطلقت القافلة من

مكانها. وبعد أن وصلت إلى البوابة الذهبية، تقلصت، وكما لو كانت تمر من خلال عنق زجاجة، أصبح من الصعب الخروج. وللخروج من المدينة مع بضاعة كان ينبغي دفع مبلغ معيَّن. سافر أرسيني وأمبروجو من دون بضائع، فلم يؤخذ أي شيء منهما. ومن الأشياء الثمينة كان لديهم مصباح فضّي فقط، لكن لم يكن أحد يعرف ذلك.

حمل التجار الفراء والقبعات والأحزمة والسكاكين والسيوف والأقفال وحديد المحاريث والقماش والسروج والرماح والأقـواس والسهام والحليّ. من وجهة نظر أولئك الذين يقفون في البوابة الذهبية، ينبغي على التجار أن يدفعوا مقابل بضاعتهم. لم يُجْبَ المالُ مقابل السلع منفصلةً، كل سلعة على حِدة، بل مقابل حمولة العربات. لهذا السبب كانت كل عربة تُحمَّل بكامل سعة استيعابها للحمولات وأحياناً أكثر من سعتها. وفي مثل هذه الحالات، كانت العربات تتحطم، فتصبح حمولتها، وفقاً للقانون، ملكاً لوالي كييف. والأشياء التي تسقط (ما يسقط من العربة، يضيع) كذلك تؤخَذ بلا رحمة. الطريق عند البوابة مليئة بالحُفَر. فإذا ما سُوِّيَت الحفرة، مع مرور الوقت، تُحفَر بعناية مرة أخرى. في العصور الوسطى، كما في الأوقات المتأخرة، كانت الجمارك تجيد التعامل مع المسافرين.

توقفت القافلة بعد أن اجتازت سور المدينة لمسافة كبيرة. هنا كانت بانتظارها عشرات العربات، التي من المفترض أن يُحوَّل إليها جزء من البضائع التي أُخرجت. لأن البضائع لم تكن لتصل إلى البندقية، بالشكل الذي اجتازت فيه عبر البوابة، وقد أدرك التجار ذلك. استغرقت إعادة توزيع البضائع عدة ساعات. عندما انطلقت القافلة بشكل نهائي، كانت الشمس قد هبطت نحو المغيب.

قضوا الليل بالقرب من كييف. كانت القافلة كبيرة جداً لدرجة أنه كان لا بد من البحث عن مبيت في عدة قرى في وقت واحد. عندما توزع المسافرون على القرى، اقترب الحارس فلاسي من أمبروجو وأرسيني. في يديه هراوة، وفي حزامه فأس قتال.

- أنتم من بسكوف (سألهما الحارس فلاسي).

- مِن بسكوف (أجاب الرحالة).

- أنا أيضاً من هناك، وأكسب رزقي من الحراسة. تعالا، سأُسكنكما في مكان جيد.

أُسكِنَ أرسيني وأمبروجو في أحد الأكواخ مع تاجر بولندي يدعى فلاديسلاف، كان مسافراً إلى مدينة كراكوف. جلبَ معه سبع حزم من جلود السمور، اشتراها في نوفغورود. وضع التاجر فلاديسلاف جميع الحزم السبع على الدكّة التي مدّوا له الفراش عليها.

كانت الجلود طرية بعد، وتفوح منها رائحة حادّة. عندما تحدَّث التاجر عن بضاعته كان يُمسك بشحمَتَي أذنيه الكبيرتين - واحدة بعد الأخرى على التوالي. من الحرارة العالية في الكوخ توهَّجَت أذناه، وصار حجمهما غير العادي أكثر وضوحاً بسبب ذلك. كانت تلمع على أصابعه السمينة عدة خواتم. ومن وقت لآخر كان يدس أصابعه من خلال فرو السمور، وكأنه يدخلهم في عشب، فتتلألأ من هناك الأحجار الكريمة كحبات فراولة كبيرة غير صالحة للأكل.

- جلود ممتازة (قال فلاديسلاف التاجر بإجمال).

- ألا يوجد مثلها في كراكوف (سأله أمبروجو بأدب).

- لماذا لا - يوجد (استاءَ التاجر). لكن بسعر مختلف. في مملكة بولندا يوجد كل شيء.

تحدث بلهجة ملحوظة، وبعض من كلماته لا يمكن فهمها إلا بصعوبة.

«كلام المتحدثين لا يُعَوَّل عليه، كما في بداية رحلتنا»، قال أرسيني لأوستينا، وهو مستلقٍ على الدكة. «الكلمات هي الآن متزعزعة بصورة أكثر. بعضها يفلت من دون تحديد. بصراحة، يا حبّي، هذا يقلقني قليلاً».

مرَّت لحظة، وإذا بأرسيني نائم.

-ص-

عند الفجر انطلقت القافلة من جديد. كانت التشكيلة تشبه تشكيلة الأمس، لكنها لم تتكرَّر بالضبط. ثبتت التشكيلة بشكل نهائي بعد آخر قرية غادرها المسافرون. كانت حركة القافلة بطيئة. إذ تحدّدت وفق سرعة الثيران، وهي حيوانات بطبيعتها تسير على مهل. فالثيران لديها نظرة توحي بالتفكّر، على الرغم من أنها في الواقع لا تفكر في أي شيء. تقدمت القافلة من دون أن تترك أي آثار، لأنه لم ينزل المطر من مدة طويلة. لم تترك القافلة خلفها سوى سحابة من الغبار تصاعدت في الهواء الجافّ.

رأى أمبروجو إلى الأمام من أرسيني الحارسَ فلاسي. بالأمس بدا أكبر سناً، والآن يبدو صبيّاً تقريباً. شعره أشقر. وعيناه رماديتان. لوَّح لهما بيده وقال شيئاً. بسبب ضجيج القافلة لم يسمعا. أشار أمبروجو إلى أذنه.

- كنت أسكن في ضاحية زابسكوفيه (صاح الحارس فلاسي). في زا-بسكوفيه. (وابتسم)، هل تعرف هذا المكان؟

- إنهما يعرفان ويومئان: المسألة واضحة، في زابسكوفيه.

كان الطريق ضيقاً، وحصان أرسيني يلامس حصان أمبروجو من وقت لآخر. أخذ أرسيني جواد رفيقه من زمامه وقال:

- أحاول طوال سنوات عديدة أنْ أعمل ما يمكن به إنقاذ أوستينا، التي قتلتها. ولا أعرف ما إنْ كان عملي مبارك. وما زلت في انتظار إشارة ما من شأنها أن تبين لي أنني ذاهب في الاتجاه الصحيح، ولكن كل هذه السنوات وأنا لم أرَ أيَّ علامة.

- من السهل السير وفق العلامات، وهذا لا يحتاج إلى شجاعة (أجاب أمبروجو).

- لو أنَّ المسألة تتعلق بخلاصي، لما كنت مستعجلاً. وكنت سأمشي إلى الأمام ما دامت قدمايَّ قادرتان على السير، لأنني لا أخشى الحركة والجهد. إنّي أخشى فقط أن أسير بالاتجاه الخطأ.

- إذن، فإنَّ الصعوبة الرئيسة تكمن، كما أعتقد، ليس في الحركة (تلاقت نظرة أمبروجو مع نظرة أرسيني)، ولكن في اختيار الطريق.

سارت القافلة عبر غابة. ارتدَّ أرسيني بصمت على السرج، وكان من غير الواضح ما إذا كان قد أومأ بالموافقة مع ما يقول أمبروجو أم أنه هزّ رأسه على إيقاع سير الحصان. وعندما ساروا في حقلٍ، قال أرسيني:

- إني أخشى فقط، يا أمبروجو، أنّ عملي كله لا يساعد أوستينا، وأنَّ طريقي لا يقودني إليها، بل يبعدني عنها. وبسبب نهاية العالم القريبة الحلول، فأنت في الواقع تفهم أنه ليس لديّ الحق في أن أضلّ طريقي. لأنني إذا ما ذهبت بالطريق الخطأ، فعندئذ لن أجد الوقت الكافي للعودة إلى الطريق الصحيح.

فكَّ أمبروجو الأزرار العليا من القفطان:

- سأقول شيئاً غريباً. يبدو لي دائماً أنه لا وجود للزمن. فكل ما في العالم موجود خارج إطار الزمن، وإلا كيف لي أن أعرف المستقبل الذي لم يحدث بعد؟ أعتقد أننا وُهِبْنا الزمن برحمة الله، حتى لا نتشوَّش، لأن وعي الإنسان لا يستطيع أن يدعَ في ذاته جميع الحوادث في وقت واحد. إننا محبوسون في الزمن بسبب ضعفنا.

- لذا، في رأيك، فإن نهاية العالم موجودة بالفعل الآن (سأله أرسيني).

- أنا لا أستبعد هذا. فهناك موتٌ لبعض الأفراد؛ أليس هذا هو النهاية الشخصية للعالم؟ وفي نهاية المطاف، التاريخ العالمي هو جزء فقط من التاريخ الشخصي.

- يمكن أن نقول العكس (قال أرسيني بعد أنْ فكَّر).

- قد يكون العكس صحيحاً كذلك؛ لا يمكن لهذين التاريخين أن يكون أحدهما دون الآخر. وهنا، يا أرسيني، من المهم بالنسبة لكل فرد أن تأتي نهاية العالم بعد عدة عشرات من السنين من يوم ولادته - بالقدر الذي يُسمح به له. (انحنى أمبروجو على عنق الحصان وأطلق زفيراً في لبدته). إن نهاية العالم العامة، كما تعرف، تقلقني، لكنني لا أخافها. أي أني لا أخشاها أكثر مما أخشى موتي.

أصبح الطريق أوسع، وصار التاجر فلاديسلاف بمحاذاتهما.

- سمعتكما تتحدّثان عن الموت (قال التاجر). أنتم، الروس مغرمون جداً بالتحدّث عن الموت. وهذا يصرفكم عن شؤون الحياة.

هزَّ أمبروجو كتفيه.

- وهل لا يموت الناس في بولندا؟ (سأله أرسيني).

حكَّ التاجر فلاديسلاف قفاه. وتقاسيم وجهه أعربتْ عن شكّه.

- يموتون، بالطبع، ولكن بشكل قليل جداً.

وحفّز حصانه ووثب إلى مقدمة القافلة. فتابعه أرسيني وأمبروجو بنظرتيهما بصمت.

- ما زلت أفكّر في كلماتك عن الزمن (قال أرسيني). هل تعرف كم من الوقت عاش الأسلاف؟ عاش آدم لمدة تسعمائة وثلاثين سنة، وشيت تسعمائة واثنا عشر، ومتوشالخ تسعمائة وتسعة وستين. قلْ لي، أليس الزمن نعمة؟

- الزمن، أغلب الظن، لعنة. في الجنّة، يا أرسيني، لم يكن موجوداً. عاش الأسلاف طويلاً لأن خلود الجنة كان لا يزال يتوهَّج في وجوههم. لقد اعتادوا بطريقة ما على الوقت، هل تعرف؟ كان لا يزال فيهم قليلٌ من الأبدية. ثم بدأت أعمارهم تتقلَّص. وعندما سأل فرعون الشيخ يعقوب كم عمره، أجاب يعقوب: أَيَّامُ سِنِي غُرْبَتِي مِئَةٌ وَثَلاَثُونَ سَنَةً. قَلِيلَةً وَرَدِيَّةً كَانَتْ أَيَّامُ سِنِي حَيَاتِي، وَلَمْ تَبْلُغْ إِلَى أَيَّامِ سِنِي حَيَاةِ آبَائِي فِي أَيَّامِ غُرْبَتِهِمْ.

- إنك، يا أمبروجو، تتحدّث عن التاريخ العام، والذي تعتقد أنه مُحَدَّد سلفاً. ربما هذا هو الحال. لكن التاريخ الشخصي هو شيء مختلف تماماً. لا يولد الإنسان جاهزاً. إنه يتعلم، ويدرك التجربة ويبني تاريخه الشخصي. ولهذا بالذات هو يحتاج الزمن.

وضع أمبروجو يد أرسيني على كتفه.

- إنني، يا صديقي، لا أضع الحاجة للزمن موضع التساؤل. يجب أن نتذكر فقط أنَّه لا يحتاج الزمن سوى العالم المادي.

- ولكن في العالم المادي وحده فحسب، يمكن أن نعمل وننشط (قال أرسيني). هنا بالذات يكمن الفرق بيني وبين أوستينا الآن. وأنا بحاجة إلى بعض الوقت، إن لم يكن من أجلنا كلينا، على الأقل من أجلها هي. إني، يا أمبروجو، أخاف جداً أن ينتهي الوقت. فنحن لسنا مستعدِّين لهذا، لا أنا ولا هي.

- لا أحد مستعدٌّ لهذا (قال أمبروجو بهدوء).

-ض-

بعد بضعة أيام وصلت القافلة إلى مدينة جيتومير. وبعد أن غادرت جيتومير، توجهت إلى زاسلاف. ومن زاسلاف واصلت طريقها إلى كريمينتس. وعندما غادر كريمينتس، قال التاجر فلاديسلاف:

- من هنا وصاعداً تبدأ مملكة بولندا (قال ذلك بصوت عالٍ وببطء لدرجة أن الناس من حوله استداروا). أتمنى أن أرى في مملكة بولندا شيئاً مميزاً.

في نهاية المطاف، ظهرت المملكة الأولى في طريق القافلة. كان المزاج رائقاً والمعنويات عالية. مضت القافلة قُدُماً، لكن استمرت في الامتداد على جانبي الطريق الغابات والحقول والبحيرات، التي رافقت الجوّابين على الطريق الذي اجتازوه. يعتقد البعض أن الغابات والحقول والبحيرات ليست هي نفسها التي كانت سابقاً. بينما آخرون، أشاروا إلى التشابه مع ما رأوه من قبل، وفسروا ذلك بحقيقة أن مملكة بولندا لم تبدأ بعد.

هبط الليل على القافلة في منطقة مهجورة، لم يقدر أحد، بما في ذلك التاجر فلاديسلاف، أن يشير إلى ما إذا كانت هذه الأرض هي لبولندا بالفعل أم لا تزال ليتوانيا. مرت من جانب القافلة مجموعة من الخيالة. فسألوا الخيالةَ عن الأرض التي كانت تسير عليها القافلة، لكنهم لم يعرفوا أو لم يرغبوا بالإجابة. كانوا فرساناً عابسين.

توقفوا في حقل من الغابة وأوقدوا نيراناً. كان أرسيني وأمبروجو عند نار واحدة مع التاجر فلاديسلاف والحارس فلاسي. قبل الذهاب إلى

الفراش، سأل الحارس فلاسي الحاضرين عن حقيقة وجود أشخاص لديهم رؤوس شياطين. كان الحارس شاباً ويحب المحادثات المعرفية.

قال أمبروجو:

- لقد رأى مِثلَ هؤلاء راهبٌ إيطالي يدعى جيوفاني ديل بلانو كاربيني، عندما كان يجوب شرق روسيا. أو قيل له عنهم أشياء، بالطبع، متناقضة.

بعد أن تنحنح التاجر فلاديسلاف دخل التاجر معهم في المحادثة:

- رأى الناس في مملكة بولندا بشراً أجسامهم كلها مثل أجسام البشر ما عدا أطراف أقدامهم فهي تشبه حوافر الثيران، وكانت رؤوسهم مثل رؤوس البشر ووجوههم مثل وجوه الكلاب، وعندما يتحدثون يقولون كلمتين منسجمتين مع كلام البشر وفي الثالثة ينبحون مثل الكلاب.

- قال أمبروجو: إن مملكة بولندا مثيرة للاهتمام للغاية، وما يسعنا إلا الأسف لأننا نمر بها من دون أن نتوقّف طويلاً.

- وشاهدو بشراً (تابع فلاديسلاف التاجر)، لديهم آذان كبيرة جداً إلى درجة أنها تغطّي كامل أجسامهم.

نظر أرسيني بشكل لا إرادي إلى آذان التاجر فلاديسلاف. كانت أيضا كبيرة، لكنها من المستحيل أن تغطيه.

وسأل الحارس فلاسي:

- هل ثمّة أناس في مملكة بولندا يعيشون فقط بالروائح؟ حُكِيَ لي عن هؤلاء الناس.

- في مملكة بولندا يوجد كل شيء (أجاب التاجر فلاديسلاف). يوجد أشخاص لديهم معدة صغيرة وفم صغير: إنهم لا يأكلون اللحوم، ولكنهم يطهونها فقط. فبعد سلق اللحم، ينحنون على الإناء، وينقعون أنفسهم بالبخار، وبهذا فقط يغذّون أنفسهم.

- وماذا بعد؟! (دُهِشَ الحارس فلاسي)، لا يأكلون شيئاً على الإطلاق؟

- إذا ما أكلوا، فإنهم يأكلون القليل جداً (قال التاجر بتواضع).

خمدت النار، ولم يقم أي شخص منهم بوضع حطبٍ جديد. واستلقى الجميع، بمن فيهم الحارس فلاسي، واستولى عليهم النوم. في تلك الليلة، لم يكن مشغولاً بالحراسة. وشيئاً فشيئاً، خمدت النيران الأخرى، باستثناء واحدة، حولها العديد من الحراس. كان عليهم البقاء مستيقظين حتى الصباح. وبعد مرور بعض الوقت خمدت هذه النار.

جمع أرسيني شيئاً من الحشائش الناعمة والسراخس وجعلَ منها فراشاً. وضع عند رأسه السرج. كانت تفوح من السرجِ رائحة الجلد وعَرَق الحصان. في الليل الخانق كانت هذه الرائحة منفِّرة جداً. استولى على روحه قلق غامض. كان نور البدر يتوهَّج في عينيه. انقلب أرسيني على جانبه، لكن السرج بدأ يضغط على عظام وجنته. بعد تردُّد، استلقى على ظهره مرَّة أخرى.

السرج خُلِقَ لمكان آخر، همس أمبروجو، وهو ينظر إلى أرسيني كيف يستلقي. لدي شيء أفضل.

ومد لأرسيني حزاماً ليِّناً وعريضاً. أراد أرسيني أنْ يرفض، لكنه منع نفسه في الوقت المناسب. واجتاحه شعور من الامتنان تجاه أمبروجو لرعايته له. استلقى أرسيني وفكَّر أنّه بعد كل هذه السنين لأول مرة لم يعد لوحده. وشعر كم كان يعاني من وحدته. فأجهش بالبكاء. ونام وهو يبكي.

-ط-

تراءت لأرسيني في المنام صرخات. كانت الصرخات حربية ومرهقة في الوقت نفسه. كان واضحاً لأرسيني أنَّ مَن أطلقها هم أناس مختلفون. ربما، حتى لم يكونوا أناساً. ومن المحتمل أنهم، أولئك الذين قاتلوا من أجل أوستينا. إنهما قوتان متقابلتان، تسحبان روح المتوفَّاة في اتجاهات مختلفة.

فتح أرسيني عينَيه وأدرك أنه لم يكن يبكي. فالصرخات انطلقت من أقصى نهاية الحقل، الذي نُصِبَ المخيمُ عليه. رأى أرسيني كيف أن الحارس فلاسي يركض من جنبه وهو يستلُّ من حزامه فأس القتال. ركض الحارس إلى المكان الذي سُمعت فيه الصرخات. لا يزال الظلام يحيط بالمكان، لكن في جهة الشرق، التي قدِمَت منها القافلة، بدأ الظلام ينجلي قليلاً.

هوجمت القافلة، صاح أحدهم في مكان قريب.

هذا ما حدث. فقد اختار اللصوص للهجوم وقت نوم الفجر، الذي يكون فيه الجسم المتدفئ ضعيفاً وعاجزاً. باذئ ذي بدء، هرعوا نحو حراس مجموعة الحماية الليلية. هؤلاء لم يقاوموا، لأنهم لم يكونوا مستيقظين، بل على العكس، كانوا يغطّون في نوم بعمق. قتلوهم على الفور، وهم نائمون، عند النار الخامدة. أحدهم، مصاب بجروح قاتلة، تمكَّن من الصراخ وإيقاظ الحُرّاس الآخرين. وهرع الحراس الذين ناموا في تلك الليلة بملابسهم، على الفور إلى المعركة.

لم يتوقَّع اللصوص المقاومة. لقد اعتادوا على حقيقة أنه في مثل هذه

الحالات، يهرب الحراس، تاركين كل الخير للمهاجمين. لكن الحراس لم يهربوا. قاوموا اللصوصَ بصمت وبغضب، واستيقظ الجميع أثناء المعركة. رأى الأشرار أنه لن يكون هناك انتصار سريع، ولن تتضمن خططهم تحقيق النصر بأيّ ثمن. فبعد أن وقع منهم عدة أشخاص قتلى، قرروا الانسحاب. إذ صدرت لهم أوامر بصوت منخفض، وبدأ اللصوص بمغادرة موقع القافلة. وبعد بضع دقائق، توجَّهت مجموعة الخيَّالة إلى الشرق. ولم يلاحقهم أحد.

عندما انبلج الصباح نهائياً، أصبح من الواضح كم كان القتال مروِّعاً. فعند النار الخامدة، كان يرقد أربعة حراس قُتِلوا طعناً. لم يكن في أيديهم ثمّة سلاح، إذ لم يكن لديهم الوقت للاستيقاظ. وعُثِرَ أيضاً على جثث ثلاثة من اللصوص. ووفقاً لشكل الصلبان، تَحدَّد بوضوح أنهم من الروس.

دوَّت في ساحة المعركة صيحات محمومة. ثم جعلت تهدأ، وبعد ذلك تُستأنَف بقوة غير بشرية، لأنه في هذه الصرخات لم يعد ثمة شيء بشريّ. ذهب أرسيني باتجاه الصراخ. كان الحشد يحيط بالصارخ، لكن لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه. كان الرجل يتلوّى ويتدحرج بالأرض المغطّاة بالدماء، ويجرّ خلفه أمعاءه الساقطة وهي تجمع الغبار وأشواك الصنوبر. وعندما استولت على الرجل للحظةٍ التشنّجات، رأى أرسيني أنَّ الرجل الذي يصرخ هو الحارس فلاسي.

قام أرسيني بخطوة نحو فلاسي، فانفرج الحشد أمامه. فقد كان ينتظر الشخص الذي سيتخذ هذه الخطوة. إذ تجسّدت رغبة الحشد الملحّة لإبداء المساعدة في سرعة فسح الطريق لأرسيني. انحنى أرسيني على الجريح. تحوّل فلاسي، الودود والقليل الكلام، إلى جسدٍ متألِّم يطلق الصرخات. وسأل أرسيني نفسه ما إذا كانت ثمّة روحٌ في هذا الجسد الآن، وأجاب أنه لا بدَّ أنْ توجدَ روح.

قطع أرسيني بسكين حادة الملابس على المصاب ومسَّد على بدنه. وطلبَ الماء. عندما جُلب إليه إبريق الماء، أمر أولئك المحيطين به

أن يمسكوا فلاسي من يديه ورجليه. ثم رفع أمعاء فلاسي من الأرض وبدأ يغسلها بمسيلِ الماء. أحسَّ على سطحها الزلق بوجود جلطات دم ومخاط. صرخ فلاسي صرخات عالية لا مثيل لها. قام أمبروجو بلمس ظهر أرسيني وذلك كنوع من الإسناد له، ولكنه نظر في الاتجاه الآخر، لأنه لم يكن لديه القوة الكافية ليشاهد ما يحدث مع فلاسي. وضع أرسيني المَصارين في تجويف البطن ولفَّها بقماش. قام عددٌ من الأشخاص برفع المصاب ووضعه على إحدى العربات فوق الجلود. كان رأسه يتدلّى كالميت. لأن فلاسي فقد الوعي.

«أرى أنه خلال وقت قصير سوف يموت»، قال أرسيني لأوستينا، «وأنا، يا حبي، عاجز عن مساعدته. لكن صار أسهل عليه أن يعيش هذا الوقت المتبقي».

تقرَّر دفن الحُرّاس القتلى في أقرب قرية روسية، لأنّ التاجر فلاديسلاف ذكر أنه في مملكة بولندا لا توجد قرى بولندية فقط بل كذلك توجد قرى روسية خاصة بالقرب من الحدود. وبعد التفكير، قرّروا أخذ جثث اللصوص أيضاً، على أنْ يواروا الثرى بشكل منفصل.

انطلقت القافلة. ومن جرّاء حركة العربة عاد الحارس فلاسي إلى وعيه وجعل يئنّ، إذ تسبب الاهتزاز بمعاناة وألم له. ذهب أرسيني إلى العربة وأخذ الرجل التعيس من كتفه. فغاب عن الوعي مرّة أخرى. عندما أزال أرسيني يده، عاد فلاسي إلى وعيه وبدأ مرة أخرى يصرخ. سار أرسيني إلى جواره ولم يرفع يده.

توقفت القافلة بعد أن وصلت إلى أقرب قرية. وهناك قرروا ترك فلاسي، الذي أُنهِكَ من الاهتزاز. كانت تلك قرية بولندية، وذهب التاجر فلاديسلاف إلى هناك. وبعد عدة محاولاتٍ فاشلة لإلحاق الجريح، تمكن التاجر من الاتفاق مع اثنين من كبار السن. كانا يُدعَيان تاديوش ويادفيغا، ولم يكن لديهما أطفال. عبَّر هذان العجوزان الرحيمان عن استعدادهما لرعاية المريض.

وعندما أُحضِر فلاسي إلى منزل تاديوش ويادفيغا، فتح عينيه. عندما رأى أرسيني عند سريره، أخذه بيده، لأنه ما دام يمسك يد أرسيني، يتركه الألم. حرَّك فلاسي شفتيه وسأل فلاسي:

- أتتركني هنا يا أرسيني؟

نظر التجّار من القافلة إلى فلاسي، وكانت عيونهم مليئة بالدموع. فهموا أن الجميع يجب أن يذهبوا مع القافلة.

- لا تحزن، يا فلاسي (قال أرسيني)، سوف أكون معك.

تحول أرسيني بنظره إلى أمبروجو. فطأطأ أمبروجو رأسه. خرج مع التجار وعاد بعد وقت قصير، وهو يقود حصانين. راقب أرسيني وأمبروجو من فناء دار تاديوش ويادفيغا كيف تحركت القافلة بتثاقل.

أرادت يادفيغا أن تطهي لفلاسي عصيدة، لكن أرسيني أوقفها. سمح بإعطاء الجريح الماء فقط. فكان أمبروجو من وقت لآخر يضع القدح الفخاري على شفتيه. كان فلاسي يشرب بشراهة، من دون أن يترك يد أرسيني. أمضى النهار شبه مُغْمىً عليه. في المساء فتح عينيه وسأل:

- سوف أموت؟

- عاجلاً أم آجلاً كلّنا سنموت، أجاب أرسيني. فليكنْ في هذا عزاءٌ لك.

- لكنني أموت مبكراً.

كانت عينا فلاسي ترتجفان ببطء. فانحنى عليه أرسيني، وقال:

- الكلمتان **عاجلاً وآجلاً** لا تُحدّدان محتوى الظواهر. إنهما تشيران إلى شكل تدفّقها فحسب؛ أي إلى الزمن. والزمن في نهاية المطاف، وفقاً لما يري أمبروجو، لا وجود له.

نظر أرسيني مرة أخرى في أمبروجو.

- أعتقد (قال أمبروجو)، أنّ ما يُستنفذ ليس الزمن، بل الظاهرة. فالظاهرة تعبّر عن نفسها ثم تتوقف عن الوجود. خذ على سبيل المثال،

شاعر[3] يُقتَل، وله من العمر 37 عاماً، ويبدأ الناس، من الحزن الشديد عليه، في التكهن بما يمكن أن يكتبه بعد لو بقي حياً. بينما هو، ربما، قد أتمَّ فعله، وأعرب عن نفسه بكل حيثياتها.

- أنا لا أعرف من تقصد، ولكن هنا ثمة ما يمكن التفكير فيه (أشار أرسيني إلى فلاسي المغمى عليه)؛ أتقصد أن هذا الصبي قد عبَّر بالفعل عن نفسه؟

- لا أحد يستطيع أن يعرف هذا (أجاب أمبروجو). إلا الله.

ضغط فلاسي يد أرسيني بقوة غير متوقعة وقال:

- أنا خائف من مغادرة هذا العالم.

- لا تخف. ذلك العالم أفضل (قال أرسيني ومسح بيده الثانية العرق من جبينه). لو كان الأمر بيدي لتركته أنا أيضاً بنفسي، لكن يجب أن أنهي شيئاً واحداً.

- أخشى أن أغادر هذا العالم لوحدي.

- أنت لست وحدك.

- بقيت أمي وإخوتي في بسكوف.

- أنا أخوك.

- هل تعلم، لماذا أتيتُ إلى هنا للعمل بصفة حارس. وأن أجمع المال. لأيّ شيء؟

- تكسب المال لتعيش به.

- ولكن الآن لم تعد ثمة حاجة إلى ذلك. لا تترك يدي.

- إني أمسك بها.

- أمسكها حتى النهاية.

أغمض المحتضر عينيه.

- صياح الديوك الأولى، أتسمع؟

3- إشارة إلى الشاعر الروسي الكبير ألكساندر بوشكين الذي قُتِل في سن 37 - المترجم.

- كلا (أجاب أرسيني)، لا أسمع.

- بينما أنا أسمع، إنها تصيح لي. من السيِّئ أن أغادر من دون تناول القربان المقدَّس. ومن دون توبة.

- اعترف لي. وسأنقل اعترافك إلى القُدس، وأعتقد أن خطاياك ستتحوَّل إلى غبار.

- لكنَّ هذا سيكون بعد وفاتي. هل سيُحسب لي هذا؟

- أنا أقول: وجود الوقت أمرٌ مشكوكٌ فيه. ربما بعدُ لا وجود له.

ثم بدأ فلاسي في الاعتراف. خرج أمبروجو إلى الممرّ، حيث جلس تاديوش ويادفيغا. قالوا شيئاً له باللغة البولندية. لم يفهم أمبروجو كلماتهم، لكنه أومأ برأسه. كان مستعداً للموافقة على أيٍّ من كلماتهم، لأنه رأى أنهم أناس طيبون.

- لكن أرجوك، لا تنسى أيّاً من ذنوبي، همس فلاسي لأرسيني.

- لن أنسى، يا فلاسي. ومسَّد أرسيني على شعر فلاسي. كلّ شيء سيكون على ما يرام، أتسمع؟

لكن فلاسي لم يعد يسمع أيّ شيء.

-ظ-

بعد أن وُورِيَ فلاسي الثرى، انطلق أرسيني وأمبروجيو في رحلتهما. كانا يأملان اللحاق بالقافلة ولهذا ركبا خيولهما وسارا بسرعة. وفعلاً لحقا بالقافلة في منتصف الليل تقريباً، لأن القوافل بطيئة السير. وفي صباح اليوم التالي خرج أرسيني وأمبروجو مع القافلة.

استُبدِلَت الغابات مرة أخرى بالحقول، واستُبدِلَت البلدات البولندية بالروسية. السكان في بلدة بوسك: معظمهم من البولنديين، وفي نيسلوخوفو: معظمهم من الروس، وفي زابيتوفو: يمكن القول، إنهم بالتساوي. أما القاطنون في لفوف، فغير واضح إن كانوا من الروس أم من البولنديين. في شارع من شوارع لفوف، استقبل القافلة الحِرَفي ستيبان. ستيبان كان ثملاً، ولم تُحَدَّد لغته. هدد الحرفي السائرين بقبضته. وبعد أن انزلق على الروث، تدحرج تحت حصانٍ لأحد الحراس. فداس حافر الحصان على يد ستيبان وكسر العظم. وضع الحراس ستيبان على عربة، وأرسلوا أحدهم لأرسيني.

- ما اسمك، يا رجل؟ (سأل أرسيني، وهو يشدّ يد ستيبان بقطعة قماش).

هزَّ ستيبان يده السليمة وتمتم بكلام غير واضح بصوت أجش.

- إذا حكمنا من خلال هذه الإيماءة، فإن اسمه هو ستيبان، افترض التاجر فلاديسلاف.

- اسمع، يا ستيبان (قال أرسيني)، إنّ دنيا الله أوسع من بلدتك. ما كان ينبغي لك أن تهدد الناس بقبضتك. وإلا ستفقد يدك.

بعد لفوف مرّوا بمدينة ياروسلاف، وبعد ياروسلاف، جيشوف.

في جيشوف، قال أرسيني لأوستينا:

«في كلام أهالي مدينة جيشوف، السكان المحليين، تكرار واضح لأصوات الهسهسة. وفي بعض الأحيان تشعرك بالقرف».

بعد جيشوف مرت القافلة ببلدة تارنوف، وبعد تارنوف، بوخنيا. وبعد بوخنيا، كراكوف. في كراكوف، ودَّع أرسيني وأمبروجو التاجر فلاديسلاف. دعاهما التاجر للبقاء في مدينته، لكنهما رفضا طلبه بامتنان. كانا بحاجة للمضي قدماً. وقد احتضناه في الوداع. فترقرقت الدموع في عيون التاجر:

- أنا لا أحب الوداع.

- الحياة تتكون من وداعات (قال أرسيني). ولكن عندما تتذكر هذا، ستسعد أكثر بالتواصل.

- وأودُّ أن (مخط التاجر فلاديسلاف) أجمع جميع الناس الطيبين الذين التقيت بهم ولن أسمح لهم بالرحيل.

- أعتقد أنهم سرعان ما يغضبون (ابتسم أمبروجو).

وهم يغادرون كراكوف، سارت القافلة على طول نهر فيسلا. النهر هنا لم يكن واسعاً بعد. كانت القافلة تلتفّ مع النهر، حتى وصلوا إلى قرية أوشفيتز. قال أمبروجو:

- صدِّقني يا أرسيني، بعد قرون هذا المكان سيثير الفزع[4]. ولكنَّ وطأته يُشْعَر بها الآن.

ثم بدأت سيليزيا. وبينما كان أرسيني يستفسر من التُجّار حول سيليزيا، انتقلت القافلة بشكل غير محسوس إلى مورافيا. فسارَع إلى

4- إشارة إلى أوشفيتز بيركينو أو معسكر أوشفيتز للاعتقال والإبادة؛ كان معسكر اعتقال وإبادة بَنَتْهُ وشغَّلَتْهُ ألمانيا النازية في أثناء الاحتلال النازي لبولندا أثناء الحرب العالمية الثانية. يعتبر معسكر أوشفيتز من أكبر معسكرات الاعتقال النازية ويتكوَّن من ثلاثة معسكرات رئيسة و45 معسكراً فرعياً - المترجم.

معرفة كل شيء عن مورافيا، لأن شيئاً ما في مورافيا أوحى بأنها أكبر من سيليزيا. في أفواه الناس الذين عاشوا هناك، كان الكلام السلافي يتناوب بشكل منتظم مع الكلام الألماني والهنغاري. مع التقدم إلى الجنوب الغربي تصادف في كثير من الأحيان الكلام الألماني، إلى أن يزيح أنواع الكلام الأخرى تماماً. وهكذا تبدأ النمسا.

لم يكن الكلام الألماني غريباً عن أرسيني. فقد حاول أن يخمِّن، فيما يقوله الناس الذين صادفهم، تلك الكلمات التي حاول هو نفسه قراءتها في بيلوزيرسك، عندما كان يدرس مع التاجر أفناسي بلوخا. واتضح له أن نطق أولئك الذين يتحدثون الألمانية كان مختلفاً تماماً عن نطق أفناسي. ومع ذلك، فإنَّ اللوم في جزء من هذا فقط يقع على عاتق أفناسي. إذ إنَّ سكان النمسا آنذاك كانوا يحاولون التحدث باللغة الألمانية بطريقتهم الخاصة. ففي نهاية القرن الخامس عشر، لم يكن النمساويون يعرفون بالضبط ما إذا كانوا يختلفون عن الألمان أم لا، وإذا كانوا يختلفون عنهم فبأيّ شيء يختلفون. وفي نهاية المطاف أعطتهم ملامح النطق إجابة على كلا السؤالين.

-ع-

في فيينا، ذهب أمبروجو إلى كاتدرائية سانت ستيفن لتناول القربان المُقدَّس. فقرَّر أرسيني مرافقته. مشى مع أمبروجو بيقين تامّ أنه لا توجد حتى الآن كنيسة أرثوذكسية في فيينا. أراد أن يرى الكاتدرائية الضخمة من الداخل. وإلى جانب ذلك - وربما، كان هذا هو الشيء الرئيس - لم يحضر بعد قُدّاساً كاثوليكياً أبداً.

الانطباع متناقض، قال أرسيني لأوستينا من كاتدرائية سانت ستيفن. فمن ناحية، الشعور بشيء من القرابة، لأن لدينا جذوراً مشتركة. ومن ناحية أخرى، لا أشعر بأنني هنا في بيتي، لأن طرقنا قد اختلفت. إلهنا أقرب وأكثر حنية، وإلههم أعلى وأكثر هيبة. ولعل هذا الانطباع سطحي وسببه، يا حبي، جهلي باللغة اللاتينية. ولكن خلال وقت القداس كلّه لم أُحدّد ما إذا كان النمساويّون أنفسهم يعرفونه.

في فيينا، انضمّ الراهب الفرنسيسكاني هوغو من دريسدن إلى القافلة. فقد كان الأخ هوغو في بوهيميا لتدبير شأنٍ من شؤون ديره، والآن هو في طريقه إلى روما. كان يركب حماراً، وقد فسَّر، وهو يعقف أصابعه، لماذا يفعل ذلك. أوّلاً، على الحمار، سافر المسيح (ظلّل الراهب على نفسه بعلامة الصليب). وثانياً، الحمار أصغر من الحصان، ويتطلّب بالتالي رعايةً أقلّ. ثالثاً، الحمار حيوان عنيد، وهذا بالضبط ما يحتاجه راهب حقيقي لتطويع نفسه.

كل ما قاله الراهب كان صحيحاً. إذ تفاقم عناد الحمار المعتاد لأن

الأخ هوغو لم يعجب الحمار بصفته خيّالاً. كان الأخ طيّب القلب ومؤنساً، ولكنه كان سميناً وغير صبور. ساقَ الحمار باستمرار، وهو يضربه بعقبي قدميه على الجانبين، في حين أنّ الحيوان كان يثمِّن البطء والصمت أكثر من كلّ شيء. ولهذا لا ينبغي العجب من أنَّ كثرة كلام هوغو كانت تثيره بشكل صريح. ففي كل مرة يبدأ فيها الأخ هوجو الحديث، يحاول الحمار أن يعضّه عند الركبة.

بعد التحدّث مع أشخاص مختلفين في القافلة (كلّفه ذلك بعض العضّات المؤلمة)، يعود الراهب الفرنسيسكاني لينضم إلى أرسيني وأمبروجو. لأنهما على عكس كثيرين آخرين، كانا يفهمان اللغة الألمانية إلى حد معيَّن. ولهذا السبب، على الأرجح، يشعر الأخ هوغو عند الحديث معهما بسهولة - أكثر بكثير مما هي عليه في الحوارات مع التجار في القافلة. بالإضافة إلى ذلك - وهذا أمرٌ مهمّ - بدأ يشعر أنّه بوجود اثنين من الحجاج أصبح حماره أكثر هدوءاً ونادراً ما صار يعضّه.

بعد مغادرة فيينا، سارت القافلة على طول جبال الألب. امتدَّت الحقول بين الطريق والجبال. كان هناك شيء مُهدِّئ ومثير للكسل تقريباً يكمن في الكيفية التي استقرّت فيها هذه الجبال. ولكن، على الرغم من السكينة الظاهرة، فإن استقرارها كان وهمياً. فالجبال كانت تتحرّك، على عكس الحقول الثابتة حقاً في أماكنها. إذ رافقت القافلة إلى اليمين، من دون أن تقترب منها، ولا تبتعد عنها. كانت تندفع إلى الأمام بسرعة القافلة، وبدا لأولئك الذين ساروا أنّهم غير قادرين على تجاوزها.

بدأت الحركة هناك، على الحافة البعيدة للحقول، حيث عزفتْ الرياحُ الجاودارَ في الاتجاه المعاكس. تحركت هذه المساحات، التي بقيت سهولاً، إلى جانب الجبال. وأثناء السير كانت الجبال تتبدَّل. لقد ازدادتْ طولاً وانحداراً، واستحالت الغابات إلى حجر، والحجر تغطَّى بالثلج. رأى أرسيني لأول مرّة الجبال العالية وقد أحبَّها كثيراً إلى درجة أنه لا يريد معها أن يرفع بصره عنها.

وهكذا وصلت القافلة من فيينا إلى غراتس، ومن غراتس، توجَّهتْ إلى كلاغنفورت. هنا سار الطريق عبر الجبال. وامتدّ بصورة لولبية متكيّفاً مع طيّات الأحجار العملاقة. اقتربتْ الصخور وتراصَّتْ كثيراً على طول الطريق. في بعض الأحيان كانت تتلاصق تقريباً من الأعلى، وآنذاك يسود الظلام. في بعض الأحيان تنفرج الجبال مرة أخرى، حيث تتوقّف القوافل للاستراحة في مثل هذه الأماكن، لأنّ خطر الوقوع تحت الصخور أقلّ في المناطق الواسعة.

رشَّ الراهب هوغو المكانَ عدّة مرّات بغبار الطريق الأيرلندي الذي يقتل الأفاعي، لأنه كان يعلم أنه وفقاً لصلوات القدّيس باتريك، تم إنقاذ إيرلندا من الزواحف. وإنَّ تربة ذلك البلد صارت لا تطاق بالنسبة للزواحف حتى أن الضفادع التي نُقِلَت على إحدى السفن، بمجرد أن قُذِفَت على الشاطئ الأيرلندي، انفجرت على الفور. واصل الغبار - الذي جمعه الفرنسيسكانيّون بحكمةٍ في أيرلندا - حمايةَ المسافرين حتّى في جبال الألب.

بعد أنْ ربط الراهب الحمار بشجيرة بعيدة، أتيحت له الفرصة للحديث بهدوء في الاستراحة عن أنَّ سلسلة جبال الأبينيني تصدّ حرارة الرياح الجنوبية، ومنحدرات جبال الألب توقف رياح بوريا وأركتوس الشمالية الباردة. كما كان يعرف شيئاً عن جبال هيبيربوريا في أقصى الشمال، التي سطوحها ملساء كالزجاج، مما يسمح لها أن تعكس أشعّة الشمس بسهولة. ويتسبّب الشكل المقعَّر للجبال في تجمّع الأشعة في نقطة واحدة، وهذا يسخن الهواء. ولا يسمح ارتفاع الجبال لهذا الهواء بالاختلاط مع البرد القطبي، الأمر الذي يجعل المناخ لطيفاً للغاية. ولذلك، فإن شعب هايبروبوريا الذين يعيشون هناك يبلغون من العمر عتيّاً إلى حد يتعبون به بشكل طبيعي من الحياة ومن دون سبب واضح يلقون بأنفسهم من المنحدرات الشاهقة إلى البحر، وبالتالي ينهون حياتهم، وهذا بطبيعة الحال خطيئة.

ولمّا رأى الراهب هوغو الفرصة ملائمة حدَّث معارفه الجدد عن الجبال الأخرى. وشاطرهم المعلومات عن جبل الأوليمب، الذي يطل من الأعلى على السحاب، وعن جبل لبنان الذي يغصّ بالغابات، وعن جبل سيناء، الذي قمته في السماوات، ولهذا لا يستطيع الناس العاديّون أن يصعدوا عليه. ولأنه من الرهبان الفرنسيسكانيين، بالطبع، لا بدّ أن يتحدث عن جبل لافيرنا، الذي اختلى فيه القدّيس فرانسيس، والذي بارك الجبل كما بارك الطيور من قبل. ولم يتجاوز اهتمام الراهب هوغو الجبل الذي مرّ من جانبه الإسكندر الأكبر، الذي كان يحوّل الرجال الشجعان إلى جبناء والجبناء إلى شجعان. كان الإسكندر رحّالة ناكراً للذات، وكان الطريق نفسه يُطوى تحت قدميه.

«أحيانا أشعر بأنني الإسكندر»، قال أرسيني لأوستينا. «والطريق نفسه يُطوى تحت قدمَيّ. ومثل الإسكندر، يا حبي، لا أعرف إلى أين يقودني الطريق».

وفي يوم من الأيام سقطت القافلة تحت انهيار صخري. طارت الصخور، هاويةً في الوادي وهي تطلق صدى هائلاً، وكان المنظر مخيفاً. وعندما هدأ كل شيء، رأى الجميع كيف ارتطمت فرس في شجيرة على جانب الطريق، وهي تصهل. ألقت حوافرها أمامها بشكل محموم، وكانت تُسمَع الأغصان تتكسر تحت ردفها. أرادوا أن يطعنوها لكي ينهوا عذابها، لكن أرسيني أوقف مَن كانوا ينوون القيام بذلك. اقترب من الفرس من جانب الأحراش ووضع يده على عرفها. توقفت الفرس عن الركل. أصبح من الواضح أن الدم يتدفق من الساق الأمامية. سار أرسيني حول الفرس وتلمَّس ساقها الجريحة.

- هذا ليس النزع الأخير (قال أرسيني)، الفرس تركل برجليها ليس لأنها تنازع الموت، لكن بسبب الألم الذي لا يطاق. ساقها مصابة بكدمات شديدة، لكنها لم تنكسر. أعطوني خرقة من الكتان، وسأضمِّد ساقها لوقف النزيف.

- خذ، ولكن كنْ حذراً (صرخ له أحدهم من القافلة)، لأنها يمكن أن تقتلك بضربة من الحافر. بالإضافة إلى ذلك، ضعْ في اعتبارك أنَّ القافلة لا تستطيع الانتظار حتى تتعافى الفرس.

لفَّ أرسيني ساقَ الفرس وجلس بجانبها، ثم أدار القماش بيده بحذر شديد. بعد وقت قصير نهضت الفرس. سارتْ تعرج، لكنها كانت تمشي. وشكر التجار أرسيني - ليس لإنقاذ الفرس، بل على ذلك الشيء غير عادي، الذي شهدوه. لقد فهموا أنَّ القضية لا تكمن في الفرس. وواصلت القافلة تقدّمها.

في الأودية الواسعة والنيِّرة، حيث يسمح الطريق بالسير جنباً إلى جنب لثلاثة خيّالة في آن واحد، سار حمار الراهب هوغو الصغير دائماً بين حصاني أرسيني وأمبروجو. كانت قعقعة حافره الدقيقة التي تشبه لعبة الطبل ترافق وتيرة سير الخيول. وعلى وتيرة هذه الدقة اهتزت خدود الراهب هوغو وذقنه. وعلى الرغم من الاختلاف في الخطوات، سارت الخيول والحمار على مستوىً واحد: بالنسبة للأخير كانت مسألة شرف، وبالنسبة للراهب فإنّ المهم أنْ يسمعه كل واحد من رفاقه بنفس القدر.

أثناء المطر كان الراهب هوغو يحدثهم عن طبيعة السحب والغيوم، وفي الطقس الجيد تحدَّث عن المناطق السماوية، التي تسبح فيها الكواكب المنيرة، النهارية والليلية. ولمّا لاحظ كيف يتغيَّر الطقس بسرعة في جبال الألب، لم يُخفِ الراهب الفرنسيسكاني عن أرسيني وأمبروجو ما يعرفه عن تأثير المناخ على شخصية الفرد. وقد استنتج بشكل موثوق، من الخصائص المناخية للأرض، أنَّ الرومان عبوسون، واليونانيّين متقلِّبو المزاج، والأفارقةَ غـادرون، والغال شرسون، والإنكليز والتيوتونيين ذوو أجسامٍ قويّة. وقد أدّت رياح ميسترال القوية والباردة الجافة في وادي الرون إلى أنْ يكون الناس هناك طائشين ورُعناء ولا يراعون عهودهم ومواثيقهم ولا يلتزمون بكلامهم. وإن إعادة توطين الشعوب إلى جانب تغير المناخ يؤدي حتماً إلى تغيير في الأخلاق.

فمثلاً، اللومبارديون، بعد انتقالهم إلى إيطاليا، فقدوا القسوة - جزئياً، بطبيعة الحال - لأنهم تزوجوا من إيطاليات، ولكن في الغالب، كما ينبغي القول، بسبب الظروف المناخية.

- لو لم نلتقِ بك، يا أخ هوغو (قال أرسيني)، لما تعلّمْنا أبداً الكثير من الأشياء المفيدة.

- الانتقال في المسافات يثري التجربة (أجاب الراهب بتواضع).

- وقال أمبروجو: إنه يضغط الوقت. ويجعله أكثر استيعاباً.

-غ-

المسافر في جبال الألب يشبه شخصاً ينتقل عبر متاهة. إنه يسير متعرِّجاً في قرار الأودية الضيقة، متَّبِعاً شكلها، ولا يكون طريقه مستقيماً أبداً. تتصل الأودية أحياناً ببعضها البعض، مما يمنح المسافر القدرة على الانتقال بسلاسة من واحد إلى آخر. ولكن الجبال لا توفر دائماً راحة الانتقال وتمثل بالنسبة للإنسان في الغالب محنة. وكثيرة الحالات التي تغلق فيها الجبال الأودية بإحكام. إذ تبقى في مثل هذه الحالات طريقة واحدة فقط: هي الصعود إلى الأعلى.

وهذه هي الطريقة التي كانت تتحرّك بها القافلة. امتدّ الطريق على طول المنحدر الأكثر تدرُّجاً، فصعدت القافلة بشكل بطيء. وطالما كان الصعود ليس حاداً جداً، كان الراهب هوغو يحكي عن الطبيعة المذهلة للأنهار الجليدية، والتي تنزلق إلى الأسفل بين الصخور، ولا تقتصر حركتها على ذلك فحسب، بل يترافق ذلك بحركة داخلية دائمة، أيْ أنَّ الأجزاء العليا تنتقل دائماً إلى الأسفل والأجزاء السفلى ترتفع من القاع إلى السطح، لهذا غالباً ما يُعثر على جثث الذين يسقطون في الشقوق أو الأودية العميقة فيما بعد على سطح الجليد. وتحدَّث الراهب هوغو أيضاً عن الانهيارات الثلجية التي تحدث من أدنى صرخة وتنحدر مندفعة، وتكبر على شكل كومة كبيرة لا شكل لها وتلفُّ في طياتها كل ما يقع في طريقها: الناس والخيول والعربات - وكلّ ما يقع في الانهيار الجليدي لا يرتفع بعد إلى السطح، لأنه يتجمّد بعد توقّف الانهيار الجليدي إلى الأبد.

مع مرور كل ساعة، أصبح الانحدار أكثر حدّة، الأمر الذي جعل الصعود ليس صعباً فحسب، بل محفوفاً بالمخاطر أيضاً. صار الهواء بالفعل أكثر برودة بشكل ملحوظ. والطريق ضاقت. على يمين القافلة، بدت صخرة عالية شديدة الانحدار، بينما هدر، على اليسار في الجزء السفلي من الوادي، التيارُ المتدفّق، وتشكَّلَ من الرذاذ المتطاير منه قوسُ قزح. وعندما صعدت القافلة إلى أعلى، بدأ الثلج يتساقط، واستقرَّت القطرات والبخار المتصاعدة من التيار وتَجمَّدت على الطريق، مما جعلها زلِقة.

ظلَّت قوائم حمار الراهب هوغو تنزلق بعيداً، وحتى الخيول ذوات الحدوات انزلقت بشكل ملحوظ. عدة مرات سقط الحمار على قائمتيه الأماميتين، فترجَّل الأخ هوغو. لم يعد يحكي عن أي شيء وسار، وهو يلهث، أمام أرسيني وأمبروجيو. عرْض الطريق صار الآن يسمح بالسير لراكبَين فقط. بعد مدّة من الزمن، ترجَّل كلّ من ركب على ظهور الخيل واقتادوا الخيول من أزمَّتها. أما أصحاب العربات فجعلوا يدفعونها من الخلف، لأن قوائم الثيران بدأت تتعثر بلا حيلة على الجليد.

في المنعطف التالي من الطريق، انحرفت قوائم الحمار نحو اليمين، ثم سقط إلى جانبه وانزلق بشكل مضحك، ساحباً الراهب هوغو خلفه. تزحلق الحمار إلى أسفل وانقلب ببطء، تسمَّر الجميع وجعلوا ينظرون كيف يرتجف بطنُه الأبيض الكبير جدّاً، الذي سقطت عليه حقائب السفر، وكيف رفست قوائمه بلا فائدة سوى تعجيل حركته نحو الأسفل، وقد تزحلق الراهب هوغو معه وهو غير قادر على التخلّي عن الحبل...

في آخر لحظة انتزع أمبروجو الراهبَ الفرانسيسي من تلابيبه، وهنا ترك الحبل، واستمر الحيوان ينزلق، مخشخشاً بشكل رهيب على الصخور المتجمّدة إلى أن وصل إلى حافة الهاوية. وهوى في الهواء إلى أنْ سقط متحطِّماً في التيَّار وتلاشى نهيقُه.

نهض الراهب هوغو على قدميه. ونظر بصَمْت من حوله. قام بعدة

خطوات باتجاه الهاوية، فاستعدَّ الواقفون للإمساك به، معتقدين أنه قد جُنَّ. لكن الأخ هوغو جثا على ركبتيه. لم يكن من الواضح ما إذا كان يصلي، أو ببساطة لم تكن قدماه قادرتان على حمله. وعندما نهض، كان في يده قبضة من صوف الحمار. كان يحمل قبضة الصوف أمام الجميع، والدموع تسيل من عينيه.

بكى الراهب هوغو على كلّ ما تزحلق وسقط من هذا الممرّ الجبلي. وأمسك، جنباً إلى جنب مع الآخرين، بواحدة من العربات، حتى لا تتدحرج بسرعة، والدموع تنهمر على خديه كانهمار الجداول. وبين الحين والآخر يُخرج من جيبه خصلة الصوف المنتقاة ويضعها على عينيه. وعلى الأرض المستوية، أجلس اثنان من التجار من كييف الراهبَ هوغو على عربة تحمل الفراء، لأنه بسبب السير السريع بدأ يعاني من ضيق في التنفس. وفي الوقت الذي حزن فيه على رفيقه الضائع، لاحظ فجأةً أنَّه لم يعد ثمَّة مَن يعضّه. لكن هذا على كل حال لا يُعادل خسارته، ولكن إلى حد ما خفَّف من ألمه.

-ف-

كان المخرج من الوادي الأخير في جبال الألب ضيقاً. يشبه قوساً، الجزء العلوي منه عبارة عن أشجار غَضَّة نَمَتْ في الصخور على جانبي الطريق منحنيةً نحو بعضها بعضاً. في هذا الوادي الضيق ظهرت مجموعة من الخيالة، قطعت الطريق على القافلة. كان ذيل القافلة لا يزال يسحب على طول الواد، ولم يعد الحراس في المقدمة قادرين على الحركة. وقفوا على مسافة من الخيالة، ولم يبذلوا أي محاولة للتقرب منهم، لأن مظهرهم لم يبشّر بالخير.

إنهم لصوص، قال الراهب هوغو وهو جالس على الفراء، ولم يختلف الآخرون معه في الرأي.

تكلم اللصوص فيما بينهم باللغة الإيطالية. وبعد اجتماع قصير، جرى تفويض أمبروجو للتفاوض معهم. وتطوّع عدد من الحراس للذهاب معه، ولكن أمبروجو رفض. وأشار إلى أرسيني الذي كان يقترب منه وقال:

- يكفي نحن الاثنين.

- الثلاثة، تدخَّل الراهب هوغو. ثلاثتنا. أنا أيضا أتكلم الإيطالية. إضافة إلى ذلك، من الآن فصاعداً ليس لدي ما أخسره.

عند ذاك أعطي الراهب هوغو حصاناً حتى لا يتكلم مع اللصوص من موقع الأدنى، بل سيبقى معهم على قدم المساواة. اعتقد مَن في القافلة أنَّ مظهر الراهب يمكن أن يخفِّف من سطوة حتى أهل القلوب القاسية. تحرّك الفرسان الثلاثة ببطء نحو قُطّاع الطرق.

- السلام عليكم (صاح الراهب هوغو من بعيد. لم يكن ثمة جواب، فكرر الراهب نداءه من مسافة أقرب).

- إنك لا تتحدث بشكل جيّد جداً بلغتنا، أيها الأجنبي الغريب، قال اللص الراكب على حصان أبيض. ولهذا عليك أنْ تدفع.

ضحك قطاع الطرق الآخرون. بدا أنَّ المتكلم هو زعيم اللصوص. كان كهلاً وسميناً. ووجهه قرمزي، مثل كأس من نبيذ بيدمونت، وقد بان في جمجمته على صلعته السفلى نَدَبٌ أحدثتْه ضربة سيفٍ. كان حصانه يضرب الأرض بحافره، ومن الواضح أن هذا تعبير عن نفاد صبر الفارس.

- ليس ثمة أجنبي بالنسبة للرب، اعترض الراهب هوغو.

- حسناً سوف نرسلكم له (قال زعيم اللصوص)، ولن تعودوا هناك أجانباً. أما متاعكم العَفِن فسيبقى لنا.

ضحك اللصوص مرة أخرى، هذه المرة أكثر تحفظاً. فهُم أنفسهم لم يعرفوا إلى أي حدٍّ قيلت النكتة.

- قال أمبروجو: لدينا حُرّاس جيّدون ولن يهربوا. إنهم مُجرَّبون.

- قد يكونون مجرَّبين ولكن من غيرنا.

سحب زعيم اللصوص العِنان، فصهل حصانه.

هزَّ أمبروجو كتفيه:

- أيّانَ تنتهي، ستكون لديكم خسائر.

ومن دون أن يجيب بشيء، انطلق زعيم العصابة مع بعض اللصوص إلى جانب الطريق. تشاورا لبعض الوقت. ولأنهم ليسوا من أولئك الذين يحاربون من أجل الحرب، فهِمَ هؤلاء الناس أنَّ نتيجة المعركة ليست واضحة. وجَّه زعيم اللصوص حصانه نحو أمبروجو، ثم قال:

- سوف تجلبون لنا عشرة من الدوكات (قطع ذهبية) لكل شخص، بما في ذلك الحراس، ولن يسفك أي دم.

فكرَ أمبروجو في ذلك.

- دوكات واحد عن كل فرد (قال الراهب هوغو). لإتاحة الفرصة للذهاب إلى كنيسة القيامة في القدس، يأخذ الكفّار اثنين من الدوكات، وهذا نهبٌ نظيف. وبما أننا في هذه الحالة نتعرض للنهب على يد المسيحيين، فأنا أعتبر أنه من الممكن أن يقتصر الأمر على دوكات واحد.

- يبدو أننا نساوم! (قال زعيم اللصوص مندهشاً).

- أنا أحاول قدر ما أستطيع التخفيف عن كاهل ضميركم (أوضح الراهب هوغو).

بعد مناقشة معمَّقة من جميع الأطراف، تمّ التوصل إلى مبلغ مقبول من الجميع - خمس دوكات من كلّ فرد من الملتحقين بالقافلة. وعندما ذهب الراهب هوغو إلى القافلة للإبلاغ عن نتيجة المحادثات، قال أرسيني لأمبروجو:

- إن الشخص الذي كان يتحدث معك في خطر. هناك ضجيج قوي في رأسه. والدم يضغط على أوعية رأسه، وهي على وشك الانفجار. إني أرى، يا أمبروجو، كيف هي منتفخة من فرط الدم. إنها تبدو كالديدان السمينة. لا يزال من الممكن تحسين تدفق الدم في هذا الرأس، ولكن صدِّقني: من دون تغيير في الأفكار، لن ينفع معه شيء.

وبعد الاستماع إلى أرسيني، تحوَّل أمبروجو إلى زعيم:

- إنَّ الضجيج الذي تسمعه في رأسك، هو نتيجة الأفكار المعشِّشة فيه. إنه خطير على حياتك، لكن رفيقي يمكنه مساعدتك.

ضحك اللصوص، الذين لم يعرفوا أي شيء عن الضجيج في رأس الزعيم، مرّة أخرى. لكن زعيم اللصوص بقي جدّياً. وسأل:

- وماذا يطلب رفيقك مقابل ذلك؟

- إنّه رجل من أتباع الدين اليوناني الروسي ويطلب منك تغيير أفكارك، وبعبارة أخرى أنْ تتوب، لأن التوبة باللغة اليونانية هي ميتانويّا، وهو ما يعني حرفياً تغيير الأفكار.

- إنكم مرة أخرى تساومون (وضحك زعيم اللصوص). لكن موضوع المساومة لا يمكن إلا أن يكون المال.

- هذه ليست تجارة، بل شرط (هز أمبروجو رأسه). شرط ضروري يستطيع رفيقي بموجبه أن يساعدك.

جاء الراهب هوغو إلى المتحاورَيْن ومعه المال. أخذ زعيم اللصوص من يده كيساً من القطع الذهبية وألقى به إلى أحد اللصوص لإعادة العَدّ. وبينما كان يغادر، التفتَ إلى أرسيني وأمبروجو:

- الحقيقة، أني لم أقبل لحد الآن بشروط أي شخص. وأشار إلى قطعة من السماء المنحدرة. حتى بشروطه هو (الله).

تابعت القافلة في صمت كيف غادر قُطّاع الطرق الوادي الضيق. وعندما اختفى آخر اللصوص خلف الصخرة، بدأت القافلة أيضاً في التحرُّك. أدرك الجميع أنَّ انطلاقهم في هذه المرّة حدث بسهولة، لكنهم لم يشعروا بأي فرح من هذا.

- هذه الدنيا فيها أنواع الناس (تنهد واحد من تجار كييف).

- ماذا قال؟ (سأل الراهب هوغو أمبروجو).

- إنه قال إنّ الناس مختلفون للغاية.

- لا يصح إلا الصحيح (أكد الراهب هوغو).

وعاد إلى عربة الفراء. وبعد أن جلس الأخ هوغو بشكل مريح على جلود السمور، واصل كلامه:

- الناس مختلفون. يقولون هناك أناس يدعون الإندروغينيين: أجسادهم من جانب كأجساد الذكور ومن الجانب الآخر كأجساد الإناث؛ الشخص منهم لديه الثدي الأيمن ثدي ذكر، والثدي الأيسر ثدي أنثى. وثمة أناس يُدعَون الساتيريين: مساكنهم في الغابات الجبلية، وحركتهم سريعة، عندما يركضون، لا يمكن لأحد أن يتفوق عليهم. يمشون عراة، ويغطي أجسادهم الشعر. لا يتكلَّمون اللغة البشرية، يصرخون فقط ويزعقون.

ويوجد، كما هو معروف، السكيباديّيون كذلك: وهم بشر يستريحون في ظل أقدامهم. أقدامهم كبيرة جداً (الأخ هوغو رفع قدميه) إلى درجة أنهم في الطقس الحارّ يتغطون بها، مثل المظلّة. نعم، أقول لكم، ثمّة الكثير من المخلوقات المختلفة في هذا العالم: لدى بعضهم رؤوس كلاب، وبعض من دون رؤوس، ولهم أسنان على الصدر، وعلى المرفقين العيون، ولدى غيرهم اثنين من الوجوه، وآخرون لديهم أربع عيون، وغيرهم لديهم ستة قرون على الرأس، ولديهم ستة أصابع في اليدين والرجلين.

- إذا كانوا موجودين بالفعل (سأل أرسيني بعد أن التفتَ)، فما هو الغرض من وجودهم؟

فكّرَ الأخ هوغو في ذلك:

- لا يوجد غرض، هناك سبب. بيت القصيد هو أنه بعد الهرج، ترك الله الجميع يعيشون وفقاً لميل قلوبهم. وهنا بعضهم قد ضلّوا طريقهم. وساروا وفقاً لميولهم، فصار مظهرهم يتّفق مع صورتهم الفكريّة. كلّ شيء منطقيٌّ جداً.

ضحك أمبروجو:

- هل هذا منطقي؟ كنت أعرف أشخاصاً ذوي طريقة في التفكير بأنّ مظهرهم على هذا المنطق كان يجب أن يكون فظيعاً. ومع هذا بدا مظهرهم جيداً.

ومن دون أن ينتظر الإجابة، حفز أمبروجو حصانه واندفع إلى الأمام. بعد تأمل قصير، اندفع أرسيني خلفه.

- لا توجد قواعد من دون استثناء (صاح الأخ هوغو وراءهم). يقولون، على سبيل المثال، إن على الجانب الخلفي من الأرض يعيش الأنتيبوديون (المناقضون). والكثير منهم مظهرهم، تصوّروا، مثلنا تماماً.

لكن أمبروجو لم يسمعه.

- هل أعجبكم ذلك؟ (توجّه الراهب هوغو إلى تُجّار كييف).

أومأ التُجّار برؤوسهم. فهُم لا يعرفون باللغة الألمانية كلمةً واحدة.

- لكنني لا أؤمن كثيراً بالحكايات عن الأنتيبوديِّين (تابعَ الراهب المُبجَّل)، أتعرفون لماذا؟ فلكي تأخذ ذلك على محمل الجِدّ، يجب عليك أن تعترف أولاً بأنّ الأرض مستديرة! أنا لا أتحدّث عن حقيقة أنَّ هذا أمرٌ مثيرٌ للسخرية، وأنَّ هذا هو كفر - بل هو في المقام الأول أمرٌ سخيفٌ ومضحك. فما إن نعترف بأن الأرض مستديرة وكروية، سنفترض ببساطة أنَّ الناس على الجانب الآخر من الأرض يسيرون على رؤوسهم!

ضحك الأخ هوغو بصوتٍ عالٍ. وعندما نظر إليه تجُّار كيف جعلوا يتبسمون. كان ضحك الراهب هوغو مُعدِياً إلى درجة أنّه خلال دقيقة واحدة كانت القافلة بأكملها تضحك. ومع هذا الضحك ولّى قلق الناس الذين تعرَّضوا إلى خطر الموت خلال الأيام الأخيرة. هذا الضحك كان فرحة أولئك الذين كانوا ينتظرون البندقية - أجمل مدينة على وجه الأرض.

وفي صباح اليوم التالي، عندما غادَرَتْ القافلة مكانَ الاستراحة اللَّيلي، جاء فارسان من جهة جبال الألب. فعرفوا أنهم اللصوص الذين التقوا بهم في اليوم السابق. عندما رأيا أرسيني وأمبروجو، اقتربا منهما:

- زعيمُنا حالتُه سيئة للغاية (توجَّه اللصوص إلى أمبروجو). الليلة الماضية أُصيبَ، وهو يرقد الآن بلا حركة. هل يمكن لرفيقك أن يساعده بشيء؟

ترجم أمبروجو هذا إلى أرسيني.

- أخبرهم بأنني الآن عاجز عن المساعدة (أجاب أرسيني). ساعات هذا الرجل معدودة، وفي هذه الليلة سيموت. في الموت السريع، رحمةٌ له من العلي القدير.

بعد الاستماع إلى جواب أرسيني، قال اللصوص:

- عندما كان لا يزال قادراً على الكلام، طلب مني أن أُسلِّمكم هذا.

أخرجَ أحدُ اللصَّيْن كيساً من الذهب من عبِّه وسلّمَه إلى أمبروجو. عاد المال على الفور لمن أعطاه في اليوم السابق. وتوجَّهَتْ القافلة إلى البندقية.

-ق-

عند مدخل البندقية، أوقف الحرّاسُ القافلة. سألوا الجميع عن وثائق الطريق، التي يمكن أنْ تُثبت أنَّ الرَحَّالة قادمون من الشمال، وليس من الجنوب الشرقي. ففي آسيا الصغرى احتدم الطاعون، وكانت السلطات تخشى من تغلغله في جمهورية البندقية. كان الجميع لديهم رسائل، باستثناء الراهب هوغو، الذي فقدها مع حقائبه وحماره، لكنَّ جميعَ مَن في القافلة أكدوا أنَّ الراهب عبرَ جبال الألب معهم.

تنهَّدَ الراهب الفرنسيسكاني، على الرغم من أنه غير مقتنع بأنّ هذا هو القرار الصحيح.

في البندقية ودَّع الجميع بعضهم بعضاً. كان الوداع حميمياً، لأن الكثيرين يعلمون أنهم يفترقون إلى الأبد. كانت هذه سمة من سمات الوداع في ذلك الوقت. فالناس في القرون الوسطى نادراً ما تُتاح لهم الفرصة للّقاء مرَّةً أخرى خلال الحياة الدنيا.

دعا الراهب هوغو أرسيني وأمبروجو لقضاء الليلة في دير الفرنسيسكان. إذ لم يكن لديهما ملجأ آخر في البندقية، فقبلا الدعوة مع الامتنان. استغرق الأمر وقتاً طويلاً للوصول إلى الدير، لأن الأخ هوغو تذكر الطريق بشكل غير أكيد. كان يجلس على حصان واحد مع أمبروجو، ويشير له إلى الطريق. فالشوارع الملتوية، تتحول إلى طريق مسدود أو تؤدي إلى مكانها السابق. ثلاث مرات كانوا في ساحة سان ماركو ومرتين في جسر ريالتو. تبعت الخيول بعضها بعضاً، وتردَّدَ

صدى حوافرِها بأصدائها. في بعض الأحيان كان ينبغي الالتصاق على الجدران لفسح المجال للخيَّالة القادمين. نظر أمبروجو بابتسامة إلى أرسيني. لأوّلِ مرَّة رأى صديقَه في حيرة.

كان أرسيني مندهشاً حقّاً، لأنه لم يرَ شيئاً من هذا القبيلِ من قبل. حتى أنَّه توقَّف ذات مرة عند الجسر وشاهد كيف أنَّ سيدة مُسِنَّة من نساء البندقيّة نزلت في جندول مباشرة من باب منزلها. اهتزَّ الجندول تحت قدمها. فحوَّل أرسيني بصره عنها. وبعد أن سمع طبطبة المجاذيف، أدار رأسه بحذر. كانت المرأة الفينيسية تجلس بهدوء في المؤخرة. لم تكن تعرف بقلق أرسيني، لأنها طوال نصف القرن الأخير تخرج من منزلها هكذا تماماً.

أستُقبِلَ المسافرون في الدير بتعاطف ووِدّ. أخبر الأخ هوغو رئيسَ الدَّير بأنَّ أرسيني ليس كاثوليكيّاً، فردَّ عليه رئيسُ الدَّير بإيماءةٍ معقَّدة صعبة التحليل. إذ يمكن تفسير هذه الإيماءة بطرق مختلفة، لكنها لا تعني منعاً مباشراً للإقامة في الدير. أو هكذا على الأقل نظر إليها الراهب هوغو. وقاد أرسيني وأمبروجو إلى صومعة مُعَدَّة للثلاثة كلهم، حيث أُعِدَّت الأسرَّة وأُحضِرَ الماء للاغتسال. وبعد مرور ساعة دُعوا إلى تناول مائدة طعام المساء في الدَّير.

لم يخرج إلى مائدة الطعام أيٌّ واحد من الثلاثة. الراهب هوغو وأمبروجو خلدوا من تعب الطريق إلى نوم عميق، وأرسيني شعر من لقائه بالبندقية بإثارةٍ عميقة. لم تتركه تلك الإثارة يغفو، ولم تسمح له بالبقاء في الزنزانة. ذهب بهدوء إلى الطابق السفلي، وانحنى إلى البوّاب، وذهب إلى الخارج.

الدير يقع على إحدى القنوات. من الشارع يبدو وكأنه منزلٌ عادي، لا يختلف عن المنازل الأخرى التي بنيت بالقرب من بعضها بعضاً. بين المنازل والقناة كان ثمة شريط ضيق من الرصيف، وهنا لا حاجة للذهاب مباشرة إلى الماء. قام أرسيني بخطوات قليلة إلى القناة. جلس القرفصاء،

وجعل ينظر كيف تتمايل الأعشاب البحرية على وتد المَرسى. الماء هنا كانت رائحتُه مختلفةً عنها في الأماكن الأخرى التي رآها. كانت الرائحة نتنة. وعندما تذكَّرها في وقت لاحق، شعر أرسيني بالسعادة، لأنها كانت رائحةَ البندقيّة.

حلَّ المساء. لم تُرَ الشمس من وراء البيوت، ولكنَّ الجدران التي تمكَّنت الأشعة الأخيرة من الوصول إليها، تحوَّلتْ إلى لون المغرة واللون والأصفر. سار أرسيني على طول القنوات - في الأماكن التي يمكن السير فيها - وعَبَرَ جسوراً صغيرة على شكل أقواس. حاول في البداية أنْ يتذكَّر الطريق الذي سار فيه حتى يمكنه العودة، ولكن بعد بضعة شوارع لم يتمكن من تحديد حتى الاتجاه الذي يقع فيه الدير الفرنسيسكاني. لم يأتِ في حياته إلى مثل هذا المكان المذهل، والآن لم يستطع أن يحتفظ به في ذاكرته. وهنا راود أرسيني الشعور برحابة الغابة وبفسحة الحقل وبالصحراء الجليدية في بيلوزيرسك والشوارع الخشبية في بسكوف، وفي كل مكان يمكنه بسهولة العثور فيه على الطريق. والآن، بعد أن وصل إلى تعاقب عشوائي للماء والحجر، أدرك أنه لا يشعر بهذا المكان. فقد كان وحيداً في مدينة غريبة وجميلة، لم يعرف لغتها. الشخص الوحيد الذي بإمكانه مساعدته كان نائماً، متعباً، في دير غير معروف أين يقع. وشعر أرسيني بالسكينة والهدوء.

سار كيف ما اتفق، ولم يعد يحاول تذكّر الطريق. بدت بعض الشوارع في البداية مألوفة له. لكن في اللحظة التالية يكتشف شرفات ونقوش بارزة لم يسبق له أن رآها من قبل، فيدرك أن الشبه يجعله بوقاحة يراها تتكرّر. عندما حلَّ الظلام الدامس، ذهب أرسيني إلى ساحة سان ماركو. أضاء نور القمر الكاتدرائية، التي تشبه في عتمتها الجبل القاتم. لقد بنيت من أحجار منهوبة من القسطنطينية، كما قال أمبروجو لأرسيني. لمس العمود الرخامي وشعر بالدفء الذي امتصّه أثناء النهار. اعتقد أنه ربما كان دفءَ الدولة البيزنطية.

جلس أرسيني على يمين المدخل واستند بظهره إلى العمود. شعر بالتعب. وعندما أراد أرسيني أن يستريح، لمس شيئاً ليناً. ففي الفجوة بين الأعمدة جلست صبية، بدا وجهها الطفولي وكأنه نقش من النقوش البارزة – ربما، لأنها كانت ساكنة بلا حراك. مدَّ أرسيني يده إلى عينيها، فرمشت.

– السلام عليك، أيتها الطفلة، قال أرسيني. أردت فقط أن أعرف ما إذا كانت الحياة لم تتركك.

نظرت إليه من دون دهشة:

– اسمي لاورا، وأنا لا أفهم لغتك.

– أرى أَنَّكِ مكتئبةٌ من شيء ما، لكني لا أعرف سبب حزنِكِ.

– في بعض الأحيان يكون من الأسهل لك أن تتحدث عندما لا يفهمك الناس.

– ربما، أنكِ حامل، وطفلك سيكون غير شرعي، لأن والده لم يصبح زوجك.

– لأنك عندما تكون في حالة من اليأس، فأنت تريد أن تعبّر عن ألمك وتخشى أن يخرج من فمك ويصبح معروفاً للجميع.

– الحقيقة، لا يوجد شيء لا يمكن إصلاحه في هذا. والده لا يزال من الممكن أن يكون زوجك. أو يمكن أن يصبح شخص آخر زوجاً لك، وهذا ما يحدث. ثِقي، بودِّي أنْ أَتَّخِذكِ زوجةً من أجل مساعدتك، لكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك، لأن عندي حبٌّ أبدي وزوجة أبدية.

– وأنا، أستطيع أن أقول، لم أعد خائفة بعد الآن. أنا أعرف علاجاً يلائم كل العلل. إذا ما ساءت حالتي جداً، سيعطيني يأسي القوة لاستخدامه.

– كانت في حياتي أوستينا وكان ثمة ولدٌ صغير بدون اسم، لكنّي لم أحافظ عليهما كليهما.

– قبل بضعة أيام سمعت أني مصابة بالجذام. عندما ظهرت بقع على

معصمي، لم أكن أعرف بعد ما الذي تعنيه. وفي منتصف الصيف عندما صارت بحّة في حنجرتي - لم أخمن كذلك. لكن رجلاً رآني صدفة في الشارع، وقال: إنكِ مصابة بالجذام. وقال: اتركي هذه المدينة واذهبي إلى مدينة البرصان، حتى لا تصبحي لعنةً لأهل بيتكِ. فذهبت إلى الطبيب، وأكّد الطبيب أنَّ الرجل كان على حق.

- منذ ذلك الحين، وأنا أحاول التحدّث إليهم، لكنهم غير قادرين على أن يردّوا عَليَّ. تُوفِّيَ الصبيُّ صغيراً، فهو لا يستطيع الردّ. ولكن أوستينا لا تردّ أيضاً. بطبيعة الحال، هذا الأمر ليس سهلاً في وضعية مثل وضعيتهم. وهل أنّي لا أفهم؟ أفهم طبعاً... ومع هذا ما زلت أنتظر. ليكن الأمر من دون كلمات - فليعطوني ولو علامة. في بعض الأحيان يكون الأمر صعباً جداً بالنسبة لي.

- ولم أعد بعد ذلك إلى المنزل. كنت أعرف أن عائلتي لن تسمح لي بالرحيل ويفضلون أن يموتوا معي ببطء.

- وأنا لم أقنط. لكن، بقدر ما أستطيع، أحاول إخبار أوستينا بما يحدث هنا. لقد ماتت ناقصة عمر، لذلك أحاول أن أعوِّض النقص في عمرها. بيد أن هذا صعب. إذ لا يمكن أن أحكي لها عن الحياة بشكل عام، بتفاصيلها كلها، هل تفهمين؟

- هناك جدار فاصل بيني وبين باقي العالم. إنه الآن زجاجي، لأنه لا أحد يعرف عن سوء حظّي. لكن كل شيء سيصبح ملحوظاً. قال لي الطبيب كل شيء. بدا لي أنَّ هذا منحه سروراً. أو ربما أراد أن يخلِّصَني من الآمال وخيبات الأمل.

- في الحقيقة، يمكن أن ننقل إلى هناك الفكرة العامة فقط. الشيء الرئيس مما حدث. على سبيل المثال، حبّي لها.

- سأرسَل إلى مستعمرةٍ للمجذومين. ومع مرور الوقت، سيكون لدي أنفٌ على شكل سَرْج. ووجهُ أَسَد. وسأخجل من حقيقة أنَّ على هذا الوجه تسقط أشعة الشمس المشتركة. سأعرف أنه ليس لديّ الحق

في ذلك. ليس لدي الحق في أي شيء جميل. وقد أموت وأنا لا أزال على قيد الحياة.

أخذ أرسيني لاورا من يدها، ونظر في عينيها، وهكذا كُشِف له عن جوهر ما يحدث. فقبَّل لاورا على جبينها.

- استيقظي، أيتها الطفلة، في صحّة. طالما أنَّ الإنسان على وجه الأرض، يمكن علاج الكثير. اعلَمي أن ليس كل مرض يظلّ في الجسم. حتى أفظع الأمراض. لا أستطيع أن أفسر ذلك إلا بنعمة العَليّ القدير، لكنني أرى أنَّ الجذام سيخرجُ منك. عودي إلى أهلك، وعانقيهم، ولا تنعزلي أبداً.

ولمّا رأى أنّ لاورا لم تعد لديها ثمة قوة، ساعدها أرسيني على النهوض وقادها إلى المنزل. بدأ يهطل مطرٌ ليليٌّ ناعم. كان ذلك الجزء من السماء الذي فيه القمر خالياً من السحاب. لمعت الجنادل البليلة في ضوء القمر، وهي تتأرجح بلطف. وقد طرطشَ الماء وعلا صوت ارتطامه بقيعانها. التفتت لاورا على عتبة منزلها (وهي في أحضان والدَيها) إلى أرسيني.

لكن أرسيني لم يكن موجوداً. أُنشِأت المدينة الوهمية لكي يمكن الاختفاء فيها. ويمكن الذوبان في المطر بها. عرفت لاورا هذا ولم تفاجأ. حتى لو كان قريباً، لم يبدُ لها أن أرسيني كائنٌ حقيقيّ. لم تستطع لاورا أن تكّرر كلماته، لكنها ملأتها بفرحٍ لا متناهٍ، لأنّ معناها الأساسي انكشف أمامها. وصارت ترى الأيام الأخيرة كحلم رهيب. إنها نفسها لم تفهم ما حدث لها، وأكثر ما كانت تريد في هذه الدنيا هو أنْ تستيقظ.

ذهب أرسيني إلى الدير. والآن، عندما تلبَّدت السماء بالغيوم بالكامل وهطل المطر بغزارة كأفواه القِرَب، أصبح اتجاه الحركة بالنسبة إليه واضحاً إلى حدٍّ معيَّن. لم يعرف الراهب هوغو وأمبروجو عن غيابه. كانا نائمين ويحلمان.

كان الأخ هوغو يحلم بحماره، وهو بشوش ومُمَشَّط العرف ومُزيَّنٌ

بأناقة. كان يحوم ببطء فوق الهاوية وبدا مثل بيغاسوس. على ظهره اختلج جلٌّ أبيض بشكل بالكاد يُلاحَظ. كنت أعرف أن لا شيء من السابق يختفي، همس الأخ هوغو في الحلم. لا الإنسان ولا الحيوان ولا حتى الورقة. Deus conservat omnia [5]. وكان وجهه مبللاً بالدموع.

رأى أمبروجو في الحلم شارعاً في مدينة أوريول. وعلى مِرقاة متجر **الكتان الروسي** كانت مجموعةٌ من خمسة أشخاص تلتقط صوراً فوتوغرافية. من اليسار إلى اليمين: ماتفييفا نينا فاسيليفنا، كوروتشينكو أديليادا سيرغييفنا (الصف العلوي)؛ رومانتسوفا فيرا غلفريلوفنا، مارتيروسيان موفسيس نيرسيسوفيتش، سكومورروخوفا نينا بيتروفنا (الصف السفلي). 28 مايو 1951. تكريماً للاحتفال بالذكرى الخامسة لافتتاح متجر **الكتان الروسي**، دعا المدير مارتيروسيان الموظفين لترتيب احتفالية. طبخت النساء في المنزل اللحوم الباردة، ولفائف الملفوف، وسلطة فينيغريت[6] والرز باللحم والخضروات. جلبن كل ذلك معهن إلى مكان العمل في القدور ووضعنه على الأطباق وسُلطانيات السَّلَطات. وبعد أنْ خلطن سلطة فينيغريت والرز بالتناوب، لَحَسْنَ الملاعق. جلب موفسيس نيرسيسوفيتش زجاجتين من الشمبانيا وزجاجة من الكونياك صنف أرارات. جاء وهو يعلق الأوسمة والميداليات على صدره. وقد فاحت من النساء رائحة العطور ورائحة الفساتين المكوية. وكانت تفوح من المكان رائحة يوم مشمس من أيام شهر مايس. رُفِعَت النُّخُب (تلى النخب موفسيس نيرسيسوفيتش)، كان المرح بادياً على الجميع. وعندما رفع مدير المتجر كأسه، خشخشت الميداليات ورنَّت على صدره بشكل ممتع. ثم جاء المصور وصوَّر الجميع على خلفية المتجر. وعندما نظرت نينا فاسيليفنا ماتفييفا إلى الصورة المصفرة في عام 2012، قالت: آنذاك

5- «الله يحفظ كل شيء» (باللغة اللاتينية) – المترجم.

6- من السلطات الروسية الشهيرة، تتكون من الشمندر والبطاطا والجزر المسلوقة – المترجم.

أعلن موفسيس في المتجر يوم عمل قصير. من بين أولئك الذين ترونهم في الصورة، بقيتُ على قيد الحياة أنا لوحدي. وحتى أني لا أستطيع زيارة قبورهم، لأنني انتقلت إلى مدينة تولا، وبقوا هم في أوريول. لا أكاد أصدق أنَّ كل ذلك جرى معنا؟ أنظر إليهم وكأنني من عالم آخر. يا إلهي، كم أحبّهم جميعاً.

-ك-

بعد أسبوع، صعد أرسيني وأمبروجو على متن سفينة القدّيس مرقس. وخلال ذلك الأسبوع، تمكّن الأخ هوجو من خلال رئيس الدير أن يحصل لهما على خطاب طريق من السنيور جيوفاني موتشينيغو، دوق البندقية. كان الهدف من هذه الرسالة هو حمايتهما في جميع أنحاء جمهورية البندقية، والتي تمتد على جانبي البحر الأدرياتيكي. في تلك الأيام نفسها، اضطر أرسيني وأمبروجو إلى أن يبيعا حصانيهما. فقد كان أمامهما طريق طويل على البحر، ولم يكن أحدٌ يعرف كيف يمكن للحيوانات أنْ تتحمَّلَه. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن نقل الخيول رخيصاً.

أُمِرَ أرسيني وأمبروجو بأنْ يكونا في السفينة عند منتصف الليل. شيَّعهُما الأخ هوغو إلى المرسى. وفي اليوم التالي غادر هو أيضاً البندقيَّة وذهب إلى روما. أهداه الإخوة الفرنسيسكان حماراً آخر، لكنه لم يعتبر هذا الاستبدال مكافئاً. فبعد أن عاين الراهبُ هوغو الحمارَ بمماحكة باحثاً عن عيوب فيه، ربَّتَ على كتفه وقال:

- هذا الحيوان ليس لديه شخصيةٌ حقيقيّة، وأخشى أنَّه لن يطوِّعني.

- لا تخشَ ذلك، يا أخ هوغو (أجابه الإخوة الفرنسيسكان). لا تهتمّ، لأنَّ هذا الحيوان سوف يطوِّعك. فلديه شخصية، وهذا الظرف يشرح إلى حدٍّ ما رغبتنا في فراقه.

أراد الأخ هوجو مساعدة أرسيني وأمبروجيو في إيصال الأمتعة إلى الرصيف، فحمّلها على حماره الجديد. كان الحمل، في الواقع، صغيراً،

ولكن مع ذلك لم يرغب الحمار بحمله. إذ جعل طوال الطريق، يرفس برجليه بغضب، في محاولة للتخلُّص من الحقائب الجِلدية المُلقاة على سَرْجِه. وفرك الحقائب بالجدران وحشرها برِكاب الخيالة المارِّين بجانبه. وعندما رأى الراهب هوغو هذا، هدأ قليلاً. وأدرك أنه لا يزال لديه الفرصة لترويض نفسه.

على الرصيف، احتضن الأخ هوغو رفيقيه اللَّذين سيُبحران. وانفجر في البكاء ثمَّ قال:

- في بعض الأحيان، تُفكِّر هل يستحقّ الأمرُ أنْ تتعلَّق بالناس، إذا كان يصعب عليك فراقهم فيما بعد.

عانق أرسيني الراهب هوغو وهو يربِّت على ظهره وقال:

اعلمْ، يا صديقي، أنَّ أيّ اجتماع أكثر أهمية من الفراق. قبل الاجتماع، فراغ، لا شيء. أما بعد الفراق لا يحدث فراغ. بمجرد أن تلتقي مرة واحدة، لا يمكنك أن تفارق بصورة كاملة. يبقى الإنسان في الذاكرة، كجزء منها. وهذا الجزء خلَقَه هو، وسيبقى يعيش، وفي بعض الأحيان يتلاقى مع خالقه. وبخلاف ذلك، ما الذي يجعلنا نشعر بالناس الأعزاء من مسافة بعيدة؟

وعندما صعد أرسيني وأمبروجو على متن السفينة، طلبا من الأخ هوغو ألّا يقف على المرسى، لأنّه لم يكن أحدٌ يعلم متى ستبحر السفينة بالضبط. أومأ الفرنسيسكاني برأسه، لكنه لم يغادر. لم تكن السفينة في الأضواء الخافتة تُرى على الفور. كان الحبلُ في يد الأخ هوغو يتوتَّر بين حين وآخر ويقاومه بشدة الحمارُ الذي لم يرغب في مغادرة المرسى. كان الحيوان يراقب صعود مائة وعشرين من المشاة، الذين أرسلهم دوق البندقية للخدمة في كريت. وقد وصلوا في زيهم الرسمي الكامل، وكان حزن النساء المصاحبات لهم بشكل مضاعف لأنهن يودعنهم بمثل هذا الشكل الفتي. «فبهذا الشكل نحن»، فكَّرَتْ النساء، «نراهم لأول مرة. وربما لآخر مرة».

في الساعة الرابعة صباحاً، قبيل الفجر بقليل، رفعت السفينة المرساة. وخرجت ببطء من الميناء، وعلى خلفية السماء المضاءة صار يمكن رؤية الخطوط العريضة لكاتدرائية سان ماركو (القدّيس مرقس). في حين أنّ جميع المسافرين ناموا على أسرَّة معلَّقة في عنبر السفينة، لم يترك أرسيني سطح السفينة لعدة ساعات. استمع بسرور لصرير الصارية وخفقان الأشرعة - إذ كانت تلك هي موسيقى التجوال العذبة. جعل أرسيني يراقب كيف تحوَّل الماء من اللون الأسود تدريجيّاً إلى اللون الوردي، ومن الوردي إلى الزمردي.

بدا له أنَّ مياه البحر بالمقارنة مع الماء الذي رآه في حياته من قبل، هي سائل من مكوِّنات مختلفة تماماً. وعندما لعق من يده رذاذ الأمواج، أحسَّ بملوحته. كان لونُ مياه البحر مختلفاً، ورائحتُها مختلفة بل حتى سلوكها مختلفاً. لم يكن فيها ترقرُق النَّهر الضَّحْل. إنها تختلف عن مياه الأنهار وحتى عن مياه البحيرات، كما يختلف طائر الغرنوق عن العصفور. وعندما طرح أرسيني هذه المقارنة، لم يعنِ كبر الحجم بقدر ما عنى بها طبيعة الحركات. كانت مياه البحر تتدحرج على شكل موجات كبيرة، وحركاتها مهيبة وسلسة.

عندما رأى رُبّانَ السفينة، وهو رجلٌ منتفخ ذو شفاه سميكة، اهتمام أرسيني بمياه البحر، اقترب منه. وكان الربان قد سمع حديث أرسيني مع الراهب هوغو، فتحدث معه باللغة الألمانية:

- إنَّ مياه البحر ومياه النهر هما نوعان من العناصر المختلفة. إنّي، يا سيدي، لن أوافق أبداً على قيادة السفن في المياه العذبة.

كعلامة على احترام موقف الربّان، هزَّ أرسيني رأسه. وقد اجتذب الحديث عن المياه اثنين من الحجاج من براندنبورغ فاقتربا من المتحدّثين.

- من الواضح تماماً (واصل الربان حديثه)، أنّ المياه العذبة أضعف من المياه المالحة. إذا كان هناك أحد يشك في ذلك، فليفسِّر لي لماذا،

على سبيل المثال، مياه البحر قادرة على دفع تيار عظيم للمياه العذبة، مثل مياه نهر السين في روان وتسببه في التدفق في الاتجاه المعاكس لمدة ثلاثة أيام؟

- ربما (قال الحاج فيلهلم)، المياه المالحة تبدو مقرفة بالنسبة للمياه العذبة، ولذا فهي تتراجع أمامها.

وأنا أعتقد (قال الحاج فريدريخ معترضاً)، أن النهر يعبّر عن احترامه لوالده - البحر - فيفسح المجال له. وعندما يبدأ الجزر، فإنه يتبعه كذلك باحترام.

- عندما تتحدث عن الأبوة، فإنك، أيها الأجنبي الغريب، تعتقد أن ثمة علاقة قرابة بين هذه العناصر المختلفة (قال الربّان متعجباً).

- بالطبع (قال الحاج فريدريخ)، لأن البحر هو مصدر الأنهار كلها والينابيع كلها، كما أنَّ الرب يسوع المسيح هو مصدر كل الفضائل والمعرفة. أليس الطموحات النقية كلها قاطبة هي تيارات من مصدر واحد بعينه؟ ومثلما تتطلع الأنهار الروحية إلى مصدرها، كذلك تعود المياه كلها إلى البحر.

- ما رأيك في دوّامات المياه (سأل الحاج فيلهلم أرسيني).

- أرضنا تشبه جسم الإنسان (أجاب أرسيني)، وداخلها تتخلّله القنوات، كما أنَّ الجسم تتخلّله الأوعية الدموية. أيّان يبدأ الإنسان في حفر الأرض، سيعثر بالتأكيد على الماء. هكذا قال جدّي كريستوفر، الذي كان يشعر بالماء تحت الأرض.

- كان لدي اثنين من الأجداد، لكنني لم أر واحداً منهما (تنهد الربان). كلاهما كانا بحارة، وكلاهما غرقا.

بعد كلمات الربان، بقي المتحاورون صامتين لبعض الوقت.

قال الحاج فريدريخ بهدوء: إن انصباب المياه العذبة بالمياه المالحة، أشبِّهه بتحوِّل حلاوة هذا العالم في نهاية المطاف إلى ملح ومرارة.

-ل-

بعد مرور يوم ونصف من الإبحار من مدينة البندقية، عبرت سفينة القدّيس مرقس البحر الأدرياتيكي وألقت بمرساتها على بعد ربع ميل من مدينة بارينزو. لقد حالت الصخور دون الاقتراب من المدينة أكثر، لكن لم تكن ثمة فرصة للتحرك أبعد من ذلك: فالرياح في البحر كانت ساكنة تماماً. وقف العديد من المسافرين على سطح السفينة.

- بارينزو مدينة جميلة، قال أرسيني للربان.

- إنها جميلة لأن باريس[7] أسَّسَها (أجاب الربان)، هكذا يقال.

- خطأ (قال الحاج فيلهلم).

- فلماذا إذن، لفظا باريس وبارينزو متشابهان؟ (وعندما لفظ القبطان اسمَي العلم هذين كانت شفتاه السمينتان ترذّان اللعاب). باريس، أقول لكم، أسس المدينة عندما خطف الإغريق إيلينا.

- قال الحاج فريدريخ: إن الإغريق لم يخطفوا إيلينا. كل هذه خرافات وثنية.

- ربما، حتى طروادة خرافة (سأل القبطان بخبث).

- وطروادة كذلك خرافة (أكد الحاج فريدريخ).

7- باريس في الميثولوجيا اليونانية – هو ابن الملك بريام وشقيق الأمير هيكتور. يقال إنه كان رائع الجمال وأجمل أولاد بريام كلّهم. يعتقد أن باريس هو المتسبب بحرب طروادة وحصارها، كما أنه المتسبب بدمارها وذلك لأنه قام بخطف هيلين ملكة أسبرطة – المترجم.

لوَّح الربان بيديه ولحس شفاهه الرطبة. ولم يكن بمقدوره أن يضيف شيئاً.

- لست متأكداً، يا عزيزي فريدريخ، أنك محق (قال أمبروجو). لدي شعور بأن شخصاً ما سيجد يوماً ما طروادة. وربما، سيكون حتى شخصاً من محيطك.

بحلول مساء اليوم نفسه، هبَّت رياح مؤاتية. تحركت السفينة ليوم وليلة بهذه الرياح، ولكن بعد ذلك كان لا بد من الدخول إلى ميناء زارا الدلماسي، لأن الرياح هبَّت من اتجاه معاكس، وهذه الرياح تدعى رياح سيروكو الإيطالية. وقد يستمر هبوبها لعدة أيام، ويجب على المسافرين التحلي بالصبر. المائة والعشرون من جنود المشاة، غير مبالين لمدن الساحل، وانغمسوا ودّياً في لعب النرد. بينما ذهب جميع المسافرين الآخرين إلى الشاطئ.

استقبلهم عند المرسى قنصل البندقية، الذي استفسر عن صحة الجو في السفينة. فأكدوا له أن السفينة جاءت من البندقية وليس من الشرق. كما عُرِضت على القنصل خطابات الطريق من دوق البندقية، وسمح لجميع الراغبين بالدخول إلى المدينة وقلعتها.

كانت مدينة زارا تشتهر بكون كنيسة القدّيس سمعان تضم رفات التقي المرشد الروحي للكنيسة الأرثوذكسية. ذهب أرسيني وأمبروجو للصلاة عند كنيسة سمعان. ركع أرسيني أمام رفاته الأبدي، وقال:

- الآنَ تُطْلِقُ عَبْدَكَ يَا سَيِّدُ حَسَبَ قَوْلِكَ بِسَلاَمٍ، لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرَتَا خَلاَصَكَ. إنك تعرف، يا سمعان، أنّي لا أتوقع مكافأة تقارن بمكافأتك. وخلاصي يكمن في إنقاذ أوستينا والطفل. خذهم بين يديك، كما أخذت الطفل المسيح، وانقلهما إليه (إلى الرب). هذا هو جوهر طلبي وصلواتي.

ولكي لا يبلّل رفات سمعان بالدموع، لامسه أرسيني بجبهته العليا. لكن مع ذلك انسلّت دمعة واحدة من رموشه وسقطت على الرفات. «حسناً، دعها تظل هناك» (فكَّر أرسيني). «سوف تذكِّر المرشد الروحي عنّي».

-م-

في اليوم التالي تجوَّل أرسيني وأمبروجو واثنان من حجاج براندنبورغ في قلعة مدينة زارا. قبل العودة إلى السفينة، ذهبوا لتناول الطعام في حانة. كان في الحانة أشخاص يحتفلون بمناسبة ما، وهؤلاء الناس من السكان الكروات في جمهورية البندقية. تيقَّظ سكان زارا عند رؤية زائرين يرتدون أثواب الطريق. وبما أن التهديد التركي لم يعد صوتاً فارغاً، فإنهم لم يستبعدوا أن الغرباء يمكن أن يكونوا متسللين وجواسيس للعدو. ومع زيادة كمية المشروب، تحول الشك إلى يقين. وآخر ما عزز هذا اليقين كانت اللغة الألمانية للحجاج، التي سرعان ما اعتُبِرَت اللغة التركية. وقف المحتفلون على الفور، وسرعان ما تقلَّبت المقاعد التي كانوا يجلسون عليها وهي تُصدِر قعقعة.

أدرك أرسيني وأمبروجو، اللذان يفهمان بشكل عام الكلام السلافي، معنى ما كان يحدث قبل الآخرين. ولكن حتى الحجاج من براندنبورغ الذين لا يفهمون الكلام السلافي عرفوا أن الأمور تأخذ منعطفاً خطيراً. وطار قدح من القصدير باتجاه الحاج فيلهلم بوصفه رجلاً يتحدث لغة غير مفهومة.

اتخذ أرسيني خطوات قليلة نحو المهاجمين ومدّ ذراعه إلى الأمام. في لحظة ما، بدا أن هذه الإيماءة قد طمأنتهم. وركزوا نظرهم جميعاً على يد أرسيني. قال لهم أرسيني باللغة الروسية:

– نحن حجاج، وذاهبون إلى الأرض المقدسة.

بدت اللغة مفهومة بالنسبة لأهل زارا، لكنها غريبة. وبما أن كلامهم كان غير واضح أيضاً، فقد عاملوه بتسامح مناسب. فقالوا لأرسيني بصورة أكثر هدوءً:

- هيا إذن، ارسموا إشارة الصليب على أنفسكم.

رسم أرسيني إشارة الصليب على نفسه.

استؤنف الهيجان من جديد. فقد كان يحتاج لحظة واحدة لازمة لينشب:

- إنه لا يعرف حتى كيف يرسم إشارة الصليب بشكل صحيح! هل يستحق الأمر انتظار شيء ما آخر من المتسللين الأتراك؟

حاول أمبروجو أن يشرح لهم أن الكاثوليك والأرثوذكس يرسمون إشارة الصليب بطرق مختلفة، وطالب بنقلهم إلى قنصل البندقية، ولكن لم يصغِ إليه أحد. ناقش سكان زارا كيفية التعامل مع المعتقلين. وبعد جدال قَصير ولكنه ساخن، توصلوا إلى استنتاج مفاده أنه ينبغي شنق المتسللين. إضافة إلى ذلك كان سكان زارا لا يميلون إلى تأجيله لوقت لاحق، لأنهم كانوا على علم بأن الوقت هو العدو الرئيس للحسم.

طلبوا حبلاً من صاحب الحانة. في البداية لم يعطهم، لأنه كان يخشى أن يُشنَق المدانون مباشرة في حانته. وعندما علم أنهم في هذه المرحلة يحتاجون الحبل لربط المطلوبين فقط (وهل هناك مَن يشنق الناس في حانة؟)، أعطاهم الحبل بكل سرور، وحتى أنه سكب الخمر لصائدي المتسللين للأخير على حساب الحانة. بعد أن ربطوا المقبوض عليهم، على الرغم من المقاومة، شربوا على عجلة من أمرهم، لأن شغلهم كان مزعجاً ويتطلّب وقتاً. وعند الباب طلبوا حبلاً آخر، والأهمّ من ذلك طلبوا صابوناً، الأمر الذي نسي تماماً قبل رفع النخب الأخير من أجل موت جميع المتسللين.

- قال أمبروجو بصوت منخفض لأرسيني: يا لها من موتة حمقاء موتتنا.

- وأي موت ليس أحمقاً (سأله أرسيني). أليس من الحماقة أن تدخل قطعة من الحديد الغليظ الجسد البشري لتخرق كماله؟ فذلك الذي لا يستطيع حتى خلق ظِفْرٍ على إصبعه الصغير، يدمِّر الآلية الأكثر تعقيداً، التي يتعذر على البشر التوصل لفهم كنهها.

وقد تقرر تنفيذ الحكم الصادر في الحانة في الميناء. فهناك العديد من العوارض والخطافات المناسبة، والمكان مفتوح، مما يعني أنه متاح للنظر حتى يكون درساً يتعلم منه جميع الجواسيس المتسللين في المستقبل.

حاول أمبروجو مرة أخرى الوصول إلى قلوب وعقول سكان زارا. صاح بهم أن الحجاج لديهم خطابات طريق من دوق البندقية، وبشكل متكرّر اقترح عليهم أن يرسم إشارة الصليب بالطريقة الكاثوليكية، ولكن من دون جدوى. لأن قلوب وعقول هؤلاء الناس تضرّرت بسبب الكحول.

اندهش أرسيني من عدم الثقة التي يشعر بها سكان زارا. «ربما» (فكّر أرسيني) «قد تعرضوا هنا للمضايقة كثيراً من الجواسيس المتسللين. ولم يستبعد أرسيني حقيقة أن هؤلاء الأشخاص لديهم رغبة بأن يشنقوا شخصاً ما فحسب».

وفي نهاية المطاف، كمّموا فم أمبروجو بكمّامة. وبعد أن تشاوروا، حلّوا وثاق أرجل جميع الأسرى، حتى يتمكنوا من المشي، ولكن بقيت أيديهم مربوطة. الآن صار أمبروجو لا يقدر على الصراخ ولا على رسم إشارة الصليب.

كان أمبروجو يسير إلى جانب أرسيني وينظر إلى الحاجَّيْن من براندنبورغ اللذين كانا يسيران أمامهما. وعلى الرغم من دراماتيكية ما يجري، إلا أن مظهرهم يبعث على الابتسامة. كانوا يسيرون معاً، وهم يترنّحون من جانب إلى آخر، وأيديهم الموثوقة من الخلف منحتهم مظهراً مهيباً، يشبه تقريبياً مظهر أساتذة الجامعات. كما أنهم يشبهون زوجاً من طيور البطريق التي ستتعرف عليها أوروبا في غضون ما بين عشرة إلى خمسة عشر عاماً. لم يفهم فريدريك وفيلهلم حتى الآن

أي شيء مما يجري، وكانا يأملان في أن يتم توضيح سوء الفهم في المستقبل القريب. لم يرغب أرسيني في ثنيهم عن اعتقادهم هذا، ولم يرغب أمبروجو في ذلك أيضاً، ولكنه بالطبع، لم يستطع كذلك.

«يا حبّي»، قال أرسيني لأوستينا في الميناء، «ربما، من الممكن جداً أن تكون هنا نهاية طريقي. لكن ليس نهاية حبي لك. إذا كان لنا أن نتجاهل الجانب المحزن من القضية، يمكننا أن نفرح لأن طريقي ينتهي في مثل هذا الموقع الجميل - الذي يطل على البحر، وعلى جزيرة بعيدة وعلى كل جمال عالم الله. لكن الأهم من ذلك، أنا مسرور لأن ساعاتي الأخيرة تنقضي بالقرب من الرجل التقيّ سمعان، الذي تُحقق مسعاه، على العكس من مسعاي. أنا آسف، يا حبي، لأنني ما حققت سوى القليل، لكنني أعتقد اعتقاداً راسخاً أنه إذا أخذني المنعم إليه الآن، فإن كل ما لم أفعله أنا سيفعله هو. ومن دون هذا الإيمان لن يكون هناك أي معنى في الوجود - لا لك ولا لي».

كانت الشمس قد هبطت. ولفَّتْ الطريق من رصيف الميناء إلى الأفق. لم يكن ثمة أدنى شك في أنها على وشك أن تحط هناك، على أبعد نقطة. ضربت الشمس أرسيني مباشرة في عينيه، لكنه لم يضيّقهما. وضربت الشمس وجه الربان، الواقف على سطح القدّيس مرقس، فانتقل إلى الجانب الآخر من السفينة. من هذا الجانب، لاحظ كيف يُقذَف حبل بأنشوطة من خلال ركيزة رافعة الميناء.

- ينوون شنق شخص ما (قال الربان للواقفين على سطح السفينة). مَن يهمّه الأمر، يمكنه أن يشاهد الحالة.

كان الجميع مهتمّين، بما في ذلك المشاة. حدَّق الجميع بالناس الواقفين عند «الونش» (الرّافعة)، لا سيما بالشخص الذي وُضِعَت الأنشوطة في رقبته.

- أهذا أرسيني؟ (سأل الربان بشكل غير مؤكد). أرسيني!

التفت إلى الحشد الواقف على سطح السفينة، فأومأوا برؤوسهم.

- إنه أرسيني! (صاح الربان لأهل زارا. مسك بيده مكبر الصوت، وسمعه جميعُ مَن في الميناء). هذا الشخص تحت الحماية الشخصية لجيوفاني موتشينيغو، دوق البندقية، وكلّ من يرفع يده عليه سيتم إعدامه!

توقَّف سكان زارا. فقد عرفوا الربان والتفتوا نحو سفينة القدّيس مرقس ليتأكّدوا ممّا سمعوا، لكن الربان في هذه الأثناء كان يركض على سلَّم السفينة. نظر من متن السفينة المائة والعشرون من جنود المشاة كلهم الذين أنهكتهم لعبة النرد في ذلك الوقت.

- هل تسمعونني! (صاح الربان مرة أخرى وهو يمشي)، أي واحد يرفع يده عليه سيُعدَم!

ولكن الآن كفَّ سكان زارا عن رفع أيديهم على أرسيني. وحتى قبل أن تبدأ لديهم تخمينات بأن اتهاماتهم لم تكن صحيحة تماماً، لكانوا قد شنقوه على الأغلب بفعل قوة الاستمرار. لكنهم كانوا يريدون سبباً واحداً وإن كان تافهاً على الأقل لكي يتوقفوا عن تنفيذ فعلهم، وها قد عثروا عليه الآن. لقد تلاشى غضبهم فجأة كما نشب فجأة.

- سوف لن نقوم بشنق أي شخص بعد، (قال سكان زارا). كلامك وضَّحَ لنا الموقف وأزال كل التساؤلات.

وبعد أن وصل الربان راكضاً، رفع الأنشوطة عن رقبة أرسيني وأخرج الكمامة من فم أمبروجو.

- أنا وصديقي فيلهلم لم نفهم ما الذي يريدونه منا، (صاح الحاج فريدريخ، مخاطباً الجميع). نودّ أن نعرف ما هو جوهر ادعاءاتهم علينا ولماذا قرروا فجأة شنق أرسيني؟ لم نرَ في هذا الرجل، أي ذنب.

رد عليهم أرسيني بانحناءة امتنان. ضحك أمبروجو وقال:

- تذكرت أحد الرهبان الإيرلنديين الذي قال مازحاً أنَّ الأكثر أهمية من بين اللغات الشرقية هي اللغة الألمانية. تحولت نكتته إلى نبوءة: حسبوا كلامكم هنا على إنه كلام تركي.

وعلى متن سفينة القدّيس مرقس سأل أرسيني:

- أخبرني، يا أمبروجو، هل أخبرتك موهبتك بالتنبؤ بأننا سنتمكن من النجاة؟

- إنَّ أصعب شيء، يا أرسيني، أن تتنبأ بحياتك الخاصة، وهذا أمر جيد. وبالطبع كنت آمل بالنجاة. إن لم تكن في هذا العالم، ففي ذلك العالم.

-ن-

هدأت رياح سيروكو بعد يومين، ورفعت السفينة الأشرعة. وقف أرسيني على المتن الأيسر للسفينة، وقال لسمعان الصالح:

- المجد لك، يا شيخ. أعتقد أنه بصلواتك تمدَّد وقت انتظاري. لذلك، صلِّ مرة أخرى من أجل ألّا يكون انتظاري عبثاً.

كانت المدينتان الكبيرتان التاليتان على مسار السفينة هما سبالتو وراغوزا الجميلة. ولكن بما أنّ الرياح استمرت مواتية، فلم تمرّ السفينة بإحداها. إذْ إنَّ ربان سفينة القدّيس مرقس يثق بالماء أكثر بكثير مما يثق باليابسة، ولم يجنح إلى الشاطئ من دون حاجة ماسّة.

وعندما دخلوا لأول مرة إلى البحر الأبيض المتوسط، شعروا بتموّج قوي لأوّل مرة. طلب الربان من الضعفاء بالداخل البقاء بالقرب من جوانب السفينة، لأن رائحة ما يُنفَث أثناء التموج لا يزول بالتهوية لمدّة طويلة جداً. وعلى الرغم من خروجها إلى البحر الكبير، حاولت القدّيس مرقس عدم الابتعاد عن مرأى الشاطئ.

عند مدخل مرفأ جزيرة كورفو، تجاوزت السفينة بسلام الساحل الرملي الذي يعرفه كل من له صلة بالملاحة. وبعد أنْ وقفت على بعد نصف ميل من الجزيرة، تزوَّدوا بالماء العذب والمؤونة. وقد قام سكان الجزيرة بشحن ذلك كله إلى السفينة على عوّامات كبيرة وهم يصيحون. وشاهد أرسيني كيف حمل البحارة كل ذلك إلى عنبر السفينة. بالإضافة إلى الخُضَر، جُلِب 12 صندوقاً من الدجاج الحي إلى متن السفينة. وقد

تذوَّق الربّان شخصياً كلّاً من الماء والخضروات. وتأكَّد من الدجاج باللَّمس. وبعد أن شرب الربان نصف كوب من الماء المجلوب قال:

- المياه العذبة عديمة المذاق تماماً، ولكن المالحة، لأسفي الشديد، لا يمكن شربها.

وفي جزيرة كيفالونيا، حيث وصلت السفينة إلى المرسى، اشتروا ثلاثة ثيران للأكل في الطريق. وأثناء دفع الثيران إلى عنبر السفينة، رفع الثور أحد البحارة على قرنه. فحص أرسيني البحار ورأى أنه على الرغم من كثرة الدّم النازف، لم يكن جُرحه خطيراً. اخترق قرن الثور الأنسجة الرخوة من ردف البحار، لكن الأعضاء الحيوية لم تُمَس. وبسبب طبيعة الجرح، لم يعد البحار قادراً على التمدّد في الأرجوحة، فطرحه أرسيني على الصندوق الكبير في المطبخ. شكر الربّانُ أرسيني وقال للبحَّار أنّه ينبغي عليه من الآن وصاعداً النوم على بطنه. وقد عرف البحار هذا، لأنه ببساطة لم يستطع أن ينام بطريقة أخرى، ولكن بدوره شكر الربان. وقد أحبَّ أرسيني أجواء الرحلة.

يجب أن أقول إنَّ الربان قد أحبَّ أرسيني كثيراً. فبعد أن تمكّن الربان من إنقاذ أرسيني من الموت المحقَّق، أولاه رعايته فيما بعد أيضاً. وذات مرة، أثناء فراغه، تحدَّث الربان لأرسيني عن كيفية تكوّن المياه المالحة. واتضح أنها تحت تأثير أشعة الشمس الحارّة تتبخر ببساطة من الماء العادي في المحيط الاستوائي ومن هناك تنتشر إلى البحار الأخرى. التغييرات التي تتعرض لها المياه، مرئية بوضوح، على سبيل المثال، في بحيرة في مقاطعة إيكس بالقرب من آرل. فتحْتَ تأثير برد الشتاء، تتحول مياه هذه البحيرة إلى جليد، وتحت تأثير حرارة الصيف، بطبيعة الحال، تتحول إلى ملح. هذا يثبت أنه من المستحيل الإبحار حول الأرض، لأن المحيط الذي يحدّها في الشمال يتجمَّد، وفي الجنوب يتحوَّل إلى مِلح.

- إننا نبحر، في الحقيقة، في فجوة ضيقة بين الثلج والملح (أجمَلَ الربان كلامه).

شكر أرسيني الربان على المعلومات. وبالإضافة إلى امتنانه عن إنقاذه له، كان يحترمه بوصفه بحّاراً، ولتقييمه الصحيح لحدود قدراته.

في الطريق إلى كريت، عرَّف الربان الحاضرين بتاريخ اختطاف زيوس لأوربا. فاحتج الحاجَّان من براندنبورغ واتّهما الربان بالسذاجة. لم يولِ الربان اهتماماً لاعتراضاتهما، واستعرض أيضاً المعلومات المتاحة له عن المينوتور وعن ثيسيوس وعن خيوط أريادني. وحتى أنه لزيادة الإيضاح، أمر أحد البحارة أن يجلب شلّة (كرة) من الخيوط، وربطها بين الصواري وحبال الشراع، وحلَّها على سطح السفينة. رافق الحجاج هذه الأفعال بملاحظات متشائمة. ومع ذلك، استمر الربان في التحدث بلهجة هادئة وبشكل طبيعي، وكلُّ مَن يعرف القليلَ عن الناس، يرى بوضوح أنَّ أعصابه لم تكن متوتِّرة. قال الحاج فيلهلم، الذي لم يفهم الناس:

- هذه كلها خرافات وثنية، وفي وقتنا هذا من المخجل الإيمان بها.

ومن دون أن يقول كلمة واحدة، سحب الربانُ الحاجَ فيلهلم من بين ذراعيه وتقدم خطوة نحو متن السفينة. ولأن الحاج فيلهلم يرغب، ربما، بأن يعاني في المواجهة مع الوثنية، لم يُبدِ أدنى مقاومة. أما الباقون فكانوا بعيدين تقريباً من القبطان وببساطة لم يكن لديهم الوقت ليأتوا لمساعدة التعيس: فالمسافة من الربان، وهو يمسك الحاج بيده، إلى متن السفينة كانت في الأساس قليلة جداً. رأوا فيلهلم يطير عبر ظهر السفينة، لأن نوايا الربان كانت مكتوبة على وجهه ولم تشكّل سرّاً. ورأوا فيلهلم وهو يحوم فوق لُجَّة البحر. ورأى الجميع الدوَّامة تبتلعُه - بما فيهم أرسيني.

لكنه رأى ذلك قبل لحظة واحدة مما رآه الآخرون، وما كاد الربان أن يرفع الحاج فيلهلم فوق ظهر السفينة، حتى وقف أرسيني أمامه. تعلَّقَ بالحاج بكل قوته، وصدَّه عن رميه في البحر. لم تستمر طويلاً المعركة من أجل جسد فيلهلم، الذي ظل متمسكاً بموقفه السابق كمراقب محايد. لم يكن الربان رجلاً متعطّشاً للدماء، وعندما انحسر الغضب

الفوري، أطلق سراح الحاج فيلهلم. فالربّان لم يشعر في أعماق قلبه، بالشرّ تجاه الحاج.

«انظري، يا حبي، هذه المرة تمكنت من تحديد الوقت»، قال أرسيني لأوستينا، «وهذا يدل على أنَّ الزمن ليس له سلطان على كل شيء. لقد حددتُ الوقت قبل لحظة واحدة، ولكن هذه اللحظة كانت تعادل حياة بشرية كاملة».

بعد أن هدأ الربان، اقترح على الحاجَّيْن من براندنبورغ النزول إلى الشاطئ والذهاب معه إلى المتاهة، والتي، حسب قوله، لا تزال قائمة إلى الآن. رفض الحاجّان، معتبرين ذلك مضيعة للوقت، ولكن كان من بين أولئك الذين يقفون على سطح السفينة رجل، وهو الراهب جان من بيزانسون، الذي أكَّد وجود المتاهة.

قبل مدة من الزمن، عندما كان في جزيرة كريت، زار بمعية رهبان آخرين ذلك المكان. وحسب ما ذكر الراهب جان، إنَّ الصعوبات في المتاهة لم تتكوَّن فقط بسبب التعقيد والالتباس في كهوفها، بقدر ما تسبب بها الظلام، بحيث، عندما أطفأ خفاش طائر شمعة أحد الرهبان، تاه ذلك الراهب على الفور. ولم يُعثَر عليه لثلاثة أيام، وفقط بفضل السكان المحليين، الذين تكيفوا بشكل أو آخر مع المتاهة، عُثِر عليه في نهاية المطاف وقد أضناه الجوع والعطش والجنون المؤقت، الذي، بفضل الرعاية الجيدة، شُفي منه في وقت لاحق. إنَّ المتاهة نفسها لم تترك انطباعاً خاصاً على الراهب جان وكانت تُذكِّره بمقالع الحَجَر المهجورة.

وقد كرر الربان آنذاك مرة أخرى اقتراحه لحجاج براندنبورغ، لكنهم رفضوه مرة أخرى. وقال الحاجّان إنهما رأيا مقالع الحجر لمرات كثيرة، لأن الحياة لم تفعل شيئاً غير مواجهتهم لمقالع الحجر، ولكن لم يكن استخراج الحجر في أي مكان آخر مصحوباً بمثل تلك الخرافات.

وعندما وصلوا إلى جزيرة كريت، غادر المشاة السفينة. وفي رصيف الميناء استقبلتهم نسوة، لا يقل عددهن عن المائة والعشرين.

- أليست هذه النساء اللاتي رأيناهن في البندقية (سأل أمبروجو).

- نعم، هنّ يشبهنهنَّ جداً (أجاب أرسيني)، لكنهنَّ نساء أخريات. مختلفات تماماً. إنني في البندقية، فكرت في حقيقة أنه لا يوجد تكرار في العالـم: لا يوجد سوى شبه.

-هـ-

بعد جزيرة كريت حلَّت قبرص. وصلوا إلى قبرص في وقت متأخر من الليل ولم يذهبوا إلى الشاطئ. رأوا الخطوط العريضة للقمّة الجبلية وأعالي أشجار السرو. وسمعوا تغريد طيور غير معروفة، وقد وكَّرَ أحدُ الطيور على السارية. أحبَّ الطائر أنْ يغني متمايلاً.

- من أنت، أيها الطائر (سأله الربان مازحاً).

لم يعط الطير إجابة، وغرَّد. توقَّف لفترة وجيزة، لكي ينظِّف ريشه فحسب. وكان يراقب من فوق، كيف استُكمِلَ تجهيز إمدادات المياه والمواد الغذائية. وعندما بدأت الخطوط العريضة للجبال تنير، أبحرت سفينة القدّيس مرقس بعيداً.

ومنذ الصباح اشتدَّت حرارة الجو. لم يرغب المسافرون حتى في التفكير بما سيحدث خلال النهار. وقد أسرع الربان في الإبحار، معرباً عن أمله في أن يكون البحر أكثر برودة. ولكي يرفع معنويات الركاب من الاكتئاب بسبب الحرارة، تبادل معهم معلومات علمية طبيعية، والتي كان يتمتع بالكثير منها. نظر الربان إلى الشمس التي تتوهج في السماء، وتحدث عن المياه التي تغسل الجو وتبرد الكوكب. وقال إنه لا يشكّ في حقيقة أنّ هذه المياه كانت مالحة. وكان يعني بها، حسب تصوّراته، بحراً اعتيادياً، يقع، لأسباب معيَّنة، في قبّة السماء. وتساءل الرُبّان:

- وإلّا لماذا، قبل مدّة قصيرة، خرج الناس في إنكلترا من إحدى الكنائس، فوجدوا مرساة، هابطة بواسطة حبل من السماء، وبعد ذلك

سمعوا أصوات البحارة، الذين كانوا يحاولون رفع مرساة، وأخيراً عندما نزل أحد البحارة بحبل المرساة، مات، بعد أن وصل إلى الأرض مباشرة، وكأنه غرق في الماء؟ إنَّ عدم الوضوح هذا ينحسر فقط في ما إذا كانت المياه فوق السماء تتصل بالمياه التي نُبحِر بها. وتتوقف على الإجابة على هذا السؤال، إذا صح التعبير، سلامةُ الرِّحلة الطويلة، لأنه، بعد أن يصعد الربان، بسبب جهله، إلى البحر العلوي (جعَلَ يمسح العرق على جبينه) لا أحد يمكن له أن يضمن أنه مرة أخرى سوف يتمكن من الهبوط بالسفينة إلى البحر السفلي.

لكن الخطر كان أقرب بكثير في ذلك الصباح. كان يقع تحت قبة السماء، وصدر من البحر الذي قاد فيه الربان سفينة القدّيس مرقس لسنوات عديدة. فبعد الظهر، حلَّ الجو الخانق محل الحرارة. وهدأت الريح، وأشرعت الأشرعة على الصواري. اختفت الشمس في الضباب. وبعد أن فقدت سطوعها، امتدت في السماء كتلة ضخمة لا شكل لها. وظهرت في الأفق غيوم رصاصية اللون، والتي بدأت في الاقتراب بسرعة. وهبَّتْ من الشرق عاصفة بحرية.

أمرَ الربان بإزالة الأشرعة. إذ كان يأمل في أن تمر العاصفة جانباً، لكنه أدرك أنه في اللحظة الأخيرة لن يكون بالإمكان إنزال الأشرعة. يبدو أن الغيوم، في الواقع، لن تمر على السفينة، إذْ انحرفت كثيراً نحو الجنوب. وعلى الرغم من أن الرياح ارتفعت وظهرت على رؤوس الأمواج سحب مزبدة، إلا أن العاصفة نفسها نشبت إلى حد بعيد على الجانب الأيمن. هناك، في منتصف الطريق بين السفينة والأفق، أطلقت تلك الغيوم الرصاصية شعاعاً في البحر، وتحقق اتصال المياه، الذي تحدث عنه الربان. على الخلفية السوداء والزرقاء بين الحين والآخر كان يظهر البرق، لكن لم يكن هناك أي رعد، وهذا يعني أنه كان بعيداً جداً. إلى اليسار من ظهر السفينة، كانت السماء لا تزال منيرة. وقفت سفينة القدّيس مرقس على حافة العاصفة.

شعر أرسيني بالغثيان بسبب الاهتزاز الناشئ. فقام ببعض حركات البلع. وبعد أن انحنى على متن السفينة، لاحظ بلا مبالاة الدفق السائل النازل من حلقه. وقد ضاع الدفق في الأسفل، حيث استعرت مياه البحر. وحيث أزبدت الدوامات ودارت. وهاجت الأمواج بعنفوان. وأحسَّ بكتلة كبيرة من الماء من خلفه. وحتى من دون أن يراها، أحسَّ بحركتها البطيئة، كما يحس المرء بالقاتل يقترب منه من الخلف. كانت هذه أول موجة كبيرة ارتفعت (أمبروجو رفع رأسه) في المؤخّرة. توقَّفت الموجة (حاول أمبروجو أن يقوم بخطوة تجاه أرسيني) عند سطح السفينة وهبطت (حاول أمبروجو أن يصرخ) على ظهر أرسيني، بعد أن اقتلعَته بسهولة من حاجز السُلَّم وسحبته إلى أسفل.

مالَ أمبروجو على حاجز السلَّم. لا شيء هناك غير الماء. ومن خلال الماء، يظهر وجه أرسيني تدريجياً. بعد أن غطس في الماء، يضيء شعره بهالة متموِّجة. ينظر أرسيني إلى أمبروجو. ويركض الربان وعددٌ من البحَّارة إلى أمبروجو. أمبروجو يجلس فوق حاجز السلَّم، يرمي رجله الثانية ويندفع. يعُبُّ الهواء وهو يهوي. أرسيني ينظر إلى أمبروجو. الربان والبحارة ما زالوا يركضون. تغطي الموجة أمبروجو. إنه يرتفع إلى سطح الماء ويعبُّ الهواء مرة أخرى. لا يُرى أثر لأرسيني. يغطس أمبروجو. من الأعماق الرصاصية اللون ترتفع تجاهه ببطء فكرة مفادها أن البحر كبير وأنه لا يمكن العثور على أرسيني. وأنه سيجده إذا ما غرق. آنذاك فقط سيكون لديه الوقت للبحث عنه. يُثنيه عن هذه الفكرة الخوف من الغرق. الخوف يقيِّد حركاته. أمبروجو يرتفع إلى السطح ويستنشق. يغطس. يتلمَّس بيده السطح الزلق لجانب السفينة. يتنفس، ثم يغطس. يلمس بيده يد أرسيني. إنه يتشبث بها بقوته كلها. يغطس إلى الأسفل ويرفع رأس أرسيني فوق الماء. يرمي البحارة إليهما من الأعلى بجذع مربوط بحبل. أرسيني يمسك الجذع ويبدؤون في سحبه من الأعلى. أرسيني ينهار. يساعده أمبروجو على أن يمسك بالجذع مرة أخرى.

الجذع ينزلق من أيدي أرسيني. يُرمى من متن السفينة جذع مربوط إلى سلَّم من الحبال. يضع أمبروجو السلَّم على أقدام أرسيني بطريقة الأرجوحة. أرسيني يمسك بالحبال. أمبروجو يحتضن أرسيني بإحدى يديه، ويمسك السلم باليد الأخرى. عشرة أزواج من الأيدي تسحبهما. إنهما يتأرجحان فوق الماء. إذا ضُربا بجانب السفينة، فسوف يتكسران (لم يعودا خائفين). ينظر إليهما البحارة بعيون حزينة. تتدحرج من جانب السفينة موجة (بقايا المياه تصب من الطحالب والأصداف الخارجة)، وتجرف معها البحر كله. السلَّم معلق فوق الهاوية. الموجة التالية تبتلع ظهر السفينة بأكمله، لتصل إلى أمبروجو وأرسيني إلى الخصر. نصف السماء لا يزال خالياً من الغيوم. يُسحبان إلى سطح السفينة.

هاج البحر، لكنَّ ذلك لم يكن عاصفةً بَعد. من الواضح أنَّ العاصفة، بعد أن اتجهت في بداية الأمر إلى الجنوب، قد غيَّرتْ مسارها. راقب الربان بصمت تحرُّك السُّحُب الرصاصية نحو سفينة القدّيس مرقس. كانت هذه الحركة بطيئة ولكنها ثابتة. أصبح الجزء المضيء من السماء أصغر، وبدأت الومضات البعيدة من البرق تترافق بالرعد.

حلَّ الظلام. لكنه لا يشبه ظلام الليل، لأنَّ في ظلام الليل ثمة سكينة. إنها عتمة مثيرة للقلق التهمت الضوء على الرغم من التبدل الثابت للنهار والليل. ولم يكن على شاكلةٍ واحدة، فقد تصاعد بعد أن تكثَّف وانتشر تبعاً لكثافة الغيوم، وكانت حدوده في أقصى الأفق، حيث ما زال يشرق قِطّاعٌ رقيقٌ من السماء.

اقتيد أرسيني وأمبروجو إلى عنبر السفينة. وقبل أنْ ينزل أرسيني، استدار. وكأنه بعد أن لاحظ حركته، ضربَ البرق، ودوّى الرعد، بقوة لم يسمع مثلها من قبل. بهذا الصوت انشقّت قبّة السماء، وامتدّ شرخ خط البرق على شكل عِرق فيه عدد لا يحصى من الفروع. ومن هذا الشرخ انهمر الماء. ربما، كانت تلك مياه البحر العالي.

نفثت مياه البحر حتى من أرسيني - إلى أن خرجت كلها. ألقيَ هو

وأمبروجو من الأراجيح الشبكية وتدحرجا على الأرض. كلاهما في حالة شبه إغماء. انطفأت الشمعة بعد ما انقلبت. تقيّأ أرسيني، ولكن لم يكن ثمة شيء في جوفه حتى يخرج منه، لم تخرج مِن فِيْهِ إلا عصارةٌ الصَّفراء. فكَّر أنّه إذا ما غرقت السفينة، على الأقل سيتوقف التقيؤ. فهناك، في الأسفل ستشمله سكينة البحر الباردة.

شعر أرسيني في عنبر السفينة بالظلام والاختناق. اجتمعت اثنتان من الكوارث وفاقما من حدّة بعضهما البعض؛ ظلامٌ خانق، واختناق مظلم. كانا جوهراً واحداً غير قابل للتجزئة. بدا لأرسيني أنه يحتضر. وسوف يموت على الفور إن لم يستنشق الهواء. لم يكن أمبروجو يراه. وقد وجد عن طريق اللمس الباب المؤدي نحو الدرج إلى سطح السفينة. دفع الباب. فتزحلق على الدرج. زحف عليه برجليه ويديه. وانزلق من جديد وزحف مرة أخرى. ضربته العوارض. فزحف حتى وصل إلى الباب المؤدّي إلى سطح السفينة وفتحه. فاكتوى بالإعصار.

صرخ، من روعِ ما رآه، ولم يسمع صراخه. لم يُرِعْهُ الموتُ الذي يتوعَّده، بل حجمُ الكارثة. انتزع الإعصار صرخة أرسيني من شفتيه وحملها على الفور لمسافة مائة ميل. هذه الصرخة لا يمكن أن تصدح إلا هناك، حيث لا يزال ثمة شريط من السماء الصافية. لكن هذا الشريط الضيق كان لونه وردياً، إذ أصبح من الواضح أنَّ الليل هبط وأن الشريط الأخير من السماء سيختفي. فصرخ أرسيني مرة أخرى، لأن الظلمة العامة القادمة تحمل معها اليأس.

ضربت الموجات على جانب السفينة، واهتزّ كل شيء في السفينة، وبعد كل ضربة يندهش أرسيني أنها لا تزال سالمة. فالموجات الكبيرة تارة تدفع السفينة إلى الأمام، وتارة تنسل من تحتها. كانت السفينة تتمايل على الجوانب، بشكل أخرق، وتنحني جانبياً للأمواج، التي تكاد تلامس قمم الصواري فيها. وكانت تدور في الدوامات وتقفز وتغوص.

كان أرسيني لا يزال يقف في المدخل. شقّ اثنان من البحارة طريقهما

من جنبه على سطح السفينة. كانا يمشيان وهما شبه منحنيين ويفرجان ساقيهما بشكل واسع. وينشران أيديهما، مثلما تُنشران للاحتضان. قاما بسحب حبل من الصارية إلى متن السفينة، محاولَين جرِّه، وكانا نفسيهما مربوطَين إلى الصارية بحبال. وبين الحين والآخر ينزلقان ويسقطان على ركبتيهما. كان عملهُما غير المفهوم لأرسيني يشبه الرقص أو الصلاة. ربما، كانا، في الحقيقة، يُصَلِّيان.

رأى أرسيني كيف مرَّتْ موجةٌ رغويّة كبيرة على جانب السفينة الأيسر. وعلى الرغم من الظلام، كانت الموجة واضحةً للعيان، وصبَّت قمّتُها في ضوء لا يُعرَف من أين أتى. هذا الوميض هو الأكثر رعباً. كانت الموجة أعلى من سطح السفينة بكثير. بدت السفينة صغيرةً بالمقارنة مع الموجة، بل حتى بدت وكأنها لعبة تقريباً. صرخ أرسيني بصمت على البحّارَيْن لإنقاذ نفسَيهما، لكنهما استمرّا في حركتهما الغريبة. جعلتهما القلنسوتان اللّتان على رأسَيهما يشبهان المخلوقات العجيبة المذكورة في كتاب الإسكندرية. وقد امتدت الحبال خلفهما كالذيول.

لم تضرب الموجة السفينة، ولكنها سحقتها تحتها واكتسحتها. وقذفت أرسيني إلى الأسفل، ولم يعد يرى ما كان يحدث على سطح السفينة. عندما عاد إلى وعيه، حاول أن ينهض مرة أخرى إلى المخرج نحو الأعلى. وقف الربان في الباب. كان يصلّي. وكان سطح السفينة فارغاً. لم يعد موجوداً الكثير مما رآه أرسيني من قبل من هذا المكان. المَدافع، حاجز السُلَّم، الصواري. لم يعد هناك البحّاران اللذان كانا يجرّان الحبل. أراد أرسيني أن يسأل الربان إن كانا قد تمكَّنا من الفرار، لكنه لم يسأل. شعر الربان بوجوده واستدار نحوه. وصاح بشيء ما لأرسيني. لم يسمع أرسيني الكلمات. انحنى الربان على أذن أرسيني وصرخ:

- هل رأيت القدّيس هيرمان؟

هزَّ أرسيني رأسه نافياً.

- أما أنا فقد رأيته (ضغط الربان رأس أرسيني إلى رأسه). وأعتقدُ أننا سننجو بصلواته.

ما توقفت العاصفة، بل قلَّت شدتها. إذ كانت السفينة لا تزال تتمايل من جانب إلى آخر، لكنَّ الرعب زال الآن. ربما، مع حلول الليل، اختفى الضوء الأخير ولم يكن بالإمكان رؤية الموجات الكبيرة. الآن لم تعد السفينة تواجه القوى الخارقة، بل كانت جزءاً منها.

-و-

عندما خرج أرسيني في صباح اليوم التالي إلى سطح السفينة، كانت الشمس تتوهج في السماء الصافية. ويهبُّ نسيم خفيف. كُسِرت اثنتان من الصواري الثلاث، وكل ما كان على سطح السفينة، إما جُرِفَ أو التوى وتعوَّج. والبحارة والحجاج يُنشدون صلاة جنائزية. وقد امتلأت أيديهم ووجوههم بالخدوش والكدمات.

لم يرَ أرسيني بعض الوجوه المألوفة. لم يكن يعرف أسماء البحَّارة القتلى ولم يسمع منهم الكثير خلال حياتهم، سوى جملة أو جملتين، وتحية بسيطة، لكن غيابهم كان صعباً. وأدرك أنه من الآن فصاعداً سوف يُحرَم من تحيّاتهم إلى الأبد.

- إلى الأبد (همس أرسيني).

تذكّر حركاتهم الراقصة الأخيرة. فتصوَّر البحَّارة عائمين الآن في مياه البحر. في هذه السَّماكة من الماء الذي جعلتهم غير مبالين بأي عواصف.

بعد الصلاة، قال الربان لجمع المتواجدين على سطح السفينة:

- في هذه الليلة رأيت القدّيس هيرمان سبع مرات. ظهر، كالمعتاد، في شكل لهب شمعة، الذي يمكن تحديده، عند وجود الرغبة، كنجمة واضحة. وهذا اللهب مرةً شديد السطوع ومرةً يكون خافتاً، وحجمه بمقدار نصف الصارية، دائماً على منصة مرتفعة. إذا أردت أن تأخذه، على سبيل المثال، فإنه يبتعد، ولكن إذا قرأت الصلاة الربيّة **أبانا الذي في السموات** في صمت، يبقى في مكانه لمدة ربع ساعة، بحد أقصى نصف

ساعة، وبعد ظهوره في كل مرة تصبح الرياح أكثر هدوءاً والأمواج أقلّ. وعندما تسير السفن على شكل قافلة، تبقى سالمةً السفينةُ التي ظهر لها القدّيس هيرمان، والتي لا تراه تغرق أو تتحطم. إذا ما ظهرت شمعتان، وهو أمر نادر الحدوث، فستهلك السفينة بالتأكيد، لأن الشمعتين ليس من جوهر ظهور القدّيس، بل شبح.

- وهذا ناشئ، (قال الحاج فيلهلم)، من كون الشياطين لا تظهر أبداً في صورة واحدة، بل دائماً في صور متعددة.

- كل ما هو ربّانيٌّ وحقيقيٌّ أحاديّ (قال الحاج فريدريخ)، وكل ما هو شيطانيٌّ ومصطنع متعدّد.

لم يعد حجاج براندنبورغ يتجادلون مع الربان، وكان هو سعيداً بذلك.

نظر أمبروجو متأمّلاً إلى الشمال. رأى عاصفةً في البحر الأبيض في 1 أكتوبر 1865. كانت باخرة دير سولوفيتسكي فيرا تسير من جزيرة أنزر إلى جزيرة سولوفيتسكي الكبرى. تنقل الحجاج من فولوتشوك العليا. سقطت القوارب من الجانبين، وفي عنبر الباخرة تعطلت مضخّة ضخ المياه. طوَّحت السفينة مثل شظيّة، فتقيّأ الحُجَّاج. العاصفة كانت مذهلة لأنها حدثت في ظرف رؤية كاملة. هبت رياح عاصفة، لكن من دون سُحُب ولا مطر. وعلى الجانب الأيمن لاحت جزيرة سولوفيتسكي الكبرى كنقطة بيضاء متلألئة. سأل أحد الحجاج القبطان:

- لماذا لا نذهب مباشرة إلى الجزيرة؟

أشار القبطان، من دون أن يحوّل بصره عن عجلة القيادة، أنه لا يسمع المتحدث.

- لماذا نترك الجزيرة بدلاً من الذهاب إليها (صاح الحاجّ في أذن القبطان).

- لأننا نسير باتجاه الريح (أجاب القبطان). وبخلاف ذلك، سوف نتحطَّم بالموجة الجانبية.

رفرفت اللحية الطويلة لكابتن السفينة فيرا بالرياح.

كان الفريق، الذي يتألف من رهبان دير سولوفيتسكي، هادئاً. إنه هدوء أولئك الذين لا يعرفون حتى السباحة. فالبحَّارة في البحر الأبيض[8] عادةً لا يعرفون كيفيّة السباحة. نعم، إنهم لا يحتاجون إليها. مياه البحر الأبيض باردةٌ جداً لدرجة أنَّ المرء لا يستطيع تحمُّلها أكثر من بضع دقائق.

مسح ربان سفينة القدّيسِ مرقس دموعَه بسرعة، لأنه حزن بشدّة على البحَّارة القتلى. شكر الربّانُ الله والقدّيس هيرمان لأنه بقي على قيد الحياة. كان يقف على سطح السفينة الذي غمرته أشعة الشمس، ينظر بإعجاب لطول ظل الصباح وحدّته. شمَّ رائحة الخشب الجاف. انتابته الرغبة في أن يسقط على ألواح سطح السفينة، ويستلقي عليها ويشعر بخشونتها على خده، لكنه لم يفعلْ. بوصفه ربّاناً كان عليه أن يمتلك مشاعره. فالربان لا ينبغي له أن يكون عاطفياً على الإطلاق، فكَّر مع نفسه، وإلا فإن الفريق سيثور. قرَّر قيادة السفينة إلى أقرب شاطئ بالشراع الوحيد المتبقي. لم يكن لدى الربان أيُّ خيارٍ آخر. وبعد يوم من الإبحار الهادئ، وصلت سفينة القدّيس مرقس، مطليَّةً كلها بشمس المساء، إلى ميناء يافا.

8- البحر الأبيض – بحر داخلي في شمال الجزء الأوروبي من روسيا، وهو خليج في المحيط المتجمّد الشمالي، وهو من أصغر البحار الروسية (مساحته نحو 80 ألف كم2). كامل البحر يقع في الأراضي الروسية – المترجم.

-ي-

إنّه الشرق. هذا هو الشرق، الذي سمع عنه أرسيني الكثير، ولكن ليس لديه فكرة واضحة عنه. شاهد في بسكوف بضائع من الشرق. وفي بسكوف رأى حتى بشراً شرقيِّين، ولكن هؤلاء الناس تأقلموا هناك مع طريقة الحياة الروسية الشمالية، الرصينة والهادئة. في بسكوف كان الناس الشرقيُّون وديعين وأنيقين. وكانوا يتحدثون بأصوات منخفضة ويبتسمون بغموض. كانت تصاحبهم رائحة الأعشاب غير الروسية والبخور. لكن في يافا، تبين أنهم مختلفون تماماً.

أهالي يافا، الذين التفُّوا حول الحُجّاج وهم في الغالب من العرب، كانوا صاخبين وذوي حناجر بارزة وأيديهم كثيرة الحركة. وكانوا بين حين وآخر يمسكون بأولئك الذين جاؤوا من ملابسهم، محاولين جذب انتباههم. وكانوا يضربون أنفسهم في الصدر، فاتحين ثيابهم الفضفاضة المُخَرَّقة. ويمسحون بأكمامهم الملوَّثة بالدُّهن جباهَهم ورقابَهم التي تفوح منها رائحة العرق.

- ماذا يريد هؤلاء الناس (سأل أرسيني أمبروجو).

هزَّ أمبروجو كتفيه:

- أعتقد الشيء نفسه الذي يريده أي شخص آخر - المال.

قاد أحدُ العرب ناقةً إلى أرسيني وحاول أن يضع زمام الناقة في يده. عَصَرَ بكلتا يديه أصابع أرسيني، ومع هذا انسلَّ الزِّمام، لأن أرسيني لم يمسك به. أشار العربي بأصابعه إلى سِعر الناقة. مع كلِّ رفع لليد، انخفض عدد الأصابع. نظر أرسيني إلى الحيوان المدهش، ونظَرَ الحيوانُ إلى

أرسيني – من مكان ما في الأعلى. يا لها من نظرة متغطرسة يمتلكها هذا المخلوق، فكَّر أرسيني مع نفسه. ضربَ العربيُّ صدرَه ووضع في نهاية المطاف الزمام في يد أرسيني، وتظاهر بأَنَّهُ غادَر.

سحب أرسيني الزمام لسبب ما، ونظر إلى الناقة بتأمُّل. كانت بطبعها تختلف عن مالكها، الذي يبدو عليه التعب. نظر الحيوان إلى اختفاء العربيِّ المفاجئ على أنَّه خير ولم ينظر في اتجاه الرّاحل. وبعد أنْ رأى العربيُّ حركة يد أرسيني، جاء العربي قرب الناقة مرة أخرى وأشار من جديد إلى سعرها. وعادت الأصابع المثنية كلها إلى مكانها، فتبسَّم أرسيني. فكَّر العربي وابتسم أيضاً. وكشَّرت الناقة كذلك عن أسنانها. على الرغم من ظروف الحياة الصعبة، فقد عرفوا جميعاً كيف يجدون سبباً للابتسامة.

كانت الحياة في يافا صعبةً للغاية. إذ حوَّل المماليكُ المدينةَ قبل قرنين من الزمن إلى كومةٍ من الحطام، وبقيت هكذا ولم تتمكن من النهوض من جديد. عاشت المدينة عيشة شبحية، تكاد تكون من عالم الغيب على حساب عدد قليل من السفن، التي ترسو لأسباب مختلفة على بقايا مينائها. كلا، لم تكن يافا مدينة ميتة. فبعد قضاء يومين فيها، لاحظ أرسيني وأمبروجو أنَّ في الأماسي حتى في هذه المدينة ثمة حياة فيها حوادث وشغف. ووجدا أيضاً أنَّ التأمُّل لم يكن غريباً على سُكّان يافا، الذين أثاروا إعجابَهُما بنشاطهم منذ الليلة الأولى.

هذا التأمُّل هو الذي حدَّد حياة أهالي يافا في ساعات النهار. إذ كان هؤلاء الناس يقضون ساعات النهار القائظ في أفنية المنازل الطينية، يلتمسون بأجسادهم المتراخية نسيم البحر العليل. كانوا يستلقون على حواجز الميناء المكسَّرة ويراقبون كيف تدخل في الخَوْر مراكب الصيد والسفن (التي نادراً ما تأتي). في بعض الأحيان يُساعدون على تفريغها. ولكن في المساء فقط كان سكان يافا نشيطين وحركين. فما تراكَمَ لديهم من قوّة ودفء خلال النهار، يسكبونه على بعضهم البعض وعلى

الوافدين. إذ إنَّ جميع المبيعات والتبادلات والعقود والقتل تجري في غضون الساعتين اللتين تسبقان غروب الشمس.

ففي وقت ما قبل الغروب من اليوم التالي تمكن أرسيني وأمبروجو وغيرهما من الحُجَّاج من التوصل إلى اتفاق مع العرب على السفر إلى القدس. فقد عُرِضَ على المسافرين أن يدفعوا نصف دوكات (نصف قطعة ذهبية) مقابل استئجار جمل أو حمار حسب اختيارهم. أراد الكثيرون، بمن فيهم أرسيني وأمبروجو، السير على الأقدام، لكن قيل لهم إنهم سيتأخَّرون عن القافلة.

- عادةً ما تتحرك القافلة ببطء؟ (قال أمبروجو للعرب من خلال مترجم).

- عادة، ولكن ليس الآن (ردَّ العرب). ستصل إلى مكانك قبل أن يرتدَّ إليكَ طرْفُك.

كان من الواضح أنّ اقتراح استئجار الحمير والجمال لا يخضع للمناقشة. ولأن أمبروجو وأرسيني تذكَّرا حمارَي الراهب هوغو، فقد اختارا جَمَلَين. وقرَّر فريدريخ وفيلهلم ركوب الحمير.

قبل توجّه القافلة كان لا يزال بعض الوقت، ولكن الحجاج لم يعودوا إلى المدينة وبقوا في الميناء. بعضهم نام، مستلقياً على الأحجار التي سخنت خلال النهار. والآخرون كانوا يتحدثون أو يصلحون ملابسهم التي تهرَّأت أثناء السفر. وبعد أن أخرج أمبروجو المصباح، أدرج فيه الماسات. فقد وصل بالفعل إلى الأرض المقدّسة وقرَّرَ أنْ يعيد إلى المصباح جمالَه الأصليّ. وضعَ كلَّ واحدٍ من الأحجار الكريمة الستة في قاع الشق وضغط عليه بلسان التعشيق، كما أراه الحاكم غافريل.

لاحظ عملَ أمبروجو بصمت العربُ الذين استأجرهم الحجاج لحماية القافلة. طلب الحرّاس من كل واحد دوكات ونصف (قطعة من الذهب ونصف)، وقد بدا هذا المبلغ للحجاج كبيراً، لأن الطريق إلى القدس لم يكن بعيداً.

- الطريق ليس بعيداً، لكنه خطير (اعترضَ العرب). هنا الموت في كل مكان. وعليك أن تدفع مقابل حياتك.

-أ-

لا يُركَب الجملُ كما يُركَب الحصان. عندما ساعد العرب أرسيني على الركوب، أجبروا الجمل على أنْ يُنيخ. فوجئ أرسيني بقدرة الحيوان على البروك على ركبتيه، وجلس بين السنامين. عندما نهض الجمل، كاد أرسيني أن يسقط على الأرض. فأول ما تنهض لدى الجمل قائمتاه الخلفيّتان لهذا يُقذَف الراكبُ إلى الأمام. وبعد أنْ نهض الجمل، نظر بِأسى إلى أرسيني. لماذا شعر بالحزن وبماذا استشعر؟

تحركت القافلة عند الفجر. وعلى الرغم من وعود العرب، سارت القافلة على مهلٍ. عكست وجوهُ الحجاج جميع ألوان الصحراء المشرقة. فقد ارتفعت الشمس بسرعة مذهلة، وبالسرعة نفسها استُبدِلَت البرودة بالحرارة. وتغطَّت وجوه الحجاج بالعَرَق والغبار من حوافر الخيول العربية التي سارت أمام القافلة.

بعد ساعتين من المسير طالب العرب بأن يُضافُ لهم بَعْدُ عن كلّ شخصٍ دوكات واحد. وفسَّروا ذلك بحقيقة أنهم رأوا مفرزة من المماليك على مسافة، وأنّ الحماية ضد المماليك تكلّف مبلغاً إضافياً. وبينما كانوا يساومون معهم، جرى أحدُ العرب إلى الأمام، قائلاً إنه سيفحص الطريق. وقد أضيفَ للعرب دوكات آخر عن كل واحد.

كان العرب من وقت إلى آخر يتخلَّفون وراء القافلة يتشاورون حول شيء ما. إنَّ سلوكهم، إلى جانب رؤية مفرزة من المماليك، قد أزعج الحاجَّين من براندنبورغ، فأصرا على العودة إلى يافا. رفض العرب

العودة، أما ما يخص المماليك، فقد سارعوا إلى التسليم بأنهم سراب، وهذا السراب غالباً ما يلاحق المسافرين في الصحراء. ثم بدأ حجاج براندنبورغ وبعدهم آخرون في المطالبة باستعادة الدوكات الإضافية التي أُعطِيَت للمرافقين، لكن العرب رفضوا أيضاً إعادتها.

- لدي إحساس ثقيل (قال أمبروجو)، لكنني لا أستطيع أن أقول أي شيء محدَّد حول مستقبلنا، لأن حوادثه تكمن قريبة جداً. لا ينبغي لنا أن ننتظر طريقاً سهلة، ولم يعدْنا أحدٌ بذلك، ولم يحدث ذلك معنا من قبل. إننا نقترب من المدينة المقدَّسة، والمقاومة لطريقنا تتضاعف ثلاث مرات.

- سيكون من المهين عدم دخول المدينة، التي تقع على مسافة نصف يوم (قال الحاج فريدريخ).

- أُعْطِيَ موسى الفرصةَ لرؤية أرض الميعاد من بعيد، لكن لم يُعطَها لدخولها (اعترض الحاج فيلهلم).

- وهل فينا أحدٌ يشبه موسى (سأل الحاج فريدريخ).

- قال أمبروجو: إن كل من يبحث عن أرض ميعاده هو مثل موسى. أليس كذلك، يا أخ أرسيني؟

نظر أرسيني بصمت إلى أمبروجو، وبدا له أن رأس أمبروجو قد ارتفع فوق جسده. كان الرأس لا يزال يتحدّث، لكنه لم يعد ينتمي إلى الجسد بشكل واضح. غطت جسد أمبروجو غشاوة خافتة. في البداية بدت شبه شفافة، ثم ذابت تماماً. كانت أجساد الآخرين لا تزال تظهر من خلال ذلك الخفوت، ولكن مستقبلها لم يكن واضحاً. كما أنَّ تلك الأجساد بدأت تتأرجح، وتُبدي تدريجياً، مثل جسد أمبروجو، خصائصها الشفافة. خاف أرسيني من أنه سيفقد وعيه الآن. لكنه لم يفقده.

أصبحت حركة القافلة أبطأ مما كانت عليه. ذرَّت الرياح الساخنة الرمال في عيون السائرين. كانت الجمال تتوقّف بين حينٍ وآخر لتمضغ

الأشواك، والحمير تتوقف دون سبب واضح. صارت السماء الآن صفراء كالأرض، لأنّ كلّ فضائها شَغلتْه الشمس. كانت العيون تدمع بسبب الشمس والرمال، لكن الدموع تجفّ على الرموش، قبل أن تسقط على الخدود. ولهذا السبب تصوَّر الحجاج كتلة الشمس والرمال مَفْرَزَةً من المماليك.

في البداية كان لا يمكن تمييزها حقاً عن وهج الشمس أو الدوّامات الترابية، وكانت تتحرك، على ما يبدو، بصورة عشوائية. لكن هذا الظاهر فقط. هذه الدوامة وصلت مباشرة إلى القافلة. فقد عَدَتْ خيولُ حكّام فلسطين المصريِّين بأقصى سرعة، ويبدو أنهم يعرفون عمَّا يبحثون. عندما اقترب المماليك، لاحظ الحجاج من بينهم العربيَّ الذي ذهب يتفحَّص الطريق. أحاط الفرسان بالقافلة.

كان المماليك يرتدون جلابيب حمراء محشوَّة بالصوف وعلى رؤوسهم عمائمُ صفراء. هذه الملابس حمت المماليك من أشعة الشمس، لكن من الواضح أنها لم تحمِهم من الحرارة. فقد كانت رائحة جلابيبهم النتنة تفوح حتى في الهواء الطلق. استنشق هذه الرائحة النتنة الحُجَّاج الذين طوقهم المماليك. تجمَّع العربُ بعيداً وراقبوا ما كان يحدث وهم يبتسمون. لم يقوموا بأي محاولة للتدخُّل.

زعيم المماليك - ميَّزه حزامٌ مطرَّزٌ بالذهب - أمر جميع الحجاج بالترجُّل. استطاع أن يفعل على الفور أولئك الذين ركبوا الحمير فقط، أما البقية فلم تكن المسألة بسيطة بالنسبة إليهم. حاول الراهب جان من بيزانسون، الذي كان يركب على جمل، النزول إلى الأرض، لكنه لم ينجح في ذلك. إذ تعلّق، متمسكاً بسنام الجمل. خشي الراهب جان أن يقفز، وبقيت ساقاه تتأرجحان في الهواء من دون حول ولا قوة. فضحك المماليك والعرب بصوتٍ عالٍ. ضرب أحد المماليك الراهب بسوطه على يديه، فسقط على الأرض. وأرغى الجمل من وقْع المفاجأة. وبدأ يضرب بقائمتيه الأماميتين وسقطَ بِخُفِّه على رأس الراهب جان الذي

كان ممدَّداً على الأرض. فأثار هذا المشهد موجةً جديدة من الضحك. وحده زعيم المماليك بالكاد لاحت منه ابتسامة خفيفة. ربما، لم يسمح له وضعه الاجتماعي بالضحك ملء فمه. كان الأخ جان، كالسكران، يبحث بيديه في التراب. وسرعان ما تشرَّب شعره الشائب بالدم.

جاء أصحاب الجمال إليها. وقاموا بضرب الجمال بالعصي على قوائمها، فأناخت على ركبها. نزل الحجاج بصعوبة من الجمال، وهم يمرِّنون أرجلَهم المنمِّلة. اقترب أرسيني من الأخ جان، لكنّ أحدهم وجَّه إليه ضربة بقبضته. شعر أرسيني بأنفه يرعف دماً. واصل الراهب المفجوع حركاته الغريبة. وعندما حاول النهوض، بدا وكأنه خنفساء سقطت على ظهرها. كان مسلّياً بالفعل للفرسان، لهذا لن يسمحوا لأحد أن يوقِف التَّسلية.

نظر أرسيني إلى رئيس المماليك، وشعر بالخوف. تحوَّلت ابتسامة المملوكي إلى تكشيرة. هذه التكشيرة لم تعبِّر لا عن ضحكة أو كراهية ولا حتى عن ازدراء. إذ نبض فيها، على إيقاع الوريد المتضخم في صدغه، شغفُ الصيَّاد الجامح بضحيته. فالقطُّ حتى عندما يكون شبعاناً يهجم على طائر مكسور الجناح، لأنَّ القطَّ مجبولٌ على ذلك، شأنه شأن جميع الأجيال السابقة له، ولأن الطير يتصرّف على أنَّه ضحية، وحلاوة التنكيل بالضحية عند الصيَّاد أقوى من الجوع وأكثر إلحاحاً من الشهوة.

أطلق رئيس المماليك صرخةً شبقيّة ولوَّح بيده، فاهتزَّ الرمح في صدر الراهب جان. تمسَّك الراهب جان بالرمح حتى لا يهتز ويكسر ضلوعه، ثم انقلب مع الرمح على جنبه. لقد صرخ هو أيضاً، وصرخته هذه أوصلت المملوك إلى النشوة. مدَّ المملوك يده، فناولوه رمحاً آخر، رماه وأطلق صرخة من جديد، فسقط الأخ جان على جنبه. بدأ الراهب يصرخ ويبحث في التراب، فمدَّ المملوك يده مرة أخرى، ومرة أخرى رمى الرمح، فسقط في ظهره. هذه المرة، لم يصرخ الأخ جان. فقد اختلج وأسلم روحه. وبدا لأرسيني أنَّ وجه الضحية كان وجه أمبروجو.

بدؤوا تفتيشَ الحُجّاج. فبعد مقتل الأخ جان، لم يجرؤ أحد على الاحتجاج. تفرَّق المماليك إلى أزواج واقتادوا الحُجّاج جانباً واحداً تلوَ الآخر. ثُمَّ طُلِبَ من الذين جرى تفتيشُهم الذهاب إلى بداية القافلة. بدا من الطريقة التي تعامل بها المماليك، أنهم أصحاب عادة وخبرة في هذا المجال. قاموا بالتفتيش أولاً في الحقائب، ثم انتقلوا إلى تفتيش الأجسام. كان المماليك يعرفون جيداً أين يُحتَفَظ بالنقود. لذا فتحوا بطانات الأكياس والحقائب وطبقاتها، ثم تحولوا إلى أطراف الأكمام ومزقوا نِعال الأحذية. لم تكن النقود في العصور الوسطى ورقية، وكان من الصعب للغاية إخفاؤها.

جاء دور أرسيني. أخذ المماليك منه المال فقط، الذي سقط من البطانة في حركة واحدة من السكين. أما ما يكمن في حقيبة الطريق، فلم يكونوا مهتمّين به. أشاروا إلى أرسيني أن يتقدم مع جمله. لم يتحرك أرسني، لأنه رأى رأس أمبروجو المقطوع على الأرض. كانت عينا الرأس تركزان النظر على أرسيني. وقد بدا لسانه من فمه نصف المفتوح. والدم ينزف من منخريه. دفعوا أرسيني إلى الأمام بركلة. قام أرسيني بعدة خطوات متردِّدة. ومشى إلى الأمام، وهو ينظر إلى خلفه. لا يقدر أن يرفع بصرَه عن رأس أمبروجو.

بعد أن تفرَّغَ اثنان من المماليك اقتادوا أمبروجو جانباً. أجبروه على رفع يديه وتفتيشه. (دفع أرسيني المملوكَ المصاحب له وخطى الخطوة الأولى باتجاه أمبروجو. راقب أمبروجو بهدوء كيف سقطت النقود الذهبية من قفطانه بعد شقِّه. فتَّشوا حقيبة سفره، مثلما فتَّشوا حقيبة أرسيني، من دون تدقيق. وقد تركوا أمبروجو، لكن العربي، الذي اقترب منه، تبادل النظرات مع المملوك، أومأ برأسه إلى حقيبة الطريق.

أخرج المملوك من حقيبة أمبروجو المصباح. فتلألأ في شمس منتصف النهار بجميع الأحجار الكريمة الموضوعة فيه. انتزع أمبروجو المصباح من المملوك وقال شيئاً للترجمان. (تحرَّك أرسيني نحو

أمبروجو وهو يصفق يديه المغبرَّتين) ترجم الترجمان، وهو يراقب لعِب الأشعة على الأحجار. مدَّ المملوك يده مرة أخرى إلى المصباح، لكن أمبروجو سحب يده، ولم يسمح له بلمس المصباح. لم يرَ أمبروجو كيف ظهر خلفه المملوك ذو الحزام المطرز، وكيف رفع سيفه، فتشبَّث أرسيني برجله بكل ما أوتي من قوة.

رأى أمبروجو كيف هبط ملاك ذو صليب ببطء إلى برج الجرس لكاتدرائية القدّيس بطرس وبولس في سانت بطرسبورغ. حلّق الملاك للحظة، متحقِّقاً من دقّة الهبوط، ثم غمسَ ببطء قاعدة الصليب في التفاحة المذهبة على رأس البرج. عاد الملاك إلى مكانه السابق بعد أعمال الترميم. نشرت طائرة هليكوبتر من طراز Mi-8 ريشاتها فوقه، مثيرةً تيَّاراً هوائياً للهبوط. في هذه الظروف الصعبة، قام متسلّقُ المصانع ألبير ميخائيلوفيتش توكونين بتثبيت قاعدة الصليب بمسامير من سبيكة متينة بشكل خاص. طوَّح الهواء بشعر المتسلق الطويل في اتجاهات مختلفة، فتطاير على عينيه وفمه. تأسف توكونين، لأنه عندما نزل إلى القبة مع الملاك، نسي في الهليكوبتر القبعة الرياضية، التي كان يرتديها دائماً، عندما يركِّب شيئاً تحت الطائرة الحوامة. وفي حالة من السخط، لام نفسه على النسيان، وعلى الشعر الطويل، الذي وعد نفسه دائماً وهو يحلِّق في السماء بحلقِهِ، وفي كل مرة يكسر هذا الوعد على الأرض، فهو فخور بشعره في السرّ. لقد وبَّخ نفسه بصدق، ولم يتخطَّ، في عباراته خطّاً معيناً، لأنه كان مقيَّداً بوجود الملاك. وعلى الرغم من كل العوائق، فقد كان ألبرت ميخائيلوفيتش، من ارتفاع 122 متراً، قادراً على رؤية الكثير - جزيرة الأرانب، وسانت بطرسبورغ، وحتى البلد كله. كان بإمكانه حتى أن يرى كيف أن ملاكاً حقيقياً وليس مُذَهَّباً في فلسطين البعيدة رفع إلى السماء روح الإيطالي أمبروجو فليكيا.

كِتَـــاب الطُّمَـــأنيـنــة

- أ -

يُعتَقَدُ عموماً أنَّ أرسيني عاد إلى روسيا في منتصف الثمانينيَّات. ومن المعروف على وجه التحديد أنَّه في أكتوبر 1487 كان بالفعل في بسكوف، لأن في ذلك الحين بدأ وباء الطاعون الكبير الذي عايشه. وفي الوقت الذي عاد فيه أرسيني إلى بسكوف، كان بعض الناس قد نسوه. لم يحدث هذا بسبب مرور الكثير من الوقت (لم يكن الأمر كذلك)، ولكن لأن الذاكرة البشرية ضعيفة ولا تحتفظ إلا بالأهل في حد ذاتها. أما غير الأقارب (هكذا كان أرسيني بالنسبة للجميع) في معظم الأحيان لا يبقون في الذاكرة. والذي لا تراه العين عادةً تُمحى صورته من البال. وفي أحسن الأحوال، يُذكَر، بعد أن تُرى صورته. ولكن في العصور الوسطى لم تكن ثمة صور فوتوغرافية، ولهذا صار النسيان نهائيّاً.

العديد من سكان بسكوف لم يتذكَّروا أرسيني حتى بعد رؤيته، لأنهم لم يتعرفوا عليه. فالشخص العائد لم يكن يشبه المجذوب الذي وفد على المدينة، ولا الحاج الذي غادرها. لقد تغير أرسيني. وقد أصبح شعره الفاتح أكثر شقاراً بعد أن امتزج ببشرة وجهه المعتم الذي لفحته الشمس ليس على الطريقة الروسية. في البداية قد يبدو أنه حرقته شمس الشرق الحارقة، ولكن عند الفحص الدقيق أصبح من الواضح أن شعر أرسيني لم يعد فاتحاً، بل كان أبيضاً أشيباً.

عاد أرسيني وقد اشتعل منه الرأس شيباً. فوق جسر الأنف، ثمّة ندب على طول جبهته، يبدو كأنه تَغضُّنٌ عميق. جنباً إلى جنب مع التجاعيد

الحقيقية التي ظهرت عند أرسيني، أعطى النَّدَبُ وجهَه تعبيراً عن صورة اللّامبالاة الكئيبة. وربما، لا الشعر الرمادي، ولا النَّدَبُ، بل هذا التعبير بالذات هو الذي لم يَدعْ سُكَّان بسكوف يعرفون أرسيني.

بعد أن عاد أرسيني، لم يخبر أحداً بأي شيء. كان على العموم يتكلَّم قليلاً جداً. ليس قليلاً، ربما، بالشكل الذي كان عليه سابقاً عندما كان مجذوباً، ولكن كلماته الحالية صدحت بصمتٍ، لا ينتمي لأعمق صمت. وعندما جاء إلى الحاكم غافريل، قال:

- السلام عليكم، أيها الحاكم، أرجو أن تسامحني.

رأى الحاكم غافريل في عينَي أرسيني طريقَه الصعب بأكمله. ورأى موتَ أمبروجو. فلم يسأله بعد ذلك عن شيء. احتضن أرسيني وبكى على كتفه. وقف أرسيني من دون أن يتحرك. كان يشعر بدموع الحاكم الساخنة بجلد رقبته، لكن عيناه بقيتا جافَّتَين.

- ابقَ في بيتي (قال الحاكم غافريل).

أطرق أرسيني برأسه. إذ لم يعد يعزو أهمية كبيرة لمكان إقامته.

أراد أرسيني أن يذهب إلى فوما المجذوب الأبله، لكن فوما في ذلك الوقت لم يعد على قيد الحياة. فبعد وقت قصير من رحيلِ أرسيني، تنبأ فوما بموته ونجح في أن يودع الجميع. وعلى الرغم من أنَّ ثقل الموت الوشيك قد أنهكه، وجد فوما القوة اللازمة للقيام بالجولة الأخيرة في المدينة وألقى لآخر مرة الحجارة على أشد الشياطين عهراً. وعلم الجميع أن فوما يحتضر، فتبعته المدينة كلها، ورافقته في الجولة الأخيرة. التفَّتْ أرجلُ فوما، فساعدوه على تحريكها.

كان فوما يصيح، وهو يجوب نصف المدينة: «ظلام الموت أبلاني، وأخذ النور من عيني».

ولأنه لم يرَ شيئاً بعد ذلك، فكان البعض يضعون الحجارة في يديه، ويقوم هو بقذفها على الشياطين بقوّته كلها، وهكذا يجوب النصفَ

الثاني من المدينة، لأن العمى الجسدي لم يؤدِّ إلّا إلى زيادة قوّة بصيرته الروحية.

«عندما تنظف المدينة»، يقول فوما، متّكئاً على مدخل الكنيسة:

- هل تظنُّون حقّاً أني أكون قد طردتها إلى الأبد؟ قد يكون، لخمس سنوات، وبحد أقصى لعشر. ويتساءل: ماذا ستفعلون بعد ذلك؟ اكتبوا الآن. سيأتيكم طاعون عظيم، ولكن عبد الله أرسيني سيساعدكم، بعد أن يعود من القدس. ثم سيرحل أرسيني أيضاً، لأنه سيحتاج إلى مغادرة هذه المدينة. لهذا آنذاك سيكون لزاماً عليكم إظهارُ قوّة الروح والتركيز الداخلي. وفي نهاية المطاف، أنتم لستم أطفالاً.

وبعد أن تأكَّد أنهم قد كتبوا كل شيء، أغمض فوما المجذوب عينيه ومات. ثم فتح عينيه للحظة وأضاف:

- حاشية الرسالة. دعوا أرسيني يعلم أنَّ بانتظاره ديرُ القدّيس كيريل. هذا كل شيء.

بعد قوله هذا، مات فوما المجذوب نهائيّاً.

-ب-

بعد أن قرأ أرسيني رسالة فوما، استغرق في التفكير. ولم يغادر لمدة سبعة أيام وسبع ليالٍ البناية الملحقة بمنزل الحاكم غافريل التي خُصِّصَت لسكناه. وربما، كان سيبقى فيها أكثر، لكن في اليوم الثامن من مكوثه انتشر في بسكوف خبر عن الطاعون. وعندما دخل الحاكم على أرسيني، قال:

- إنَّ هذا الذي يحدث قد ذكره فوما. ونحن نعتمد على رحمة الله وعلى موهبتك العظيمة، يا أرسيني.

جثا أرسينى على ركبتيه ووجهُه باتجاه الأيقونات وظهره إلى الحاكم غافريل. كان يصلّي، وليس من المعلوم ما إذا كان قد سمع ما قاله الحاكم. وقف الحاكم لبعض الوقت، لكنه لم يكرِّر كلامه، لأنَّه خمّن أنَّ أرسيني يعرف كل شيء من دون أن يقول له. غادر الحاكم غافريل بهدوء، لكي لا يصدر صريراً من ألواح الأرضية. بعد الانتهاء من الصلاة في اليوم التالي، خرج أرسيني.

كان الحشد ينتظره في الشرفة. نظر إليهم ولم يقل أي شيء. كان الحشد صامتاً أيضاً. لقد فهموا أنه لا يحتاج الأمر لقول شيء هنا. وعندما تذكّر الحشد تنبُّؤات فوما، عرف بأنّ أرسيني هو الوحيد القادر على أن يساعدهم في الكارثة التي حدثت. وكان أرسيني يعرف أن إمكانياته محدودة، والحشد على علم بمعرفته، ومعرفة الحشد انتقلت إلى أرسيني. وجعلوا ينظرون إلى بعضهم البعض حتى ترك الحشد

توقعاته غير المبررة، ولم يختفِ لدى أرسيني الخوف من أن يخيِّب هذه التوقعات والظنون. وعندما حدث هذا، نزل أرسيني من الشرفة وانطلق لمواجهة الطاعون.

زار المدينة منزلاً بعد منزل وفحص المرضى. عالج الدُمَّل وأعطاهم الكبريت المسحوق في صفار البيض، وغسل أجسادهم من القيء وبخَّر بيوتهم برقائق العرعر. وحتى أنَّ المحتضرين لم يرغبوا في السماح له بالذهاب عنهم، لأنه طالما كان قريباً منهم، يشعرون بالراحة والأمل. وكانوا يتشبثون بيد أرسيني، بينما هو لم يجد في نفسه القوة للتخلص من أيديهم، فيجلس معهم طوال الليل حتى وفاتهم.

«يبدو لي»، قال أرسيني لأوستينا، «أنني عدت إلى الوراء لسنوات عديدة. في يدي الأجسام المتقيِّحة نفسها، وصدِّقيني، يا حبّي، يكادون يكونون الأشخاص نفسهم الذين عالجتهم ذات مرة. هل عاد الوقت إلى الوراء، أو - لنطرح السؤال بشكل مختلف - هل عدتُ أنا إلى نقطة انطلاق معينة؟ إذا كان الأمر كذلك، فهل لي أن أقابلك في هذا الطريق؟».

تذكَّرَت يدا أرسيني بسرعة العمل المنسي، والآن هما نفسيهما تعالجان قروح الطاعون. وبعد أن نظر أرسيني إلى الحركات البارعة ليديه، بدأ يخشى أن يصبح فعلهما روتينياً وتجفل تلك القوة المذهلة التي تدفقت من خلالهما إلى المرضى، ولكنها الآن لا تمت إلى المهارة الطبية بصلة مباشرة. وعندما يشفي الناس، كان أرسيني يلاحظ في كثير من الأحيان أنَّ شفاءهم يكمن في هذه القوة، وليس في الكبريت المسحوق مع صفار البيض. فالكبريت والصفار لم يتسببا بضرر، ولكن، كما بدا لأرسيني، أنهما لم يساعدا بشكل كبير. المهم كان العمل الداخلي لأرسيني، قدرته على التركيز في الصلاة، والحلول في المريض في الوقت ذاته. وإذا ما تعافى المريض، كان ذلك بمثابة شفاء له، لأرسيني شخصياً.

وإذا مات المريض، مات أرسيني معه. وبعد أن يشعر أنه نفسه على قيد الحياة، تنهمر من عينيه الدموع ويشعر بالخجل من أن الرجل المريض

ميت، بينما هو حي. وخطرت لأرسيني فكرة مفادها أن سبب الوفاة لا يكمن في قوة المرض، بل في ضعف صلاته هو. بدأ يعتبر نفسه الجاني المباشر للوفيات التي حدثت وجعل يعترف يومياً، وإلا فإن عبء الذنب سيكون أكثر من قدرته على التحمل. وكان يأتي لكل مريض لاحق على أنه المريض الأول، وكأنه لم يقم قبله بفحص مئات من الأشخاص، ويحمل للعليل قوته العجيبة التي تبعث على التحمّل، وهذه وحدها التي كانت تبعث الأمل لتحقيق الشفاء.

ناضل أرسيني ليس ضد المرض فحسب، ولكن ضد خوف الإنسان أيضاً. إذ كان يجوب المدينة ويحث الناس على ألا يخافوا. وفي الوقت الذي ينصحهم فيه بمراعاة الحيطة، كان أرسيني يحذرهم من الهلع، فهو قاتِل. ويذكرهم أنه دون إرادة الله، لن تسقط من رأس الإنسان حتى الشعرة، ودعاهم إلى ألّا ينغلقوا على أنفسهم في المنازل، متناسين مساعدة جيرانهم. لكن الكثير قد نسوا ذلك.

في الأسابيع الأولى من الوباء، اعتقد أرسيني أنه لن يستطيع الصمود. كان يتهاوى من الإرهاق ورجلاه لا تعينانه من التعب. في كثير من الأحيان لم تكن لديه القوة الكافية للوصول إلى المنزل، ويبقى ليخلد قليلاً إلى النوم عند أحد المرضى. بعد مدة لاحظ أرسيني باندهاش أنه صار يشعر بتحسن طفيف.

«يبدو لي أنني اعتدت على ما لا أستطيع الاعتياد عليه»، قال أرسيني لأوستينا. «هذا يثبت مرة أخرى، يا حبي، أنه لا يوجد نقص في القوة، بل يوجد خَوْر في العزيمة».

كان أرسيني ينام لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم، لكنه حتى في نومه لم يستطع أن يتخلص من الحزن الذي أحاط به. ففي الأحلام الزاهية، رأى مرضى متورمين، يطلبون منه الشفاء، ولم يتمكن من مساعدتهم لأنه يعلم أنهم قد ماتوا. وفي أحلامه لم يكن ثمة مزيد من التخيلات، كانت تلك أحلام حقيقية - أحلام حول ما سبق. إنَّ الزمن قد

عاد بالفعل إلى الوراء. لم يكن يحتوي على الحوادث المخصَّصّة إليه - مهما كانت تلك الحوادث كبيرة ومؤثرة. فالزمن يتهاوى ويتداعى، مثل حقيبة سفر لجوّابٍ، يتفحص الجوّاب محتوياتها، فتتراءى له كما كانت عليه في المرة الأولى.

-ت-

«ها أنا ذا، يا رب، وهذه حياتي التي تمكنت من أن أعيشها قبل مجيئي إليك»، قال أرسيني في القبر المقدس. «وأيضاً هذه حياتي، التي لا يزال بإمكاني أن أعيشها من خلال صلاحك الذي لا يوصف. وإني لم أعلّل النفس بالمجيء إلى هنا، لأنني قد تعرضت للسلب قبيل الوصول إلى مدينة القدس وضُرِبتُ بالسيف، وإنَّ حقيقة كوني أقف هنا أمامك، أنظر إليها على أنها فيض من رحمتك الواسعة. لقد جلبنا لك أنا وصديقي أمبروجو الذي لا يُنسى سراجاً عن روح آنّا ابنة حاكم بسكوف، التي ماتت غرقاً في النهر. ولكن الآن يديَّ فارغتان، وليس لدي السراج، وصديقي أمبروجو لم يعد موجوداً أيضاً، وكذلك عدد من الأشخاص الآخرين الذين التقيت بهم على طول الطريق، ولكن أيضاً فُقِدوا بسبب خطاياي. سوف أخصُّ بالذِّكر هنا الحارس فلاسي، الذي ضحّى بروحه من أجل أصدقائه. وقد وعدت فلاسي بأن أعترف أمامك عن خطاياه، هو الآن يرقد في الأراضي البولندية بانتظار القيامة العامة. أيها السلام، يا مخلصنا، يا رجاءَ الصِدِّيقين وملاذَ المؤمنينَ، أشرقْ نورَكَ ونِعمتَكَ على الذين غادروا هذا العالم الزمنيَّ على الإيمان القويم، غافراً جميع ما ارتكبناه وارتكبوهُ من زلّات وجميع الموتى المؤمنين، الراقدينَ في الأعماق المظلمة، وأسكنْهم منازلَ الحياة، وارفَعْ عن وجوههم غشاءَ الكآبة، وتحنَّنْ عليهم، يا مُحبَّ البشر، لكَ المجدُ إلى الأبد. وأناشدك بالصلاة الرئيسة في حياتي المتعلّقة بأَمَتِكَ أوستينا. أسألك ليس من موقع الزوج، لأنني لست زوجها، على الرغم من أنه كان بإمكاني أن

أكون زوجها، لولا أنْ يأخذها الموت. أسألك من موقع القاتل الذي قتلها، لأن جريمتي قد ربطتنا في هذا العالم والعالم القادم. فبعد أن تسببتُ بموت أوستينا، حرمتُها من الفرصة لكشف ما كنتَ قد وضعتَه فيها، وتطويره وجعله يشعُّ بالنور الإلهي. أردتُ أن أعطي حياتي بدلاً عنها، أو بالأحرى أنْ أعطيها حياتي بدلاً عن تلك الحياة التي أخذتُها منها. لكني لم أتمكَّن من القيام بذلك إلا من خلال خطيئة مميتة، ولكن من سيحتاج مثل هذه الحياة؟ فقرَّرْتُ أن أعطيها السبيلَ الوحيد المتاح لي. حاولت، قدر المستطاع، أن أكون بديلاً عن أوستينا وأن أقوم بأعمال صالحة نيابة عنها، والتي لم أكن لأتمكن أبداً من القيام بها عن نفسي. ومع مرور الزمن أدركت أنه لا بديل للإنسان عن نفسه، ولم تنتَبْني أيُّ أوهام. ولكن، أخبرني، كيف يمكنني أن أجسِّد توبتي؟ المشكلة الوحيدة هي أن ثمار عملي كانت صغيرة جداً ومثيرة للسخرية لدرجة أنني لم أشعر سوى بالخجل. وإني لم أتخلَّ عن هذا الأمر إلا لأن جميع ما هو خلافه سيكون أسوأ بالنسبة لي. ولست متأكداً من سلامة طريقي، وهذا يجعل الأمر أصعب بالنسبة إليَّ للمضي قدماً. فعلى الطريق غير المعروفة، يمكن السير بعيداً، ولمدة طويلة جداً، ولكن لا يمكن الاستمرار فيها إلى ما لا نهاية. هل هذا الطريق فيه الخلاص لأوستينا؟ إذا كان فيه خلاصها، فأعطِني على الأقل علامة، على الأقل بعض الأمل... إنك تعرف، أني أتحدث باستمرار مع أوستينا، أحكي لها ما يجري في العالم، وأحكي لها عن انطباعاتي، حتى يمكنها أن تكون معي في كل لحظة، وكما يقال، حتى تكون على اطِّلاع بما يحدث. إنها لا تجيبني. وهذا ليس صمتَ عدمِ الصَّفْح، فأنا أعرف لُطفَها وطيبةَ قلبها. ما كان من شيمتها أن تعذبني لسنِين طوال. على الأرجح، ليس لديها إمكانية على إجابتي، أو ربما، أنها ترأف بحالي من الأخبار السيئة، فهل أنني، بصراحة، استحقّ الأخبار الجيدة؟ إني مؤمن أنه من خلال حبّي، يمكنني إنقاذها بعد وفاتها، ولكن بالإضافة إلى الإيمان، أحتاج على الأقل إلى نقطة من المعرفة حول هذا الموضوع. إذاً، فأعطِني، أيها المُخَلِّص، على الأقل بعضَ إشارة، حتى

أعرف أنَّ طريقي غيرُ منحرفٍ نحو الجنون، حتى يمكنني مع هذه المعرفة السير في الطريق الأكثر صعوبة، والسير في المسافة والمدّة المنشودَتَين من دون الشعور بالتعب».

- ما هي العلامة التي تريدها وما هي المعرفة (سأله الكاهن، الذي كان يقف في كنيسة القيامة عند القبر المقدس). ألا تعرف أن كل طريق محفوف بالمخاطر؟ جميع الطرق. وإذا كنت لا تدرك هذا، فلماذا تتحرّك؟ ها أنت ذا تقول إن لديك القليل من الإيمان، تريد أيضاً المعرفة. لكن المعرفة لا تتطلب جهداً روحياً، المعرفة واضحة. الجهد يتطلَّب الإيمان. المعرفة هي الطُّمأنينة، والإيمان هو الحركة.

- ولكن ألا ينشد الأبرار انسجام الطمأنينة (سأله أرسيني).

- إنهم ساروا من خلال الإيمان، أجاب الكاهن. وكان إيمانهم قوياً لدرجة جعلته يتحوَّل إلى معرفة.

- أريد فقط أن أعرف الاتجاه العام للمسار (قال أرسيني). فيما يخصُّني ويخصُّ أوستينا.

- ولكن أليس المسيحُ اتّجاهاً عامّاً، سألَ الكاهنُ. أيُّ اتجاه مازلت تبحث عنه؟ وماذا تقصد أنت بالطريق - أليست تلك المسافات التي تركتها خلفك؟ لقد جئت إلى القدس مع أسئلتك، على الرغم من أنك بإمكانك أن تسألها، على سبيل المثال، من دير القدّيس كيريل. أنا لا أقول إن التجوال لا جدوى منه: فهو لا يخلو من مغزى خاص به. لا تكن مثل الإسكندر حبيبك، الذي كان لديه طريق، ولكن لم يكن لديه هدف. ولا تتولَّعْ بالحركة الأفقية أكثر من اللازم.

- وبماذا يجب أن أتولع (سأل أرسيني).

- بالحركة العمودية (أجاب الكاهن وأشار إلى الأعلى).

في وسط قبة الكنيسة ثمَّة كوَّة مستديرة لاح سوادها، تُركَت للسماء والنجوم. كانت النجوم تُرى، لكن مظهرها كان باهتاً. أدرك أرسيني أنَّ الفجر قد انبلج.

-ث-

بحلول شهر فبراير (شباط)، بدأ الطاعون في التراجع. فقد كانت نهاية الشتاء باردة جداً لدرجة أن الطاعون تجمد. وعلى الرغم من أن عمل أرسيني أصبح أقل مما كان بشكل ملحوظ، إلا أنه في شهر فبراير بالذات، شعر بأن قوته محدودة. إذ إنَّ أشهُر الصراع مع الطاعون قد أنهكت أرسيني تماماً، وزاد على ذلك الضعف الاعتيادي السابق للربيع. إذ صار الاستيقاظ في الصباح يزداد صعوبة عليه. وعندما يخرج لرؤية المرضى، يجلس على الطريق عدة مرات للاستراحة. وعندما رأى الحاكم غافريل إعياء أرسيني، قال:

- أيها المواطنون من أهالي بسكوف، لقد أنهك قوته كلها من أجل شفائكم، لذلك اعتنوا به رعاكم الله.

بحلول نهاية شهر فبراير، توقفت الإصابات بالطاعون تماماً. وعندما أتيحت لأرسيني فرصة للرّاحة، غطَّ في نوم عميق. فقد نام بالضبط لمدة نصف شهر - خمسة عشر يوماً وخمس عشرة ليلة. عرف أرسيني أنَّ الطاقة التي هدرها في أوان الطاعون، قد استقرضها من مستقبله، والآن عليه أن يعوِّض الضائع. في بعض الأحيان كان يستيقظ ليطفئ عطشه، ثم يغفو مرة أخرى، لأن جفنيه لم ينشقّا. استمر يرى في الحلم القدس، والطريق إلى فلسطين، وأمبروجو - لا يزال على قيد الحياة. في اليوم السادس عشر، انتهى حلم أرسيني الكبير، وشعر أن قوَّتَه تعود إليه تدريجياً.

بعدما استيقظ أرسيني، أدرك أن الربيع قد حان. فقد اعتاد أن يقيس

السنوات بفصول الربيع. فعلى عكس الفصول الأخرى، كان حلول الربيع هو الأشد من الناحية الحسية وإثارة المشاعر. عادة ما كان أرسيني ينتظر قدومه، والآن ها هو يستيقظ في منتصف فصل الربيع الذي حلَّ بالفعل، كما يستيقظ المرء فجأة ويرى الشمس في نهار يوم صاحٍ قد ارتفعت، فينظر بشوق إلى بقعها المنيرة على الأرض، وإلى خيوط أشعتها الفضية، ويبكي دموع الامتنان. وبدا لأرسيني من خلال الرائحة والحالة العامة للجو والهواء أنَّ هذا الربيع يشبه بتفاصيله كلها ذلك الربيع عندما كان بَعْدُ طفلاً، لكنه زجر نفسه على الفور. فقد كان أرسيني الآن مختلفاً تماماً، ولهذا السبب لم يكن هذا الربيع مشابهاً بشيء مشترك للربيع في أيام طفولته. فعلى العكس من ذلك الربيع، لم يملأ الربيع الحالي العالم بأسره. كان الربيع زهرته الجميلة، ولكن أرسيني عرف منذ زمن بعيد أن ثمة نباتات أخرى في هذه الحديقة.

تجول في سكك مدينة بسكوف، وعلى إيقاع حركته صرّت الأرصفة الخشبية بصوت خافت. وقد تناثرت على براعم الأشجار، بفعل الهواء، حبات الغبار الأول بعد أن انصرم الشتاء. وعندما اقترب أرسيني من دير يوحنا، بحث عن الشق في الجدار، فوجده ودخل المقبرة. وبعد أن رأى أشجاره عند الجدار، أجهش بالبكاء، لأن هذه كانت أشجارَ الحياة الماضية التي لا يمكن أن تعود مطلقاً.

في المقبرة كانت بانتظار أرسيني رئيسةُ الدير والراهبات. قالتْ رئيسةُ الراهبات:

- إنَّ نبوءة فوما لديها خاصيّة اللُّزوم. هذا يعني أنها حتى في ظل الرغبة لا يمكن تجنُّبها. إذن، ينبغي عليك، يا رجل، أن تذهب إلى دير كيريل - وكلما كان ذلك أسرع، كان أفضل.

وفي القلعة (الكرملين)، لم يفعل الحاكم غافريل شيئاً سوى أنْ نشر يديه علامة على المفاجأة والأسف. فقد تذكَّر ما قاله فوما، ولكن في أعماقه كان يأمل في أنْ يبقى أرسيني في بسكوف حتى النهاية المفترضة للعالم.

لذلك كان أكثرَ هدوءاً. ولم يكن الحاكم واثقاً من إمكانية رؤية أرسيني في المستقبل.

- من حيث المبدأ، نحن على استعداد لاستقباله (قال القائمون على دير كيريل). وأخبِروا الحاكم غافريل، ألّا يتذمر ويعرقل مجيئه، إذا كان الكلام، بالطبع، لا يتعلق بحركة المشي.

- ومن يرسله سيراً على الأقدام بعد هذا الإرهاق! (اندهش الحاكم غافريل). ربما سنقوم بتجهيزه بشيء يتناسب مع خدماته لمدينة بسكوف وضواحيها.

أرادوا أن يقدّموا لأرسيني عربة الحاكم شخصياً، لكنه اختار حصاناً. فالعربات بشكل رئيس تستعمل لخدمة ذوي الأجسام الضعيفة، وكذلك النساء والأطفال. ولأن الجميع يعرفون ذلك، فقد أدركوا أن أرسيني يريد أن يذهب بالشكل الذي ينبغي أن يكون عليه الرجل. وعلى الرغم من أنه لم يستعدْ صحَّتَه تماماً حتى الآن، لم يحاول أحدٌ إقناعه بالتخلي عن السفر راكباً على الحصان. لم يصر الحاكم غافريل إلا على موضوع واحد - هو أن يرافق أرسيني خمسة أشخاص للمساعدة في مواجهة الظروف غير المتوقعة. ففي ذلك الوقت العصيب، كانت معظم الظروف، في الواقع، غير متوقعة.

خرج لتوديع أرسيني جميع سكان بسكوف تقريباً. كان أرسيني شاحباً، يكاد يكون شفافاً، لكنه تمسَّك بالسَّرج جيداً.

- قالت رئيسة دير يوحنا: إنَّ الطريق سيعالجه في النهاية. الطريق هو أفضل دواء.

الحاكم غافريل، وهو الكتوم عادة، لم يُخْفِ دموعَه. كان يعلم أنه يرى أرسيني للمرة الأخيرة. شعر أهالي بسكوف، بسبب رحيل أرسيني، بالوحشة والخوف قليلاً. ولم تطمئنهم إلا حقيقة أن الوباء قد انتهى وأن الحياة المعتادة قد عادت إلى المدينة - إن لم تكن إلى الأبد، فعلى الأقل طوال السنوات الخمس القادمة. وبسبب احتمال نهاية العالم القريبة، لم يتوقع سكان بسكوف حدوث وباء الطاعون من جديد.

-ج-

وفي الطريق، شعر أرسيني حقاً أنَّ صحته أفضل. فمع تموّج الحقول وضوضاء الغابات، شعر بتحسن صحته. إذ إنَّ فضاءات الأرض الروسية شافية. آنذاك لم تكن بعدُ غير متناهية ولم تتطلب قوة، بل كانت تمنح القوة. ابتهج أرسينى لصوت الحوافر. ولم ينظر في وجوه أصحابه، وتصوَّرَ أنَّ خلفه يسير صديقُه الحميم أمبروجو راكباً حصاناً، ومِن خلفهم القافلة، وفي القافلة جميع الذين فارقهم في وقت مضى.

عدا الفُرسان بسرعة. ليس لأنهم يستعجلون الوصول إلى مكان ما (لقد سار أرسيني نحو الخلود، فما قيمة هذا المكان الذي يشدُّ الخطى مسرعاً نحوه الآن؟) بل لمجرد أنَّ الحركة السريعة تلبّي الحاجة الداخلية لأرسيني وتسمو بروحه. لكن شهرة أرسيني الكبيرة سارت أسرع من الفرسان. تقدمت عليهم وقادتهم لملاقاة حشود الناس. كان أرسيني يترجَّل. ويحاول أن يستمع إلى كل من أراد مخاطبته.

كان الكثيرون ينتظرون منه المساعدة في علاج أمراضهم. فأخذهم أرسيني جانباً وفحصهم بعناية. وقرر ما إذا كان بإمكانه أن يساعد هؤلاء الأشخاص أم لا. فإذا شعر أنه يستطيع قدَّمَ لهم المساعدة. إذا كانت حالتهم لا تنفع معها المساعدة، يجد كلمات تشجيع مناسبة. ويقول له: «إنَّ مَرَضك يفوق قوتي، لكن رحمةَ الربّ أكبر من قوَّة الإنسان. صَلِّ ولا تيأسْ». أو: «أنا أعلم أنك تخاف الألم أكثر من الموت. وأقول لك إن ذهابك سيكون هادئاً ولن يعذِّبك الألم».

طرح الكثير من الناس أسئلةً لا تتعلّق بالمرض. لقد أرادوا التحدُّث فحسب إلى الشخص الذي سمعوا عنه كثيراً. كان أرسيني يلمس مثل هؤلاء بيده، ولم يدخل معهم في حوار. وكانت هذه اللَّمسة أعمقَ من أي كلمات. إذ تولَّد في رأس السائل جواباً، لأنّ الذي يسأل السؤال غالباً ما يعرف الجواب، على الرغم من أنه لا يعترف بهذا في داخله دائماً.

وأخيراً، كان ثمة عدد كبير جداً من أولئك الذين لا يحتاجون إلى علاج ولا يسألون عن شيء، لأنه في كل شعب، الأكثرية صاحون وليس لديهم تساؤلات. هؤلاء الناس سمعوا أنَّ النظر إلى أرسيني فيه بركة، فجاؤوا لرؤيته.

إنَّ لقاءات أرسيني مع الناس في الطريق تطلَّبت وقتاً طويلاً وطوَّلتْ إلى حد كبير طريق سفره. لكن أرسيني لم يحاولْ زيادَةَ سرعة حركته.

«إذا لم أستمع إلى كل هؤلاء الناس»، قال أرسيني لأوستينا، «لا يمكن اعتبار طريقي سالكاً. فالذي ينجيكِ، يا فرحي، أعمالُنا الصالحة هذه، وهل يمكن أن نقوم بهذه الأعمال في داخل أنفسنا؟ كلا، أنا أجيب، ليس من الممكن ذلك، ولا يمكن الاعتماد إلَّا على الآخرين، والحمد لله أنه يرسل هؤلاء الناس إلينا».

عرف الناس بوصول أرسيني قبل بضعة أيام، فقرَّر السكّان مقدّماً عند من سيقيم. انطلق هؤلاء الناس من تقديم أكبر قدر من الراحة لأرسيني، وكذلك من الأمل في فائدتهم الشخصية. فقد انتشرت إلى جانب شهرة أرسيني فكرة مفادها أن وجوده في منزل أي شخص يعود على صاحب المنزل بخير كبير. لكن أرسيني لم يُقِمْ دائماً في المكان الذي يُعرَض عليه، ولكن، كان يختار بعينيه رجلاً من الحشد، ويسأله:

- هل تسمح لي، يا صديقي، بالإقامة عندك؟

ومن ذلك اليوم تتغيَّر حياة الشخص الذي اختاره أرسيني - على الأقل في عيون أبناء بلدته. شعر أرسيني كيف تغيرت حياته هو أيضاً. إذ لم يشهد مثل هذه الزيادة في القوة من قبل. فعلى الرغم من حقيقة

أنه لم يضنِ بنفسه جهداً لمساعدة الطالبين، إلا أنَّ قوته تزداد أكثر بكثير مما استهلك منها. وكان يندهش من هذا كثيراً. وشعر أرسيني بأن القوة منحها إياه مئات الأشخاص الذين التقى بهم. وما يفعل هو سوى تحويل هذه القوة إلى أولئك الذين احتاجوا إليها أكثر من غيرهم.

مرَّ الجوّابون عبر الأماكن التي زارها أرسيني منذ عدة سنوات، عندما غادر بيلوزيرسك إلى بسكوف. وعرف التلال والأنهار والكنائس والمنازل التي كان قد شاهدها من قبل. بدا له أنه سيعرف حتى الناس، على الرغم من أنه غير متأكد من ذلك حتى النهاية. فالناس، على كل حال، يتغيَّرون بسرعة.

استذكرَ أرسيني الحوادثَ الحزينة لشبابه، لكنَّ ذكرياته كانت دافئة. أصبحت تلك الذكريات ذكرياتٍ لشخصٍ آخر. لقد شكَّ منذ مدّة طويلة أنَّ الزمن متقطِّع وأجزاءه المنفصلة لا ترتبط فيما بينها، وكأنه لم يبقَ من شيء - ما عدا، ربما، الاسم - يربطُ بينِ الفتى الأشقر من بلدة روكينا والهائم الشائب الشعر، بل العجوز تقريباً. والحقيقة، على مدار الحياة، تغيّر الاسم أيضاً.

في أحد بيوت الأغنياء، رأى أرسيني نفسه في مرآة فينيسية: إنه حقّاً رجلٌ عجوز. هذا الاكتشاف أصابه بالذهول. لم يتأسَّف أرسيني على شبابه على الإطلاق، فقد شعر حتى في السابق أنه يتغير. ومع ذلك، فإن تلك النظرة في المرآة تركت انطباعاً قوياً عليه. فشعره رماديٌّ طويل. عظام الوجه بارزة، والعينان غائرتان فيها. لم يعتقد أن التغييرات قد وصلت إلى هذا الحد.

«انظري ماذا حلَّ بي»، قال أرسيني لأوستينا. «من كان يعتقد أنَّ هذا كله يمكن أن يحدث. ما كنتِ لتعرفيني هكذا، يا حبي. أنا نفسي لا أعرف نفسي».

سار أرسيني وفكَّر أنّ جسمه لم يعد مرناً كما كان من قبل. ولم يعد منيعاً كما في السابق. وأنَّ جسده الآن يشعر بالألم ليس فحسب بعد

الضرب، ولكن حتى من دونه. بتعبير أدق، في بعض الأحيان يشعر، كشعوره بعد الضرب. لقد ذكَّره هذا الجسد بوجوده من خلال الوجع تارةً هنا وتارةً هناك. في السابق لم يتذكَّرْه أرسيني، لأنه كان يعالج أجسام الآخرين، ويعتني بكل واحد منها وكأنه وعاء يحتوي على الروح.

وذات مرّة في الطريق إلى دير كيريل رأى جسداً قد خرجت الروح منه تقريباً. ذلك الجسد يعود إلى رجل عجوز هرم، كان ينظر إلى أرسيني بعينَين زرقاوين، لكن ليس فيهما تعبير. جلبَ العجوزَ إليه أقاربُه، وقالوا إنه يعاني من الضعف. تطلّع أرسيني طويلاً في العينين الزرقاوين للمعمر الهرم، وفوجئ بأنهما لم يبهتا، بينما كل شيء قد بهت في روحه.

- هل تريد أن تعيش، أيها العجوز (سأله أرسيني).

- أريد أن أموت (أجاب الرجل المسن).

- إنه مات منذ وقت طويل، ولكن جسده لا يخلي سبيله، والحقيقة، أنكم تتعلَّقون بالغلاف، (قال أرسيني لذَويه). أما ما تحبونه فيه فلم يعد هنا.

- نعم، كما يقال، هذا واضح (أكد أقاربه)، لم تعد فيه الروحيّة القديمة. نقول له: حالتك بسبب عمرك الطويل، يا جدّ. فيقول: اغرُبوا عنّي... حدث معه مثل هذا التحول الرهيب. ولكن كيف نتصرف معه على أي حال؟

- لا تفعلوا أي شيء (أجاب أرسيني). سيتقرر كل شيء خلال أربعين يوماً.

وهذا ما حدث. فقد توفي الرجل العجوز في اليوم الذي وصل فيه أرسيني إلى دير القدّيس كيريل.

-ح-

وصل أرسيني إلى الدير في المساء، وقد كان في استقباله الكثير من الناس. بعد رؤيته لجدران الدير، تذكر أرسيني رحلة طفولته مع كريستوفر. وتذكر العربة الليلية والمحادثات الهادئة لرجال البلدة على رأسه. وفكَّر بأنه لم يبق من كريستوفر الذي أحبه سوى عظام. وشعر بالسرور لأنه الآن قد اقترب من هذه العظام. بدأ أرسيني يشعر بدفئها الحميمي. حاول تخيل وجه كريستوفر، لكنه لم يستطع.

ترجَّل أرسيني عن الحصان، ثم ركع وقبَّل الأرض عند بوابة الدير.

«بعد رحلة طويلة، عدتُ، يا حبي، إلى المنزل»، قال أرسيني لأوستينا.

- لقد بـدأتْ رحلتك الحقيقية الآن فقط (قال الكاهن الشيخ إنوكينتي). لكنها الآن سوف تنحو في اتجاه آخر.

رفع أرسيني رأسه ونظر إلى العجوز من الأسفل إلى الأعلى.

- أعتقد أنني أعرفك، أيها الشيخ. ألستَ أنت مَن تحدّثتُ معه في القدس؟

- محتملٌ جداً (أجاب الكاهن إنوكينتي).

وأخذ أرسيني من يده وقاده إلى بوابة الدير. في الدير قال العجوز:

- عادة ما نرسّم الرهبان بعد سبع سنوات من وصولهم. لكن حياتك، يا أرسيني، نعرف أنها كانت رهبانيّة، لذا لا يبدو أنك بحاجة إلى اختبار إضافي. والوضع على العموم، كما تعرف، لا يتطلب تأرجحاً طويلاً.

وإذا كنا ننتظر حقاً نهاية العالم، سيكون من الأفضل لك مقابلته وأنت في سلك الرهبانية. على الرغم من أنَّ الأمر، ربما، سيمرّ بسلام.

غمز العجوز بعينه.

ضجَّ الحشد المرافق لهم. فقد أثارتهم مسألة نهاية العالم كثيراً. ورأوا أمامهم شخصين من الروحانيين وتوقَّعوا توضيحات منهما. وعرف الوافدون أنَّ أرسيني يمتلك هبة الشفاء، لكنهم لم يستبعدوا أن يملك هبة النُبوَّة. وفي الواقع، كانت المعرفة عن نهاية العالم أكثر أهمية بالنسبة لهم من مسألة الشفاء، لأن تأكيد اقتراب القيامة جعل الشفاء في نظرهم لا يساوي شيئاً.

- إذاً متى، يا ترى، نهاية العالم؟ (صاح الحشد). إنَّ هذا بالنسبة لنا أهمّ، اعذرْنا على العناد، من الشفاء، بمعنى خلاص الروح. لقد توجهنا مراراً وتكراراً إلى الدير للحصول على توضيحات، ولكننا لم نتلقَّ إجابةً مُحدَّدة.

ألقى الشيخ إينوكينتي على الحشد نظرةً صارمة. وقال لهم:

- ليس من مهام الناس أنْ يعرفوا الأوقات والتوقيت. ما التواريخ الأخرى التي تنتظرونها، لكي يكون كل مسيحيٍّ مستعدّاً للنهاية في كلّ ساعة؟ وحتى أصغر من يقف هنا لن يعيش أكثر من سبعين عاماً، حسناً، ربما ثمانين (وبكى الشباب). ولنْ يبقى أيُّ واحدٍ من أولئك الذين ترونهم هنا بعد مائة عام. هل هذا التأخيرُ كبيرٌ مقارنة بالأبدية؟ لذلك (نظر العجوز إلى الصغار) أقول لكم: ابكُوا على خطاياكم. ولكن الشيء الرئيس هو أن تتيقَّظوا وتُصَلُّوا. وافرحوا لأنكم امتلكتم كتاباً آخر للصلاة عن أرواحكم. فعندما تتحدثون مع أرسيني، فكأنما امتلكتم كتابَ القدّيس أمفروسي.

بعد ذلك الحديث، قاد الشيخ إنوكينتي أرسيني إلى رئيس الدير. ووفقاً للعرف، يحدث اختيار الاسم الرهباني على الحرف نفسه الذي بدأ فيه الاسم الدنيوي. فعرف أرسيني بالفعل ما هو الاسم الذي سيعرض عليه، وأحبَّه من أعماق روحه.

- نختار لك اسماً تيمُّناً بالقدّيس أمفروسي الميديولاني (أمبروزيوس)، قال الكاهن العجوز إنوكينتي. وسيُذكِّر - كما يحدث هذا دائماً - بصديقك المُخلِص (أمبروجو)، الذي نطق بهذا الاسم بطريقة مختلفة. ليكن هذا الاسم في النُّطق الصحيح ذكرى من صديقك أيضاً. فكم حياةً ستعيش في وقت واحد من الآن فصاعدا؟

بمباركة الأسقف، وافق رئيس الدير على الاسم الجديد لأرسيني. وبعد سبعة أيام من الصوم الصارم جرتْ رِسَامَةُ أرسيني راهباً.

-خ-

«لا تبحثي عنّي بين الأحياء تحت اسم أرسيني، بل ابحثي عني تحت اسم أمفروسي». هكذا قال أمفروسي لأوستينا. «هل تتذكّرين، يا حبّي، تحدّثنا أنا وأنتِ عن الزمن؟ هنا هو مختلف تماماً. لم يعد الزمن يتحرك إلى الأمام، بل يجري في دائرة، لأن في الدائرة تدور الحوادث التي تملؤه. وترتبط الحوادث هنا، يا حبي، في الغالب بالعبادة. ففي الساعتين الأولى والثالثة من كل يوم، نصلّي ونستذكر حكم بيلاطس على ربّنا يسوعَ المسيح، وفي الساعة السادسة - نستذكر طريقَه للصَّليب، وفي الساعة التاسعة - آلامَ الصليب. وهذه تشكّل دائرة العبادة اليومية. ولكن كل يوم من أيام الأسبوع، مثله مثل الإنسان، له وجهه ورِسَامته. الإثنين - مكرَّسٌ للقوى غير الجسدية، والثلاثاء - للأنبياء، والأربعاء والجمعة - لذكرى موت يسوع على الصليب، والسبت - لتذكّر الموتى، واليوم الرئيس (الأحد) - يكرَّس لقيامة الربّ. هذا كله، يا حبي، هو دائرة العبادات الأسبوعية. وأكبر الدوائر هي الدائرة السنوية. وتُحدَّد بواسطة الشمس والقمر، اللّذين آمل أن تكوني أقرب إليهما مِنّا جميعاً هنا. فبحركة الشمس يرتبط اثنا عشر من الأعياد الكبيرة وأيام ذكرى القدّيسين، والقمر يخبرنا أيضاً عن وقت عيد الفصح والأعياد المتعلّقة به. أردت أن أقول لكِ كم من الوقت أمضيتُ في الدير، لكن، في الحقيقة، لا أستطيع أن أستجمع أفكاري. ويبدو لي، أني نفسي لا أفهم هذا. الوقت، يا حبي، غير مستقر للغاية هنا، لأن الدائرة مغلقة وتساوي الأبدية. الآن الخريف: ربما كان هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن

أقوله يقيناً بشكل أو بآخر. الأوراق تتساقط، والغيوم تحلّق فوق الدير. تكاد تلامس الصُّلبان».

وقفَ أرسيني على شاطئ البحيرة وقد غطَّتْ الرياحُ وجهَه برذاذ ناعم. كان يشاهد كيف يقترب نحوه على طول الجدار ببطء الكاهن إنوكينتي. غطَّى الرداء الكهنوتي رجليه، ولهذا لم تكن تُرى خطواته، وحتى لا يمكن للمرء أن يقول إنه كان يمشي - إنه يقترب.

قال الشيخ إنوكينتي: الزمن في الدير يتجاور فعلاً مع الخلود، لكنه لا يساويه. فطريق الأحياء، يا أمفروسي، لا يمكن أن يكون دائرة. طريق الأحياء، حتى وإن كانوا من الرهبان، مفتوح، فما معنى حرية الإرادة، يا ترى، من دون مغادرة الدائرة؟ وحتى عندما نسترجع الحادثة في الصلاة، فنحن لا نتذكرها فحسب. إننا نعيش تلك الحوادث مرةً أخرى، وهي تجري مرةً أخرى.

مرَّ الكاهن المصحوب بدوّامة من الأوراق الصفراء من جانب أمفروسي واختفى خلف منعطف الجدار. الشاطئ عند الجدار أصبح مرة أخرى مهجوراً. إنه فارغ تماماً (وكأن لا أحد مرَّ من هنا)، وغيرُ مخصَّص للمشي. إنَّ الجمود وحده جعل وجود أمفروسي على هذا الشاطئ ممكناً.

- إنك تفترض أنّ الوقت هنا ليس دائرة، ولكنه نوع من الأشكال المفتوحة (سأل أمفروسي الشيخَ).

- بالضبط (أجاب الشيخ). بعد حبّي للهندسة، صرتُ أُشَبِّه حركة الوقت بالدوَّامة. هذا هو التكرار، ولكن على مستوى جديد أعلى. أو، بعبارة أخرى، تجربة جديدة، ولكن ليس من الصفر. بل تشتمل على ذكرى من الخبرة السابقة.

ظهرت شمس الخريف الخافتة من وراء الغيوم. وبدا من الجانب الآخر للجدار الشيخ إنوكينتي. خلال المحادثة مع أمفروسي، تمكن من الالتفاف حول الدير.

- إنك، أيها الشيخ، تقوم بفعل الدوائر (قال له أمفروسي).

- كلا، إنها حركة حلزونية. أسير، كما في السابق، ترافقني دوامة من الأوراق، ولكن - لاحظ يا أرسيني - أشرقتْ الشمس، وأنا مختلف قليلاً. بل حتى، يبدو لي، أنني أُحلِّق قليلاً (اندفع الشيخ إنوكينتي من الأرض إلى أعلى وسبح ببطء من جانب أمفروسي)، على الرغم من أنه ليس عالياً جداً، بالطبع.

- كلا، لا بأس (أومأ أمفروسي برأسه). الشيء الرئيس هو أن تفسيراتك واضحة.

- توجد ثمّة حوادث مشابهة (واصل الشيخ)، ولكن من هذا التشابه يولد العكس. فالعهد القديم يكشف عن آدم، والعهد الجديد يكشف عن المسيح. وحلاوة التفاحة، التي أكلها آدم، تتحوَّل إلى مرارة الخلّ الذي شربه المسيح. شجرة المعرفة تقود البشرية إلى الموت، وشجرة الصليب تَهَبُ الخلودَ للبشرية. تذكَّر، يا أمفروسي، أنَّ التكرار وُهِبَ للتغلُّب على الوقت ولخلاصنا.

- إنك تريد أن تقول بأنني سأقابل أوستينا من جديد؟

- أريد أن أقول إنه لا توجد أشياء غير قابلة للإصلاح.

- د -

بعد أن اعتاد أمفروسي على حياة الرهبان، طلب الذهاب إلى المطبخ. فالخدمة هناك تُعَدُّ واحدة من أصعب واجبات الرهبان. فقد مرَّ العديدون من خلال الخدمة في المطبخ، ولكن ليس الجميع عن طيب خاطر. وحتى أولئك الذين ذهبوا إلى المطبخ بإرادتهم، اعتبروا العمل هناك بمثابة اختبار. لكن أمفروسي لم يعدّ المطبخ اختباراً. كان هذا العمل يروق له.

كان أمفروسي يحبّ حمل الماء وقطع الخشب. في الأيام الأولى مَجَلَتْ يدُهُ بسبب عدم اعتياده على العمل وتقرَّحت. وقد انفجرت المَجْلُ، تاركةً بقع رطبة داكنة على مقبض الفأس. وعندما بدأ يلبس القفازات عند تحضير الحطب، اختفت المَجْلُ. ثم صار يقوم بتقطيع الخشب حتى من دون قفّازات، ولكن لم تظهر أيُّ مَجْلٍ. جلدُ يديه خَشُنَ. ولم يعد أمفروسي يتعب كثيراً. لقد تعلم كيفية الضرب بالفأس في منتصف الجذع، فينفلق مُصدِراً صوتاً قصيراً ولطيفاً. ينفلق مثل ورقَتَيْ زهرة خشبية كبيرة. عندما لا يضرب في الوسط، يكون الصوت مختلفاً. رقيقاً ومزيفاً. صوت العمل السيِّئ.

في منتصف الليل، عندما ينام الرهبان، كان أمفروسي يشعل شمعة من مصباح الكنيسة، وبعد أنْ يغطّي لهبَهَا بكفِّه، يحملُها إلى فناء الدير. يسير ببطء، وهو يستنشقُ هواءَ الليل النَّقي ورائحةَ شمْع العَسَل. ولأنَّ الشمعة مغطَّاة براحة يد أمفروسي ولا تنيره، تبدو وكأنها كيان مستقل. تنتقل الشمعة في الهواء، وتحمل نيرانها إلى المطبخ.

من هذا القبس كانت النار تشتعل في الموقد الكبير. وبعد مرور بعض الوقت، يسخن الموقد. كان يسخن إلى درجة بحيث يصعب على المرء الاقتراب منه. بينما أمفروسي يعدّ طعامَ الرُّهبان فيه. وكان يضع الأواني وينظّفها، ويسكب الماء، ويلقي الحطب. حرقت النار لحية أمفروسي وحاجبَيه ورموشه.

«تحمَّلْ هذه النار، يا أمفروسي»، قال لنفسه، «فبهذا اللهب تقي نفسك من النار الأبدية».

كان أمفروسي يغلي في الأواني الفخارية الكبيرة حساءَ الملفوف (اللّهانة). يضع الملفوف فيها - طازجاً أو مخلّلاً، وأحياناً البَنْجَر أو الحمّاض البري. ويضيف إليه البصل والثوم ويتبّله بزيت القنّب. وكان يطهو كذلك عصيدة البازلاء ودقيق الشوفان والحنطة السوداء. وفي أيام الإفطار يُقَدّم البيضَ المسلوق مع حساء الكرنّب، بيضتين لكلّ راهب. وآنذاك كان يقلي في المقالي السمكَ الذي يصطاده الرُّهبان في البحيرة. أو يسلق السمك ويحضِّر منه حساءً. وفي الصوم الذي يسبق رقاد العذراء، كان يطعم الرهبان الخيار، ويقدِّمه بالعسل. وفي الأيام العادية من الصوم الكبير يقدّم الملفوف مع الزبدة والفجل المفروم، والتوت البري المبشور مع العسل، وفي أيام السبت والأحد - الكافيار الأسود مع البصل والكافيار الأحمر مع الفلفل. وعندما يخدم الإخوة، عادة ما لا يأكل معهم على مائدة الطعام، وإنما بعدها، في مكانه في المطبخ. كان أمفروسي يأكل الخبز بعد أن ينقعه بالماء، من دون أن يتناول من الأطباق التي أعدَّها. ويأكل وهو جالس قرب النار.

حدث مرةً، أنْ رأى وجهَهُ في النار. وجه الفتى ذي الشعر الأشقر الذي كان في بيت كريستوفر. ورأى ذئباً باسطاً ذراعيه عند قدمي الصبي. ينظر الولد إلى الفرن ويرى وجهه. وهو محاط بشعر شائب، مجموع في حزمة في مؤخرة الرأس. وتغطيه التجاعيد. وعلى الرغم من هذا التفاوت بينهما، يدرك الصبي أن هذا هو انعكاس صورته. لكن بعد سنوات عديدة. وفي

ظروف أخرى. هذا هو انعكاس صورة من يجلس قرب النار، ويرى وجه الصبي ذي الشعر الأشقر ولا يريد للداخل أن يزعجه.

الراهب ميليتي يتسكَّع عند العتبة، وبعد أنْ وضعَ إصبَعَه على شفتيه، يهمس إلى شخص خلفه أنَّ طبيبَ عمومِ روسيا أمفروسي مشغولٌ في الوقت الحالي. يراقب النيران.

- دعْها تدخل، يا ميليتي (يقول أمفروسي، من دون أن يلتفت). ماذا تريدين، يا امرأة؟

- أريد أنْ أعيش، أيها الطبيب. ساعدني.

- ألا تريدين أن تموتي؟

- يوجد من يريد أن يموت (يشرح ميليتي).

- لدي ابن، يا أمفروسي. ارأفْ بحاله.

- هل هو هكذا؟ يشير أمفروسي إلى فم الفرن، حيث يمكن روية صورة الصبي في محيط الشعلة.

- عبثاً، أيتها الأميرة، تجثينَ على ركبتَيكِ (ميليتي قلقٌ ويقضم بأظافره)، إنّه لا يحب هذا.

يرفع أمفروسي بصرَه عن اللّهب. يقترب من الأميرة الجاثية على ركبتيها ويجثوا على ركبتيه بجوارها. يتقهقر ميليتي ويخرج. يمسك أمفروسي الأميرة من حنكها وينظر في عينيها. ويمسح دموعها بظهر كفِّه.

- لديكِ، يا امرأة، ورمٌ في الرأس. لهذا السبب يتدهورُ بصرُك. ويصمّ سمعكِ.

يحتضن أمفروسي رأسَها ويضغَطُه على صدره. الأميرة تسمع نبض قلبه. وصوت تنفسه العجائزي الصعب. ومن خلال قميص أمفروسي، تشعر ببرودة صليبه على جلده. وبصلابة أضلاعه. هي نفسها مندهشة من ملاحظتها لهذا كلّه. خلف الأبواب المغلقة يقطع ميليتي أعواد الإشعال. لا يوجد تعبير على وجهه.

- ثِقي بالربّ وأُمِّه العذراء الطّاهرة واطلبي أنْ يمنحاك المساعدة

(يلمس أمفروسي بشفتيه الجافَّتين جبينَها)، وسوف يقلُّ الورم عندكِ. اذهبي في سلام ولا تحزني.

- لماذا تبكي، يا أمفروسي؟

- أبكي من الفرح.

يستدير أمفروسي بصمت إلى الذئب. فيمسح الذئبُ دموعه.

-ذ-

أُعطِيَتْ لأمفروسي في المطبخ هبةُ الدموع، فعندما يكون بمفرده، تغسلُ الدموع وجهَه من دون توقف. سالت الدموع على تجاعيد خديه، لكن هذه التجاعيد لم تكفّها. ثم شقَّت الدموع لها مسارات جديدة، فظهرت على وجه أمفروسي تجاعيد جديدة.

في البداية كانت هذه الدموع دموعَ حزن. إذ كان أمفروسي يبكي أوستينا والطفل، وبعدهما يبكي كل شخص أحبه في حياته. كما يبكي أولئك الذين أحبوه، لأنه كان يعتقد أن حياته لم تعطهم الفرح. وبكى أمفروسي حتى أولئك الذين لم يحبوه وأحياناً عذبوه، وكذلك أولئك الذين أحبوه، ولكن عذبوه، لأنهم عبَّروا عن حبهم هكذا. كما إنه بكى على نفسه وعلى حياته، ولم يكن يعرف بالضبط ما يقصد من ذلك. وفي الوقت الذي كان يأمل أن يعيش فيه حياة أوستينا، حتى يمكن أن تتصوّرها على أنها حياتها، لم يفهم أمفروسي أين تكمن حياته، لأنه ما زال لم يمت. وأخيراً، بكى بمرارة أولئك الذين لم يتمكن من إنقاذهم من الموت، فقد كان ثمّة الكثير منهم.

ثم تبدلت دموع الحزن بدموع الامتنان. لقد شكر الله سبحانه وتعالى لأن أوستينا لم تبقَ بلا أمل، وإنه، أمفروسي، يمكنه أن يسأل الله لها، مادام على قيد الحياة، ويعمل من أجل مصلحتها الروحية. وأثارت دموع الامتنان عند أمفروسي حقيقة أنه لا يزال على قيد الحياة، وبالتالي يمكنه القيام بالأعمال الصالحة. شكر أمفروسي الرب كذلك على العدد الكبير

من الناس الذين برئوا من المرض على يديه، وعلى منحهم الفرصة للعيش في الوقت الذي كانوا فيه معرَّضين لأن يصبحوا من الأموات ولن يعودوا قادرين على القيام بالمزيد من الأعمال الصالحة.

لم تغسل الدموع وجهَه فحسب، بل غسلت روحه أيضاً. فلأول مرة في حياته، شعر أمفروسي أن روحه مطمئنة. لقد أحاطت السكينة بأمفروسي بالتدريج ليس بسبب التقدير الكبير الذي يحظى به (شهرته أصبحت أكبر منها في أي وقت مضى)، ولا بسبب اللامبالاة، التي تستولي عند الشيخوخة على الكثير من الناس المحترمين. ارتبطت السكينة عند أمفروسي بالأمل الذي تعزز في نفسه مع كل يوم عاشه في الدير أكثر فأكثر. لم يعد الآن يشك في صحة طريقه، لأنه اقتنع بأنه يسير في الطريق الوحيد الممكن.

عندما ينظر إلى الشعلة المشتعلة، لم يعد يشعر بالاضطراب نفسه الذي شعر به من قبل. وبتعبير أدقّ، الاضطراب بقي، لكن فكرة النيران الأبديّة القادمة أخْلَت المجال لذكريات الماضي. الآن لم يرَ الطفولة فقط. رأى حياته في بسكوف وترحاله. أغمض أمفروسي عينيه قرب الفرن الساخن، وتصوَّرَ القدس.

أشجار منخفضة من بستان جتسيماني[1]. ذات جذوع واسعة ومتفرعة. وذات أغصان ملتوية. منحنية ومتكسرة، مثل صرخة متجمّدة. وبلاطات الرصيف الحجرية، التي صقلها مشي الناس إلى الرب على مدى قرون طويلة. تخزن دفء الشمس طوال الليل. يمكنك الاستلقاء عليها دون الخوف من الإصابة بنزلة برد. أدرك أمفروسي هذا عندما استلقى على البلاطات الدافئة لينام. عندما لم يجد ثمة مكاناً يقضي فيه الليل. عندما كان لا يزال أرسيني.

عَثر عليه، في ضواحي القدس بعد ضربة سيف المملوكي، عجوزان

1- جتسيماني: بستانٌ في جبل الزيتون في مدينة القدس يعرف بأنه المكان الذي صَلَّى فيه يسوع في الليلة السابقة للصلب وفقاً للعقيدة المسيحية – المترجم.

من اليهود، شيخ وشيخة. ولأنهما كانا يخافان من المماليك، عاشا خارج القدس. ولم يكن لديهما أولاد، وهذا كان واضحاً على وجهَيهما. يُدعيان تاديوش ويادفيغا. وقد قاما بالاعتناء به. كلّا، أولئك اعتنيا بفلاسي المحتضر، أما مَن اعتنى بأرسيني المحتضر فغيرهما. ربما أفرام وسارة. كبار السن دائماً ما يعتنون بشخص ما. وحدث أنْ نجا من الموت أرسيني. وأعطاه العجوزان متاعاً للطريق؛ أرغفةً من خبز الشوفان وماءً وقليلاً من المال، وتوجَّهَ ذاهباً إلى القدس.

-ر-

استمرَّ المرضى يأتون إلى أمفروسي. كان عددهم كثيراً، على الرغم من أنه في ظروف أخرى كان يمكن أن يكون عددهم أكثر. ساهمت عدة أسباب في الحد من التدفق. السبب الرئيس من بينها هو الكاهن إنوكينتي الذي نهى عن إزعاج أمفروسي بالترّهات. فقد عدَّ أشياء من قبيل علاج الأسنان والحد من الثآليل أموراً لا تستحق المعالجة، لأنها تصرفُ أمفروسي عن الحالات الأخرى الأكثر خطورة.

- قال الشيخ: مثل هذه المسائل، أرجو أن تعالجوها في محالّ سُكناكم.

إنَّ كثرة الزوار لم تشغل أمفروسي فحسب، بل حتى ضايقت الرهبان في الدير أيضاً، الذين انعزلوا عن العالم. بالإضافة إلى ذلك، كان الكثيرون منزعجين من أنّ الناس كثيراً ما يتوجَّهون مباشرة إلى أمفروسي، ولم يفكّروا في الصلاة والتوبة والخلاص.

- هؤلاء الناس (قال الأب مدبر شؤون الدير)، ينسون أنَّ الشفاء يهبُه ليس الأخ أمفروسي في الدير، بل الله في السماوات العُلَى.

إنَّ أوَّلَ مَن يستقبل أولئك الذين يأتون للمساعدة هو الراهب ميليتي، الذي كان يقرر كيفية التعامل مع كل حالة. فبعضٌ منهم يوجِّههم بالعودة إلى البيت على الفور، ولم يستمع إليهم حتى النهاية. وكان من بين هؤلاء الأكثرية الساحقة فقدوا قوَّتَهم الذكورية أو الذين لم يسبق لهم أنْ امتلكوها أبداً. لم يكن ميليتي يرى حاجة إلى استعادتها، مشيراً إلى

أنَّ تحقيق العكس، وفقاً لخبرته الخاصّة، هو أكثر صعوبة. والاستثناء الوحيد من ذلك هم المتزوِّجون الذين ليس لديهم أطفال. هؤلاء الناس فقط كان يقودهم إلى أمفروسي بعد تلاوة الصلاة المناسبة. وبعد زيارة الدير، تبدأ لديهم الحركة في أفكار السرير. ولكن بعد ولادة الطفل، تزول على الفور هذه الأفكار بصلوات ميليتي.

لم تكن صرامة الشيخ إنوكينتي والأخ ميليتي السبب الوحيد في أنَّ تدفق الوافدين على أمفروسي لم يزدد، بل تضاءل. فالعديد من المقيمين في مناطق بيلوزيرسك لم يتوجهوا لطلب المساعدة لأنهم، بسبب النهاية القريبة المحتملة للعالم، لم يروا في ذلك ضرورة ملحّة. وبدا لهم أن الوقت القصير المتبقي للحدث الرهيب يمكن أن يتحمَّلوه. وفي أسوأ الأحوال لا شيء سوى الموت، لأن تأخير ساعة الموت لم تشكِّل أهمية للكثيرين.

ومع ذلك، كان ثمة من لم يريدوا التسليم للموت فحسب، بل كانوا يفكرون في التغلب عليه حتى في حالة النهاية العامة للناس. وصارت تنتشر بين هؤلاء بالذات شائعات حول وجود إكسير الخلود عند أمفروسي. وحول أنَّ هذا الإكسير، كما يُزعم، جلبه أمفروسي معه من القدس، حينما كان لا يزال بعدُ أرسيني.

على الرغم من سخافة الشائعة، لم يكن ظهورها في الدير مثيراً للدهشة.

- في انتظار نهاية العالم، بدأ بعض الناس يفقدون أعصابهم (قال الشيخ إنوكينتي). وأمَّا بخصوص انتظارهم لأكسير الخلود من أمفروسي، فهذا له منطقه الخاص. فعندما يبحثون عن خلود الجسد، إلى مَن يمكنهم التوجه، أليس إلى الطبيب؟

حاول الراهب ميليتي أن يوضِّح للعديد منهم أن أمفروسي ليس لديه أي إكسير، لكنهم لم يصدِّقوه. وخوفاً من أن يكون الإكسير في الوقت اللازم غير كافٍ للجميع، فقد رتب بعضهم للسكن بالقرب من جدران

الدير وبنوا لأنفسهم ما يشبه السكن. فقد تصوّروا الدير على أنه التابوت الجديد، حيث يمكن استقبالهم إذا لزم الأمر.

وعندما تجاوز عدد هؤلاء الأشخاص المائة، جاء إليهم أمفروسي. ونظر طويلاً إلى منازلهم الفقيرة، ثم أشار إليهم أن يتبعوه. وعند دخول بوابة الدير، قادهم أمفروسي إلى كنيسة رقاد السيدة العذراء المباركة. وفي ذلك الوقت نفسه، كان القداس قد انتهى في الكنيسة، وخرج الشيخ إنوكينتي من البوابة الملكية ومعه كأس سرّ التناول. وسقط شعاع من شمس الصباح من النافذة المشبّكة. الشعاع كان لا يزال ضعيفاً. شق طريقه ببطء من خلال الدخان الكثيف للمبخرة. واخترق حبات الغبار، التي لا تكاد ترى، واحدة تلو الأخرى وأخذت تدور داخله بالتناوب في رقصة براونية مدروسة. وعندما بدأ الشعاع يلعب على فضة الكأس، غمر الضوء الكنيسة. كان هذا الضوء ساطعاً جداً لدرجة أنّ الداخلين الجدد ضيَّقوا أعينهم. أشار أمفروسي إلى الكأس، وقال:

- إنه يحتوي على إكسير الخلود، وهو كافٍ للجميع.

-ز-

وذات مرة احتيج في الدير إلى كَتَبَةٍ، فنقل رئيس الدير أمفروسي من المطبخ إلى صومعة ناسخي الكتب. إلى جانبه كان ثمة ثلاثة أشخاص آخرين. كان الشيخ إنوكينتي يجلب المخطوطات للنَّسخ. على صفحات الكتب المخطوطة في كل مكان إشاراته من هنا وإلى هنا بالخط العريض. راعى أمفروسي تلك الإشارات بدقّة.

يبدأ أمفروسي عمله كل يوم بتنظيف الريش وترتيب الأوراق. وكان يضع على المخطوطة المنسوخة، لكي لا تُغلق، قطعة من الخشب. ويمدّ على طول صفحة المخطوطة شريطاً من الورق، يساعد على عدم فقد المكان المناسب. كان يمسك الشريط بيده اليسرى، ويكتب باليد اليمنى. يتحرك الخط إلى الأسفل، فاتحاً سطراً بعد سطر.

ثم توفي راهب آخر، بعد مرض طويل. قام شخص من أصدقائه بمسح جسده بقطعة إسفنج وذهب إلى الكهف رغبةً منه في النظر إلى القبر، حيث سيرقد جسد صديقه، وسأل عن هذا القدّيس مرقس. فردّ عليه المبارك: «اذهبْ، وأخبر أخيك أن ينتظر حتى الغد، حتى أحفر له قبراً، ثم ستنتقل من الحياة إلى الراحة». قال له الأخ الذي جاء إليه: «أيها الأب مرقس، لقد مسحتُ جسده الميت بقطعة إسفنج. لمَن تأمرني أن أتحدث؟». قال مرقس مرة أخرى: «ألا ترى، المكان غير ممهَّد بعد. آمركَ، اذهبْ وقل للمتوفى: مرقس الخاطئ يقول لك: يا أخي، عشْ هذا اليوم، وغداً ستذهب إلى ربِّنا الحبيب. عندما أُحَضِّر مكاناً لأضعك

فيه، سأرسل لك». استمع الأخ الذي جاء إلى الراهب، وعندما وصل إلى الدير، وجد الأخوة يُنشدون، حسب العرف، على المتوفى. ووقف إلى جانب المتوفَّى، وقال: «مرقس يخبرك أنَّه لم يحضِّر لك، يا أخي، المكان، انتظر حتى الغد». وفوجئ الجميع بهذه الكلمة. وعندما نطق الأخ بذلك أمام الجميع، أبصرَ الميت على الفور وفتح عينيه، وعادت روحُه إليه. ومكث ذلك اليوم والليلة كلها وعيناه مفتوحتان، لكنه لم يقلْ أيَّ شيء لأيِّ أحد.

حدث أنْ وقع أحدُ المحاربين بعد التوبة في الزنا مع زوجة أحد المزارعين. وما إن ارتكب خطيئة الزنا، حتى توفّي. وبعد الرأفة، دفنه رهبان دير قريب في كنيسة الدير، وكانت آنذاك الساعة الثالثة من خدمة القداس. وعندما أنشدوا الساعة التاسعة، سمعوا صرخة من القبر: ارحموني يا عباد الله. وبعد حفر التابوت، وجدوا المحارب جالساً فيه. بعد أن أخرجوه من هناك، بدأوا يسألونه عمّا حدث. ولمّا كان مجهشاً في البكاء، لم يستطع أن يخبرهم بأي شيء وطلب منهم فقط أن يأخذوه إلى الأسقف غيلاسي. ولم يتمكن إلا في اليوم الرابع أن يخبر الأسقف بما حدث له. فلأنه مات وهو واقع في الخطايا، رأى المحارب بعض الوحوش، التي كان وجهها أكثر رعباً من أي عذاب، وعندما رآهم بدأت روحه تتقلَّب. وقد رأى كذلك شابَّين جميلين يرتديان ثياباً بيضاء، فحلقت روحُه إليهما في يديهما. ورفعا روحه في الهواء، وقاداها في المحن، حاملَين معهما تابوتاً بالأعمال الصالحة لهذا المحارب. ولكل عمل سيء ثمة عمل صالح في التابوت، أخرجاه من هناك وغطَّيا العمل السيء به. وبقيت المحنة الأخيرة المرتبطة بالزنا، لم يبقَ ثمة عمل صالح ليغطّيها. عندما أحضرت الشياطين كل الخطايا الجسدية وخطايا الضلال التي ارتكبها منذ أيام المراهقة، قالت الملائكة: «كل ما ارتكبه قبل التوبة، غفره الله له». أجابهم على هذا خصوم عابسون: «هذا صحيح، لكن بعد التوبة ارتكب الزنا مع زوجة المزارع، ثم مات من ساعته تلك قبل أن

يتوب». بعد سماع هذه الكلمات، حزنَ الملائكة وابتعدوا، لأنه لم يعد لديهم عمل حسن لتغطية هذه الخطيئة. ثم فتَنَهُ الشياطينُ، وانشقّت الأرض، وألقوه في مكان ضيق ومظلم. بقي هناك، يبكي، من الساعة الثالثة إلى التاسعة، عندما رأى فجأة اثنين من الملائكة ينزلان هناك. وجعل يتوسل لكي يَرياه حتى يتمكنا من إخراجه من الزنزانة ويخلصاه من هذه المحنة الفظيعة. ردّا عليه: «إنك تدعونا عبثاً، لأنه لا أحد من هؤلاء الذين وقعوا هنا يخرج من هنا إلى يوم القيامة». لكن المحارب استمرّ بالبكاء والتوسّل بهما، قائلاً إنه لو عاد إلى الأرض سيعود بالفائدة على الأحياء. عند ذاك سأل أحد الملاكَين صاحبه: «هل ستكفل هذا الإنسان؟». فأجابه الملاك الثاني: «أكفله». ثم حملا روح المحارب إلى التابوت وأمراها أنْ تدخل الجثة. وتلألأت الروح كالخرز، وكانت الجثة الميتة سوداء اللون كالطين الأسود، وتفوح منها رائحة نتنة. وصرختْ روحُ المحارب أنها لا تريد الدخول في الجثة حتى لا تتكدَّر. فقال الملاكان للمحارب: «لا يمكنك أن تتوب إلا بالجسد الذي أخطأت به». ودخلت الروح الجسد من خلال الفم، وأحيَتْه. وبعد أن سمع ما قيل، أمر الأسقف غيلاسي الجندي أن يأكلْ. فقام المحارب بتقبيل الطعام، ورفض أكلَه. وعاش أربعين يوماً، صائماً ومستيقظاً، ويخبر بما رآه، ويطلب التوبة، وعلم بوفاته قبل ثلاثة أيام. هذا ما أخبرَ به الآباء الجديرون بالثقة من أجل مصلحتنا الروحيّة.

كان الإمبراطور ثيوفيلوس محارباً للأيقونات ومحطِّماً لها، وهذا ما تسبب للإمبراطورة ثيودورا بحزن كبير. حدث لثيوفيلوس بغضب من الله أنْ أصيب بمرضٍ شديد. إذْ افترقَ فكّاه، ولم يعد قادراً على إغلاق فمِه، الأمر الذي جعل مظهره خارجاً عن المألوف ورهيباً. لكن الإمبراطورة، أخذت أيقونة أمّ الرب العذراء، ووضعتها على شفتيه، فانطبقتا من جديد. وبعد قليل من الوقت فارق ثيوفيلوس الحياة ومات بهذا المرض. كانت الإمبراطورة حزينة جداً لأنها عرفت أن زوجها سيقاد إلى العذاب

مع الهراطقة، وظلّت تفكّر بلا انقطاع في كيفية مساعدته. فقامت بإعادة المنفيِّين وإطلاقِ سراح من في السجن وتوسَّلتْ للبطريرك أن يطلب من جميع الأساقفة والكهنة والرهبان أن يقوموا بالصلاة من أجل ثيوفيلوس الإمبراطور، حتى يخلّصه الربّ من العذاب. لم يُذعن البطريرك في البداية، ولكن، بعد أن تأثّرت مشاعره بتوسُّلات الإمبراطورة قال: «لتكن مشيئة الله». وأمر أنْ يقوم جميع الأساقفة والكهنة والرهبان بالصلاة من أجل الإمبراطور ثيوفيلوس. كتب البطريرك نفسه أسماء جميع الأباطرة الهراطقة ووضع ما كتبه في كنيسة القدّيسة صوفيا على المائدة. وصلى الجميع لأجل ثيوفيلوس الأسبوع الأول من الصوم الكبير. وعندما جاء البطريرك يوم الجمعة ليأخذ المكتوب، فوجد جميع الأسماء فيها سليمة، ووجد اسم ثيوفيلوس ممسوحاً بإرادة الله. وقال له الملاك: سُمِعَت صلاتُك، أيُّها الأسقف، وشملت الإمبراطور ثيوفيلوس رحمةُ الإله. لنتصوَّر، أيها الإخوة، مدى محبة الله للبشر وسماعه لصلوات القدّيسين. ولنندهش من إيمان الإمبراطورة الفاضلة ثيودورا المباركة ومحبتها لله، ومن النساء الوفيّات اللواتي يحفظن أزواجهنَّ وينقذنهم حتى بعد وفاتهم. ومع ذلك، لنتذكرْ أيضاً أنّ الروح واحدة، وثمة زمن واحد تعيشه، ولا نثق دائماً بأن الآخرين سيخلصوننا وينقذوننا.

إن مخطوطات أمفروسي محفوظة حالياً في مجموعة كيريل - بيلوزيرسك التابعة للمكتبة الوطنية الروسية (سانت بطرسبورغ). يُجمِع الباحثون الذين يدرسونها على أنَّ يدَ الكاتب الذي كتبَها ثابتة، وأنَّ خطَّ اليد مكوَّر. وهذا، في رأيهم، يشير إلى تمتع أمفروسي بالتماسك والوئام الداخلي. وتشير الصارية العالية للحرف ерь إلى أنه بحلول ذلك الوقت كان قد ترك المطبخ نهائياً ولم يعد يولي مسائل طعام الجسد إلا اهتماماً ضئيلاً.

-س-

قال أمفروسي في الاعتراف للشيخ إنوكينتي:

- إني لا أتمتع دائماً بحضور الذهن أثناء القدّاس، وأحياناً أفكر في أشياء جانبية. بالأمس، على سبيل المثال، تذكرت واحدة من رؤى أمبروجو طيب الذكر.

- ما هي، باختصار (سأل الشيخ).

وهذا ما قاله أمفروسي للشيخ:

30 آب (أغسطس) 1907، قرية مانيانو. تستيقظ الصبية فرانتشيسكا فليكيا، البالغة من العمر اثني عشر عاماً، والتي يعود نسبها إلى أليرتو فليكيا، شقيق أمبروجو، من شعور بالخوف غامض وخفي. يرتفع الخوف من مكان ما في بطنها. إنها تشعر بهيجان في الرحم، وتقفز خارج السرير وتذهب إلى المرحاض، الذي يقع في فناء المنزل. هناك تتحسن حالتها. فرانتشيسكا تفتح باب المرحاض قليلاً وتراقب ما يحدث في الفناء. جدتها تقف في شعاع الصباح المرتعش. يشق الشعاع طريقه من خلال فروع شجرة الصنوبر، وهذا يجعله يرتجف. الجدة شاحبة ومتغضنة. الجدة مستغرقة في التفكير. تلاحظ فرانتشيسكا بحزن ما لم تر مثله من قبل. ربما هذا هو أيضاً تأثير شجرة صنوبر. ولعل الجدة، لأنها لا تعرف ماذا ينبغي عليها، قد وهنت لا غير. كانت فرانتشيسكا قد رأت ذات مرة كيف بدا رجلٌ شاباً أمام الناس، ثم ذهب إلى الزاوية وهرمَ على الفور. بعض الأشياء تعتمد على الجهد الإرادي، ولكن لا يمكن أن تُرهق

الإرادة باستمرار. ترى فرانتشيسكا أن جدتها هرمة حقاً. إنها تدرك إلى أين ستقود جدتها شيخوختها هذه. تنتاب الصبية مرة أخرى تشنجات في المعدة، وتسيل الدموع من عينيها. تختفي الجدة في المطبخ الصيفي.

تدخل الفناء مارغريتا شقيقة فرانتشيسكا. ترى مارغريتا أن المرحاض مشغول، وتعود إلى المنزل. تأتي أم فرانتشيسكا. في يديها فستان زفاف مارغريتا، التي ستتزوج اليوم. الأم تزيل بالنفخ ذرات غبار غير مرئية من الفستان وتدخل مرة أخرى إلى المنزل. يأتي الأب من الشارع. يحمل على يديه الممدودتين باقة كبيرة من الورود البيضاء. الورود موضوعة في دلو فيه ماء، ومربوطة بشاش. يحجب الشاش رؤية وجه الأب تماماً. مارغريتا تخرج من المنزل وتطلب من فرانتشيسكا أن تسرع. بعد أن يعب الأب الماء من القدح إلى فمه، يقوم برشه على الورود. تتذكر فرانشيسكا أنها اليوم رأت في المنام رأساً مقطوعاً.

بلغت مارغريتا للتو ثماني عشرة سنة. ستتزوج ليوناردو أنتونينو. فرانتشيسكا تحب ليوناردو منذ عدة أشهر. إنه مرن، مثل النمر، ويذكّر اسمه فرانشيسكا بمرونته باستمرار. ويذكّرها بكونه رقيق - قبل كل شيء، بالروح وبالعقل. في بعض الأحيان تقتنص نظرات ليوناردو الحزينة، ويبدو لها أنه يلاطف مارغريتا ويتودد إليها لمجرد صرف الانتباه وبقصد التمويه، حتى يبقى دائماً بجانب فرانتشيسكا. وإذا كان الأمر كذلك، فليس من الواضح لماذا يتزوج مارغريتا. فرانتشيسكا تبكي من جديد.

تظن مارغريتا أن فرانتشيسكا تتعمد الجلوس طويلاً في المرحاض حتى تمنعها من دخوله. إنها تشكو لأمها. تأمل فرانتشيسكا بشكل غامض أن تذهب مارغريتا تحت الإكليل بعد أن تعتني بنفسها. الأم تسحب فرانشيسكا من المرحاض. إنها تفعل ذلك بلطف، لأنها تعلم أنَّ فرانتشيسكا ستسافر يوم غد. الأم تريد أن تزودها بالقليل من الدفء والحنان للمستقبل. قُبِلَت فرانتشيسكا في مدرسة داخلية كاثوليكية

للبنات، وستذهب إلى فلورنسا. إذ لا تكفي مدرسة الأبرشية في مانيانو لتحقيق شيء في الحياة... فرانتشيسكا خائفة.

ينزل موكب العرس ببطء من الجبل. يسير من مانيانو إلى الوادي، حيث تقع كنيسة القدّيس سيكوند وحدها. إنها كنيسة رومانية جميلة من القرن الثاني عشر. لا تقام فيها صلوات منتظمة، ولكنها تُفتَح لعقد القران لسكان مانيانو. في الأمام تسير عربة العريس والعروس، مكللة بضفائر من الزهور، ثم عربات والديهم والشهود. إنهم يسيرون ببطء، ببطء شديد. يحيط بهم العديد من الضيوف. الطريق واسع ويسمح بالسير بجوار العربة. ينتقل الموكب إلى المصور، الذي يختبئ تحت عباءة سوداء على حامل ثلاثي القوائم.

يمسك الحوذيون بالأسطوانات عند النزول الشديد للخيول. تنشر الرياح الصاعدة طرحة العروس، فترفرف فوق السائرين كراية بيضاء شبحية. الأشجار فوق الطريق تتأرجح وتثير ضوضاء. وتتساقط منها الكستناء الناضجة على الموكب. ترتطم إحدى حبات الكستناء برنين قبالة أسطوانة الحوذي. الجميع، بمن فيهم الحوذي، يضحكون. تسحق عجلات العربات على الكستناء الساقطة محدثة قرقعة.

الجو في كنيسة القدّيس سيكوند بارد. إنه برد القرون السالفة، الذي يخافه الحاضرون قليلاً. تبدو العروس، بطبيعة الحال، أكثرهم خوفاً، فهي لا حول ولا قوة لها. تبدو وكأنها فراشة تحلق في سرداب كئيب. يبتسم القس. يجلس خلف فرانتشيسكا سيلفيو السمين. يتنفس، وينفث نفَسَه في ظهرها. إنه يتنفس ويشخر. تشعر على ظهرها بدفء أنفاسه، فيبعث هذا فيها إحساساً بالراحة. فعلى الرغم من أنه يأتي من خياشيم هذا الرجل السمين، لكنه يبقى، على كل حال، نَفَس الحياة.

بدا لفرانتشيسكا من غير المعقول مقارنة حشد الحاضرين مع قِدَم الكنيسة. إنها مقارنةُ تجمّع للأشباح، الذين سيتوارون في لحظة ويتركون الكنيسة (لطالما شهدت الكنيسة مثل هذا!) وحدها مع الخلود. تحاول

فرانتشيسكا تصور الجميع على شكل هياكل عظمية. كنيسة مليئة بالهياكل العظمية، وواحد من تلك الهياكل العظمية يرتدي طرحة.

عندما خرج المجتمعون من الكنيسة، الجميع ضيَّقوا عيونهم. ونثروا على العرسان النقود المعدنية الصغيرة والحبوب. يعود موكب الزفاف إلى مانيانو. في طريق العودة تتمكن فرانتشيسكا من إخبار القس بحلمها، وكيف غطت فقاعات الدم الرقبة المحزوز منها الرأس، وكيف تدفق الدم على شكل دفعات من الشريان الأورطي المقطوع.

- أعتقد أن المقصود بهذا الكلام في هذه القضية هو أمبروجو فليكيا، يقول القس. ولا عجب أنَّه تراءى لكِ في المنام، لأنَّكِ، على كل حال، من ذويه. وإذا رأيتِهِ مرة أخرى، فرجاءً دوّني ذلك. في الواقع، ما زلنا لا نملك إلا القليل من الحقائق حول أمبروجو فليكيا.

أقيمت في ساحة القرية طاولات عليها طعام وشراب. وعلى طول الطاولات ألواح مقاعد بلا مساند. على الألواح مفارش. وقُبال المائدة الوفيرة، الجميع في حالة معنوية عالية. إنهم فرحون من أجل العرسان. الجد لويجى يلفُّ سيجارة، ويتناولها بإصبعين ويأخذ نفَساً منها. المَجْل المتيبِّسة لا تسمح لأصابعه بالانحناء. وجهه يشبه حجر الخفاف (الزجاج البركاني). يقول إنه لم يرَ مثل هذا الزواج الرائع. كلماته تخرج مع الدخان وتبدو مفعمة بروح القِدم.

في المساء، توضع الشموع على الطاولات. ظلالها ترقص على الواجهات المطلية بالمُغْرَة. تنطفئ الشموع على بعض الطاولات من جرّاء النفخ. يطفو دخانها طويلاً في الهواء المتوقّف. بين الحين والآخر، ينهض الأزواج من خلف الطاولات ويختفون في الظلام. إنهم، في الواقع، لا يذهبون بعيداً. يقفون، مستندين على الجدران الدافئة للمنازل. وفي بعض الأحيان يعودون لشرب كأسٍ من النبيذ.

تنهض فرانتشيسكا من خلف الطاولة. إنها تعلم أنها لم تعد تنتمي إلى هذا العالم، وتشعر بأنها تعيسة. ولا تعرف إلى أي عالم تنتمي. إنهم

يحتفلون، بينما هي لم تعد موجودة هنا. إنهم يتمتعون بالوليمة؛ يأكلون ويشربون، بينما هي لم تستطعْ ابتلاعَ لقمةٍ واحدة. فرانتشيسكا تقف في فجوة المدخل، والآن لا أحد يستطيع رؤيتها. يبتلعها الظلام. هذه هي الطمأنينة بعينها.

يمرّر شخصٌ يدهُ على وجهها. يتحرّك إصبع أحدهم من جبينها إلى أنفها، ومن الأنف إلى الذقن. فرانتشيسكا تستسلم بلا حراك. شخص ما يمسِّد على شعرها. إنها تشعر ببرودة مقبض الباب بظهرها وتجده بيدها. تمسك به بكل قوتها. تلامس شفتاها شفتيه. وعندما تخرج من ظلام كوَّة الباب، تستدير. فتراه، إنه ليوناردو.

وفي صباح اليوم التالي، غادرت فرانتشيسكا إلى فلورنسا ومنذ ذلك الحين لم تأتِ إلى مانيانو ولا مرة واحدة. فبعد تخرُّجها في المدرسة الكاثوليكية للبنات، تزوَّجت في العشرين من عمرها الملازم ماسيمو توتي. وانتقلا إلى روما. وفي عام 1915، التحق الملازم توتي بالجبهة، وقُتِل في المعركة الأولى. وقد وِلِدَ لفرانتشيسكا من الملازم، المتوفي في ذلك الوقت، صبيٌّ أسمته مارسيلو. وفي الوقت الذي كانت فرانشيسكا تتولَّى فيه تربية ابنها، كانت تدرس في كلية الفيزياء في الجامعة وتعمل في متجر للأحذية. وفي بعض الأحيان كانت تود أن تترك كل شيء وتعود إلى مانيانو. وبعد تخرجها في الجامعة، حصلت على دبلوم في تدريس الفيزياء. وعثرت فرانتشيسكا بصعوبة على عمل لها بنصف نصاب في واحدة من مدارس نابولي الثانوية التخصصية في المجال العلمي. كان المال ينقصها بشدة. ولكي تبقى على نحو ما محافظة على حالتها السابقة، عادت فرانتشيسكا إلى روما وذهبت للعمل في المشرحة. كان مرتَّبها في المشرحة جيداً. في لحظات الفراغ القليلة من خفاراتها، كانت تقرأ جويس. وفي بعض الأحيان تدوّن أحلامها حول أمبروجو. وفي نهاية المطاف، قامت بنشرها تحت عنوان عام أمبروجو فليكيا وزمانه. طوَّرت فرانتشيسكا في الكتاب، على مادة الأحلام

المسجلة، من بين أمور أخرى، نظرية أينشتاين حول نسبية الزمن. وعلى عكس أعمال الفيزيائيّ العبقري البارع أينشتاين، الكتاب مكتوب بلغة بسيطة ومفهومة وحقَّقَ نجاحاً منقطع النظير. أصبحت فرانشيسكا غنيَّة ومشهورة. غادرت المشرحة. وبعد أن اشترت قصراً على شاطئ أوسيتيا، عاشت هناك ثمانية وعشرين عاماً حتى يوم وفاتها. وفي إحدى مقابلاتها الأخيرة، سُئِلت فرانتشيسكا أيّ يوم من حياتها تتذكّره أكثر من غيره. بعد تفكير قليل، أجابت فرانتشيسكا:

- ربما ذاك هو يوم زواج شقيقتي مارغريتا.

-ش-

في يوم من الأيام جاء إلى الدير رجال بعثهم البويار (الإقطاعي) المسكوفي فرول. فقد أمضى البويار فرول في زواجه مع زوجته أغافيا خمسة عشر عاماً، لكن لم يولد لديهما أطفال. وعلى الرغم من أنهما زارا العديد من الأديرة واستدعيا الأطباء الأكثر مهارة، لم يحدث حمل لدى أغافيا. وشيئاً فشيئاً بدأ أملُهُما يتلاشى، ومع اقتراب عامٍ سبعة آلاف من خلق العالم تلاشت حتى الرغبة ذاتها بأن يكون لديهما طفل، لأن حياته بسبب النهاية المحتملة للعالم يفترض أن تكون قصيرة وحزينة. ولهذا السبب عندما وصل الخبر إلى البويار فرول عن المعالج المذهل من دير كيريل، لم يفرحْ.

- لماذا تلدُه للموت (قال البويار فرول لذويه وأهل بيته).

- الحقيقة، أنَّ الجميع يولدون للموت (ردّ أهل بيته عليه)، ولم نرَ غير مَن يموتون.

- أقول لكم أنَّ أنس (إدريس) وإيليا ارتفعا إلى السماء أحياءً (أجاب البويار)، ولكنكم لم تروهم حقاً.

- إنك تعرف، أنَّ الحياة يجب أنْ لا تتوقف مالم يوقِفُها الله سبحانه وتعالى (نصحه أهل بيته).

فكَّر البويار فرول ووافق. وقال:

- اذهبوا إذاً إلى دير كيريل واطلبوا الصلاة من الراهب أمفروسي لكي يمنحني الله ثمرة الذرية.

انطلق الذين أرسلهم البويار فرول وساروا على ظهور الخيل عشرين يوماً. وعند صباح اليوم الحادي والعشرين دخلوا أبواب الدير، واستقبلهم أمفروسي. ومن دون أن يسأل الزوارَ أي شيء، قال:

- أعتقد أن طريقناً ليس عبثاً، وبصلوات سيدتنا العذراء المقدسة سيمنح الرب البويار فرول وقرينته ثمرةَ الذرية.

مع هذه الكلمات، أعطاهم أمفروسي قطعتين من القربان المقدس للبويار ولزوجته. وبعد تقبيل يد المانح، ذهب الضيوف إلى القدّاس. وقضوا نصف النهار راكعين، والنصف الآخر من النهار والليل كله ارتاحوا فيه من وعثاء السفر. ومع الفجر انطلق رجال البويار في طريق العودة الذي تقلَّص وقته إلى النصف، لأن رائحة القربان المقدس قد أشبعت جوعهم، ورؤيته خففت التعب. وعندما عادوا إلى موسكو، أول شيء سألهم البويار عن القربان المقدس. فقدَّموا له القطعتين، وفي غضون عامَيْن ولِدَ لديه طفلان: الأوّل صبي، ثمّ فتاة.

- كيف عرفت عن القربان المقدس (سأل البويارَ أهلُ بيته).

فحدَّثهم البويار أنّه في الليلة التي ارتاح مبعوثوه فيها في الدير من تعب الطريق الطويل، رأى هو وزوجته في المنام كاهناً أشقر الشعر معه قطعتان من فطير القربان المقدَّس. تكلَّم الكاهن من دون أن يفتح شفتيه، لكن حديثه كان واضحاً:

- سوف يكون سلوى لكم ابنٌ وابنة. سنصلّي هنا من أجل ألّا يحدث شيء حتى عيد الفصح هذا العام. وفي يوم عيد الفصح وحده سيكون من الممكن أنْ نأملَ في أنْ يبقى العالَمُ سالماً.

-ص-

في يوم عيد الفصح العظيم من سنة سبعة آلاف، دقَّت أجراس ديرُ كيريل كلّها. تدفَّق هذا الرنين على أرض بيلوزيرسك، معلناً أنَّ الربَّ أظهر رحمته اللَّا محدودة للبشر وأعطاهم الوقت الكافي للتوبة. وتقرّر استئناف مراسم عيد الفصح، لأنَّ قبل هذا اليوم ما كان أحد يعرف أيأتي عيد الفصح في سنة سبعة آلاف هذه أم لا.

جرت دموع الامتنان من عيون الكثيرين. وفرح المحبّون وتسلّوا لأن فراقهم قد تأجّل، واطمأنَّ من لم تكتمل شؤونهم لأنهم حصلوا على الوقت اللازم لإكمال إنجازها، وحدهم المتعطشون لنهاية العالم لم يفرحوا، لأنهم خُدِعوا في توقّعاتهم.

في يوم عيد الفصح من سنة سبعة آلاف، قال أمفروسي للشيخ إنوكينتي:

- إني، أيها الشيخ، أنشد العزلة.

- أعلم (أجاب الشيخ إنوكينتي). يوجد وقت للتواصل، ويوجد وقت للعزلة.

- لقد عرفتُ العالم لمدة طويلة وراكمته في نفسي لدرجة أنني أستطيع أن أدركه من الآن وصاعداً في نفسي.

- الآن، فيما يتعلق بنهاية العالم، نحن إلى درجة ما مطمئنُّون، لقد حان الوقت للعزلة. استعد، يا أمفروسي، هذه السنة، عليك أن تلبس المسوح وتتمسّك بالزهد.

استعداد أمفروسي كان علاج المرضى. فبعدما أصبح من الواضح أخيراً أن الحياة ستستمر في المستقبل المنظور، ازداد تدفق المرضى عشرة أضعاف. إذ التحق بهذا التيار أولئك الذين أصيبوا بالمرض مؤخَّراً، مع أولئك الذين فضَّلوا في السنوات الأخيرة تحمُّل المرض والصَّبر عليه، ولكن نظراً للآفاق الطيبة المنفرجة غيَّروا رأيَهم.

هذا العدد الكبير من الزوار أحرج الإخوة الرهبان ومنعهم من التركيز في الصلاة. وقد اشتكى بعضٌ منهم من هذا إلى رئيس الدير.

- وهل كنتم من قبل تستطيعون التركيز في الصلاة (سأل رئيس الدير أصحاب الشكوى).

لم يكن باستطاعة المشتكين الردّ، فشكرهم رئيس الدير على صدقهم.

لكن أمفروسي نفسه كان في شك من صحة ما يجري. أحياناً كان يتذكر كلمات الأب مدبر شؤون الدير عن حقيقة أن العديد من أولئك الذين جاؤوا إليه يفكرون فقط في الصحة، من دون أن يفكروا في الصلاة والتوبة والتكفير عن الذنوب. هذه الكلمات زرعت بذور الشك في أمفروسي. فشعر بعدم الارتياح، لكن الشيخ إنوكينتي لم يعد موجوداً إلى جانبه. في ذلك الوقت انتقل فيه الشيخ إنوكينتي إلى صومعة الصلاة على المتوفّين التي تقع على بعد مسيرة يوم من الدير. ولأنَّ أمفروسي يعلم أن الشيخ لا يبالي بالمسافة، قال له من الدير:

- أخشى أن علاجي لهم يصبح عندهم مسألة اعتيادية. ولا يعود يحفّز نفوسَ هؤلاء الناس على الحركة، لأنهم يتلقَّون العلاج بشكل تلقائي.

- ماذا تعرف عن العمل اللاإرادي، يا أمفروسي (أجاب الشيخ إنوكينتي من صومعة الصلاة على الموتى). إذا كانت لديك موهبة الشفاء، استخدمْها، لأنها تُعطَى لك لهذا السبب. وسوف ينتقل فعلهم اللا إرادي بسرعة عندما لا تكون معهم. ومعجزة الشفاء، صدِّقْني، ستُذكَر إلى الأبد.

-ض-

في 18 أغسطس (آب) من سنة سبعة آلاف لخلق العالم ردَّد أمفروسي قسَمَ التنَسُّك ولبس المسوح في كنيسة رفع السيدة العذراء. طقس ترديد قسم الرهبنة ذكَّره بطقس رسم الرهبنة منذ بضع سنوات. لكن هذه المرة كان كل شيء أكثر رسمية وصرامة.

دخل أرسيني إلى الكنيسة، كما يليق وينبغي، خلال المدخل الصغير لليتورجيا (الشعيرة الدينية). وعند دخوله، نزع الغطاء من رأسه، والصنادل من قدميه. وركع ثلاث مرات إلى الأرض. لقد اعتادت عيناه على عتمة الكنيسة. وميَّزت الكتلة المظلمة للحاضرين وجهه. كان يقف في الجوقة رجل يشبه كريستوفر. بل، ربما، كان هو كريستوفر نفسه.

- يا خالق الجميع وطبيب المرضى، يا ربّ، أنصتْ، يا الله، لصلاتي ولا تغفلْ عن تضرُّعي. التفتْ إليّ واستمعْ مِنّي إلى النهاية وخلِّصْني (همسَ أمفروسي بعد الجوقة).

هبَّت من الأبواب المفتوحة رياح أواخر الصيف. ارتفعت الأضواء فوق الشموع، ثم تسمَّرت في مكانها بعد أن امتدت في اتجاه عام. في طفولته، عندما كان يقف في هذه الكنيسة مع كريستوفر، كانت الأضواء تتحرك هكذا بالضبط. وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي ربط أمفروسي بذلك الوقت، لأنه كان هو نفسه في السابق شخصاً آخر، وأنَّ كريستوفر الآن يرقد في القبر. أو على الأقل وُضِعَ هناك. اعتقدَ أمفروسي أنه لا

يتذكَّر بالضبط كيف كان يبدو كريستوفر. من أين لكريستوفر أنْ يكون هنا؟ كلّا، لم يكن هذا كريستوفر.

- هل ترفض العالم وما في العالم، حسب وصية الربّ (سأل رئيس الدَّير أمفروسي).

- أرفضه. (أجاب أمفروسي).

سمع صوت غلق الباب خلفه، ولاحظ استواء لهيب الشموع. فلم يعد الآن ثمة ما يثير اللهب فيها. لا يمكن أن يكون ذلك سوى الروح، فكَّر أمفروسي. الروح الخالدة والمطمئنة. وروحي لم تصل بعد للطمأنينة، لأنها تتألّم لروح أوستينا.

قال رئيس الدير:

- أعطني المقصّ وانتظر.

أعطاه أمفروسي المقصّ وقبّل يده. فتح رئيس الدير يده، فسقط المقص على الأرض.

رفع أمفروسي المقص، وسلَّمه إلى رئيس الدير، فأسقطه رئيس الدير مرة أخرى.

ثم قام أمفروسي برفع المقص مرة أخرى، فأسقطه رئيس الدير مرة ثالثة.

وعندما رفع أمفروسي المقص في هذه المرة أيضاً، اقتنع الحاضرون كلّهم بأن أمفروسي نال الرِّسَامة طواعيةً.

بدأ رئيس الدير طقس الرِّسَامة. وحلق خصلتين متقاطعين من رأس أمفروسي على شكل صليب ليترك له نصيباً من التأمل. وعندما نظر إلى الخصلتين الشائبتين على الأرض، سمع أمفروسي اسمه الجديد:

- إن أخينا لاوروس يحلق شعر رأسه باسم الآب والابن والروح القدس. ونقول عنه: يا رب، ارحم!

- يا رب ارحم، ردَّ الإخوة.

في 18 أغسطس (آب)، عندما لبس أمفروسي ثياب الرهبنة الكبرى،

كان يوم الشهيدين فلوروس ولاوروس. ومن ذلك اليوم، أصبح أمفروسي لاوروس.

قال الشيخ إنوكينتي من صومعته:

- لاوروس اسم جيّد، لأنه نبات[2]، من الآن فصاعداً لديك اسم ملاك وشفاء. وكونه دائم الخضرة، فإنه يمثل الحياة الأبدية.

- لم أعد أشعر بوحدة حياتي (قال لاوروس). كنتُ أرسيني وأوستين وأمفروسي، والآن أصبحتُ لاوروس. حياتي يعيشها أربعةُ أشخاص مختلفين عن بعضهم البعض، ولديهم أجسام مختلفة وأسماء مختلفة. ماذا لدي من القواسم المشتركة مع صبيّ أشقر الشعر من بلدة روكينا؟ هل هي الذكريات؟ ولكن كلما طال عمري أكثر، بدت لي ذكرياتي خيالية أكثر. ولمْ أعد أصدِّقها، لأنها غير قادرة على أن تربطني بذلك الذي كُنْتُه في أوقات مختلفة. الحياة تشبه الفسيفساء وتتفتت إلى أجزاء.

- أنْ تكُون فسيفساء لا يعني أن تتفتت إلى أجزاء (أجاب الشيخ إنوكينتي). يبدو، عن قرب فقط، أن كل حجر منفصل لا علاقة له بالأحجار الأخرى. في كل واحد منها، يا لاوروس، يوجد شيء أكثر أهمية: إنه التطلع إلى مَن ينظر من بعيد. إلى مَن يمكنه تغطية كل الأحجار دفعة واحدة. هو بالذات مَن يجمعها بنظرته. وهكذا الأمر، يا لاوروس، في حياتك أيضاً. لقد أذبتَ نفسك في الله. لقد كسرتَ وحدة حياتك، تنازلتَ عن اسمك وعن شخصيتك. لكن حتى في فسيفساء حياتك ثمة ما يوحد جميع أجزائها المنفصلة؛ وهذا هو التوق إليه والسعي نحوه تعالى. ففي الله ستجتمع تلك الأجزاء مرة أخرى.

2- لاوروس: باللغة الروسية Лавр لافر وتعني شجرة الغار - المترجم.

-ط-

بعد ثلاثة أسابيع من رِسامة الرهبانية غادر لاوروس الدَّير وذهب يبحث لنفسه عن صومعة بعيدة منعزلة. كان هذا هو الطموح الداخلي للاروس، ولكنه حتى من طرف رئيس الدير والرهبان لم يلقَ اعتراضاً.

ومن المفارقات، أنهم شعروا مع رحيل لاروس بارتياح معيَّن لأن تدفق الناشدين للشفاء ينتهك حياة الدير المقرَّرة. وعلى الرغم من أن البوابة تُفتح للضيوف بإذن خاص، كان حشد المنتظرين عند الأسوار لا بدّ أن يزعج الرهبان.

حاول الرهبان ورئيس الدير أن يتفهموا الباحثين عن لاوروس. تذكروا كلمات الرب حول أنه: لاَ يُمْكِنُ أَنْ تُخْفَى مَدِينَةٌ مَوْضُوعَةٌ عَلَى جَبَل، وَلاَ يُوقِدُونَ سِرَاجاً وَيَضَعُونَهُ تَحْتَ الْمِكْيَالِ، بَلْ عَلَى الْمَنَارَةِ فَيُضِيءُ لِجَمِيعِ الَّذِينَ فِي الْبَيْتِ. والشيء الآخر هو أنّ الضوء هذا في دير جماعي السكن يمكن أن يكون ساطعاً جداً بالنسبة لأولئك الذين يعتقدون أن قوة الدير في المقام الأول في الصلاة الجماعية. وهكذا، ربما، بدا الأمر في الحقيقة.

خرج لاوروس من الدير، ولم يأخذ معه سوى رغيفٍ من الخبز. حاولوا إقناعه بأخذ المزيد لأنه لم يكن واضحاً ماذا ينتظره في الموقع الجديد، لكنَّ لاوروس قال:

- إذا ما نسيَني في ذلك الموقع الربُّ وأُمُّه الطاهرة، فما الحاجة بي إذاً هناك؟

وانطلق لاروس للبحث عن المكان الذي ستشعر فيه روحُه بالطُّمأنينة. سار عبر غابة الخريف الرطبة، من دون أن يتذكر اتجاه المسار. إذ لم يكن بحاجة لذلك، لأنه لم يتوقع العودة. لقد أدرك أنَّ حركته كانت بداية لمغادرة أخرى أكثر أهمية.

داس لاوروس على الأغصان شبه المتعفنة، وقد تكسَّرَت تحت أقدامه من دون طقطقة. وفي الصباح كان يلوح على الأوراق الصفراء صقيع أبيض. بحلول الظهر يتحول الصقيع إلى قطرات صغيرة، تلمع ببرود في ضوء الشمس. وكان لاوروس يشرب الماء من بحيرات الغابة السوداء. وفي كل مرة ما إنْ ينحني على الماء، حتى ترتفعِ إليه من الأعماق صورةُ رجلٍ عجوز هَرِم يشبه دمية، على كتفيه صُلبانٌ بيضاء. رفع لاوروس عينيه إلى السماء المسطَّرة بالأغصان وأشار لأوستينا على عجوز البحيرة:

«ينبغي أن نفترض أنَّ هذا العجوز هو أنا، لأنه لا يوجد هنا مَن تنعكس صورته في الماء غيري. إني أواصل العيش بك وأراكِ باقية على حالك، لكنكِ، يا حبي، ما كنتِ لتعرفيني الآن».

في بعض الأحيان يتبادر إلى ذهن لاوروس أنه رأى هذه الصورة المنعكسة من قبل، وأن هذا حدثَ قبل سنين كثيرة، ولكن متى رآها وتحت أي ظروف لا يستطيع أن يتذكر بأي شكل من الأشكال. ربما، فكَّر لاوروس، حدثَ ذلك في حلم، لأنه عند عرض الصور، لا يراعي الحلم ترتيب الأشياء الشرطية، التي أحدها الزمان.

كان لاوروس يكسر كل يوم قطعة من رغيف الخبز الذي أخذه معه، ولكنه مع هذا لم ينقص الرغيف. فاستغرب من هذا الأمر، وسأل الشيخَ إنوكينتي:

- اسمعْ، أيها الشيخ، ربما يُخيَّلُ لي أنني آكل؟

- إنَّك رجل بالغ، وإلى جانب ذلك أنت طبيب، وتفكِّر كطفل (غضبَ منه الشيخ). حسناً، أخبرني، كيف يمكن للبدن أن يعيش من

دون طعام؟ وفق أيّ قوانين بيولوجية؟ من الواضح أنك تأكل بالطريقة الطبيعية. القضية بشكل آخر، وهو أن الرغيف يزداد بالوزن كل يوم، وإلا فإنك لم تكن لتنجو بسهولة.

اطمأنَّ لاوروس لتفسير الشيخ إنوكينتي، وواصل حركته. رأى على الطريق العديدَ من الأماكن الجديرة بالاهتمام، لكنه لم يفضِّل أياً منها. في أحاسيسه الداخلية، كان يُدرِك في كل مرة أن هذه ليست النقطة النهائية في تجواله. بعض الأماكن كانت ضيقة للغاية. والأشجار فيها قريبة من بعضها البعض جداً وتكاد تلتصق الواحدة بالأخرى، ويمكن، وفقاً لما يراه لاوروس، أنْ تزاحم أي روح تسكن هنا. وبعض من الأماكن الأخرى كانت، على النقيض من ذلك، واسعة جداً، ومساحتها تتطلب جهداً كبيراً لاستصلاحها، أي تحويلها بواسطة الروح إلى مأنوسة. لقد قيل في إحدى رسائل كريستوفر أنَّ الشعب الروسي سيقوم بإخضاع الكثير من الأراضي، لكنه لن يكون قادراً على استصلاح هذه المساحات. ولأنّ لاوروس رجلٌ روسي، كان يخشى مثل هذا الانعطاف في الحوادث.

جالَ لعدة أيام، كثيراً، إلى درجة أنه في أجزاء أخرى من الغابة تعرَّف على شقوقه التي أحدثها في الأشجار. وذات ليلة رأى في المنام مكاناً على تل. كان ذلك مرجاً محاطاً بأشجار صنوبر طويلة. وعلى أطراف المرج نمت شجيرات، في أدغالها لاح كهف حجري. كانت أشعة الشمس تمر بحرية بين جذوع أشجار الصنوبر، مما جعل المكان مضيئاً وهادئاً.

بعد أن استيقظ لاوروس في الصباح، ذهب إلى هذا المكان. مشى من دون شكوك داخلية، سار بخطى واثقة لرجل يعرف الطريق. وفي نهاية النهار، وصل لاوروس إلى المكان المنشود. بدا له بالضبط كما رآه في الحلم. وبعد أن قرأ صلاة الشكر، قبَّل لاوروس الأرض التي عثر عليها، وقال:

- هذِهِ هِيَ رَاحَتِي إِلَى الأَبَدِ. ههُنَا أَسْكُنُ لأَنِّي اشْتَهَيْتُهَا.

وقال:

- اقبليني، أيتها الصحراء، كما تقبل الأم طفلها.

جمع حطب القشاش واقتلع الأعشاب، ووضعها في الكهف. وذهب للنوم هناك، وكان نومه هادئاً، كما في البيت الحقيقي. وفي الحلم كان سعيداً، لأنه يعلم أنَّ هذا هو منزله الأخير.

-ظ-

انشغل لاوروس لعدة أيام في ترتيب منزله الجديد. كان الكهف الذي استقر فيه عبارة عن صخرتين ملساوين كبيرتين، مغطَّاتَين بكتلة صخرية أكبر في الأعلى. وقد لامس أحدُ جوانبِ الصخرة الأرضَ، مشكّلاً جداراً ثالثاً مائلاً. وقد قام لاوروس نفسه ببناء الجدار الرابع. وما كان لديه من الأدوات سوى السكين التي أخذها من الدَّير.

لاحظ لاوروس بالقرب منه جذوع أشجار متساقطة، فجَرَّها إلى الكهف. وكان من بينها جذع سميك، تركه لاوروس وحتى أنه لم يقترب منه اقتراباً. وعندما أمسك بأحد الجذوع المتوسطة الحجم بيديه وحاول تحريكه من مكانه، لم ينجح حتى في تحريكه. وبعد أن استعاد وتيرة نبضات قلبه، فكَّر لاوروس بإرجاع سبب ذلك إما إلى ثقل الأخشاب أو إلى شيخوخته، وقرر أنَّ ذلك يعود إلى الشيخوخة.

وعند ذاك تناول السيقان الصغيرة الرقيقة التي سقطت أثناء سقوط الأشجار الكبيرة. سحب هذه الأشجار إلى الصخور، وطمر أجزاءها السفلى في الأرض وحشر أجزاءها العلوية إلى سطح الحجر غير المتساوي. ربط السيقان ببعضها البعض بحبال سميكة كان قد فتلها من نبتة الفيون المتسلِّقة الطويلة الرفيعة. وملأ الفجوات بين الجذوع بالعشب والطحالب. وحتى أنَّ لاوروس قد تمكن من صنع باب من الأغصان المتشابكة. لم يُعَلِّق الباب بمفاصل، بل أسنده إلى الفتحة إسناداً، ولكنه على كل حال وقاه من البرد ليس أسوأ من الباب الحقيقي.

وبعد بناء الجدار، أدرك لاوروس أن السيقان الرفيعة حتى هنا كانت الأنسب، لأن الجذوع السميكة ما كانت لتلتصق بعضها مع بعض بإحكام. وقال لأوستينا:

«إنَّ الأشياء السهلة التي تتناسب مع طاقة المرء هي الأفضل. وما يفوق طاقته، يا حبي، ليس مفيداً».

بنى لاوروس موقداً من الحجارة المتناثرة هناك. ولمّا أدرك أن شيخوخته قد حانت، لم يعد يعتمد على قوة جسده. ولكي يحافظ على الحياة في جسمه، جعل لاوروس في الأيام الباردة يشعل النار في الموقد. ثم بعد أن استقر في مكانه الجديد، بدأ يسخن الموقد مرة واحدة في الأسبوع. فقد كان في أيام السبت يشعل النار باستعمال أحجار الصوان ومادة الصوفان سريعة الاشتعال، اللتين يبقيهما دائماً جافَّتَين في تجويف اكتشفه تحت السقف. وكان لاوروس يشعل الموقد من الصباح حتى المساء، ويشاهد كيف يتصاعد الدخان الرطب ببطء من الأغصان التي جمعها في المدخل. وخلال يوم تسخين الفرن، تمتص أحجار الكهف الكثير من الحرارة لدرجة أنها تكفي حتى يوم السبت التالي. كانت دائماً تقريباً ما تكفي. وإذا ما برد الكهف قبل ذلك، يتحمّل لاوروس، ولا يغيّر موعد التدفئة.

أحبَّ لاوروس منزلَه. فقد كان يحميه من الرياح الشمالية الباردة، وبدا له فسيحاً بشكل غير متوقَّع. ففي الجزء الأقرب إلى المدخل يمكن للمرء الوقوف بطوله. وفي المكان الذي تدلَّتْ فيه بلاطةُ جرانيت، ينبغي الانحناء. وفي بعض الأحيان ينسى لاوروس الكتلة المتداعية ويضرب رأسه بقوة بها. فيمسح الدموع التي خرجت، ويتهم نفسه بالفخر وبعدم الرغبة في أن يحني رأسه. ثم يبتسم، ويفرح لأن دروس التواضع التي أُعطيت له كانت سهلة للغاية.

أدرك لاوروس أنه يُعامَل كطفل. لأول مرة منذ الطفولة يشعر بالاطمئنان. هَذِهِ هِيَ رَاحَتِي إِلَى الأَبَدِ، ظلَّ يكرّر مع نفسه، واندهش من

عمق طمأنينته. بدا له أنه يسمع ينابيع المياه تحت الأرض. وتنفَّس الغيوم في السماء. في حياته السابقة حدثت له الكثير من الأشياء، ولكن بطريقة أو بأخرى كل شيء حدث له مع الناس. والآن هو وحيد تماماً.

لم يتسلَّط على روحه شعورٌ بالوحدة، لأنه لم يهجس بأن الناس تركوه. فهو يشعر وكأنَّ كلَّ مَنْ قابلَهم موجودين معه. ويواصلون حياتهم الهادئة في روحه - بغض النظر عمّا إذا كانوا قد غادروا إلى العالم الآخر أو كانوا لا يزالون على قيد الحياة. إنه يتذكر كل كلماتهم وتنغيماتهم وحركاتهم. فكلماتهم القديمة تثير كلمات جديدة، إنها تتفاعل مع الحوادث اللاحقة ومع كلمات لاوروس نفسه. استمرت الحياة بكل تنوعها.

لقد تحركت بشكل عشوائي، كما ينبغي أن تكون عليه الحياة المتكونة من الملايين من الجُزَيْئات، ولكن في الوقت نفسه لوحِظَ فيها بعض التوجُّه العام. بدأ لاوروس يشعر أن الحياة تتحرك نحو بدايتها. ليس نحو بداية الحياة العامة التي خلقها الرب، بل نحو بداية حياته الشخصية، التي معها تكشَّفت له الحياة العامة.

بدأت أفكار لاوروس، التي كانت مشغولة في السابق بحوادث السنوات الأخيرة، تتوجه أكثر نحو السنوات الأولى من حياته. فأثناء المشي في الغابة الخريفية، جعل يشعر أحياناً أنَّ يده هي يد كريستوفر. فقد كانت خشنة ودافئة. وعندما تمعَّن في كريستوفر من أسفل إلى أعلى، تذكَّرَ لاوروس، أخيراً، أين رأى الوجه المنعكسة صورته في البحيرة. إنه كان وجه كريستوفر، الذي انتقل من الجدّ إلى الحفيد في شيخوخته.

قاده كريستوفر على طول دروب الحيوانات في الغابة، متوقفاً من وقت لآخر للراحة. وحدَّثه عن الأعشاب التي تغفو في هذا الوقت من السنة، وعن خصائص الجذور التي لامسها الصقيع. وحدثه عن طرق الطيور التي تنشد الجنوب هرباً من البرد، وعن حياتها الصعبة في أرض الغربة وعن قدرتها المدهشة في العودة.

- إنَّ العودة، يا لاوروس، ليست من خصائص الطيور وحدها، بل

حتى من خصائص الناس (قال كريستوفر ذات مرة). يجب أن يكون هناك نوع من الكمال في الحياة.

- لماذا تسمّيني لاوروس (سأله لاوروس). إنك تعرف اسمي أرسيني.

- ما الفرق (أجاب كريستوفر). هل تذكر، أنْت أيضاً أردت أن تكون طائراً؟

- أتذكَّر. وإنّي طرت لمدة قصيرة...

وعندما تعبَ الطفل، وضعه جدُّه في حقيبة على ظهره. وحمله إلى المنزل، وعلى خطى كريستوفر الرتيبة، أغمض الصبي عينيه. رأى في المنام أنه أصبح طائر خَرادر[3]. وبعد أنْ يأخذ ابتلاءات الآخرين، يطير في السماء وينثرها فوق الأرض. استيقظ من نومه على فراشه وكان الوقت ما يزال بعد ليلاً. وسمع الماء يقطر برتابة في زاوية الكهف.

3- خَرادر: في الميثولوجيا الأوروبية في العصور الوسطى، طائر أبيض ثلجي اللون جميل، قادر على التنبؤ بوفاة المريض أو استعادته لصحته؛ ذرْقه يمكن أن يشفي من العمى. المترجم.

-٤-

بحلول شهر نوفمبر (تشرين الثاني)، بدأت قطعة الخبز التي أخذها لاوروس من الدير، بالنقصان بشكل ملحوظ. ولاحظ لاوروس نقصانها، ولكن هذا لم يسببّ له أيّ قلق. لأنه يدرك جيداً: إذا كان وجوده على الأرض لا يزال يحمل مغزى معيَّناً، فلا بد أنْ يحصل على خبز يومه في موعده. وهذا ما حدث بالفعل.

ففي صباح أحد الأيام، سمع لاوروس خطوات حذرة قرب الكهف. ذهب إلى الخارج ورأى رجلاً يحمل رغيف خبز في يديه.

- قال الرجل: أنا الطحَّان تيخون وأحضرت لك خبزاً.

كانت ملابسه مليئة بالطحين، وكان عمره في حدود ثلاثين سنة. وبعد أن انحنى، أعطى الطحَّان تيخون لاروس الرغيف. فتناوله لاروس في صمت وانحنى هو أيضاً. وغادر الطحان.

في اليوم التالي عاد الرجل، وهو يقود زوجته، التي كانت تعرج بشدة، من يدها.

- قالت زوجة الطحان: سقط حجر الرحى على قدمي، ومنذ ذلك الحين لا أستطيع أن أطأ بها. وصحتي تتدهور يوما بعد يوم.

- كيف وصلتِ إلى هنا بهذه الرجل، إذا لم يحملك زوجك على ذراعيه؟ (سألها لاوروس). إذ يصعب الوصول إلى هذه المغارة حتى على الصَّاحين.

- الأمر ليس بهذه الصعوبة (قال تيخون الطحان)، لأنّ مغارتك، يا

لاوروس، لا تبعد سوى ساعة ونصف سيراً على الأقدام من بلدة روكينا. وقد رآك بعض المارّين في الغابة، والجميع الآن في البلدة يعرفون أنك تعيش هنا.

نظر لاوروس باهتمام في الزُوّار. وأدرك أنَّ طريقه الذي استمرَّ أياماً كثيرة لم يكن طويلاً بالفعل. وأنه ضلَّ طريقه، لكنه في المحصلة وصل إلى المكان الذي كان عليه أنْ يصله.

- ساعدْنا، يا لاوروس، قال تيخون الطحَّان، فهي تعمل مساعدة في المطحنة برجلها المريضة هذه.

سالت الدّموع على خديّ زوجة الطحان، لأنّها عرفت أنَّ الكلام لا يدور عن رِجلها، بل عن حياتِها. أشار إليها لاوروس أن تخلع المنديل الملفوف على قدمها التي تؤلمها. وعندما فعلت ذلك، جلس لاوروس القرفصاء عند رجليها. كانت القدم متورِّمة وبدأت تتعفَّن. وجعل يلمسها على مهل. أدار تيخون الطحان وجهه. ضغط لاوروس قدمها بكلتا يديه، فجأرت زوجة الطحان. ثم أعاد لفّ المنديل من جديد على الموضع المصاب.

- لا تبكِ يا امرأة (قال لاوروس). ستُشفى قدمُك، وستعودين للعمل في المطحنة، وستساعدين زوجك.

- وهل سيكون كل شيء كما كان في السابق؟ (سألت زوجة الطحان).

- كلا، لن يكون كل شيء كما كان من قبل (قال لاوروس)، لأنه لا شيء في العالم يتكرّر. وأعتقد أنكِ لا تريدين ذاك.

ثم انحنيا للاوروس وغادرا.

ومنذ ذلك اليوم بدأ الناس يأتون إليه من بلدة روكينا. فبعد أن شاهدوا أنَّ الناسك لاوروس ساعد زوجة الطحان المريضة، أدركوا أنه لنْ يتخلَّى عن مساعدتهم هم أيضاً، وبعد أن سمعوا حكاية الطحَّان عن كيفيَّة أخذ

لاوروس لرغيف الخبز منه وكيف شكره بانحناءة منه، بدؤوا يجلبون له الطعام. وفي كل مرة عندما كانوا يُحضِرون الطعام، يطلب منهم لاوروس ألا يفعلوا ذلك. ولكنهم، على كل حال، ظلوا يأتون إليه مرة بالخبز ومرة باللفت المسلوق، ومرة بعصيدة الشوفان في الأواني الفخارية. وتبين مِن قصة الطحَّان أنَّ جلبَ مثل هذه الأشياء لنْ يضر. بالإضافة إلى ذلك، يعتقد أهالي بلدة روكينا منذ زمان بعيد أن العمل المدفوع الأجر وحده يجلب النتائج الجيدة. حتى لو كان ذلك العمل هو العلاج.

وبعد أنْ أدركَ أنَّه من المستحيل عليه أن يرفض ذلك، بدأ لاوروس يتشارك الطعام مع الطيور والحيوانات. وجعل يكسر الخبز إلى قطعتين ويفتح يديه، فتوكِّر الطيور على يديه. تنقر الخبز وتستريح على كتفيه الدافئين. أما عصيدة الشوفان واللفت فعادة ما يأكلها دبٌّ. إذ لم يستطع العثور على وكرٍ مناسب للنوم، وكان هذا يسمّم حياته.

عندما يأتي الدبُّ إلى لاوروس كان يشتكي من الصقيع ونقص الغذاء واضطرابه العام. وفي الأيام الأكثر برداً، يسمح له لاوروس بالدخول إلى كهفه الدافئ، ويحثّ الضيفَ على عدم الشخير عند النوم وعدم تشتيت انتباهه عن الصلاة. واقترح عليه لاوروس نفسه أن ينظر إلى هذه الحالة كإجراء مؤقت. وفي نهاية كانون الأول (ديسمبر)، عثر الدبُّ لنفسه على وكر، فتنهَّد لاوروس وتنفس الصعداء وشعر بارتياح.

-غ-

بدءاً من ذلك الشتاء، أسقطَ لاوروس من حساباته الزمنَ الموجَّه للأمام. وصار الآن لا يشعر سوى بالزمن الدائريّ المُطْبَق المنغلق على ذاته – وقت اليوم والأسبوع والسنة. فقد كان يعرف كل أيام الآحاد في السنة، لكنه فقد حساب السنوات على نحو بائس لا أمل فيه. وفي بعض الأحيان كان الناس يخبرونه عن السنة الراهنة، ولكنه ينسى ذلك على الفور، لأنه منذ زمن بعيد لم يعد يرى قيمةً لتلك المعرفة.

لم تعد الحوادث في ذاكرته ترتبط بالزمن. بل انسابت بهدوء في حياته، بعد أن اصطفَّت في ترتيب خاص غير مرتبط بالزمن. وقد برز قسمٌ منها من أعماق التجربة، وظلَّ قسم آخر مطموراً في هذه الأعماق إلى الأبد، لأن تجربتها لم تؤدِّ إلى أيّ مكان. التجربة نفسها فقدت تدريجياً تميُّزها ووضوحها، وتحولت بشكل متزايد إلى أفكار عامة عن الخير والشر، خالية من التفاصيل والألوان.

من الإشارات إلى الزمن، التي ترددت في ذهنه وعلى لسانه في كثير من الأحيان، هي كلمة **ذات مرة**. فقد أحبَّ هذه الكلمة لأنها تغلبت على لعنة الزمن. إنَّ ذات مرة تؤكد على تفرُّد كلِّ ما حدث وتميُّزه. وذات مرة أدرك أنَّ هذه الإشارة إلى الزمن كافية بحدِّ ذاتها.

(ذات مرة) أُحضِرَت إلى كهف لاوروس النبيلةُ الإقطاعية يليزافيتا من مدينة نوفغورود. فقبل عدة سنوات، انزلقت وضُرِب رأسها بحجر. منذ ذلك الحين بدأت رؤيتها تتضاءل، وبعد مدة من الزمن لم تعد ترى

سوى الخطوط العريضة للأشياء. وقبل وقت قصير من قدومها إلى لاوروس، توقفت الإقطاعية يليزافيتا حتى عن رؤية تلك الخطوط.

عندما خرج لاوروس من كهفه، قالت يليزافيتا:

- ادهنْ عينَيَّ بالماء الذي تأخذه من النبع، حتى أستطيع أن أرى مرة أخرى.

تعجَّب لاوروس من إيمان الزائرة وفعلَ كما قالت. وفي تلك اللحظة نفسها رأت ملامح وجه لاوروس، وخلفه حركة المرافقين لها. وبدأت الإقطاعية يليزافيتا تشير بإصبعها إليهم وتدعوهم بأسمائهم. كما ذكرت أسماء الأعشاب والزهور التي نمت حول كهف لاوروس. في بعض الأحيان كانت تخطئ، لأنها كانت لا تزال على عينيها غشاوة، ولكن في ذلك الحين قد رأت الشيء الرئيس - الضوء. بين الحين والآخر كانت ترفع رأسها وتنظر من دون أن تضيّق عينيها في شمس الصيف الساطعة، ولم تؤلمها عيناها وكانتا تريدان التزوُّد أكثر بأشعة الشمس. وبحلول بداية الخريف عاد إليها بصرها كاملاً.

و(ذات مرة) أُحضِرَ إلى لاوروس عبد الله نيكولاي مربوطاً بسلاسل. أحضره عشرة رجال لأن عدداً أقل من الرجال ما كان قادراً على كبح جماحه والتحكم في حركته. لم يكن نيكولاي ضخماً، لكن الشياطين التي كانت ساكنة فيه أعطته قوّة عنيفة. كان مظهره فظيعاً. كان نيكولاي يجأر ويزعق ويقضم السلاسل التي تقيّده، مكشِّراً عن أسنانه التي كسرها الحديد. وثمة رغوة من الدم تزبد على شفتيه. وكان يحرِّك عينيه إلى الأعلى بعنف، بحيث لا يُرى منهما سوى البياض. وقد انتفخت على صدغيه وعلى عنقه عروق الدّم الزرقاء. لم يكن عليه من الملابس ثمّة شيء تقريباً، لأن كل ما يوضع عليه لباس، يمزقه إلى خِرَق. وعلى الرغم من الصقيع، لم يشعر بالبرد: فقد دفّأته القوى الغريبة التي تسكن فيه.

- اتركوه. (قال لاوروس لأولئك الذين يمسكون بنيكولاي).

فنظر أولئك بعضهم إلى بعض. بعد مدة وجيزة، ألقوا بالسلاسل

وابتعدوا عن نيكولاي. حلَّ الصمت. فلم يعد نيكولاي يعوي ولا يضرب بيديه. وقف شبه منحنٍ ونظر مباشرة في عيني لاوروس. كان فمه نصف مفتوح، يسيل منه اللعاب اللزج. تقدَّم لاوروس خطوة نحو نيكولاي ووضع يده على رأسه. وبقيا هكذا لبعض الوقت. كانت عينا لاوروس مغمضتين وشفتاه تتحركان. اقترب رأساهما ببطء، حتى لامس جبين لاوروس جبين نيكولاي.

- باسم مخلِّصنا يسوع المسيح أنا آمركم أنْ تتركوا عبد الله نيكولاي (قال لاوروس بصوت عالٍ).

أثناء هذه الكلمات مد نيكولاي يديه إلى لاوروس، وكأنه يريد أن يحتضنه. وتراخى جسده. وفي ظلّ رنين السلاسل، مال نيكولاي ببطء إلى الأرض. وتمدَّد على الثلج عند قدمَي لاوروس، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منه. كانت عينا نيكولاي مفتوحتان، مثل عينَي ميت، لكنه لم يمتْ.

- إنهم تركوه، وروحه في طريقها للشفاء (قال لاوروس). دعوه يرتاح حتى انقضاء الليل، وفي الصباح دعوه يذهب إلى تناول القربان المقدس.

ثم حُمِلَ نيكولاي إلى بلدة روكينا، ورقد من غير وعي نهاية ذلك النهار وطوال الليل. وعندما فتح عينيه في الصباح الباكر، كان قد شعَّ فيهما نور العقل، كما يليق بإنسانٍ يتقمص صورة الله. كان نيكولاي لا يزال ضعيفاً جداً، لأنَ مع خروج الشياطين منه خرجت القوة غير العادية التي كان يملكها.

وبصلواته وصلوات الآخرين، وجد نيكولاي في نفسه القوة للوصول إلى الكنيسة وتناوُل القربان المقدس. وبعد أن تناول القربان المقدس، شعر أنَّ صحته أحسن، لأنه مع دم وجسد المسيح دخلت فيه قوة جديدة. ومباشرة من الكنيسة، توجه نيكولاي يرافقه حشد من الناس، إلى كهف لاوروس.

خرج لاوروس لاستقبالهم وباركهم بصمت. وركع الجميع أمام لاوروس على ركبهم، لأنهم رأوا أن قوة هذا الرجل أقوى من قوة الشياطين. ثم سأل الجميعُ نيكولايَ لماذا، عندما اقتيد إلى مغارة لاوروس، قاوم بشدة وصاح بصراخ تجاوز الإمكانات البشرية في قوته. فأجابهم نيكولاي:

- إنكم ضربتموني، لحثّي على المجيء إلى هنا، وضربتني الشياطين، لتمنعني من القيام بذلك، ولم أعرف مَن منكم ينبغي أنْ أطيعه. ولأني ضُرِبْت من هؤلاء وأولئك، صرخت صراخاً مزدَوجاً.

اندهش الجميع مما حدث، ومجَّدوا الإله السماوي وسِراجه الأرضي لاوروس.

-ف-

في سنة المجاعة الكبيرة جاءت إلى لاوروس الفتاة أنَستاسيا، التي فقدت عذريتها. هوت ساجدةً أمام لاوروس وهي تبكي، وقالت:

- أشعر أنني حملت في بطني، ولكني لا أستطيع أنْ ألد من دون زوج. لأنه عندما يولد الطفل، سيدعونه ثمرة خطيئتي.

- ماذا تريدين، يا امرأة (سألها لاوروس).

- إنك تعرف، يا لاوروس، ما أريد، لكني أخشى أنْ أقول ذلك.

- أعرف، يا امرأة. وفي الواقع أنَّكِ تعرفين ماذا سأجيبكِ. لماذا أتيتِ إلي، أخبرني؟

- لأني لو ذهبتُ إلى العرّافة في بلدة روكينا، فإن الجميع سيعرفون بخطيئتي. لكني، أرجوك أن تصلّي، وسيخرج جنين خطيتي مِنّي كما دخل.

ارتفع بصر لاوروس على أطراف أشجار الصنوبر العليا وتلاشى في السماء الرصاصية اللون. وتجمَّدتْ رقاقات الثلج على رموشه. فالمرج كان مغطى بتباشير أول أوان سقوط الثلج.

- لا أستطيع أن أصلي حول هذا الموضوع. فالصلاة ينبغي أن تكون فيها قوّة إقناعٍ، وإلا ستكون من غير مفعول. وأنتِ تسألينني أنْ أصلي من أجل القتل.

نهضتْ أنَستاسيا ببطء. وجلست على شجرة ساقطة وأسندت خدَّيها على قبضَتَيها.

- أنا يتيمة، الآن وقتَ مجاعةٍ، ولن أستطيع إطعام الطفل. كيف لكَ ألّا تفهم هذا؟

- حافظي على الطفل، وسيترتب كل شيء. فقط ثقي بي، فأنا أعلم ذلك.

- إنَّكَ تقتلني وتقتله.

جلس لاوروس على الشجرة بجانب أنستاسيا. ومسَّد على رأسها.

- أتوسل إليكِ كثيراً.

أشاحت أنستاسيا عنه بوجهها. ركع لاوروس على ركبتيه وضغط برأسه على قدمَي أنَستاسيا.

- سوف أصلّي من أجلك ومن أجله كلّ ساعة. ليكن هو طفل شيخوختي.

- إنَّكَ تتخلى عني، لأنك تخشى أن تقتل روحَك؟ (سألتْه أنَستاسيا).

- أخشى أنني قد أكون قتلتُها بالفعل (قال لاوروس بهدوء).

وعندما غادرت أنستاسيا نظرتْ إلى لاوروس، وكان هو يبكي في هذه الأثناء. فشعرتْ بالأسى تجاهه.

-ق-

كان الشتاء شديد البرودة وصاقع. وهطل فيه من السماء لا الثلج، بل الغبار. غبار أبيض لامع، استقر على الأشجار والأحراش. في الواقع، لم تعد ثمة أحراش أيضاً. في البداية صارت كثباناً ثلجية، ثم اختفت الكثبان في الغطاء الثلجي الذي لا نهاية له، الذي انهال على الغابة. ومنذ بداية فصل الشتاء، قال لاوروس لأوستينا:

«يبدو لي، يا حبّي، أنَّ هذا هو أبرد شتاء رأيته في حياتي. أو، ربما، أنّ جسمي ببساطة لم يعد قادراً على مقاومة الصعوبات. وحتى لا يفارق هذا الجسد روحي قبل أوانه، سأحاول أن أسخِّن الموقد مرتين في الأسبوع».

ولكن لم يُتَح للاوروس تسخين الكهف مرتين في الأسبوع. فسرعان ما نفذ مخزون الحطب الذي حضَّرَه، وكان من الصعب العثور على الأغصان تحت الثلوج العميقة. فقد شق لاوروس طريقه في الثلج حتى صدره ووصل إلى أقرب شجرة وكسَّر أغصانها، ولكن هذا تطلَّب منه جهداً كبيراً. وجلب غصناً أو غصنين إلى الكهف، وظلَّ يلهث من التعب لوقت طويل. هوى لاوروس عاجزاً منهكَ القوى على مَضجَعِه، واستعادَ أنفاسه، المصحوبة بسعالٍ في الصَّدْر، بصعوبة. ولأنه بدأ يقتصد بالحطب، جعل يشعل النار في الموقد مرّاتٍ عديدة ولكن لمدّة قصيرة. لم تسخن الحجارة من طريقة التسخين هذه، فكان الجوُّ في الكهف دائماً بارداً.

الغذاء، الذي كان يُجلَب إلى لاوروس أحياناً من بلدة روكينا، شارَفَ على الانتهاء. في السابق عندما يُجلَب إليه الطعام، كان يرفض ذلك، قائلاً إنَّ لديه الكثير المؤونة. وفعلاً، في الصيف والخريف، كان ثمة الكثير من الأعشاب والجذور، بما يكفي لسد الرمق وللشبع، ولكنها الآن طُمِرَت تحت الثلوج وأصبحت غير سهلة المنال. وبسبب الثلوج العميقة، توقف المرضى أيضاً عن المجيء إلى لاوروس، وبالتالي توقفوا عن جلب الطعام. فقد نسوه في هذا الوقت العصيب - ليس نسيان الخبثاء القاسي، بل نسيان المعذبين القسري. إذ اجتمع الثلج مع الجوع، مما تسبب للجميع بالعسر.

حتى حلول منتصف الشتاء، لم يغادر لاوروس الكهف أبداً. فقد حافظ على القوة والدفء المتبقيين. وقد عثر في الزاوية البعيدة من الكهف ذات مرة على بقايا قطعة الخبز التي أحضرها معه في ذلك الوقت من الدير.

«قد لا يكون هذا الخبز بطراوته الأولى»، قال لاوروس لأوستينا، «وحتى أنه لم يبقَ منه الكثير، ولكن، في الحقيقة، لولا الانغماس في الشراهة لكان كافياً لبعض الوقت. ففي الحالات التي مثل حالتي، الشيء المهم، يا حبي، هو عدم الاندفاع مع الأهواء وكبح جماح النفس».

وبعد أن نجح في حل الصعوبات المتعلقة بالطعام، وجد لاوروس الإمكانية للدفء أيضاً. وبدأ يفكر في القدس.

فكان لاوروس من الصباح حتى الليل يتجول في شوارعها المشمسة، وحتى وهو غافٍ، يشم رائحة الحجارة الساكنة. ويمسِّد على سطحها الخشن. وتمنح الحجارة دفئها إلى يدَي لاوروس المتجمدتين، فلم يعد يشعر بالبرد. وفي اليوم الثالث من شهر فبراير (شباط) التقى على جبل الزيتون بالشيخ إنوكينتي. كان وجه الشيخ قد لفحته الشمس، الأمر الذي يدل بوضوح على أنه في القدس ليس لليوم الأول. وبدلاً من التحية، أشار الشيخ إلى جبل الهيكل وغنّى بهدوء:

- الآن دعْ عبدك يغادر، يا ربّ، وفقاً لكلامك، بسلام...

أنشدَ الشيخ إنوكينتي، بعد أنْ حَسَر عن رأسه، فحرَّكت رياح شباط الدافئة شعرَه الشائب. كانت تسبح في الهواء حشراتُ الأرض المقدّسة ورقائق الأعشاب الجافة التي انسلخت من منابتها، واختلطت بالغبار القديم للقدس ثم وقعت في عيون الحاضرين. فتلألأت الدموع في رموش الشيخ إنوكينتي. وفي هذه الأثناء أَغلَقَ فمه، وكانت الأنشودة ما تزال تتدفق على وادي الجوز. وعندما نظر لاوروس إليه، فكَّر وقال مع نفسه: «لا بد أنَّ سمعان الصالح كان بهذا الشكل في السنة الثلاثمائة والحادية والستين من حياته».

- نعم، فاليوم هو ذكرى سمعان الصالح (ابتسم الشيخ إنوكينتي)، ما لكَ، هل نسيتَ هذا؟ وكيف لا أغني التحرُّر القادم لي؟

- فهمتُ ذلك، ما إن رأيتُك تقترب (قال لاوروس). لقد فعلتَ ذلك بانعتاق. كرجل رأى كل شيء كان عليه أن يراه. في الحقيقة، لم أكن أتوقع مقابلتك هنا، ولكن هل ثمة أي مكان آخر يمكننا أن نتوادع فيه، أفضل من هذا المكان؟

عانق الشيخ إنوكينتي لاوروس:

- لا تحزن، يا لاوروس، لأنك لن تمكث طويلاً محتَجَزاً في إطار الزمن.

وقفا على قمّة الجبل. وشاهد لاوروس كيف تطفو خلف كتف الشيخ سحابة لا تسقط منها قطرة مطر.

-ك-

في الربيع أصبح واضحاً أنَّ المجاعة لن تنتهي حتى في السنة القادمة. ففي نهاية شهر مايو (آيار)، عندما جعلت الغلال تظهر من تحت الأرض، وأشجار الفاكهة تُزهِر للتو، ضرب صقيع شديد. جاء في منتصف الأيام الحارة واحتدم ليلة واحدة فقط. فأهلك كل ما كان يمكن أن ينمو ويزهر في تلك الليلة.

في بلدة روكينا كان ثمة الكثير من المصائب، إذ لم يتذكر أحد مثل هذا الصقيع في مايو (آيار). شبهه طحان البلدة بنفَس الشيطان، الذي يجمد كل ما يلامسه. إنَّ هذا التشبيه فتح عيون الكثيرين على الطبيعة الحقيقية لما حدث ووجههم نحو الاستنتاجات. فقد كان من الواضح أن مثل هذه الأشياء لا تأتي عن طريق الصدفة.

البحث عن الأسباب لم يكن طويلاً. فعلى الرغم من الملابس الروسية القديمة الواسعة، إلا أنه بحلول الربيع لم يعد سراً لأي شخص أن اليتيمة أنَستاسيا ارتكبت الخطيئة. عندما حدثت المصيبة، سُئِلَتْ عن والد طفلها مَن يكون، لكنها رفضت الإجابة. فلم يسألوها بعد ذلك، لأن الجواب كان واضحاً لجميع أهالي بلدة روكينا. والد الطفل هو مَن أهلكت أنفاسه الجليدية الغلال كلها وثمار الأشجار كلها. ولم يكن سوى مخرج واحد، لكن لا أحد يجرأ على أن يقولِ هذا المخرج، فالجميع، على كل حال، يعرفون كيفية التصرف هنا.

وفي ليلة مضيئة من ليالي شهر يونيو (حزيران)، اشتعلتْ النار في

كوخ أَنستاسيا المتداعي من أربعة جوانب. لم يكن أي واحد من سكان بلدة روكينا نائماً آنذاك، ولكن لا أحدَ منهم أخمد النار في الكوخ. الكثير منهم أجهش بالبكاء وجعل يصلي، لأنه، على الرغم من ارتباط أنستاسيا مع القوة الشريرة، شعروا بالأسى نحوها. وقد بدا للكثيرين أن الفتاة التي عاشت من دون والديها، وصارت فريسة سهلة للشيطان، لا يقع اللوم في خطيئتها عليها فحسب، بل على الظروف أيضاً. وما أعاق هؤلاء الناس في لطفهم المميز سوى الاهتمام بإنقاذ بلدة روكينا من الجوع. فقد أحاطوا بكوخ أنستاسيا لمنعها من الهرب، وجَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ حتى لا يسمعوا صرخات احتضارها. وفي ضجيج اللهب، لم يسمعوا صراخها.

عندما احترق الكوخ، قام أشجع أهالي البلدة بالحفر في الرماد بوتد من خشب الحور ليعثروا على ما تبقى من أنستاسيا. ولمّا لم يعثر أهالي البلدة على أي أثرٍ للمرأة المحروقة، تعزز الاعتقاد لديهم أكثر بذنبها، لأنه ينبغي أن يبقى من الإنسان البريء على الأقل شيء ما. فاقتنع الجميع بأنّ أنستاسيا اختفت، كما يختفي الدخان، وماتت، كما يذوب الشمع باسم النار وباسم أولئك الذين يحبون الله ويرسمون علامة الصليب.

لكن أنستاسيا لم تختفِ. فبعدما أدركت ما ستؤول إليه الأمور، هربت، في ليلة الحريق سراً من بلدة روكينا. وزاد في صعوبة هروبها الغثيان والدوار، ولكن الشيء الرئيس كان بطنها الثقيل، الذي يتململ فيه جنينها. وكان أصعب ما في الأمر أنْ ليس ثمة مكان تهرب إليه. لم يكن لديها في هذه الدنيا سوى العجوز لاوروس، الذي تنبأ بالنهاية السعيدة للحوادث. وتوقعاته، كما يبدو، (أنستاسيا مسحت دموعها على خديها) لم تتحقق.

ولمّا كانت أَنستاسيا تخدش وجهها ويديها بالأغصان التي تصادفها في طريقها، فقد وبَّختْ العجوزَ في قلبها لرفضه مساعدتها وكادت تتّهمه بأنه المسبب في متاعبها. وعندما اقتربت، بعد منتصف الليل بقليل، من

مغارة لاوروس، خرج الغضب من قلبها، والقوة من بدنها. ولم يعد لديها لا عتاب، ولا حتى دموع. جعلت أنستاسيا تلهث، وبعد ذلك سقطت على الأرض ونادت على لاوروس. ثم تقيّأت.

خرج لوروس من الكهف يحمل بيديه إبريقاً فخّارياً فيه ماء. غسل وجه انستاسيا ويديها.

- حاولوا إحراقي (همست أنستاسيا). إنهم يعتقدون أنّ ما في بطني من الشيطان.

نظر لاوروس بصمت إلى أنستاسيا. وكانت عيناه مليئتان بالدموع.

- لماذا أنت صامت، لا تتكلم، صاحت به أنستاسيا.

وضع لاوروس يده على جبينها، فشعرت أنستاسيا بقشعريرة.

-ل-

قسم لاوروس كهفه إلى نصفين. وقام هو وأَنستاسيا بجمع الأغصان وربطها ببعضها البعض بحبال مفتولة من النباتات المتسلِّقة، وصنعا بها جداراً داخلياً في الكهف. وشقّا في الجدار الخارجي مدخلاً، يمكن أن تستعمله أنستاسيا. وركَّبا إلى المدخل باباً من الأغصان التي فُتِلَ عليها السرخس. المدخل الثاني إلى الكهف، حاولا جعله غير مرئي.

في الأيام المشمسة، كانت أنستاسيا تتمشى خلف الكهف، ويقف لاوروس على الدرب الذي يأتي به الناس من بلدة روكينا. يستقبل المرضى في المرج أمام الكهف ويعطي علامة إلى أنستاسيا عند مغادرتهم.

«من الأفضل لهم ألا يروها»، يقول لاوروس لأوستينا. «لا أحد يعرف أبداً ما يدور في أذهان هؤلاء الناس: في رؤوسهم، يا حبي، ثمة الكثير من الظلام».

- تكلّم معي (تطلب أنستاسيا من لاوروس). إني لا أستطيع أن أتحمَّل الصمت طوال الوقت.

- حسناً، سأتحدث معكِ (ردَّ عليها لاوروس).

المرضى من جديد يجلبون الطعام إلى لاوروس، ولكن بكمية أقل بكثير من ذي قبل، لأنه في الضواحي المجاورة مجاعة. بالإضافة إلى ذلك، فقد اعتادوا على رفض لاوروس للأجر. لكن الآن لم يعد لاوروس يرفض. إنه يعالج المرضى ويقبل بامتنان ما يحضروه. يفاجأ

المرضى. إنهم يقولون في السنوات السابقة الوفيرة المحاصيل، لم يأخذ لاوروس أي شيء منهم، ولكنه الآن، في وقت المجاعة، يأخذ كل شيء، بما في ذلك اللحوم. المرضى يلاحظون بحزن أنَّ الصعوبات تغيِّر حتى الزاهدين ليس نحو الأفضل. إنهم منزعجون قليلاً، ولكنهم لا يُبدون له ذلك. فلاوروس يعيد لهم الصحة والحياة، اللذين لا جدوى بالطعام من دونهما.

لا يفسر لهم لاوروس أي شيء. فهو يعرف أن أنستاسيا بحاجة إلى أنْ تأكل جيّداً، ويراعي ذلك باهتمام.

- إني لم آكل قط بهذا الشكل الجيّد من قبل (تقول أنستاسيا).

- إنكِ الآن لا تأكلين من أجلكِ وحدك، بل أيضاً من أجل ولدك (يردّ عليها لاوروس).

- كيف تعرف أنّه فتى؟

ينظر لاوروس طويلاً إلى أنستاسيا:

- هكذا يبدو لي.

وفي أحد الأيام يقول لاوروس لأوستينا:

«ربما، يا حبي، سأعلّمها القراءة والكتابة، كما في السابق - هل تذكرين؟ - عندما علَّمتُكِ. ربما في وقت لاحق سيكون بمقدورها أن تقرأ ما لا يُقال لها في بلدة روكينا».

يبدأ لاوروس تدريس أنستاسيا القراءة والكتابة. تتعلَّم أنستاسيا القراءة والكتابة بسهولة تثير الاندهاش. لا توجد عند لاوروس كتب، لكن هناك لحاء شجرة البتولا، الذي يكتب عليه ما تقرؤه أنستاسيا. لكنه في كثير من الأحيان يكتب بعصا على الأرض. ولكي يكتب كلمة جديدة، يمسح الكلمة القديمة. وفي بعض الأحيان لا يمحو شيئاً.

الناس الذين يأتون إليه يرون هذه الكتابات، لكنهم لا يحزرون من أجل مَن يكتبها. إنهم يحاولون فقط ألا يدوسوا عليها. فهم لا يعرفون

ما هو المكتوب على الأرض بالتحديد، لكنهم يعرفون أن الأحرف السلافية مُقدَّسة، لأنها قادرة على تسمية المفاهيم المُقدَّسة. لم يروا حروفاً غير الحروف السلافية. يقومون بخطوات كبيرة بشكل مبالغ فيه ويتحركون حول النقوش على رؤوس الأصابع. سُئِلَ أرستيدس العادل: كم سنة يمكن للإنسان أن يعيش حياة طيبة؟ فأجاب أريستيدس: إلى أن يدرك أنَّ الموت أفضلُ له من الحياة. وهكذا يغادرون من دون أن يقرؤوا الحوار مع أريستيدس. ينحنون للاوروس ويتمنّون له عمراً مديداً.

- لا سمح الله (يجيبهم لاوروس بصمت).

قبل النوم، تطلب منه أنستاسيا أن يحكي لها قصة ما. يريد لاوروس أن يحكي لها عن رحلته إلى القدس، لكنه لا يستطيع أن يتذكرها. يفكر لمدة طويلة ويتذكر كتاب **الإسكندرية**. ليلة بعد ليلة يحكي لاوروس لأنستاسيا عن رحلات الملك المقدوني، وعن الناس المتوحشين الذين رآهم وعن معركته مع الملك الفارسي داريوش. تعاطفت أَنستاسيا مع حوادث حياة الإسكندر. ثم يندفعان جانباً إلى حوادث حياة أَنستاسيا، فتنام بهدوء. بينما ينام الإسكندر على الأرض الحديدية تحت سماء العظام. إنه حزين. فهو لا يعلم ما الدافع من جميع رحلاته تلك. ومن أجل أي شيء قام بتلك الفتوحات وأحرز تلك المكاسب. وإنه لا يعرف بعدُ أن إمبراطوريته سوف تنهار بين عشيّة وضحاها.

بعد أن تفتح أنستاسيا عينيها، قبل أن تنهض، تقول:

- يا لها من حياة غريبة عاشها الإسكندر. ما كان هدفها التاريخي؟

يتطلَّع لاوروس في عينَيّ أَنستاسيا ويقرأ فيهما أسئلته الشخصية. ثم ينحني على أذنها، وهي نائمة، ويهمس فيها:

- الحياة ليس لها هدف تاريخي. أو أنه ليس الرئيس فيها. يبدو لي أنّ الإسكندر فهم ذلك قبل وفاته فحسب.

في الصباح الباكر يوقظهم ضجيج أصوات. فيخرج لاوروس

من الكهف ويرى رجال بلدة روكينا. وبأيديهم المَذاري والخوازيق. ينظر إليهم لاوروس صامتاً. فيظلّون هم أيضاً صامتِين لبعض الوقت. وجوههم يتفصَّد منها العرق، وشعورهم شعثاء نازلةً على جباههم. كانوا في عجلة من أمرهم. ما زالوا يلهثون.

يقول أفيركي الحداد:

- كما تعلم، يا شيخ، في العام الماضي كانت ثمّة مجاعة. والسبب في ذلك هو ارتباط الفتاة أنستاسيا بالشيطان.

يُحدِّق لاوروس أمامَه، ولكن من غير الواضح ما إذا كان يرى شخصاً ما.

- أحرقْنا أناستاسيا، واصل الحداد أفيركي، لكن المجاعة لمْ تهدأ. ماذا يعني هذا، يا شيخ؟

يُحوِّل لاوروس نظره إلى الحدَّاد:

- هذا يعني أنَّ على عقولكم غشاوة.

- إنك، يا شيخ، غير محقّ. هذا يدل على أننا لم نحرقها.

- لم نجد حتى عظامها (يتنهد تيخون الطحان).

يتقدم لاوروس بضع خطوات نحو تيخون:

- هل زوجتك بصحة جيدة، يا تيخون؟

- نعم، بفضل الله (يجيب الطحان).

يلاحظ على حافة قميصه آثار الطحين ويبدأ في نفضه.

- لقد شوهدت أنستاسيا هنا (يقول أفيركي الحدّاد). رأينا كيف دخلت صومعَتك... إننا نعرف، أيها الشيخ، أنّها هناك.

ينظر الزائرون إلى الحدّاد أفيركي ولا ينظرون إلى لاوروس.

- لا أسمح لكم بدخول صومعتي، صدح صوت لاوروس عالياً.

- سامحنا، يا شيخ، فخلفَنا عائلاتُنا، قال الحداد أفيركي بهدوء. وسندخل صومعتك.

يذهب ببطء إلى الكهف ويختفي فيه. تُسمَع صيحة من الكهف. وبعد لحظة، يخرج الحداد أفيركي، ممسكاً بأَنستاسيا من شعرها الملفوف على قبضته الحمراء كأنه سنابل كتانٍ. تصرخ أنستاسيا وتحاول عضَّ أفيركي من فخذه. يضرب أفيركي وجهها بركبته. تصمت أَنستاسيا وتتأرجح على يد أفيركي. بطنها الكبير يترنَّح. بدا للواقفين أنَّ بطن أنستاسيا سينفصل الآن عنها ومن هناك سيخرج مَن يُفَضَّل عدم النظر إليه.

- استولى عليها الشيطان (صاح الواقفون).

إنهم بهذه الصيحات، يشجّعون أنفسهم، لأنهم لا يجرؤون على الاقتراب من أنستاسيا. لقد صُدموا بشجاعة الحدّاد الذي أمسك بها.

- الشيطان استولى عليكم أنتم (قال لاوروس، وهو يلهث)، لأنكم ترتكبون خطيئة القَتْل.

تفتح انستاسيا عينيها. إنهما مليئتان بالرعب. لقد كانتا تبدوان على وجهها المقلوب مرعبتَيْن إلى درجة أنَّ الجميع تراجعوا لا إرادياً. وسرعان ما استولى الخوف حتى على الحدّاد أفيركي أيضاً. فيدفع بأَنستاسيا بعيداً عنه. فتستلقي على الأرض بينه وبين لاوروس. يمسك أفيركي زمام نفسه ويلتفت بحدّة إلى لاوروس:

- إنها لم تذكر اسم والد ابنها، لأنه ليس من بين أهل الأرض الفانين!

تنهض أنستايا على كوعها. إنّها لا تبكي، بل تجأر. يدخل هذا الجُؤَارُ إلى آذان أولئك الواقفين إلى الأبد:

- هو ذا والد طفلي!

تشير بيدها الطليقة إلى لاوروس.

صمتَ الجميع وهدأت ريح الصباح، ولم تعد الأشجار تتحرّك.

- هل هذا صحيح، يسأل شخص من الحشد. قل لنا، يا شيخ، أنها تكذب.

رفع لاوروس رأسه وألقى على الجميع نظرة طويلة باهتة.

- كلا، ليس كذباً ما تقول.

شهق الجميع. وبدأتْ تيجان الصنوبر من جديد في التأرجح، وتحرّكت الغيوم. لاحتْ ابتسامة على شفاه أفيركي الحداد:

- آه، هكذا إذن...

بالكاد لوحِظَتْ ابتسامة أفيركي، وهذا ما أضفى عليها نوعاً من القباحة.

- هذا الأمر يحدث للجميع (يهمس تيخون الطحان في أذن أحدهم). على الإطلاق مع الجميع. ففي هذا المجال، كما يقولون، لا أحد في مأمن.

تشتَّتَ أولئك الذين جاؤوا بهدوء في الغابة. وتحوَّلتْ مذاريهم وخوازيقهم التي جلبوها إلى عيدان من شجرة صغيرة. وخفتت أصواتهم. ولم يعد بالإمكان تمييزها عن زعيق الطيور الحاد، وعن صوت احتكاك الجذوع بعضها ببعض. يذعن لاوروس لهذا التلاشي بشرود. فيجلس، ويميل بخدّه على جذع شجرة صنوبر كبيرة، تتكون قشرتها من عدة قطع تبدو كأنها منفصلة وملصوقة بعضها ببعض. القطع متغضّنة وخشنة، بعضها مغطًّى بالطحلب. والنمل يدبُّ عليها صاعداً ونازلاً. يزحف في الطحلب، وعلى لحية لاوروس. لا يميل النمل إلى تمييزه عن شجرة الصنوبر هذه، وهو يتفهم النمل. فهو نفسه يشعر بدرجة تخشّبه. لقد بدأ هذا بالفعل، ومن الصعب مقاومته. يمضي وقت قليل بعد، ولن يعود إلى ما كان عليه. وفجأة يسحبه صوت أنستاسيا الحي ويجرُّه خارج إطار التخشب.

- كان عليك أن تقول لهم أني كاذبة (تشكَّلَت الأصوات في الكلمات). إنّي كاذبة. كان عليك أن تقول لهم.

- وهل كذبتُ عليهم؟

ظهر الكثير من المتسكّعين، في الأيام اللاحقة، بالقرب من صومعة لاوروس. إذ سرعان ما شاعَ خبره هو وأنستاسيا، وصار سكّان الضواحي يأتون للنظر إليهما. فالفضوليّون لا يوقفهم حتى تزاحم ظروف حياتهم

المعيشية، لأنّ الرغبة في رؤية سقوط شخص آخر بالعين بالنسبة للكثيرين أقوى حتى من الجوع. إنَّ الحوادث المثيرة قليلة في العصور الوسطى، وما حدث للاوروس هو بلا شك أحد تلك الحوادث المثيرة، لأنه يعني مسألة سقوط أحد التُّقاة الأبرار.

سكّان القرى القريبة والبعيدة لم يسعدهم ما حدث، لكن ببساطة أنَّ حياتهم التافهة والمنغمسة في الخيانة والخصام بدت في أعينهم الآن أفضل قليلاً. إنهم يدركون أنه على خلفية مثل هذه الحادثة لا يُطلب منهم الورع كثيراً. وحتى أنَّ الكثيرين، في أحاديثهم، يتعاطفون مع لاوروس، وينوهون في هذا إلى أنَّ الارتفاع العالي لا بدّ أن يُهدِّدَ بمثل هذا السقوط العميق. ولذلك، ليس من المستغرب، أنهم لا يعزمون على الارتفاع عالياً في المستقبل.

وبعد أسبوع، قلَّ تدفق الزوار بشكل حاد. إذ أصبح الآن عددهم أقل بكثير مما كان عليه في السابق، في أوقات العسر. فعلى ما يبدو، كان للمجاعة دور كبير في هذا: في مثل هذا الوقت يفكّر الناس بصحتهم بشكل أقل.

ولهذا الأمر سبب آخر، وربما، هو الأكثر أهمية. فبعد كل ما حدث، فقدَ الكثيرون الثقة في قدرات لاوروس على الشفاء. كان من الواضح دائماً أنَّ قدراته، على عكس الأطباء العاديين، لا تعتمد فحسب على معرفة جسم الإنسان. فلاوروس لم يعالج - بل كان يشفي، والشفاء ليس له صلة بالتجربة والخبرة. فقد كانت موهبة لاوروس مستوحاة من القوى العليا، ويحركها نكران الذات وحب القريب الذي لا مثيل له. ولم يتوقع أحد (يضحك المتكلمون هنا ملء أشداقهم) أنّ هذا الحُبّ سينحو هذا المنحى. تكمن النية الحسنة لشائعات الناس في أنَّ الحقّ في الشفاء لا يُعترف به إلا للجدير الذي يستحقّ. ولاوروس لم يعدْ كذلك.

بقي بعض الناس يأتون إليه حسب العادة القديمة، لكنهم يأتون غير واثقين نوعاً ما وغالباً من أجل تفاهات. إذ ترتَّب على لاوروس

أن يتعامل مع ألم الأسنان ومعالجة الثآليل. وهناك أيضاً حالات أكثر خطورة، لكن حامليها أنفسهم لا يفهمون ما إذا كان الأمر يستحقّ تسليم مثل هذه الأمراض إلى أيدٍ غير موثوقة.

وحدث في هذه الأيام ما هو أسوأ: فقد أدرك لاوروس أنه لا يستطيع التعامل مع أبسط الأمراض. إذ جعل يشعر أن القوة الشافية لم تعد تأتي من يديه.

يقول لاوروس لأوستينا: «كل شفاء يولد في المقام الأول من الإيمان بهذا الشفاء. لكنهم لم يعودوا يثقون بي بعد الآن، وهذا، يا حبّي، يحطم علاقتي بهم. الآن لم أعد قادراً على مساعدتهم».

تغسل الدموع خدَّيه.

يعطي لاوروس لأنستاسيا الفتات الذي لا يزال يُجلب إليه. ومن دواعي سرور لاوروس أنَّ قطعة الخبز التي جلبها من الدير بقي منها شيء. إنه يأكل منها بامتنان وارتعاش.

منذ بداية شهر آب (أغسطس)، لم يأتِ أحدٌ إلى لاوروس. لا يثير هذا اندهاشَه. الجميع يدرك أنَّ الشفاء قد استُنفد وأنهم يعتبرون زيارة لاوروس عبثاً. ربما لا يزال البعض منهم يذهبون إليه، لكن المزاج العام ينتقل إليهم. فبعد ما سمعوا عن لاوروس في بلدة روكينا، صاروا يشعرون بالإحراج من المجيء إليه. إنهم يخشون من أن يبدوا سُذَّجاً، أو - ما هو أكثر إثارة للاشمئزاز - يبدوا ممن ينغمسون في الخطيئة.

يشعر لاوروس بالوحشة. إنه لم يعانِ من الوحدة عندما فرَّ من العالم، لأنه لم يكن لديه إحساس بالهجران. الآن العالم يتجنبه ويهرب منه، وهذا مختلف تماماً. لاوروس يشعر بالقلق. إنه يرى أن وقت ولادة أنستاسيا يقترب. وهو لا يعرف كيف ينبغي عليه أن يتصرف.

ينتاب القلق أَنستاسيا كذلك. فهي تشعر بخوف لاوروس ولكنها لا تعرف أسبابه. إنها مندهشة من كون الطبيب العظيم لاوروس قلق

كثيراً بشأن الولادة - التي مع كونها مسؤولية، لكنها، بشكل عام، مسألة اعتيادية. إذ اقترح عليها لاوروس عدَّة مرات أنْ تذهب لتلد في بلدة روكينا، حيث يمكن أنْ تتولى القابلة توليدها، لكن أنستاسيا ترفض رفضاً قاطعاً. فهي لا تعرف ما يمكن أن ينتظرها من أهالي بلدة روكينا. إنها تخشى العودة إلى هناك.

ثمة أيام تشعر فيها بالرعب من البقاء مع لاوروس. إذ يبدو لأنستاسيا أحياناً أن لاوروس قد فقد عقله. ففي بعض الأحيان يسميها لاوروس أوستينا. ويقول لها إنه لا ينبغي لها أن ترفض مساعدة القابلة. فإذا كانت تخشى الذهاب إلى البلدة، يجب استدعاء الجدّة إلى هنا. ويتصبّب لاوروس بالعرق وتأخذه رجفة. لم تره بمثل هذا الحال أبداً.

تستمع أنستاسيا إلى الكلمات الموجَّهة إلى أوستينا وتقول ذات صباح صحو من صباحات شهر آب (أغسطس) «نعم». إنها لن تذهب للولادة في بلدة روكينا، لكنها توافق على أن تأتي إليها القابلة من هناك. يضغط لاوروس يدها على صدره. فتسمع أنستاسيا كيف ينبض قلبه بيأس. إنها تشعر أن ساعة ولادتها ستحلّ قريباً.

لأول مرة منذ عدة سنوات يغادر لاوروس مكان عزلته. يسير في الدرب الذي داسته أقدام أولئك الذين كانوا يأتون إليه لطلب المساعدة. الآن هو نفسه يحتاج إلى المساعدة. وليس لديه مَن يرسله إليها، لأنه لم يعد أحد يأتي إلى هنا. يمشي لاوروس ويفكِّر كيف ستكون صحّة أنستاسيا في غيابه. يحاول أنْ يسرع، لكن أنفاسه تتشوَّش. قبل أن يدخل لاوروس إلى بلدة روكينا، يتوقف لمدة دقيقة ويأخذ نفَساً عميقاً. يُغمِض عينيه ويتنفس. لم يشعر بتحسن. يكبح خفقان قلبه، ويدخل البلدة.

يظهر الناس على أبواب المنازل. يحيطون بلاوروس بصمت. ولا يحيلون أبصارهم عنه. حتى بعد كل ما حدث، لا يصدِّق سكان بلدة روكينا قدومه. فهم يشعرون وكأنَّ دير القدّيس كيريل نفسه أتى إليهم. توجَّهَ لاوروس بالكلام إلى أهالي البلدة وأشار إلى الغابة. لم يكن

صوته مسموعاً بسبب الرياح الشديدة الهابة. إنه يطلب المساعدة. شفتاه تتحرّكان. يعرف أهالي البلدة أنه يطلب المساعدة، ولكن ليس ثمة أي مساعدة. القابلة الآن في سفرٍ. لم تغادر إلى أي مكان منذ ولادتها، لكنها الآن غادرت، هذا ما حدث. وليس هناك مَن يحلّ محلَّها، على الإطلاق. المسألة هنا لا تتعلق بعدم الرغبة.

يلقي لاوروس نظرة على الحشد ويجثو راكعاً أمامه. لا يقول أي شيء. فكل ما قيل دخل الآذان التي كان يعالجها. واستوعبته العيون التي عالجها أيضاً. إنه يطلب منهم النعمة التي أغدق بها عليهم على مدى سنوات عديدة. الكثير منهم يجهشون بالبكاء، لأن قلوبهم ليست من حجر. فالحقيقة أنّ الأمور سارت بشكل ليس فيه مروءة، ولكن ماذا عساهم أنْ يفعلوا؟ ها هم يشيحون بوجوههم، ويمسحون الدموع. إنهم يتطلَّعون بالضيف من الأعلى إلى الأسفل. يتأرجح مظهر لاوروس في عيونهم، ويغير شكله وملامحه. إنه ينهض، ثم يبتعد.

لا يدرك لاوروس على الفور أنه ذاهب إلى الكوخ. فقدماه ما زالتا تذكران هذا الطريق. فكم مرَّة سار به مع كريستوفر. هل يأمل في العثور عليه هناك؟ يبدو أنَّ كريستوفر قد مات منذ مدة طويلة. والمدة طويلةٌ إلى درجة لا يمكن التيقُّن فيها من أيِّ شيء بعد الآن. كلا، بالطبع، إنه مات ويرقد في المقبرة: فهو نفسه مَن دثَّر قبره بمعطف فرو الغنم. إذَن، لماذا يذهب إليه؟

كريستوفر في مكانه، في قبره. تلك السنوات كلها قضاها هنا. ولا يزال قبره واضحاً في الخضرة الكثيفة بالقرب من السياج. طبعاً، إذا كان هذا قبره بالفعل. بيت كريستوفر غير موجود. وكما تنبأ كريستوفر، شُيِّدَت كنيسة في مكان المنزل. الكنيسة في المقبرة أكثر أهمية من البيت، لأن المقبرة نفسها هي بيت.

باب الكنيسة مفتوح. قبل أنْ يدخل لاوروس، يستنشق رائحة أغسطس (آب). يحدّق في أوراق أشجار البتولا اللاغروية، التي تطرقت

إليها الصفرة الأولى، بعد أن أتعبها الصيف قليلاً. بقع ضوء الشمس على الدرابزين. وخيوط العنكبوت المنزلقة عن عمد. إنها العودة إلى البيت، لكن بيته صار بيت الله.

في الكنيسة الشموع مشتعلة. يخرج من البوابة الملكية أليبي، رئيس دير القدّيس كيريل. في يديه كأس القربان (الأفخارستيا).

- هل أتيت يا لاوروس؟

- نعم، جئت.

- لقد توفّي الشيخ إنوكينتي ولم يستطع مقابلتَك اليوم. (يتحرك أليبي ببطء نحو لاوروس). ولذلك طلب مني أنْ أقوم بذلك.

خلف ظهر لاوروس حفيفُ رياح دافئة. يتأرجح لهيبُ الشموع، فتنتعش الأيقونات وتشعّ بالحياة. وبعد أن يتناول لاوروس القربان المقدَّس يقول:

- الحقيقة، أنا لديّ طلبٌ أيضاً. عندما أغادر جسدي، الذي ارتكبت الخطيئة به، لا تقيموا له مراسم خاصة. اربطوه بحبل من الرجلين وجروه إلى أدغال المستنقع لكي تقطّعه عُسلان الفلوات وزواحفها. هذا، في الواقع، كل شيء.

يقف لاوروس عند مدخل الكنيسة، ويتأمّل في وجهه أليبي الحزين.

- هذه هي وصيتي (يقول لاوروس). وينبغي تنفيذها.

يعود لاوروس إلى كهفه في بداية الليل. بدأ المخاض يستولي على أنستاسيا. يضعها على السرير في الكهف ويجهز الماء لغسل الوليد. ويعد السكين لقطع الحبل السري للوليد. يشعل النار في المرج أمام الكهف. لاوروس هادئ. ويشعر من جديد بالقوّة في يديه.

أنستاسيا (أناستاسيا؟) لا تريدُ أن تستلقي في الكهف المظلم، وتطلب أنْ يرتِّب لها فراشاً في المرج. ينظر لاوروس إلى السماء. لا توجد سُحُب في السماء. توجد غيوم خفيفة، مزينة بلون غروب الشمس - لن يكون ثمّة مطر. يرتب سريرها في المرج. فتنام ووجها نحو الكهف. مَدْخَلا

الكهف يذكرانها بزوج من العيون الضخمة، مفتوحتين ومليئتين بالعتمة. الكهف مثل الرأس. إنها تطلب أن يساعدها كي تنقلب على الجنب الآخر. الآن تنظر إلى الغابة. الغابة عالية ولطيفة. إنها دافئة وهادئة.

- لا تبتعد عنّي (تطلب من لاوروس).

أنا هنا، يا حبّي (يردُّ عليها لاوروس). ونحن معاً.

يضع كفَّها في يديه، فتسري البرودة من خلاله إليها. ويأخذ ألمها في يديه. يمتصّه قطرة بعد قطرة. وفي بعض الأحيان ينهض ليرمي بعض الأغصان في النار. لا ترى في العتمة المقابلة لها سوى وجهه الذي أناره لهب النار. فبدت تغضُّنات تجاعيده تتحرك. الأغصان المحترقة في النار تتشقّق وتلقي بالشرر. الشرر يرتفع إلى أطراف تيجان الصنوبر العالية. قسم منه ينطفئ. والقسم الآخر يطير إلى الأعلى ليختلط مع النجوم الأولى التي بدأت تظهر. عيناها موجَّهتان صوب السماء، فترى كل شيء. تعكس عيناها وهجَ النار.

يضع لاوروس يده على بطنها.

- أليس الألم أخفّ الآن؟

- أخفّ.

إنها تصرخ. والغابة بأكملها تصرخ معها.

- تحمَّلي قليلاً، يا حبيبتي. قليلاً جداً.

إنها تتحمَّل. ومع ذلك تصرخ.

يدا لاوروس تتلمَّسان رأس الطفل. يبدو وكأنه يلتصق بيديه ويخرج بلطف. ثم الكتفان والبطن والركبتان والكعبان. يقطع لاوروس الحبل السري. ويغسل الوليد بالماء الدافئ.

- ها هو، يا حبي.

إنّه يريها الطفل، والدموعُ تتلألأ على طيَّات خدَّيه. يبدو الطفل على ضوء لهيب النارورديّ اللون بشكل لا يُصَدَّق. فربما لم يُغسَل ويُنَظَّف تماماً من دمها. يملأ الصبي رئتيه بالهواء ويصرخ. تمتصُّ بكاءه

هذا كله من دون أن تُبقي منه شيئاً. تضع الطفل على صدرها. عيناها نصف مغمضتان. فلأول مرة منذ عدة أيام تشعر بالهدوء. إنها تغفو. يقوم لاوروس على العشب الناعم والدافئ بلفِّ الوليد بمنديل نظيف. ويرفعه على يديه. فيشعر لاوروس كذلك بالطُّمأنينة والهدوء.

في الصباح الباكر، تستيقظ أنستاسيا بسبب البرد. فقد خمدت النار. لاوروس جالس على ركبتيه ويستند بظهره على شجرة صنوبر. يحمل الطفل على يديه. الطفل يتنفس بشكل مستقر. فهو يشعر بالدفء في حضن لاوروس. أخذت أنستاسيا الطفل من يد لاوروس، ثم أعطته صدرها. يستيقظ الطفل ويتلمَّظ بشفتيه ثم يمتصّ الحلمة بشراهة.

عَيْنا لاوروس مغمضتان. تسقط على جفنيه أوائل خيوط أشعة الشمس. تنزلق الأشعة من خلال أبخرة الصباح. تتوهّج إبر أشجار الصنوبر. الظلال طويلة. الهواء كثيف، لأنه لم يفقد بعد رائحة الغابة المستيقظة للتو. الطحلب ناعم. ومليء بمخلوقات، منزلها ورقة، وحياتها يوم. تجثو أنستاسيا على ركبتيها أمام لاوروس وتتطلَّع فيه طويلاً. تلمس بشفتيها يديه. يده فاترة، لكنها ليست باردة بعد. أنستاسيا تجلس إلى جانب لاوروس. وتلتصق به. تعرف أنستاسيا أنّ لاوروس ميت. لقد أدركت هذا في المنام.

– لقد شغلني النوم ولم أشهد وفاتَك (تقول أناستاسيا للاوروس)، لكنّ طفلي ودَّعَك.

يمشي يوحنا رئيس أساقفة روستوف وياروسلافل وبيلوزيرسك على طول شاطئ بحيرة نيرو. فهو كثيراً ما يتمشّى هناك قبل خدمة القُدّاس الصباحية. إنها أعمق بحيرة في العالم، ولكن المياه النقية فيها موجودة على السطح فقط. ولكونها عميقة وطميّة، فإنها لا تطلق أي شخص يقع فيها. يوحنا يعرف هذا. إنه معجب بعمق البحيرة، ومدرك لخطرها. ولأنه يجاري الاسم الذي حصل عليه، فهو لا يخاف من الأعماق، لكنه لا ينصح الأطفال الروحانيين أن يغادروا

الأرض الصلبة. اندهش يوحنا عندما رأى رجلاً ينزلق على سطح البحيرة.

- من أنت، أيها الماشي على الماء؟ (سأله يوحنا رئيس الأساقفة).

- عبد الله إنوكينتي. أُبلغك بوفاة عبد الله لاوروس.

- كنْ أكثر حذراً في الأعماق (يهز يوحنا رأسه).

من خلال ابتسامة إنوكينتي يفهم يوحنا أنَّ نصيحته زائدة عن الحاجة. بهذه الابتسامة يأتي إنوكينتي في حلم جميل لأسقف بيرم وفولوغد بيتيريم. يخبره بوفاة لاوروس.

- اطلبْ منهم ألّا يدفنوه (يقول الأسقف بيتيريم للشيخ إنوكينتي).

- لا تقلقْ، أيها الأسقف (ردَّ عليه إنوكينتي، لأنهم لن يدفنوه).

تأخذ أنستاسيا الطفل وتذهب به إلى بلدة روكينا. يتجمَّع حولها أهل البلدة. تخبرهم أنستاسيا عن موت لاوروس. وتُعلن أنَّ الأب الحقيقي لطفلها هو الطحّان تيخون، الذي منعها من قول ذلك تحت التهديد بالقتل.

- إذا كانت المعلومات صحيحة، (يقول أهل البلدة لتيخون)، الأفضل أنْ تعترفْ، لأنه في هذه الحالة تشهيرٌ برجلٍ صالح ويوم القيامة لنْ يكون حسابُك سهلاً.

يرفض تيخون الطحَّان الاعتراف لبعض الوقت. يظلُّ صامتاً، محتاراً بين المحكمة الدنيوية والمحكمة السماوية. وبعد أنْ جعَل يفكِّر ويزِنُ في عقله كل ما يتعلق بالأمر يقول الطحان:

- أعترفُ أمام الجميع أنّي، قد عرضتُ على أنستاسيا الطحين أيام المجاعة وتحرشت بها، وكذلك أعترف بأنّي لمّا خِفتُ الفضيحة هدَّدْتُها بالقتل، على الرَّغم من أنّنا إذا أمعنّا التفكير في ذلك، من كان سيصدق بها؟ وأرى أنَّ السبب في سقوطي هو شباب الفتاة ونضارتها، إضافة إلى حالة زوجتي الصحيّة السيّئة، التي عالجَها المرحوم لاوروس وشفَاها.

يصل أليبي رئيس الدير إلى بلدة روكينا. إنه كئيب. لم يسمح أليبي بلمس جسد لاوروس قبل وصول الأساقفة. وبعد انتهاء القدّاس، مُنع سكان البلدة ممن هم بعمر يزيد على سبع سنوات من تناول القربان المقدس. ينزعج أهالي البلدة. ويغادر أليبي المكان.

خبر وفاة لاوروس ينتشر انتشار النار في الهشيم. وهذا ما شعر به في المقام الأول أهالي بلدة روكينا، حيث سرعان ما اكتظت أكواخهم. ولم يعد ثمة مكان فارغ حتى في القرى المجاورة. وبعض الوافدين يبنون أكواخاً من الأغصان في الضواحي المجاورة. وبعض منهم بسبب وقت الصيف يقضون الليل تحت السماء المكشوفة. يعلم الجميع أنه عند دفن رجل صالح، ربما، تظهر معجزات.

يَقْدِم المُقعَدون والعميان والعرجان والبرصان والصم والبكم واللُثْغُ. ويُحمَل الواهنون من مختلف الأماكن، بما في ذلك المناطق البعيدة. ويُجلَبُ الممسوسون، الذين قُيِّدوا بالحبال أو بالسلاسل. ويأتي الأزواج العاجزون والزوجات العقيمات، وغير المتزوجات والأرامل والأيتام. ويأتي الكهنة ورجال الدين، ورهبان دير القدّيس كيريل، وأمراء الإمارات الكبيرة والصغيرة، البويار (النبلاء) وحكام المدن وقادة المحاربين. ويجتمع أولئك الذين عالجهم لاوروس من قبل وشفاهم، وأولئك الذين سمعوا عنه كثيراً لكنهم لم يروه أبداً، وأولئك الذين يريدون أن يروا أين سكن لاوروس وكيف عاش، وكذلك أولئك الذين يحبون التجمعات الكبيرة للناس. إذ يبدو لمَن شهد الحادثة أن البلاد الروسية كلها تجتمع هنا.

جثة لاوروس ما تزال ملقاة تحت شجرة الصنوبر عند مدخل الكهف. لا تبدو عليها أي آثار للتحلُّل، لكن الذين يحرسونها في حالة تأهُّب. فكل ساعة يأتون إلى الجثة ويشموا الرائحة المنبعثة منها. مناخرهم ترتعش من الحماس، لكنهم لا يشمّون سوى رائحة الأعشاب وأقماع الصنوبر. يملأ الحرّاس المرج بدوي صيحات الدهشة لكنهم في أعماق أنفسهم يعلمون علم اليقين أن هذا ما ينبغي أن يكون عليه الأمر.

في 18 أغسطس عام 7028 من الخليقة، عام 1520 - من ميلاد المسيح، عندما وصل عدد الوافدين إلى مائة وثلاثة وثمانين ألفاً رُفعت جثة لاوروس من الأرض وحُمِلَت بعناية عبر الغابة. صاحَبَ نقل الجنازة تغريد للطيور. جثة المتوفى خفيفة. الوافدون المائة والثلاثة والثمانين ألف ينتظرون على مشارف حدود الغابة.

عندما ظهرت جثة لاوروس من الأكمة، جثا الجميع على ركبهم. ركع في بداية الأمر أولئك الذين رأوها، ثم - صفاً بعد صف - كل أولئك الذين في الخلف. تناول الجثة الأساقفةُ والرهبان. حملوها على رؤوسهم، فانشقَّ الحشدُ أمامهم، كالبحر. وجهتهم كانت نحو الكنيسة التي بُنِيَت على موقع منزل كريستوفر. هناك يجري قدّاس الجنازة. عشرات الآلاف ينتظرون بصمت في الخارج.

لم يكن بمقدور الحشد سماع القدّاس في الكنيسة. في البداية لم يسمعوا حتى الكلمات التي نطق بها أليبي رئيس الدير في شرفة الكنيسة: قَرَأ وصيةَ لاوروس. ولكن هذه الكلمات التي نطق بها أليبي تنتشر في الحشد وتتوسع كالدوائر التي يُحدِثُها حجر عندما يلقى في الماء. وبعد دقيقة صمتَ البحرُ البشري، لأنه حدثَ شيء غير مسبوق.

في صمت تامّ تُنقَل جثة لاوروس من خلال الحشد. تُوضَع على حافة مرج أخضر في العشب. يتدفق العشب بلطف حول لاوروس، معبِّراً عن استعداده لاستلامه بشكل كامل، لأنه ليس غريباً عنه. في هذا المرج أشار كريستوفر للمرحوم إلى التقاء قبة السماء مع الأرض.

تُربَط رجلا لاوروس بحبل تخرج منه نهايتان. تُسمع صرخات في الحشد. يندفع شخص ما لفلِّ الحبل، ولكن على الفور يُكَتَّف ويُسحَب إلى الحشد. لو نظرتَ من الأعلى لتصوَّرتَ الموجودين هناك عبارة عن مجموعة من النقاط غير المرئية، ولا أحد يمتلك امتداداً سوى لاوروس.

يقترب يوحنا كبير أساقفة روستوف وياروسلافل وبيلوزيرسك من

أحد أطراف الحبل. ويقترب بيتيرم أسقف بيرم وفولوغدا من الطرف الآخر من الحبل. يركعان ويصلّيان بصمت. ويأخذان طرفي الحبل بأيديهما، يُقبّلانهما ويعدِّلانهما. وفي الوقت نفسه يرسمان إشارة الصليب. ويشطفان أطراف أرديتهما الكهنوتية ونهايات لحاهما باتجاه واحد. تشوِّه الرياح تناسق قوامهما بالتساوي، إذ امتد كلاهما إلى اليمين. عملهما يتضاعف. ونظراتهما تتجه نحو الأعلى.

رئيس الأساقفة يوحنا يومئ برأسه بشكل لا يكاد يُلاحَظ، ويخطوان خطوتهما الأولى. هذه الخطوة تتبعها خطوات حشد لا حدود له. يقطع ضجيج الريح تأوّه الحشد الذي لا نهاية له. تختلج يدا لاوروس على صدره وتنفرجان، وكأنهما تريدان أن تحتضنا أحداً. وتمتدان خلف جسده. تلامس أصابعه العشب، كما تلامس المسبحة. يرتجف جفناه، فيبدو من هذا للجميع أن لاوروس مستعدٌّ للاستيقاظ.

يعلو النحيب من السائرين خلف الأساقفة. ومع كل لحظة يصبح صوت النحيب أعلى. ثم يتحول إلى عواء مستمر يندفع فوق كل الفضاء المأهول. يواصل يوحنا وبتيريم حركتهما في صمت. وتحمل الريح دموعهما إلى الطرف الآخر من المرج.

ينزلق لاوروس بلطف على العشب. أول من يسير خلفه هو غافريل حاكم بسكوف. بدا بائساً قد اشتعل الرأس منه شيباً، وضعيفاً يُقاد من يديه. إنهم يجرُّونه جرّاً تقريباً، لكنه ما زال على قيد الحياة. يسير خلف غافريل البويار المسكوفي فرول مع زوجته أغافيا مع أطفالهما. عددهم يزيد كل عام. بعد ذلك، الإقطاعية يليزافيتا، التي أبصرت، وكذلك عبد الله نيكولاي بعقله الصحيح وذاكرته الرصينة. وخلفهم الكثير من الذين أبصروا ومن الذين استعادوا عقولهم. في نهاية الموكب، يُرى التاجر سيغفريد من دانزيغ الذي جاء إلى هنا لأعمال تجارية، والحدّاد أفيركي الذي يخجل من تصرُّفاته.

- أي نوع من الناس أنتم، يقول التاجر سيغفريد. الرجل يعالجكم

ويشفيكم، ويكرّسُ لكم عمرَه كله، وأنتم طوال حياتكم تعذّبونه. وعندما يموت، تربطونه من رجليه بحبلٍ وتسحبونه. (ثم أجهش في البكاء).

- لقد مضت عليك في بلادنا مدة عام وثمانية أشهر (يجيبه أفيركي الحداد)، لكنك لم تفهم أي شيء فيها.

- وأنتم أنفُسَكم هل تفهمونها (يسأله سيغفريد).

- نحن؟ (يتأمَّل الحدّاد وينظر في زيغفريد). نحن أنفسنا، بالطبع، لا نفهمها أيضاً.

الفهرس

هـذه الروايـة تتنـاول الأفعـال القاسـية والظواهـر الخارقـة فـي التاريـخ العـام. تعـود حـوادث الروايـة إلـى القـرن الخامـس عشـر والقـرن السـادس عشـر، إي إلـى حقبـة نشـوء الدولـة الروسـية الخديثـة، التـي بـدأت تُكتَـبُ فيهـا الحـوادث التاريخيـة بشـكل موثـوق. ومـع ذلـك، يتجـاور الماضـي والمسـتقبل فـي بنيـة النـص ويتداخـلان بشـكل خفـي: طوبولوجيـا الوقـت لا تتطابـق مـع التسلسـل الزمنـي للحـوادث. لا يضيـع القديـم فـي سـياق الحـوادث، بـل يتداخـل فـي الجديـد. وسأُشَـبِّه حركـة الوقـت بالدوامـة. إنـه التكـرار، ولكنـه علـى مسـتو جديـد أعلـى. أو، بصـورة أدق، تجربـة جديـدة، ولكـن ليـس مـن صفحـة فارغـة. بـل تحمـل معهـا ذاكـرة الماضـي المُعـاش. وهـذه الرؤيـة لترتيـب الأشـياء تغيّـر مكانـة الإنسـان فـي العالـم، واتجـاه الأفـكار فـي الشـخص. إذ يتقـارب ديالكتيـك هيجـل مـع تصـوف رؤيـا القديـس يوحنـا عـن نهايـة العالـم فـي وعينـا غيـر الواضـح فـي فكـرة واحـدة لنهايـة التاريـخ، وأمـل واحـد فـي عـودة الوقـت الضائـع كلـه إلـى الأبديـة.

هـذا النـص هـو بمثابـة جسـر بيـن العالـم القديـم والعالـم المعاصـر. إنـه يعيـد إلـى الـدورةِ الروحيـةِ القيـمَ الأبديـة للقناعـة المرتبطـة بتعاليـم القديـس نيلـوس الصُـوري وشـخصيته. ويِدفـع بصرنـا الداخلـي نحـو نـور اللـه، نحـو البصيـرة الصوفيـة والمتصوفيـن الروسـيين. إنَّ مقاربـة المؤلـف لسـرِ التصـوف الروسـي هـو اطـلاع للقـارئ علـى المعنـى الخفـي للأرثوذكسـية الروسـية. وإنَّ تطرقـه لهـا هـو أعمـق مـن أي كلمـات. وقـد ولِّـدت إجابـة فـي رأس السـائل نفسـه، لأن مَـن يطـرح السـؤال غالبـاً مـا يعـرف الإجابـة، برغـم أنـه لا يعتـرف بهـا دائمـاً لنفسـه. فعندمـا يتخلـص الشـخص الـذي يبحـث عـن ذاتـه مـن الفائـض فـي نفسـه، يتجلـى لـه أهـم شـيء بوضـوح أكبـر: ألا وهـو - صـورة اللـه.

إنـه كتـاب واضـح وسـاطع، مثـل أيقونـة. أتمنـى أن يكـون مـا قلتـه كافيـاً لإثـارة اهتمـام القـارئ حتـى يجـد الوقـت الملائـم ويجهـد نفسـه فـي قـراءة الأربعيـن صفحـة الأولـى علـى الأقـل؛ ثـم يُكمِـلُ قـراءة الصفحـات الأربعمائـة المتبقيـة مـن تلقـاء نفسـه، لأنـه سـيجد المتعـة فيهـا.

تمارا اليكسانوفا-ناقدة روسية


ISBN 978-2843092107
9 782843 092107

لوحة الغلاف: Зощенко Михаил Иванович